جاك بيرك

أستاذ في كوليج دي فرانس
مدير في معهد الدراسات العليا

١ - العرب
٢ - إسلام المغرب - تاريخ -

العرب

من الأمس إلى الغد

نقله عن الفرنسية
الدكتور علي سعد

دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقياً (كتالبنان)
هاتف ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٤٠٢ هـ
١٩٨٢ م

المقـدمـة

قد يبدو أن المدلول المعطى هنا لاسم العرب يشكو من علتين : التجـاوز والتقصير . ففيه تجاوز عندما يشتمل ، رغم فوارق الأصل واللون والمصير ، على جميـع الذين يريدون انفسهم أو يحسون انفسهم عرباً ، اعني انهم عرب في هـذه المناسبة او تلك ، على هذا الصعيد او ذاك من حياتهم .

لماذا اذن استبعدت اهل المغرب ؟ ذلك ان المغرب الذي انتمي اليـه بما هو أوثق من روابط ابحاثي ، مدين لعبقريته الخشنة وتشنجات آلامه بطرافته التي آمل ان يوضحها كتاب مقبل .

وعلة كتابي هذا ايضاً ـ التقصير من حيث انه يهتم خاصـة بالاراضي العريقة التي ترسم ، من الاقصر الى البصرة ، قوساً دائرياً مركزه الصحراء ويستهدف سهمه فرنسا .

ولكن ما يبرر ذلك هو ان البلدان العربية التي سوف يتردد الحديث عنها ، هنا ، اكثر ما يكون الحديث ، لبنان والعراق والجمهورية العربية المتحدة هي تلك التي شرع فيها ببناء المستقبل وبتصوره . وانني ، كذلك ، اعرف هذه البلدان اكثر من غيرها ، معرفة من زارها وتردد اليها ، وأحبها ، ولانها تبعث في نفسي ، خلف كل واقعـة وكل اسم ذكرى تلك المشارف من حياتي المعاشة التي لا غنى للتحليل عنها .

وبالطبع ، اكون ، بذلك ، قد تخليت عن المآثر الكلاسيكية للتبحر العلمي الداعي للانقطاع والاعتزال . ولكن بالمقابل ، اكون قد أتحت قياس حقل الدراسة بمقاييس النهج . وفي الواقع ، فقد شئت ألا استند إلا على التسجيل الشخصي او على المصادر المحلية ، اي على ما هو مباشر ومجرّب . وكذلك على ما ورد في حوار ، بحيث ان اكثر الوقائع الملتقطة او الآراء الواردة رأساً من مقلع الأهواء الذي تولدت فيه والذي لا ينبغي تجريدها منه مثلما لا يسعنا ان نسلخ تاريخ الشرق عن مناظره المرئية .

وهكذا ، فان الدقة او الامانة التي كنت اطمح اليها تشتمل ليس فقط على فجوات في المدى المعني وانما اخطارها الخاصة بها . ففي سعيي وراء الموضوعية ، لصق الوقائع والافكار ، كان حتماً عليّ ألا ألحظ الا النسبة بين شخصين : الشرق العربي ، مثلما حُدد بصورة كيفية ، والغرب الذي يستدعي تحديده ، هو ايضاً ، بعض التحفظات .

فهذا الغرب ، هو ذلك الذي اختبره تاريخ العرب المعاصر ، منذ قرن ونيف . في الاساس : الصدام الفرنسي الانجليزي عند منطلق الشوط ، والتنافس بين الكتل الكبرى ، عند نهايته . انه الغرب حامل الماكينات ولغة التخاطب ، واعمال اللصوصية والوعي . انه ذلك الذي يبني ويهدم ، والذي يشد الناس بجاذبيته ويحملهم على كرهه في آن واحد . وقد كانت روسيا القيصرية حامية الارثوذكس ، تشارك في هذا الدور ، مثلما تشارك فيه اليوم روسيا السوفياتية ، بطلة سياسة ، ان كانت تتنافس مع سياسة دول الاطلسي لا تقل عنها تحدراً من ينابيع الحضارة الفنية ذاتها :

ومما لا شك فيه ان على التاريخ الوقائعي ، وحتى على التاريخ الاجتماعي ان يرسما قواعد محسوسة للتمييز بين هؤلاء الفرقاء . فالاتحاد السوفياتي لم يعد فقط ، حتى في نظر الحياد الايجابي ، قوة للتعادل مع الاندفاع الاميركي ، وأحد

الثقلين في لعبة التوازن الشبيهة بتلك التي عرف الباب العالي كيف يلعبها زمناً طويلاً ، بين الدول الكبرى . فخلف اللاعبين السياسيين الكبار تنتصب اليوم مفاهيم للعالم واساليب في السلوك العملي تغزو الشعوب من داخل ، بالرغم من الدبلوماسية التقليدية ، او دون علمها . واخيراً ، فان افريقيا السوداء من جهة ، وبشرية باندونج من جهة اخرى ، وهذا النور الصيني المتوهج في اقصى الشرق ، كل ذلك يحرك عند العرب من الرجاء على قدر ما يحرك من دقة الفهم .

ولكن بحثاً مثل بحثنا هذا ، في التفاته الى الحركة الداخلية ، يستطيع ان يقتصر على القوى التي اندمجت في كيان الشرق العربي والتي تسهم ، من داخله ، في إحداث تطور تفسخي لا ينضرز فيه الحدث إلا بكل بطء . وعلى كل حال فان الذي يملي عليّ اختياري هو المعيار الحميم لحوار العرب مع الخارج ، هذا الحوار الذي يمس القلب ، ويطفو على وجه الرأي ، والذي يجند ، مع ذلك ، الواقع المتصل بالاعماق .

وما كان لهذا التفسير ان يأخذ سبيله الى ضوء النهار لولا انه ينعم بتفسيرات لويس ماسينيون . وأنا اترك لشيخنا الألمعي مهمة التعرف ، في هذا التفسير على ما يتبع خطاه او على ما يناقضه . او على ما يتبعه ويناقضه في الوقت نفسه وفي الحالات الثلاث ، كبير هو الدّين الذي يطوّق به عنقي .

وعلى صعيد اكثر اتصافاً بالطابع العملي ، يتجه عرفاني بالجميل الى جميع الذين اتاحوا لي ، لا ان ازور الشرق ، وانما ان اعيش فيه ، واحياناً ان اعيشه . الى منظمة الاونيسكو التي يعود اليها الفضل في قدرتي على الاقامة طويلاً ، في قلب الدلتا ، كخبير في التربية الاساسية ، والى الوزير ثروت عكاشة الذي افسح لي ، بعد حوادث بور سعيد المؤلمة ، سبيل العودة الى لقاء مصر السرمدية . والى السيد دي بوربون بوسيه Mr. de Bourbon Busset مدير العلاقات الثقافية في الكي دورسيه آنذاك ، والذي كلفني بأن اؤسس في الجبل اللبناني معهداً

لتدريس اللغة العربية الحديثة . والى الضيافة المؤثرة التي لقيناها من قرية بكفيا ومن الجامعة اللبنانية . والى الدكتور عكراوي ، عميد بجامعة بغداد وقتذاك ، والذي اوصى بي ، في بلاده ، في فترة عصيبة . والى الاستاذ ظافر القاسمي الذي منحني صداقة دمشق . والى أسرة المهدي التي استقبلتني في الخرطوم استقبالاً رائعاً .

ومظاهر العطف هذه ، وكثير غيرها ، سمحت لي بان أقضي مع العرب اكثر اوقاتي واجلها ، منذ عام ١٩٥٣ وبان اقيم علاقات صداقة يمكن العثور على الاشارات اليها متناثرة في هذه الصفحات . وبالطبع ، لم يكن بالوسع تسمية كل هذه الصداقات . ولأقلها ببساطة : انني ما كنت لاجرؤ ابداً على وصف تطور هذه المجتمعات لولا المطارحات العديدة والمراجعات المقارنة ، والمشاركات والاعتراضات والتشجيعات التي اغدقها عليّ زملائي ومعاوني وطلابي ورفاقي المشرقيون .

والى زوجتي ، لوسي بيرك ، التي ترافقني (في رحلتي) الى مشرق لم يعد صحراوياً وانما عامراً بالآمال ، انا مدين بهذه الرسوم التي تعيش فيها هذه او تلك من الذكريات .

وفي باريس ، لم يكن بالقليل نصيب عدم الرضى الخصب والبحث المجنح ابداً بالهواء داخل الشعبة السادسة من معهد الدراسات العليا وحول اساتذته ، والاقامة الدافئة بجوار مارسيل باتايون Marcel Bataillon وفرناند بروديل Fernand Braudel والمطارحات الظريفة مع ريجيس بلاشير Régis Blachère لم يكن بالقليل نصيب كل هذه العوامل التي اكتفي بذكرها في خدمة تصميم عملي وانجازه . وقد راجعت مساعدتي م . ن. ديفو M. N. Devaux مصادري ، بصورة مجدية ، ووضعت فهرس الكلمات والتعابير العربية .

ومهما بلغ من اهمية السند الذي حظيت به ، فان تبعتي تظل كاملة . وعلى هذا

الوجه انا اطالب بها حول ابحاثي وحول احكامي . ولكنني لا أخلو من القلق . اذ ان ست سنوات او سبعاً من ملازمة الشرق العربي، بالرغم من اتسامها بطابع الاستمرار والمشاركة ، لا تكفي لاباحة الحق بفتح شرفات للرؤية بمثل هذه الرحابة . فقد كان اقرب للحرص ان لا اعرض تحقيقي إلا بصورة تفاصيل مفككة هي وحدها المشروعة في نظر الكثيرين . وبذلك كان بوسعي ان اقدم، بصورة مضمونة اكثر، ملاحظات وتفسيرات جزئية ، ولكن أصلاً ، ما كان لهذه الطريقة ان تكون الفضلى فالجانب التفصيلي لا يولد إلا من الكل . او بالاحرى لا يلقى واحدهما الضوء إلا من تقابلهما . ومن بعد ، ففي محاولتي، التي اعترف بانها سابقة لاوانها هل كان ينبغي ، في سبيل ادراك الكينونة التاريخية للعرب ، ان اهمل بالذات ما كان ، في زخم اندفاعهم نحو التوحد ، يعبر عن الحنين للمطلق الشامل ، فيفرض على الدراسة نفسها الاحاطة بالكلية الشاملة ؟ لم يسعني ، اذن ، إلا ان اكيف الطريقة ، وحتى العرض ، لاجعلهما على قدر « واقع » جوهري الى هذا الحد .

صحيح ان حكماً من هذا النوع ، لكي يصبح مركزياً في تحقيقي لا يجرؤ ان يتقدم الى القارىء بالاطمئنان الجازم ذاته في جميع أجزائه . فالرؤية للعالم التي لا ازال ألحظها حتى اليوم عند العديدين من العرب ، والتي يبدو لي ان تطورها هو المسؤول ، حتى في التفاصيل ، عن التبدلات الحاضرة في مجتمعاتهم ، هذه الرؤية انا ألمح اصولها ودعائمها حتى في العصور السحيقة في قدمها ، ولكن ، ان هي إلا نظرية يتطلب التثبت منها استكشاف ميادين معروفة بصورة غير كافية : الفلسفة الاسلامية ، الجاهلية ، الشرق القديم وعالم ما حول المتوسط القديم . استكشاف لم يكن يدخل، بالطبع ، لا في اهدافي ولا في حيز امكاناتي. وانني اترك الكلمة ، في هذا الشأن للاختصاصيين في هذه الميادين .

وبالمقابل ، أن تكون هذه الرؤية للعالم معطاة في الواقع المشاهد ، وان

يكون بالامكان حتى تتبع تغيراتها، مع ظروف هذه التغيرات وآثارها التاريخية في الحقبة الحاضرة ، هـــذا هو بالذات ما اطرحه عن طيب خاطر للمناقشة على العارفين والمعنيين بهذه الشؤون .

ومما يقلل من ترددي في اقتراح « تفسير » اجمالي ، انني اعتقد نفسي متمشياً ، بتصرفي هذا ، مع الوظيفة الجديدة لدراساتنا في هـذا الموضوع فالاستشراق تجاوز المرحلة التي كان بوسعه ان يظهر فيها بمظهر المساعد المنقذ او الرائد العليم للتوسع الاقتصادي او السياسي . لقد اصبح من واجبه اليوم، في اندماجه مع التطورات التي يسعى لفهمها ، ان يخدم هذه التطورات بالتحليل والمقارنة . ومن الممكن ان يضاف الى هـــذا ، فيما خص حالتي ، امتياز ومسؤولية : ان أحس نفسي ، او أكاد ، واحداً من ابناء هذه النخبة المثقفة (الانتلجنسيا) التي يزيد في جعلهـــا عزيزة على قلوبنا انها تجد احياناً كثيرة في استعمالها لغتنا ، وفي الكثير من اندفاعاتها ايضاً وأكثر بكثير ايضاً في الامنيات المخيّبة ، لسوء الحظ ، ما يحملها على التطلع نحو فرنسا .

هذا لا يعني ان بلادي هي دائماً ، في نظر الشرق ، هذا الشيء الذي ، بالنسبة اليه ، ينبغي ان تتحقق المقارنة او المعارضة . على كل حال ، بلادنا لم تكن ابداً هذا الشيء بصورة كاملة . فالى جانب مناطق هذا العالم التي لم تمسها افكارنا البتة او لم تمسها إلا بصورة ضعيفـة ، بسبب بعدهـا او بسبب المزاحمة الاستعمارية ، تقوم وتتسع مناطق اخرى ، يود الزي الاميركي ان يحمل فيهـــا اعباء نصيب الغرب . ولو ذهبنا الى ما هو أصح واعمق من هذا التقسيم الذي لا يعدو ان يكون تقسيم مناطق نفوذ ، فهو ، حكماً ، تقسيم سطحي ومؤذ اكثر الاحيان، لوجدنا ان الروح العربية لا تزال تحتفظ ، حتى اليوم ، بمرجـــع ذاتي لها ، او تنشىء من جديد استقلالاً ذاتياً في الاحساس والتعبـــير لا يصح ابداً لأي نظام خارجي ، اية كانت قدرته على الاغناء ، ان ينازعها عليه .

وهل في هذا ، سبب كاف لحمل الباحث الاجنبي على الادلاء بنظريته ، لمجرد

انه ، منذ الوهلة الاولى ، موضع الشبهة ومضطر لاتخاذ آلاف صنـوف الحيطة مخافة ان يجرح في الصمـــيم بعض الحساسيات البالغة ؟ على العكس ، ان فائدة إسهامه تكبر مع العفوية التي يستعيدها العرب .

ولئن كنت أجرؤ ، اذن ، على ان اضع امامهم تاريخهـم المعاصر بصورة نظام ، فعلى امل ان أخضعه لحكم هذا التاريخ . وكلما أثار انفعال النقاد من داخل ، كلما كان أثره في السير باولئك الذين يدّعي خدمتهم قدماً نحو دراسة انفسهم . واذا كان ينقصه ، دون ريب ، صدوره عن اجنبي ، فهو ، بالمقابل ، ينعم بأفضليـة الابتعاد . فحظوظه بالنجـــاح او الفشل ليست ، في نهاية المطاف ، إلا حظوظ استشراق جديد ، لا نفعي وملتزم ، في آن واحد .

وهل لزام علينا ، بعد أن دافعنا عن المحاولة ، ان ندافع عن الاداء والتعبير ؟ فالمثل الشرقي يقول : « بامكاننا ان نكذب على الخصم ، ولكن لا يمكننا ان نكذب على الصديق » . فلا سمح الله ، يا اصدقائي العرب ، ان اوهن بموافقـة غير مشروطة العطف الذي ينتزعـــه صعودكم المتجدد في مراقي تاريخ الناس والأشياء . فما تفعلونه ، او بالحري ، ما انتم عليه يحمل من القيمة ما يكفي ليجعلكم جديرين بصراحـة المؤرخ . فأنتم ترتكبون من الاخطاء ، وان فيكم لجوانب ضعف . مثلنا تماماً .

فليكن في ذلك ما يجعلنا اكثر أخوة لبعضنا البعض .

دمشق ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٥٩

الفصل الأوّل

القطيعة مع الإنسان التقليديّ

اذا كان الشرق موطن « الكلمة » ، فهو موطن الانسان الذي يتلقى الكلمة ويكثرها . وليس من مكان آخر يقيم فيه الانسان الاجتماعي علاقات اوسع او فجائية اكثر . فبهاء الماضي ، وبؤس الحاضر ، ونداء الحواس والمطلق ، والتعريفات الاقسى والاندفاع الاعنف ، كل هذه المظاهر تتبدى فيه مجتمعة متضادة ، او متساوقة ، مخلصة او حكايات تمثل لحسن النية ، والتأليف بينها يجمع كل النقائض ويشرع الشتات ، متضمناً الخير او الدمار حسب الحالات . وهذا هو أحد الملامح الشخصية حقاً للشرق العربي . ففيه يلتقي الخالد والمؤقت ، السامي والرخيص ، والنهم العاصف للوجود والوفاء للجوهر ، ويتحد في اشارة ، في عبارة ، في مشهد . لذلك يبشر فيه المباشَرُ بالاصيل ، ففيه يتحقق البرهان على كلا المفهوم الصوفي والمفهوم التاريخي للأحداث ، اذ ان رمزاً ما يجند فيه في آن واحد ، أخلاقية متسامية والاندفاع الحاضر للجماعة . ومن هنا يحدث أن الأعمال الأكثر غريزية مثل الاعمال الاكثر اعداداً وتصميماً ، وان النفعية واللانفعية تكتشف فيه جميعاً شواهد مثالية وتنتسب الى اقوال مأثورة او وجوه كبيرة . وهكذا ، في فترات الصراع والشك ، يهرب الابتذال ، ولكن النبل يتعرض للشبهة ، والحياة بأجمعها تتأرجح بين التبشير بالدعوة والزحف في الواقع . وهي تجد داءها وثراءها في شمول كلي ذي ضمّات عناق غير مرتقبة .

ولن يكون لعبـــاً على الالفاظ مفرطاً التقريب بين لفظتي « التواصـــل »* « والتسلسل »* . ان رمزاً ما ، في الشرق العربي، هو ، قبل كل شيء، اعلان عن الكلي والمستمر .

القديم * او الاساسي

وهذا الاستمرار وهذه الكلية تتمرد على نفسها . « ربيع يتضّور » * ، هكذا يضع أديب سوري عنواناً لاحدى قصصه [١] الربيع الشرقي القديم يأمل البقاء على وفائه باطراح موروثاته . موروثاته الذاتية وموروثات الآخرين. فقد خضع لكلا التراثين، مترابطين، في الفترة الاستعمارية. فكانا يبدوان له تارة في صورة مصائر من صنع يديه هو بالذات ، وتارة في صورة هيئات فرضها الاجنبي. واليوم هـو يريد ان يعيد عمل كل شيء . هو يحاول ثورته الخاصة حول الحتمية والحرية . وهو ، بذلك ، يجتـــاز احدى المراحل الدقيقة التي عاشتها مجتمعاتنا قبله . فهي ايضاً قد فرضت على نفسها ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ضرورة تجددها الذاتي . وقد طوت ماضيهـــا في « كفنه الارجواني » . وقد ارادت لنفسها الصيرورة . وعبر « الأساسي » « والحَــرج »، دعت اشتراكية الطوباويين بحرارة للتأليف والتوفيق النهائيين .

وعند العرب ، يمكن « للقديم *» ، هدف الهجمات العنيفة من قبل انصـــار « الجديد » * ، ان يصبح اسماً آخر « للاساسي » . والاتباعيون يميزون ، مع ف . بونجان F. Bonjean بين التقليد الحي والتقليد المهترىء . فلنحدد القديم* على انه القفا المتهرىء لشيء يمكن تسميته النمط المثالي العريق . شيء كان كبيراً، ويشعر به الكثيرون منا كامناً في قراءة السلوك العربي ، كما يربيه الكثيرون من

* سوف تستعمل هذه الشارة للتدليل على كل لفظة ترد في النص الاصلي ، بشكلها العربي - المترجم -

١) فؤاد الشايب : « تاريخ جرح » – دمشق ١٩٤٤

العرب في قرارة ذاتهم . ومن هنا كانت الجاذبية الغريبة التي يسلطونها علينا . وهي ليست وقفاً على انصار التقاليد ، ولا على العارفين بالجمالية ، من طراز لورنس ، بالرغم من ان الكثيرين يتجهون نحو الاستشراق من طريق أحد هذين السبيلين . وآخرون ، وهم الذين أفضلهم ، يحبون من العرب صرختهم هذه المدوية بالحرية ، وحرارة اللهفة للتربع من جديد في صميم العصر . ويرى لويس ماسينيون عندهم أحد مواطن المطلق . وبالفعل ، في كل محاولاتهم الحاضرة يتضاد المطلق مع التاريخ ويشارك في صنعه . وفي آن واحد ، هو ينكره ويرسّخ له . ونحن نلاقي من جديد ، هنا ، هذه الصفة الرمزية للشرق ، المرتبطة بالتشابك الوثيق بين الأحداث والقيم ، وبانتصاب الجديد بازاء القديم ، وبالتسوية بينهما (١)

وهذه الحميمية ، اما أن تستمر في حالة الملكية الشائعة ؛ وإما ان تتناثر الى متضادات . فالنزاع ، في الشرق ، مظهر من مظاهر انفجار الرمز . انه يفسره ويحققه فيما هو ينتهك حرمته . والجيل العربي فيما بين الحربين ما كان ليشرع ، بضراوة ، « الجديد »* في وجه « القديم »* لو لم يكن يشعر في قرارة نفسه باختلافهما وبالتالي بغموض الازدواجية في ذاته هو .

لقد تناول العرب قديمهم بكثير من السوء، او على الأقل القديم الذي خلفته أربعة قرون من السلطنة . وقد كان في ذلك اعتراف باستمراره لماض ذي ضمانات لا محدودة . ولكن هذا القديم ، الذي يحمل ، في نهاية الأمر ، وزر أنه « استحق » الاستعمار ، وأنه تحالف معه الى حد ما ، قد استهدف للنقمة المتراكمة المتحدرة

---

١) ان هذا الوضع المتقابل للماضي والحاضر ، للثورة والاصالة هو الذي خفي على دراسة تتحلى مع ذلك بالطابع المنظم مثل دراسة دانيال ليرنر Daniel Lerner « زوال المجتمع التقليدي » ١٩٥٨ – جلنكو ، وبذلك شوهت جهود منهجية بالغة العناية . وعلى العكس ، فان هذا التركيب المتغاير الخاص المميز قد أحس به الكثيرون من الشرقيين . مثلاً عزت النص « مجلة المعلم العربي » ، دمشق نيسان ١٩٥٠ ص ٥٢٧ ، وهي اطروحة عن سوريا لم تنشر (١٩٥١) ص ٢٧٣ ؛ « مجلة الاذاعة السورية » العدد ٧٢ في ١٩ – ٩ – ١٩٥٦

من رد الفعل المزدوج لهذه الشعوب، ليس فقط ضد الذين اخضعوها ، ولكن ايضاً ضد أولئك الذين خضعوا من بين صفوفها . وان تأملاً اكثر تصعيداً وتصفية ، سوف يتيح اعادة النظر بحكم الادانة هذا ، الى حد ما . فان من السهل، اليوم ، فضح تواطؤ (القيمين على) الاسلام الموروث مع القوى الأجنبية ، ولكنهم حاربوا بشجاعة في المرحلة الاولى . والشعر الحاضر ، بتهافته على الاوزان المتسرحة واللاعقلانية ، يُدين ، عن صواب ، بلاغيي القرن التاسع عشر . ولكن هل يسعه ان يتباهى بالحظوة عند جمهور أوسع من الجمهور الذي يصغي للشعراء التقليديين ؟ وأخيراً فان من الأكيد ان الاشكال السياسية المستوردة لم تحتل في النفوس ، ان لم يكن في الاقوال ، مكان العادات القديمة . وأي غرابة في هذا الابقاء ؟ فالتقاليد مهما بلغ من تهرئها ، لا تتخلى ابداً عن ذاتها . و « البعث » او « التجديد »* يتحدر منها بقدر ما يرفضها . وفي نهاية المطاف الى أيهما يجب ان نعزو النجاح : الى الروح الحديثة التي تحمل تبعة معارك التحرر ، أم الى استمرار الأفكار القديمة التي تستثير الثورة وتغذيها ؟ من الصعب اعطاء الجواب . وعلى كل ، فكثيرون هم الشرقيون الذين يطرحون السؤال على انفسهم .

ومهما كان الامر ، يمكن التخمين أن بقية بحثنا لا تدعو الى اعادة اعتبار للقديم تناقض نفسها . ولكن الى جلاء الملامح التي تعطي الكثير من المواقف والانماط ، التي توصم اليوم بتهمة العتق ، قوة احتمالها المذهلة ودون ريب ، ايضاً ، قوة مثابرتها . وعلى كل حال معناها .

الكلاسيكية الدمشقية

وفي أي موضـع آخر غير دمشق (٣) هذه المدينة الزاخرة بالمعاني ، يسعنا ان نجد تداخلاً أكبر بين القديم* والجديد * . فلنتسلق جبل قاسيون ، ولنتأمل تحت اقدامنا المدينة محمومة ، حاذقة ومتجددة أبداً . لقد تخطت الرسم المستطيل الذي عرف عنها في القرون الوسطى . فقـد أطلقت نحو الجنوب حياً مديداً من احياء الضاحية : انه حي الميدان الذي يوجه الحجاج نحو مكة المكرمة . وهي تمد ساقاً صغيرة اخرى نحو الجبل المرصود ، قاسيون ، من حيث نتأملهـا ، ومن حيث يسعنا ان نحيي بعضاً من مشاهد الامكنة التي يطل منها على التاريخ والتأمل الانسانيين . وتحت اقدامنا ، يقوم قبر المتصوف الاندلسي : محي الدين بن العربي . وخلفنا مدفن أهل الكهف النيام السبعة ، باشاراته السبع للقبلة (٤) . وتمتد المدينة ايضـاً نحو الشمال الغربي حيث تتلقى جادة* فخمة الزائر القادم من بيروت . ولكن هاتين الزيادتين تعودان الى مـا بعد الحرب العالمية الأولى . فلنهملهما . فنحن نبغي ان نحمل انفسنا الى العـام ١٩٠٠ لجمع مواقف ووقائع تنقل القديم بصورة مضمونة اكثر .

فلنتخيل مدينة الجيل الذي تمرد عليه رجال « الثورة »* ، وهم اذ ذاك فتيان

....

٣) هذا التحليل مدين كثيراً لادب دمشقي اصيل : الشروح القيمة التي ضمنها محمد كرد علي كتابه : خطط الشام : الجزءان الخامس والسادس (١٩٢٥ - ١٩٢٨) ، ومذكرات من امثال مذكرات فخري البارودي - دمشق - ١٩٥١ - جزءان - ومجموعات خطب من امثال خطب لطفي الحفـار : « ذكريات » ، دمشق - ١٩٥٤ - جزءان ، خطب شكري القوتلي « مجموع الخطب » دمشق ١٩٥٧ .

واخيراً تحليل جميل صليبا الذي يفرد مكاناً كبيراً للشعراء : « الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام » القاهرة (١٩٥٧) . ومن بين الآثار الوصفية الاوروبية ، لنذكر أثر جرترودبيل gertrude Bell كواحد من اكثرها غنى بالحساسية .

٤) لويس ماسنيون : « مجلة الدراسات الاسلامية » . المجلد الثاني والعشرون ، ١٩٥٤ ، ص ٨٧ وما يلي .

يافعون ، فأضحوا اليوم في كهولتهم آباء وجدوداً ، يتعرضون ، بدورهم ، لهجمات القوى الجديدة . وتبدو دمشق ، المزنرة بحدائق الغوطة ، كالواحة [٥] . وبالأصح كمخزن للحبوب وكمركز لبستان لا حد له . وكسوق للتخزين والتحويل . وتعبر مهارة الحرفي عن المنظر - بمعناه الفيزيائي . وتحمل الزيوت ورقائق « القمر الدين » بعيداً الى العالم الاسلامي اطايب الغوطة . وفي عام ١٨٩٠ ، كانوا يعدون ٣٠٠٠ نول للحياكة تشغل ٢٠٠٠٠ عامل . وكانت هذه الانوال تصنع الأنسجة التي أذاعت شهرة دمشق : حرائر وقطنيات ، وصايات الديما[٦] ، هذا القماش الشعبي المقلّم الذي كان منتشراً في كل المشرق ، وكان يمتد حتى الأناضول ومقدونية يقاوم مزاحمة المنتجات الالمانية . ولا تزال دمشق تعيش من تثمير فوائد ادخارها . وتبدي فئتها البورجوازية نشاطاً تجارياً كبيراً . وتمتد علاقات اعمالها على مدى الامبراطورية العثمانية . وتقدم دمشق ايضاً قاعدة انطلاق على طريق مكة . وفي مزيج مميز من التقوى والمساومة والترف والملذات ، تتزود منها جموع غفيرة بلوازمها لقضاء الفريضة السنوية . فهي تبحث عن غذاء الروح وغذاء الجسد ، في الوقت الواحد . والمسجد الأموي وأضرحة أولياء لا عدّ لهم تكفل ببركات الماضي جلبة الحاضر وتؤمّن المدينة وتسم بميسمها الوئام بين الناس والاشياء ، بين الجوهر والحياة .

وفي الوقت نفسه ، عرفت الفترة العديد من مظاهر التدني والتفسخ . فمنذ قرون طويلة ، تناثرت وحدة المدينة الى أحياء[٧] . وهذا الامر لا يتعلق بشكل من أشكال النشوء وانما من أشكال الانفصام . فانطواء كل مجموعة

---

٥) انظر نسخة منشورة فيما يلي عن صورة انجليزية محفورة تعود الى القرن التاسع عشر .

٦) ادمون بليبل : « تقويم بكفيا » ١٩٣٥ ص ١٩٥ وما يلي . وهو يعرض تاريخ الصناعات الحرفية ، انطلاقاً من بكفيا ، هذا المركز الحرفي الجبلي .

٧) انظر ، حول هذه النقطة ، التحليل النهائي لسوفاجيه : « مجلة الدراسات الاسلامية » . ١٩٥٤ ص ٤٢٢ وما يلي .

على نفسها يحملها على تمجيد مصالحها وفضائلهـــا وفقاً لقانون شرف مشيخي قد استوحى الكثير من النموذج البدوي . وهـــذا الاخير يفرض نفسه على المدينة الكبيرة بتقاليـــده الشعرية وبثقله الجغرافي . وان حركة تحضير بطيئة ولكن مستمرة تطال البدوي الذي تدفعه عاطفته خاصـــة نحو حي « الميدان » . وهـــذه الحركة تتسلل اكثر فأكثر إلحاحاً ، من الدائرة المحيطة حتى القلب ، وتغزو الاحياء البورجوازية نفسها . فعليـه ، تقاوم هذه الأحياء كل ما يستطيع ان يمسخ طبيعتها بتعاليمهـــا وشحها . وفي عهـد الادارة العثمانية اصبحت الاعفاءات وتنظيمات المدينة ،بعد أن طـُردت من نطاق المؤسسات ، لا يتاح لها ان تبقى حية إلا في الوقائع وفي الأخـلاق . وبالطبع ، كانت تقف ، بازاء الحكم المطلق ، بوادر تمرد او امتناع عن العمل . وصفحات اخبار المدينة كانت تصف كل سلّم المراحـل الممتدة بين هذا الوجه والآخر من تلك البوادر . وكان الدهاء الدمشقي ينتصر على الجلد العثماني ولكن كان هناك شعور ، في تلك الفترة بالذات ، بان اللعبة لا تقدم اي شيء خـــلاق . فخلف الدعوة الاصلاحية التي حملت لواءها جماعة تركيا الفتاة ، وضد هذه الدعوة بدأت تطل دعوة عربية للاصلاح والشعور بعدم الرضى الذي كان خاصـاً بالسوريين كان يجد مرتكزاته في تقاليد اكاديمية هائلة . ولكنه كان يجهـد نفسه ، للمرة الاولى ، لماشاة التطور . وقد بدأت تهب روح العمل في لجان ، « روح التكتل »*. وفي بعض المقاهي شرع خطباء ناريون ، موعودون بسلوك طريق طويلة ، من امثال لطفي الحفار ، باذكاء ما يسمى اليوم الروح القومية العربية . فهم كانوا يشعرون كما بلذع السياط ، ببشاعات الحاضر التي يعزونها الى نقائص الماضي . واندفاعاً مع ظاهرة بورجوازية مميزة ، سيطرت على كل الحركة القومية فيما بين الحربين ، كانوا يمزجون حرارة الاندفاع الأكثر تعجـــلاً ، وروح المناورة والمداورة الأخصب بالحس الابداعي ، مع الوفاء للقيم الطبقية والبلدية المحليـة . ومن هنا أهمية كتب ، تركها البعض منهم ، من امثال فخري البارودي وكرد علي ، كلما انحنوا على المدينة العميقة بحبهم الحاقد .

وهم يدينون قبل كل شيء الجمود التقليدي في العقيدة الدينيـــة . فقد كان الدين يلعب دوراً ساحقاً في عهد شبابهم [٨] . وكانت السنة من عمرهم تتألف من دورات من الحياة الدنيوية تنقضي هادئة ، كئيبة ، مغلقة ولكن تتخللها ، بمناسبة الاعياد المديدة لحظات من الحماس الاجتماعي والهوس المتأجج : احتفالات عيد « الفطر »* ، والعودة من الحـج ، و « النذور »* وحلقات الذكـر في زوايا الطرق الصوفية يضاف الى ذلك الطقوس التي ترافق الحياة العائلية . ومنهـا مثلاً طقوس الوفيات : الزيارات التي لا تنتهي ، والجماهير التي تهرع الى بيت « عميد الأسرة »* وهو يكاد يكون رئيس عشيرة . وبمناسبة الزفاف ، يحتفـل بما يشبه طقوس المأساة او بالاحرى طقوس المأساة الرباعية المشاهد عند الاغريق . وكلما كانت الأسرة رفيعة النسب ، طال البحث عن العروس او العريس الملائم : مدة سنة على الاقل لمن يحـترم نفسه . فالأهل والجـيران في هرج ومرج مستمرين وينهمكون بالتكافل ، في زيارات واستقبـالات وتحقيقـات وتأليف وفود ومواكب . والقيمة التي تدخل في الحسبان لا تتعلق ، بالطبع ، بالشخص وصفته ، وانما ترتكز ، على علاقات المصاهرة بين العائلتـين ، انها طريقة اخرى لتوثيق وحدة أهل المدينة ، بصورة مؤقتة .

ويقولون ان الجمال لم يبدأ بالظهور كقيمة للتبـادل في الزواج إلا منذ سنة ١٩٣٠ [٩] . ولا شك في ان المتقدمين في السن قد اعتراهم الانفعال ازاء هـــذه الظاهرة واعتبروها عملاً مخلاً بالآداب وبادرة تدل على الفساد في الزمن الاخـير . وعلى العكس فان شبان العصر بدأوا يزلزلون النظام الذي كان يعطي الأوليـة للاعتبارات الاجتماعية والدينية . اذ ان هذه البيئة الظريفة والممنهجة كانت تضيق الخناق وتكبح توثبه . وكانت الغلبة للنفاق والجهل . وكان على الضعيف ، لكي

....

٨) كرد علي : المصدر السابق ذكره – الجزء السادس ص ٢٨٤ وما يلي .

٩) فخري البارودي – المصدر الذي سبق ذكره – الجزء الاول ، ص ٦٤ . وبالطبع ، تحتمل هـــذه الملاحظة بعض التناقض . ففي القرن السابع عشر ، كان « الشيخ علوان » يغضب لهذه البدع الجديدة . (انظر مجلة المجمع العلمي – دمشق – المجلد الثاني والثلاثون ١٩٥٧)

يستطيع البقاء ، ان يتودد للأقوياء . وكان التزلف يقود الخطوات الاولى للفتى الاريستوقراطي . وكانت تربيته الاولى تخضع لحياة بيتية جاهلة ومداهنة . صحيح انه كان يشارك ، في صباه ، بالمعارك التي كانت تدور بين الاطفال من حي الى حي . ولكن هذا الادراك المبكر للكبرياء لم يكن ليعوض عن « نواقص » مؤسسة الطفولة . والتربية التي كانت تُبث في المعاهد التقليدية (والتي نعمت ببداية اصلاح بفضل مدحت باشا) ظلت ضيقة ومتشددة . وما كان الابن ليجرؤ على التحدث الى أبيه مباشرة . وعندما كان يبغي منه شيئاً كان يلجأ لتوسيط صديق للأسرة . وصاحب المذكرات الذي استعير منه الكثير الكثير من هذه التفاصيل ، لا يذكر ابداً انه حظي بقبلة او بضمة الا مرة واحدة تلقاها وهو فيما بين اليقظة والنوم .

ولم تكن هناك حلقات للثقافة او للرياضة . ولم يكن لليافع ان يرتاد غير المقاهي التي ظلت باغلبيتها من الطراز القديم . وكانت الانباء عن العالم ضئيلة الى حد ان صورة لفيكتور هيجو علقت ذات يوم ، في مقهى ديمتري على ساحة المرجة ، فظنها اكثر الزبائن صورة لرئيس باعة المرطبات الباريسية . وما كانت الفرجة على اشباح الظل وهزليات الاراجوز لترفع بصورة مؤكدة مستوى هذه الوجوه للتسلية . واحياناً كان « الحكواتي » يروي ، فيما يشبه المباراة الشعبية الكبيرة ، قصص تغريبة بني هلال او الملك الظاهر بيبرس ، الملهبة لانفعالات رحبة ، (وكانت هذه القصص) الغذاء لمناقبية فروسية وغزلية تحجرت ، لسوء الحظ ، منذ قرون ، واصبحت عديمة الاتصال مع الواقع ، وخارج هذه الوجوه الشعبية للهو ، لم يكن للناس من متنفس غير « التياترو » حيث كانت تدوي الموسيقى المصرية ، وغير معاشرة المغنيات ، وفيهن الكثير من اليهوديات ، وبعضهن يبلغن شهرة جد مشبوهة .

وحياة بمثل هذا الانغلاق لم تكن لتجد مخرجاً الا في الدراسة العلمية العليا . ولم يكن من مجال لتأمل هذه العلوم إلا من خلال فرجات التقاليد الضيقة .

وبلاغة المنابر تظل على قمتهـا . ويوم الجمعة يكتفي « خطيب » المسجد بالقاء خطبة هي دائماً ذاتها . وفن الخطابة العامة لا يتفجر الا مع ثورة جماعة «تركيا الفتاة» اذ لا يحجم البعض من افراد تلك الجماعة عن التوجه لمخاطبة جماهير الاحياء . وكان ذلك يقتضيهم ، احياناً ، جهداً شاقاً . فاخلاقية الحي ، في تأرجحها بين الاحترام للوجيه والخوف من المتبجح المدعي ، لا تعتنق دفعة واحدة النظرات العامـة الجديدة . والعلماء يستمدون من هذا التناغم في اصوات جماهير المدينـة نفوذهم الذي لا يرتبط بالخصب الفكري . وكثيرون كانوا ، بفضل ترويض الذاكرة والتركيز الذهني اللذين لا تعرفهما أزمنتنا ، يبلغون حكمة تنفي كل اضطراب غير مجد وتستبعد حتى الكلام . وكان الاحترام يلجئهم للصمت . وقد تحدث مؤرخ معاصر عن واحد منهم قائلاً بصورة كلها مغزى :

« ورغم تبحره* العميق بالعلوم واسرار العربية ، لم يكتب آي اثر يذكر في الادب او اللغة . فقد كان ، كغيره من علماء عصره ، يعتبر ان العلم كنز مخزون في صفحات الكتب القديمة . وعلى العلماء ان يكتشفوا هـذه الكنوز بالبحث والدرس ، فالعلم ليس الا محاولة لفهم ما خلفه القدماء (١١) .. »

وعندمـا ألقى الشيخ رشيد رضا خطابه الاصلاحي سنة ١٩٠٨ ، حاضـاً المؤمنين على التمسك بأصول السيرة النبوية الموثوقة ، قاطعـه شيخ آخر ، هو صالح الشريف التونسي ، ليدافع عن طقوس العبادات الخاصة بالطرق الدينية وعن اهمية وساطة الاولياء . فكانت فضيحة كبرى . واعتقل الخطيب المشاغب . ولكن رئيس الشرطة اضطر لتسليمه الى الجماهـير التي خرجت في مظاهرة كبيرة . ولم ينج هو بنفسه الا بفضل تدخل احد قبضايات حي قنوات وما نقول ذلك الا لنبين الى أي حد كان ابطال التعلق بمخلفات الماضي يستمدون من قوة

---

(١١) سامي الكيالي : « الحركة الادبية في حلب » (وبالواقع ، يتعلق الامر بهذه المدينة) ص ١٦٢ وما يلي (بمناسبة الحديث عن قاضي القضاة بشير الغزي (١٨٥٧ - ١٩٢١) . ولكن كثيراً من الوجوه المماثلة تبدو في دمشق .

الشعور في المدينة .

ووسط من هذا النوع ، مهما بدا خانقـا بالنسبة لبعض ابنائه يخفي ، بالفعل طاقات راسخة . وبما أن كل شيء داخـــله يتحدر من توازنات قامت على مر العصور ، فان كل عنصر من عناصر المجموع ، عندما يؤخذ على حـدة ، يقاوم التجديد . و المسارب الأكثر تعارضاً تنتظم وتتوازن فيما بينها . ومن بعـد فالداعي للاصلاح يوازن المتبع للتقاليد ، وفقاً للعبةٍ تدور منذ عصور ، سبق لابن تيمية أن اشترك فيها ، في ايامه . وقد يتبـادل مدبرو اللعبة المتخاصمون لواذع السخرية فيما بينهم ، ولكنهم يتبادلون المعونة . واستغلال الفقير من قبل الغني لا يثير النقمة الا بصورة عرضية . وكل المدينة ، رغم تمزقها بين الاحقاد الداخلية ، تقف كتلة متراصة للدفاع عن احد اعيانها ضد تعسف الحكومـــة . والأناس الطيبون لا يهتمون الا بواقعهم اليومي . ولكنه واقع يومي تهصره الآخرة ، من كل صوب ، لو صح القول . وكانت تحمل الهواء النقي الى تلك الحياة المغلقة النوافذ والبهيّة ، المبارزات (في لعبة السيف والترس) وألعاب الفروسية والنزهات الخلوية (السيران *) التي كانت تعود الى تقاليد منظمة ترعاها وتصونهـــا لدى المشتركين لجان خاصة . وهذا النظام الذي كان محكماً بصورة استبدادية قد بلغ أوجه في بعض الانماط الكبرى للاناقة في المدينة . فهذا البورجوازي يقضي شطراً كبيراً من سهراته في جناح مستكن (gonàq*) أعدّ لهذا الغرض ، في بستانه ، في نجوة عن الاتصـــال الحميم ببيته ، اذا امكننا القول . وهو يستقبل فيه شلة اصدقائه الذين تربط جلهم اواصر النسب او العمر او الاذواق . وكانوا يتلذذون هناك بارتشاف القهوة . وتدور احاديثهم حول الصيد ، ولعب الشطرنج وتربية الحمام . وكذلك حول اخبار الساعة التي لم تكن ، وأسماء العائلات والذكريات المعادة المكرورة ترصعها ، الا تقصياً للمجتمع في الحدث .

كان ذلك المجتمع يجد غايته في ذاته . انه كان يستمتع بذاته . وكان يمارس كونه ما علمته قرون طويلة ان يكون . فكان يستمد قوته وجاذبيته من كليته

ومن وفاقه مع اطار مهيب وتاريخ قادر على ان يتكرر مرات لا حـد لها . وحتى بؤسه المتولد من التبعية ، والروح التجارية والنفاق الديني ، غير مستطيع ان يحمل على نسيان نبله . على كل حال ، كان هـذا المجتمع يخبىء في احشائه خمائر التحول . والحوادث المذهلة التي سوف تهز الشرق انطلاقاً من ثورة تركيا الفتاة سوف تزعزع توازن النزعة المحافظة لصالح النزعـة التجديدية . ولكن استمرار ما هو مغرق في القدم ، في مدينة مثل هذه ، هو من القوة والرسوخ بحيث أن التوازن القديم لا ينهار بكامله ، حتى ذلك الحين . والروح الجماعية التي تضم اهل المدينة والطابع الانساني لدمشق لا يبدآن بفقـدان غائيتها الا منـذ حركة التحرر التي نشأت عن التصادم مع الوقائع والافكار القادمة من بعيـد . وحتى في يومنا هذا ، وبالرغم من كل الثورات التي اندلعت على نطاق المدينـة والبلاد ، يستمر البقاء المتصـل . واللجوء العنيد الى عزة العصر الذهبي والى حمّيات المستقبل ، وتلاقي حسن القول مع طيب المأكل ،والجمع بين قضاء فرائض الصلاة وارضاء الشهوات ، كل ذلك يختلط ويتواطأ على خلق اسلوب . ولكن هذا الاسلوب يُكنّ (بل ماذا اقول ؟) يربي في ذاته قوى التفجر . فهو في اصراره على ان يؤكد ذاته ، يحلو له ان يكذب نفسه . ومن هنا هـذا التاريخ لذي يبهر الانفاس لفرط ما يزخر بالاندفاعات وبالانطلاقات من جديـد ، والذي كان من شأنه ان يحمـل الفرد الوطني على الأسى لو لم يكن موضع اعتزازه .

ونحن نفهم ان يظهر اسلوب من هـذا النوع مقاومة لكل من يبغي محوه . وذلك لا يعني أنه ينفر من التجديد . على العكس تماماً . فهو بالذات يعني تناوب الجدل او التأليف الملتبس بين الماضي والجديد . وحوار مثل هـذا الحوار قائم على عمليات موازنة ومقاصة دقيقة يمكن ان يسمى كلاسيكية . ودمشق هي الموطن الأسمى لاستهلاك العروبة . ولكنها تجد ، في النزعة الاتباعية (الاكاديمية)

الفدية والضريبة عن هـذا التفوق . اذ ان دمشق هي أقل العواصم رومانسية فليس من قبيل الصدف ان تنصب امام الانواع الجديدة من الحساسية والتعبير ، لا نهائية اللغة* ودقائق رفضها (حق الفيتو) .واللغة هنا ، اكثر تهذيباً وحرارة منها في أي مكان آخر . فهل في هذا الامر ما يفسر ان لا يجد فن الرواية ،هنا، إلا القليل من الاتباع ، وهو النوع الادبي الذي يمثـل العصر الجديث بالقوة التي نعرف ، بينما هو يزدهر في القاهرة ، وان لا تكون دمشق عاصمة الادب العربي الحديث وهي عاصمة اللغة العربية ؟ فكأن وجهاً ما من السلوك ، ونظامـاً ما ، (وهما هنا مندمجان ، ومكتفيان بذاتهما ، هنا ، اكثر مما في أي مكان آخر ، يقاومان احسن مقاومة ، بوجه كل ما لا يعدو ، من كثير من الجوانب . أن يكون اضطراباً يفرضه الخارج ، او على الاقل يبدو كذلك قبل ان يُعتمد بصورة عميقة ، ويشرع لواء وطنياً . .)

البدوي الابدي وهذا الدمج ، يجد بجنبنا احد امثلتـه النموذجية في دمشق ، ويجده مرتبطاً بعمق مع العروبة* . صحيح ان ارتبـاطه بتعقيد مدينة كبيرة ، وبثقافة دينية وعلمية من شأنه ان يحمل على انكار ميسمه الطبيعي . ولا ننسى ان الدمج والكآبـــة يثيران انتباهنا ايضاً في اماكن اخرى من العالم العربي حيث تنعـــدم مثل هذه الصلة الارتباطية .

كان احد الاشراف السودانيين يصف لي الحياة التي كان يحياها جده في زاوية نائية من دنجلة في اواسط القرن التاسع عشر . فهو لم يكن يغتذي إلا بالالبان . وكان يوزع على اتباعه حصيلة صيده. وكان يتبع نظاماً صارماً من الطقوس. فقد كان له اربع زوجـات . وكلهن بنات زعماء . ولم يكن يقرب المرأة الا مرة في الشهر . ومن المرجح انه بلغ المائة والخمسين عاماً من عمره . وقد التقى محدثي ،

وهو بعد صبيٌ يافع ، في ايام المهدي الكبير ، باحدى الزوجـــات . وبما انه لم تكن تربطه بها اية اواصر دم ، فقد جرؤ ان يسألها اذا كانت راضية من هـذا الاعتدال ، عند جده ، في القيام بواجباته الزوجية . فأجابته الجدة بصراحــــة رائعة : « يا بني ان كل ضمة من ضماته كانت تساوي العشرين من ضماتكم » .

وبالوسع الوقوع على ملامح من هذا النوع في « البادية »* شرط ان نضع جانباً الاعتدال لان حيوية دافقة تلهب البدوي . وكثيرون من اشخاص كتاب « الثورة في البادية » من امثال الشريف شاكر والعجوز نوري الشعلان ، يمثلون هذا الطراز الملكي ، طويلاً بعد انقضاء الشعر الجاهلي . ولئن كانت النزعة الجمالية وحتى السياسة الانجليزية تتصيد هذا الطراز ، فان هذا « الوقوع » سوف تكون نتائجه باهظة بالنسبة للعرب . وهو لا ينفي مـا يمكن ان يكون في مغامرة ١٩١٦ من صحيح ولاهب . فالطراز الذي يبـدو هناك ، في منعطفات احـدى دسائس الانتلجنس سرفيس، وشهوانية اكسفورد ، هو البطل الجاهلي، البدوي التائه والمتأكل ، « طفيلي الجمل » (١٢) ، اذا شئنا ، في حال انعدام الافضـل ، ولكن الانسان يعيد تكوين احـد الوجوه الانسانية الأكبر اثارة للانفعال بكرمه ، رغم ارتكازه على الجشع وبشاعته ، رغم انها غير مستقرة ، وبوفائه ، رغم اتصاله بالدهاء .

هذا الانسان يختلف عن انسان الثورة الصناعيـــة بخشونته . فهو لا يريق وجدانه* ، ونعني به ، اذا شئنا ، رعشته مع الوجود ، في نثر العواطف ، ابداً. انه يقتصر على اشارات واغاني ملتهبة بالأهواء وجافة ، صاخبة ومتحفظة في آن واحد . انه ، لصق الارض ، يتفجر ويلتحم ، في الوقت نفسه . شأنه شأن السجادة التي يبسطونها لك ، في مهب الريح ، فوق ارض الصحراء . فانت تحس تحتها بخصلات الاعشاب المنسحقة وبدفء الثرى ونتوءاته . ولكن هذا الفوران

---

١٢) التعبير هو لووليريس Weulersse او لدوجتي Doughty

الغاضب لا يبلغ الا سطحاً زوق في صورة تاريخ . فكأننا امام نافورة نابعة بعيدة من الاغوار ، فتتكبح وتتخلى عن ذاتها حالما تتصل بضوء النهار حيث تحترق وتتساقط اشكالاً وألواناً . وهذا التخلي هو ايضاً كلاسيكية . وبذلك يختلف البدوي عن البربري . ففي نظامه ، يصبح الانسان ، بكل ما فيه من وجدان وحياة جنسية وطراز معيشة ، والتصاق بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، بجميع ذلك يصبح الانسان رسماً توضيحياً .

فما القول ، حينما يصبح شاعراً ، اي عندما يبلغ قمة النظام فيرتفع الى مواقف لم تكف ، حتى يومنا هذا ، عن فرض جاذبية نداءاتها ، داخل الاسلام وخارجه ؟ فلنأخذ مثلاً الحاج زاير ، وهو يعتبر اكبر شاعر شعبي في العراق . وقصائده التي لم تجمع الا مؤخراً ، تدوي على كل الشفاه منذ جيل . وفي بيئة كانت تلهبها العقيدة الشيعية ، حدث له ، بعد وفاته ، ان ظهر في المنام . وحينما كانوا يسألونه عن رضوى الامام الحسين كان ينطوي وراء صمته محافظة على « السر »*. وفي حالته ، كان الامر يتعلق بالسر الشعري . وكان التوافق المؤثر بين الايمان الجماعي ومغامرة حياته الخاصة ، ودوي اشعاره يحقق حتى النهاية اندماجاً يدل على المكان والزمان . وكان الالهام يهبط عليه ، وهو بين اخوانه ، في نهاية احدى الجلسات التي يتفجعون فيها على نكبة علي . والذي يحركه حينذاك هو ، كما يقول واضع سيرته ؛ « الحب والولاء »* ! ونضيف الى ذلك : الاجماع . وبالطبع ، كان يرتجل . وكان يلقي مقاطع صوفية بالدفق ذاته الذي كان يوجه فيه النداءات الانيقة الى فتاة عابرة . وها هو احد المجندين في نهاية العهد التركي ، فيرسل الى حامية قطر . وهناك ، ينفس عن حزنه بتنهدات بلغ من تناسقها وعمقها ان جعلت رفاقه يتحلقون حوله وحملت القيادة على الاشفاق عليه وصرفه الى منزله . وها هو يعود للسفر سنة ١٩١٤ . وكان ذلك مناسبة لنظم اغاني حول مواضيع بطولية . ولسوء الحظ ، يهاجم الانجليز البصرة ،

فيتقدم العلماء الصفوف على راس معركة الدفاع ضد اعداء الدين . ويضطر الشاعر ،بعد استنكاره انسحاب الاتراك ، الى الاختباء في الكوفة ثم يعود للظهور في بغداد . ويرى في جامع حيدر تجمع الشعب حيث يدعوه أحد « السادة » الى الحرب المقدسة . وكان في ذلك اكثر مما يكفي لاثارة الحج زاير . فقد كان « يتهيج من هياج الناس »* فيرتجل مرة اخرى ، عواطف نبيلة في اطار نبيل . ولكن صورة شاعرنا لا تقتصر على هذه الملامح المثالية . فهو يشعر برغبات يصفها واضع السيرة بكثير من التسامح . فعند عودته من قطر . وهو يعيش بعض الوقت في وئام مع الفتى اليافع « الهادي » . وقد مات هذا الصديق غيلة . فحامت الشكوك حول الشاعر تتهمه بانه القاتل . وكان ذلك ايضاً مناسبة لوضع اشعار جميلة . فيقارنه واضع السيرة بشاعر آخر * انهى هو ايضاً بصورة انيقة جريمة قتل مزدوجة ، ارتكبها بحق صديقه وحبيبته ، عندما فاجأهما في حديث ودي . فقتلها وأحرقهما وصنع من رمادهما كأسين كان يشرب منهما بالتناوب ، مغنياً عواطف حنينه .

وعلى المسافة الكبيرة التي نقفها ، هنا ، من الاخلاقية الدينية ، يمكن قياس ما يلزم من المهابة للشعر البدوي حتى يطالب بصورة فعالة ، انطلاقاً من هذه الاخلاقية ، بقانون طبيعي ، آدمي ، اذا صح التعبير ، حيث تستمد الاندفاعات الغريزية والرغبات ،ومشاعر الجشع وطلب الثأر خلاصها من ذاتها . ومن هنا الى اللاأخلاقية ، لم تبق الا خطوة . وقد تم اجتيازها بجذل .ومن طريق معاكسة، يصل بودلير ورمبو ، اليوم الى العرب في خط النهج البدوي (١٤) ونورد ذلك للاشارة الى قيمة التحريض* التي لا تزال حية في موضوع استطاع ان يتشابك مع موضوع الاسلام ، وفي حالة الحاج زاير ، بلغ منه ان شارك في الانفعالات

---

*ـ لعل المؤلف يشير الى قصة الشاعر ديك الجن الحمصي .

١٤) في نظري ، تشكل « بوهيمية » الشاعر الفلسطيني ـ التل ـ على ما يبدو ـ الحلقة الوسطى . فكلمة « النوري » ، او الفجري ، مطلق كمرادفة لعباوة بدوي .

٥

الدينية شرط ان تكون مأساتية . ولكنه في ذاته لا علاقة له البتة بالدين

وبالطبع ، يقف الشعر الشعبي ، حيناً آخر ، على سفوح اكثر اعتدالاً . وهو خاصة ، يجرد المغامرة من سحرها ، في الوقت ذاته الذي يتخلى فيـــه عن الامداء الفسيحة . انه يتخطى ، بصورة تتناقض مع المنطق ، كل المسافة التي تفصل الراعي عن الفلاح . ودون ان يتنازل عن اي شيء من مثله العليا ، هو يعطيها مضموناً مختلفاً ويكاد يكون معاكساً . والطابع الفلاحي يطبع الشعر بحكمة الامثال(١٥). هذا هو الحال في لبنان ، والعراق ، ومصر خاصة حيث يسود تناسب دقيق بين وحي القرية وثقافة الازهر . وقد بلغ من ذلك ان الجامعـــة المفرقة في القدم اصبحت تظهر نفسها موئلا للأدب الريفي . ومع ذلك ، انا لن ألح على هــــذه المواضيع التي اكتسبت ، في عملية انقاذ ، حقهـا بالتربع في التدريس الجامعي ، وفي العمل الحكومي ، في مصر اليوم . يكفيني ان طراز الانسان الذي يتجلى هنا ، وربما هنا اكثر منه في اي مكان آخر ، لصق السطح من الجبلة ، وممتزجاً كلياً بالجهد المتواضع وبالمباهج الساذجة التي يمنحها العمل ، هذا الطراز يبدي كليّة لم تفت في عضدها حتى الآن ، لا ثقافة المدن ، سواء حركتها نزعة المحافظـة على تقاليد التقوى او النزعة التجديدية الغربية ، ولا قسوة الحياة الاقتصادية المتنامية .

الهليني الجهنمي هذا الطراز ، من حقي ان انعتـــه بالاسلامي . ومع ذلك هو يتسلسل من خلقيـة شرقية او عربية سابقة للاسلام . ولكنه تلاحم مع الاسلام بحيث يصعب فصله عنه . وينبغي اللجوء كثيراً الى التلخيص ليمكن تمييز هذا الاحتضــان الضيق للانسان والكون ، تحت غطاء الثقافة والاخلاقية الاسلامية ، او بالأحرى ضدهما . أكيد ان الايمان « بالسمو » ، على الرغم من قدمه الفطري ، لا يستطيـع القبول بالطبيعة قبولاً كاملاً . فعلومه اللاهوتية واللغوية ، والقانونية التي تغذيها العقلانية

١٥) انا اختصر ، هنا ، حول هذه النقطة التي ألحت اليها في كتابات اخرى والتي بدأت تصبح معروفة اكثر .

الارسطوطالية، تضع على طرفي نقيض الذات والموضوع ،والخير والشر والواضح والمبهم . وقد اتخذت هذه العلوم صبغة قوية من المدينـــة ، من شأنها ان تشوه بقدر ما تهذب . والانسان« المهذب »يتعلم كيف يضمر ، واحياناً كيف يكبح ، اتجاهات الحكمـــة القديمة ، في الحين ذاته الذي يتذوقها فيه . وبالمقابل ، فان الصوفية تؤكد ذاتها كعودة الى الانسان الشامل ، بخلاف حركة التدين الشرعية وهي تصحح ارسطو بتعاليم أفلوطين . وبعـــد عشرة قرون من الصراع بين القاعدة الانفصالية ، « الفرقان »* والمثل الاعلى الوحدوي القديم ، تطالب النزعة التجديدية ، بصورة مشاعيــة وباسم « السنة »* بعودة الايمان الى ينابيعـــه ، وبالمصالحة الايجابية مع كون يمشي قدماً .

ومن هنا ، بالطبع ، كانت عمليات تمزق وتشتت . ولكن من يدري اذا لم يكن اللجوء الى الجماهـــير ، والتذوق الجديد لفن عفوي ، واعادة الاعتبار للطابع الشعبي ،واخيراً الاندفاع نحو الديمقراطية ، اذا لم يكن كل ذلك يستمد، في النهايات الحالية ، قوته من الحنـــين الوحدوي اي ينزع نحو بعث التناسق ، بواسطة الثورة . من الممكن ادراك ذلك . فبوسع النزعة التجديدية ان تتمرد على النزعة التقليدية « التقليد »* وهي تقوم بذلك ، جزئيا ، باسم التقاليد . وما كان الصراع باعثاً على الانفعال ، الى هـــذا الحد ، لو لم يكن ، في كثير من جوانبه ، صراعاً ضد الملاك ، اي صراعاً ضد الذات . ويبلغ من صحة ذلك انه، في سبيل الاهتداء الى بعض ملامح الموقف القديم ، يكفي ان نفك الطلاسم ، في سير ابناء الجيل الحاضر ، عما تنم عنه من قوى ماض دائم الحياة والحضـــور . وهنا نلمس احـــدى الخصائص غير المنتظرة « للتجديد »* : انه يتضمن ، من جوانب عديـدة ، معنى الاعادة . فالثورة هي بالنسبة للكثير من الشرقيين ، العودة الى السابق ، وسيبقى الحال هكذا طالما ان تجديداً حاسماً في الافكار والاشياء لم يجرد النظام القديم من قدرته على التطور باعادة توازنه .

ونقطة الانفصام هذه تقع بصورة تختلف باختلاف هذه المجتمعات عندما تتغير علاقتها مع العالم الخارجي ، تغيراً في الاتجاه وفي الطاقة . وفي الواقع ، لا لا يبلغ العربي الحياة الحديثة ، معنوياً ومادياً ، الا بفضل ازمة يجد مكافأته عليها في توثيق سيطرته على الواقع . فمدينته ، كما لا تزال نلاحظ في القرن العشرين ، كانت قريبة من الطبيعة لدرجة انها كانت تمنع عليها ان تسيطر على الطبيعة . وعلى عكس المدنية الآلية ، كانت تفشل في امتلاك الطبيعة ، لانها كانت تتلاحم مع الطبيعة . وهذا الامتياز او سوء الحظ هذا ينفجران في كل لحظة في المواقف التي وصفتها ، وخاصة في الشعر الذي خلدها ، والذي لا يزال الانسان الحديث يجب « طراوته »* ما لم يكن يفضل البحث عنها في اغاني « الاميين» الذين يزخر اسمهم نفسه بالدلالات (١٦) .

فسحر القرب والصلة المباشرة الذي كان هيجل يعزوه الى الاغريق والذي، بوساطته ، « يهبط الفكر الى ذاته » ، كما كان يقول ، كانت الحياة التقليدية تشارك فيه . وهذه البساطة الرائعة التي كان يتحلى بها الأغريق منذ بداية اللعبة، بانسجامهم الجمالي مع الكون ، تشكل ايضاً ، لاسباب أخرى ، وبصور اخرى، سر* العديد من وجوه الكون الاسلاميـة . فتمثال اغريقي من العهد القديم ، يبدو قادماً بمفرده من تحت الازميل، لا مقتلعاً من الطبيعة التي تحققها ولا من الانسان الذي يمجد . وكذلك في الاسلام ولكن بصيغ اخرى ، كانت الحياة التقليدية يُستلذ مذاقها ، كاملة ، متحررة من الخطيئة الاولى ، متناسقة مع نفسها ، ومباركة من الله . وقد كانت في تساهلها ازاء الغرائز ، لا تشجب منها الا ما يحمل الممنوع او الحرام *. مثل الميسر والربا والزنى . ومن هنا كان انها تملك

---

١٦) لقب اطلق على النبي (صلعم) فترجم بما يعني « غير المتعلم » او « العفوي » (انظر معناه : « الذي لم يتناوله تبليغ الرسالة » او الذي لم يكن يعلم شيئاً مما اوحى الله اليه به .) وبإساءة فهم الكلمة ، جعلت اللغة العربية الحديثة من كلمة « الأمي » مرادفة لغير المتعلم » بينما هي تعني ، دون شك ، : « الطبيعي » « والمندمج » ولم لا تعني المنتسب الى الام ؟

مثل الحياة الهلينية سراً فقدناه. فكأنما الفن التشكيلي الأغريقي من جانب ، والسلوك الاسلامي من الجانب الآخر هما نجاحان متوازيان للانسان المباشر .

ولكن على دراسة نمطيـــة للاسلام ، تعالجه في نزاعاته الحاضرة وتناسقاته الماضية ، ان تحمل على التدخل شخصاً ثالثاً يجلس الى جانبه في حوار بين الشرق والغرب ، حوار لم يعد فلسفياً فحسب وانما تاريخياً . وعندمـا يثور العرب على ماضيهم ، يشكل العصر الاستعماري الموضوع ، وفي الوقت ذاته المحرك لهـــذه الثورة . وتأكيدهم لذاتهم بحرارة وانفعال لا يسعه ، من عدة وجوه ، ان ينفصل عن الغرب . وبغضهم لماضيهم هو ايضاً ، كما رأينا ، ترميم للماضي بقدر ما ينزع للاصالة . « نهضة »* ، « بعث »* وحتى « سلفية »* ، كل هـــذه الكلمات التي تصف محاولات ذات محتوى وحظ من النجاح متفاوتين تشترك فيما بينها بطموحها الى اعادة التكوين . فلو سلمنا بدعوة العرب لرفض ماضيهم ، فيما يعمـلون على اعادة تكوينه لاستعدنا ايضاً ، عندهم ، على الطرف الآخر من العصور مساجلتهم مع اوربا وهي تكاد تكون جزءاً لا يتجزأ من كيانهم بمقدار ما هي مساجلتهم الداخلية مع بعضهم .

وملاحظة مثل هذه ، انا لا أرى فيها اي عامل للتهدئة ، بل على العكس تماماً (لاننا اصبحنا مدعوين من اغوار الزمن لمشاهدة حلبة الصراع ، أعني التبادل) ، ملاحظة مثل هذه تستمد قيمهـا الراهنة من وجود البحر الابيض المتوسط . ولا يتعلق الامر هنا فحسب بمنطقة جغرافية يبدو انها فرضت على المجتمعات التي تقوم على ضفافها نوعاً من التناوب التكويني بين الضفة الجنوبية والضفة الشماليـــة . والامر لا يتعلق حتى بكنز مشترك اغترف منه العرب تاريخياً بوساطة المترجمين الاسكندرانيين والسريان . وانما هو يتعلق بوضع اساسي محدود في المكان والزمان : اللاانقسام بين الشرق والغرب الذي غمر عصر ما قبل سقراط . اذ لا شك ان هناك كثيراً من المواطن والفترات التي التقى فيها الطرفان وخضع كل

منهما للتحول وللاستيحاء من الاخر . ولكن ، في نظري ، ليس من موضع آخر يقع فيه الضوء على مساجلة العرب معنا ومع انفسهم بصورة افضل مما في تأمل المواقف بازاء العالم ، كما تتبدى عند اغريقي قديم ، « سبّاق » الى الكثير من أفكارنا الحالية (١٧) . وان تفسيراً ، تاريخياً وفلسفياً على السواء ، يقودنا الى ان نستعير طريق هيراقليطس (١٨) ، بدلاً من طريق ابراهيم (١٩) ، لنفهم العربي التقليدي ، بصورة أعمق .

فاذا قيل ان الوفاء للمتسامي ، الذي هو اساسي في الرسالة السامّيـــة ، انما يجمعه العرب مع الكلية ، وكدت ان اقول مع حلولية السلوك (٢٠) ، لتبينت وحدة الدلالة بين ما يسمونه فضيلتي «الصبر »*او « الرضى»*ومقابلها الاغريقي: هومولوجيا Homologia وهارمونيا Harmonia (٢١) فاللغة العربية ، كاللغة

---

١٧) انظر الاطروحة ، غير المنشورة التي وضعها مؤخراً ك. أكسيلوس K. Axelos

١٨) الذي اثار بصورة محلة بالمعاني ، تأملات « شرقي » كبير آخر ، هو شري اوروبيندو Shiri Auro bindo في كتابه :«هيراقليطس» ، ليون ، منشورات بول ديرين P. Derain ١٩٥١ .

١٩) « المذهب الابراهيمي » فتح بالتأكيد ، للمستشرقين ، اعمق نافذة وضعت بتصرفهم على العروبة والاسلام . انظر النص الرائع الذي كتبه لويس ماسينيون حـــول : صلوات ابراهيم الثلاث . في مجلة « الله الحي » ١٩٤٩ ، عدد رقم ١٣ ص ١٥ — ٢٨

٢٠) انا التقي ، حول هذه الفكرة ، وتقريباً حول هـــذه العبارة ، مع ر . ارنالديس R. Arnaldez ، رغم انه يعطيها اتجاهاً متبايناً بعض الشيء . انظر خاصة تفريقه بين كلمتي « أمر »* العربية ولوجوس Logos اليونانية ، ص ٦٠ من اطروحته حول ابن حزم .

٢١) هيدجر : ما هي الفلسفة ؟ باريس ١٩٥٧ ، الترجمة الثانية ، ص ٢٤ انظر بابايوانو Papaioannou « الطبيعة والتاريخ في المفهوم الاغريقي للكون » ، مجـــلة Diogè ne ، ١٩٥٩ ، عدد رقم ٢٥ ، ص ١ وما يلي . وهنـــاك ، دون ريب ، مجال للتأمل حول عبارة «سوي»* التي تعادل المفرد Accompli او عبارة (T.Burc Khardt) Harmonnieux (R. Blachère) لنعت الشخص الذي تجلى لمريم (القرآن الكريم ، السورة تاسعة عشرة لآيتان ١٧ و ١٨) .

الاغريقية ، تلتصق بالطبيعة ، على الرغم مما يقوله علم الدين فيها . وهي تتابع ، مع الاسلام ، اتصالهـا ، بهذه الطبيعة في الوقت ذاته الذي تقر فيه بقدرة الله الكلية . وهذا الجمع بين عدة مجالات للاختبار بوسعها ان تبدو لنا متضادة سوف يثير ، دون شك ، التفكير عند فلاسفة الاسلام ، والقلق عند متصوفيه . ولكنه سوف يؤدي ، عملياً ، هذا الدور حتى يومنا هذا . فلا الانحطاط ولا التبعيـة لم يجردا (الاسلام) من امتياز الحياة الكلية . ومثل هيراقليطس، كان بامكانه ان يقول ، لو لم يكن في ذلك التشبه تجديف شنيع بالنسبة اليـه : « ان مزاج الانسان يتحد مع النصيب الالهي فيـه » او ايضـاً : « اذا لم يكن الكائن الا دخاناً ، لا يبقى للانسان الا ان يكون حاسة شم » ، لفرط التوقد في توافـق الانسان مـع الكون : ليس فقط على مستوى التعبير الفلسفي المكثف ، او الحدس الصوفي ، وانما ايضاً على مستوى السلوك .

والمجتمع الاسلامي التقليدي يتبدى مثل كرة متراصة يتجاوب فيها العقل والسمو ، وعالم تكتنهه الحواس ، ونوع من هناء الأحشاء ، مكتفين بهذا القدر من التعداد ، وتتصادى هذه العناصر في نظام كان بوسع اشراقيـة ابن سينا ، او « الروح المشتت » عند ابن رشد ان يشيرا اليه بنعومة ، ولكنه يأتي عليـه البرهان ايضاً في الحياة اليومية وهذا اللون العربي من الحياة اليومية ، نحن لا نزال نحس به ، مهما اصبحنا غرباء عنه في طريقة عامة الشعب بتحريك الايدي عند الحديث ، مثلما نحس به في ترصّن العقلاء . وفي نظام مماثل ، او بالاحرى تبعاً لمواقف مماثلة ، لا يعود الشيء الراهن الا رمزاً ، ولكن للفكرة طعماً مادياً . فلا الذهني ، ولا الجسدي يطلقان القيم المبدلة للاشكال . ورغم التأكيـد المستديم للسمو الالهي ، ينعقد عالم من التضامن ، والثواب ، والتبـادل الحار بين الموضوع والشخص ، ومن التحالف بين كل شيء مع كل شيء .

ولكن هذه الحكمة لا تتكشف لنا اليوم الا في صورة انقاض ، في نهاية

عصور انحطاط طويلة ، وفي مرارات النضال . وقد عملت بيئة أجدبت بسبب العبودية السياسية ، واللااستقرار الاقتصادي وتعليم فلسفي رجعي (علم الكلام) ، ودمار العصور ، ودروس الغرب ، كل ذلك عمل ، بحركة تبدل بسيط ، على تحويل الالتصاق بالكون الى « قدرية »* ، والجلال الى جمود ، « والشمول» الى ادعاء فارغ . « والتقليد »* كان ايضاً ذلك الشيء . وان ما يتكشف للمفكر العربي وما يملؤه بالأسى ، عشية النهضة او الثورة ، هو الانقلاب الساخر في معاني ماضيه الكبير ، والقرف من الامتياز . والعربي المتشبث بالتقاليـــد لا يزال هيلينياً [٢٢] ولكن من نوع فقد توافقه مع العالم ، وأصبح هدفاً للتحدي من قبل تاريخ الآخرين ، ولا يحظى الا بالمهام المذلة . وبكلام آخر لقد أعيد تغطيسه في الطين . لقد اصبح هيلينياً جهنميا .

الفتنة الجديدة لقد تفجر عالمه الذي كان يجد تعبيره في حكمة معينة وفي فن معين وفي اشارات معينة وجيلنا يعاصر الانفجار . فلنراجع اعداداً قديمة من مجلة « الهلال » الصادرة في عام ١٩١٠ مثلاً ، [٢٣] ومهما بلغ من رغبتها في الظهور بالمظهر الثوري ، بالنسبة الى الاغراض

---

٢٢) الهيلينية العربية تشكل موضوعاً اساسياً في افكار طه حسين وتوفيق الحكيم الخ ... ، ولكن تتخذ معنى يختلف عن المعنى الذي نعطيه هنا .

٢٣) « الهـــلال » القاهرة المجلدان التاسع عشر والعشرون (١٩١٠ - ١٩١١) ويمكن العثور فيها على دراسة وثائقية عن اليمن ، وعلى مقال شبه رسمي مكرس لدراسة « بعث الادب العربي بأمر من الحكومة المصرية » (ص ٢٢٠ وما يلي) . وفيها تذييل بمناسبة «عودة الى بيروت » ، ودراسة عن طرابلس الغرب والسنوسية وقصيـــدة شوقي في الهلال الاحمر ، ومذكرات رحلة الى رودس واخيراً رواية غرامية صوفية : « فتاة القيروان » وهي تقريبـــاً الاطلالة الادبية الصرف الوحيدة في هذه المجلة التي سوف يكون دورها ، فيما بعد ، أن تجسد النزعة الادبية في الشرق ، حتى في مواقفها المتطرفة (انظر اطروحة محمود فقار غير المنشورة) . وحول الحركة الفكرية في تلك الحقبة ، تبدو « مجلة العالم الاسلامي » (المجلد الثاني عشر) مليئة بالمعلومات ، بصورة مخصوصة .

التقليدية تظهر لنا هذه الاعداد ، عندما نقارنها باعداد حديثة من المجلة البيروتية « الآداب » مدى التوغل الهائل الذي بلغه سير الحساسية والتعبير العربيين . لقد تم الطلاق بين التفكير والشيء المعاش . والوجدان ، الذي اصبح اكثر فاكثر تطلباً وتعرضاً للعذاب والذي يقدم نفسه تحت اسماء عديدة : « وعي »* و « شعور »* ، قد فقد الحس الكوني . صحيح أنه قد ربح بالمقابل ، وفي الوقت ذاته ، الطبيعة والتاريخ . وانه لانتقال مثمر ولكنه مؤلم ! وان الاجماع الاسلامي الاول قد تصدع بالنزاع حول الخلافة الذي سمي « الفتنة »* . وفي الوقت الحاضر ، هي الحكمة التقليدية التي تصدعها ضرورة التكيف مع عالم الآخرين . والفسحة تتسع بين العناصر التي كان تعانقها يشكل الوحدة القديمة . والاحساس بهذا الفراغ هو ، لغوياً ، « القلق »* العربي في العصر الحديث ،(٢٤) هذا القلق الذي يسيطر اليوم على الادب وعلى الفعل . فاللحظة الحاضرة هي تلك التي يتحتم فيها على الانسان التقليدي ان يتخلى عن ذاته ، من وجوه كثيرة ، ليستطيع ان يتكيف مع الآخرين وليعود للمصالحة مع عالم أعادت الآلة بناءه باسم سببيات قاهرة . وهو لا يستطيع ان يعيد تنظيم كيانه ، بعض الشيء ، الا بالعودة عن تلاحمه . ومن هنا كان اضطرابه . انه لا يستطيع الوصول الى السيطرة على نفسه الا بانتزاع ذاته من الآخرين ، ولكن ايضاً بطلاقه مع ذاته .

فكيف يمكن احتمال هذا التمزق ؟ بدفق معجز من الارادة الجماعية . هذا هو ما يسميه العرب « ثورة »* بعد ان سموه « نهضة »* . ولنعد الى هذه الكلمة . وبما ان الاستشهاد بالقديم لا يغيب ابداً ، فان ما يبغونه هو الاستعادة

٢٤) انظر ما كتبته تحت هذا العنوان في « مجلة الدراسات الاسلامية » ، ١٩٥٨ ، وأسعد رزوق في : « الاستعارة في الشعر المعاصر » مجلة « آفاق » ، بيروت ١٩٥٨ ص ٥٣ يحصي في الشعر العربى الحديث ما يقارب الخمسين من المفردات التي تتكرر دون ملل للتعبير عن هذا القلق .

اكثر منه الخلق . والتبعية الطويلة التي خضعوا لها طيلة القرون الاخيرة تعمّق اكثر جانب « العودة » في مـا لم يكن ، او يقتضي ألا يكون ، الا سيراً الى الأمام . والآن ، فهم يتصرفون تحت وطأة العالم الصناعي . فاذا احتفظـــوا بحنينهم للنظام القديم ، رغم تحولهم الذي يغـــدو جذرياً اكثر فاكثر ، واذا كانت الحكمة التي اورثها الاسلام تبـــدو لهم ، اليوم ، فردوساً مفقوداً ، يكون كل شيء قـد جرى كما لو كان مجتمعهم الذي تحرر ، حتى الآن ، من خطيئة أبينا الأول ، قد تلقى من الغرب هذه الصدمـة ذات الانعكاسات التي لا تحد . فيكون الاستعمار والرأسمالية التوسعية قد لعبا في العالم الشرقي الدور الذي لعبته ، عندنا ، الخطيئة الاولى !

وهذه الخطيئة التي يعاني العرب من آثارها ، هم مدينون بهـا الى الآخرين. وهذا هو سبب الاحقاد الراسخة ، وهو الذي يجعل جاذبيـــة الأجنبي تمتزج ، عندهم ، بالنفور . لكنهم يرون بوضـوح ان عليهم ، في سبيل تصحيح اخطاء التاريخ ان يتوغلوا بصورة أعمق في التاريخ . ولكن هل بوسعهم ان يقوموا بذلك دون ان يضيعوا انفسهم ؟ ومن هنا محاولتهم بان يوازنوا بـين التكيف مـع الآخرين وتأكيـــد الذات . وهم باقون في المعركة ، وسيظلون ، ليس بفضل تجنيد القوى المادية وانما بفضل ستراتيجية الرمزي . صحيح ان هذه الرموز مستعارة اكثر فأكثر من التاريخ الدولي : الاستقلال والديموقراطيـة ، وانهم يغتذون في الشرق من الماديات الأكثر اخضراراً ، بسبب اللجـــوء المتزايد الى الطاقات الشعبية . هذه المجتمعات تبحث عن قوتها ، اكثر ما تبحث ، في توترهم البطولي او في اجماع « الامة »* . وحتى مشاريعهم التخطيطية تبـــدو ، من جوانب عديدة وكأنها تنقل الى القطاع الاقتصادي مركزية دينية قديمة .

ولكن هذا التصرف بالذات قد أبعده الى الماضي تصرف آخر اكثر حدة . فبين المثل الاعلى والفعالية ، بين السماء والارض ، تتطور هـذه الشعوب اكثر

فاكثر نحو الاتجاه الثاني . وكثير منها باشرت سيرها نحو اعادة صنع نفسها بصورة كاملة . ولكي تقف والآخرين على صف ، هي ترفض سلطان « الدلالة » لتكتسب سلطان « الشيء » . وبذلك هي تسعى للهرب من الرموز التي يقتضينا اولاً فهم هذه الشعوب بوساطتها ، وبالرغم من وجودها (٢٥) وبهذا الشكل ، يتبخر اليوم الكثير من وجوه الالتباس ، عند العرب ، وتتم عملية اعادة تنظيم بين الاطراف المتخاصمة والمتشاركة في حياتهم. وهذه العملية تصيب افعالهم وعواطفهم واوضاعهم واشخاصهم. ويسيطر على هذه الحركة العامة ايقاع ما .

ورغم انها تستعصي على كل وضوح مرتبط بالتسلسل الزمني ، فانها لا تخلو من التكشف عن بعض المراحل .

فانطلاقاً من حالة تقليدية — تساوق مع العالم ، عدم التجزؤ الكامل — سلخت الحاجة ، المفروضة اولاً ، ثم المقبولة ارادياً ، عن العرب سيطرتهم على الطبيعة ومبادرتهم للتاريخ (٢٦) . وهذه المرحلة تتجلى سياسياً بالنضالات في سبيل الاستقلال ، واجتماعياً بطفرة الجماعة المتحولة ، ومادياً بالتصنيع (٢٧) ، وجمالياً بتجديد الحساسية (٢٨) واخيراً — في مرحلة ثالثة — أدى التفكير الذي يتخذ اكثر فاكثر الطابع النقدي والبروز المتزايد لمفاهيم وقوى كانت ، حتى الان ، تلجمها القواعد الداخلية وسلطة الخارج على السواء ، أدى كل ذلك الى انفجار مشاكل جديدة ، حالما تم اجتياز عتبة الاستقلال .

---

٢٥) انظر فيما يلي الفصل الثاني .

٢٦) انظر فيما يلي الفصل الثالث .

٢٧) انظر للفصول الوسطى من هذا الكتاب .

٢٨) انظر الفصل العاشر وما يلي .

الفصل الثاني

ما يتغير وما لا يتغير من العوامل

في الصيف الماضي ، في بغــداد ، توجهت الى أرض عراء قائمة بين مقبرة ومستشفى . وقد دلني بعض الصبية على جدار مستطيل من اللبْن ، يقوم قريباً من نخلة غبراء ، وتعلوه قبة يقطع سطحها سلك تليفوني . وحول المكان مقبرة للسيارات . هياكل متشنجة ، قطع حديد مشرعة ، بشاعة سريالية مثيرة . كل ذلك كان يشكل الصور التزيينية لمقــام الحلاج « شهيد الاسلام » . ربما كان هذا التردي خادعاً : ففي هــذه الايام بالذات ، صدرت مقالة في احدى صحف بغداد يحمل فيها العلامة بهجت الأثري على ذلك الذي جرؤ ، قبل بضعة قرون ، على اعلان ذاته شيئاً واحداً والكائن الأمثل عندما صرخ : « انا الحق »*. فاهمال الموضـع لم يكن ، اذن ، ليقيه من ارثوذكسية ذات أحقاد مديدة . وحول الضريح كان الطمي المترسب من الحضـارة الآلية والتي تقوم في ذلك الموضـع مهجورة من قبل قيمها الذاتية بقــدر مــا تجردت ذكرى الحلاج من كل ثوب مادي ، كان الطمي الآلي يعرض بهرجاً وتعقيـداً وضيعـين . وكان الشرق القديم ، في دلالتــه تلك المنبعثة من ذكرى أحد اوليــائه ، يعترف بنكران ذاته ، وبجنينه الى ذاتــه . وفي الوقت نفسه بانضمامه الى العــالم الصناعي . وتحت شكل هو ، والحق يقال ، متطرف ومنهار : القفا وما يشبه الكاريكاتور لما يجهد الزخم الحقيقي للحيــاة الحديثة ان يحققه ، في هذه البلاد او في بلدان عربية . ومــع ذلك كان يوم ١٤

تموز يعد ، في كل مكان حولنا . وكانت مواضيع ومعارك الحيـــاة الحاضرة تزحف ،على هذه الصورة ، الى ارض الحلاج المصعوقة ، كما لو على موجة اخيرة .

الحوار بين الشرق والغرب ايضاً وهنـا ندرك كل مـا لا يمكن الاستعاضة عنه من زمان ومكان : وبالذات ذاك الذي تثير به الانفعال فيك الدراسة التاريخية للعرب . وطرافتهم المبهمـــة تخضع وتحمل الود لغزوة العالم في كوكب هو في طريقه الى التجمع . وتطوق العرب فيه ،من كل الجهات ، الافكار والاشياء . ومن هنا هذا الصراع ،عندهم، بين شخصيتهم وتوحيد العالم .

وكثيرون هم الذين تلهوا ، فيما بين الحربين ، في أن يطرحوا المشكلة وفقاً لتصنيف جغرافي مقرون بحكم مؤداه ان الشرق هو مملكة الروح والغرب مملكة المادة والسببيات القاهرة . وكذلك وفقاً لتراتب بسيكولوجي ، يضع بعض طبقات الروح في خدمة الفكر . وطبقات اخرى في خدمة المادة . ولنتذكر ، في هذا الصدد ، ما كتبه أناس مثل توفيق الحكيم واحمـد امين وطه حسين . ويستمر الحوار ، اذ ان جميل صليبا ، عميد كلية التربية في دمشق ، يخصص لهذه المسألة عدة صفحات في احدى النشرات حـــول التيارات الفكرية في بلاد الشام (١).

وقد قال الاستاذ محمد مبارك ، في خطاب ألقـــاه يوم الجلسة التأسيسية

---

١) جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ١٧١ وما يلي. وهذه المقولة المعاكسة (Antithése) أعيدت مراراً وتكراراً من قبل المداحين الشرقيين المجدين للشرق . انظر ، حول هذه القضية . الملاحظات القاسية التي ابداهـــا فون جرينيوم « محاولات للتفسير الذاتي في الاسلام الحديث » ، المجلد الاول والثاني من مجموعة : « اقتراب نحو تفاهم جماعي » نيويورك ١٩٤٧ ، وخاصة بمناسبة الحديث عن حسين هيكل .

للجمهورية العربية المتحدة : «ان المدنية الغربية يعوزها النور * الذي يستطيع اضاءة مشكلة الانسانية امامها ، والذهنية الغربية قد برهنت عن عجزها الاساسي الذاتي* وعن انانيتها وتخلفها الخلقي . فهي لم تستطع ان تلعب دور القيادة الروحية في العالم » . وبالعكس فان هذه المهمة ، وهذه الكرامة تعودان للشرق . فيا لتصنيف هو ، والحق يقال ، من باب الانشاء الادبي ! أما جميل صليبا فهو من التضلع بالفلسفة بحيث يمتنع عليه الوقوف عند هذا التصنيف . فهو لا يجد مشقة في اكتشاف تيار كبير من المثالية في الغرب . والحق يقال ، ليس من مجتمع مثالي ولا من مجتمع مادي بالمعنى الذي يعطيه علم الاجتماع لهذين المفردين . فكل هذه المجتمعات هي ، في آن واحد ، مثالية ومادية ، وان في أشكال وبنسب خاصة بكل منها . ومع ذلك ، فان عمليات التقطيع والتصنيف هذه تحمل في اقلام الشرقيين قيمة الشهادة والحياة ، التي سلّم بها ، على كل حال ، الكثيرون من ابناء مجتمعنا .

وعلى التحليل الأكثر تحدياً ان يقر بذلك . فقد بقيت ، في الشرق، رواسب من نمط عتيق . وقد نقبّت فيها مدرسة حديثة بكاملها فوجدت فيها ، او حسبت أنها وجدت ، استمرار رسالة . وقد اكتشفت في الاسلام ، وربما اكثر في الاسلام العربي ، تقاليد اقل انقراضاً مما في اماكن اخرى ، وان كانت مغطاة بطمي العصور وتجاربها المدنية الغربية . وقد كان جيرار دي نرفال يتقرّى في مشاهد مصر جزءاً خفياً من ذاته ونداء أسرة بادت من دهور سحيقة ، أسرة متواضعة وسماوية ، كانت عيونها ، كما كان يقول ، تبحث عن عيني بعطف ودود » [٢] وجينون Guénon ، قد اعتنق الاسلام ، عام ١٩١٢ ، لا الهندوسية . وقد اتصل على سبيل التلمذ ، بمشائخ من المذهب السني . مثلاً بالشيخ عيش ،

٢) « اوريليا » ، مقدمة جوزي كورتي ، ص ٢٦ . انظر رسالة نرفال الى تيوفيل جوتييه كما نقلتها مجلة « برج سان جاك » في العددين ١٣ و ١٤ ، عام ١٩٥٨ ص ٥١ واختيار اسم « هليوبوليس » من قبل ارنست يونغر Ernest Yunger ليس من قبيل الصدفة .

كبير علماء المذهب المالكي بالقاهرة ، الذي ساعد رساماً سويدياً على اعتناق الاسلام . وانه لوجه غريب هو هاجيلي هذا Hageli الذي اصبح ، في الاسلام ، الاخ عبد الهادي ! وقد جعل من نفسه ، في اوربا ، منذ جيل ، احد اوائل الذين نقلوا ابن العربي ... (٣) وعليش كان يعلن نفسه المعلم الاكبر للطريقة الشاذلية في مصر . فما الذي انتقل من تعاليمه الى الكتاب الذي كرسه جينون ، عام ١٩٢٤، للتضاد بين الشرق والغرب ؟ وفي ذلك الوقت كانت مجلة « دفاتر الشهر » تقوم بتحقيق حول ما تضعه تحت عنوان : نداء الشرق . ولا شك في ان طلبة عرباً كانوا يقيمون في باريس في ذلك الوقت ، قد تأثروا بهذه المناقشات وربما ايضاً بكتاب جينون الذي صدر ، عام ١٩٢٧ حول « ازمة العالم الحديث » . ونحن نجد فيه بعضاً من الموضوعات الاكثر تخريباً بالنسبة للمدنية الصناعيــة . ومن هـذه الافكار ، كما من رؤية سبنجلر للتاريخ المشحونة بالكوارث ، كما من التيار اليساري المعادي للاستعمار ، تتم ، عندئذ ، عملية تأليف متناقضة ينبغي لنا ان نربط بها بعضاً من الافكار الشرقية التي سادت فيما بين الحربين . وقد وصف فرنسوا بونجان François Bonjean ، عام ١٩٢٧ ، جينون وهو يتحدث في صالونه : « انني لا ازال اراه ، طويلاً ، نحيلاً متدفقاً بالطيبة ، وهو يواجــه محاوريه . ومنظر هذا الغربي وهو يدافــع بعناد عن تراث الشرق ضد اولئـك الشرقيين المتكلفين لم يكن يخلو من الطرافة والعظمة (٤) »

فلنحترم تكلف المستمعين الشرقيين ، وربما شيئاً من السخرية عندهم . اذ اننا الآن سنباشر الاستماع الى شهادات اخرى منهم ، . واغلبها لم يعد ينظر الى الحوار بطريقة جينون . وعلينا ، نحن ، ان نستبقي من تحليل جينون ما يتضمنه من دقة موضوعية حول الجانب القديم النمط من الشرق ، وكذلك ما يختلج

---

٣) وتجدر الاشارة ايضاً الى المستشرق الايطالي جان ساباتو Sabato ضمن هذا الفريق .

٤) ب . شاكورناك P. Chacornac ، « حياة رينه جينون البسيطة » « المنشورات التقليدية ، ١٩٥٨ ص٨٥ ، ويفضح ب نافيل P. Naville ، عام ١٩٢٦ اساءة استعمال « النزهة الشرق » التي يرتكبها السرياليون انفسهم

فيه من رعشة روحية . ولكن اختياره يبدو للنشاطيين الشرقيين ، مثلما يبدو لنا ، مشوباً بنزعة التعلق بالماضي ، ولنقلها بصورة حاسمة ، بالاتباعية (او « بالتقليد »*)رغم ان هذه التهمة كانت ، دون ريب ، سوف ترفض باستفظاع شديد من قبل المعلم . فمن الجائز انهم سوف يتهمونه بتقديمه امام شهياتهم الفتية مثالاً أعلى مفرطاً بطابعه النباتي .

الآية والموضوع

ان ردهات الفاتيكان تبهرنا بالبذخ المتألق فيما تحويه من اشياء .

ففي كل مكان ، من مجموعاتها ـ العاجيات ، اللوحات التماثيل ، الكرات الارضية ـ يندفع دفق طاغ من المادة . وهذه المادة قد نفذ اليها فنانون وعظمها مؤمنون ومتصوفون . ولكنها ابداً في عصيان ضد اللاجسدي . وهي تعصاه برقة . فهنا تتجسد الروح ، وتصبح الحقيقة لباً ، من هذا اللب ذاته الذي فطرت منه المشاهد الطبيعية والوجوه الانسانية . فلنقارن هذه الاشياء بمسجد الصخرة ، في القدس ، بعريه الهائل . وأكثر منه الكعبة التي يشع العالم حولها ، والتي هي مركز الحجر الاسود ، وموطن رفض الشيء . انها مكة : روما الآية او الدلالة .

وفكرة الآية تحمل المهتم بالعربية الى اللفظة الرائعة : « آية »*(٥) . فالقرآن يورد على لسان الله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق »* . فهذه الآية ـ العلامة او الاشارة او الدلالة ـ وهي البرهان الجوهري الذي ينبثق من الصحراء ، تدين المادة . فالمفرد اللاتيني Signum ، « علامة التعرف » ، ومنه « النتوء » و « الشكل المصنوع » يتجسد في تمثل ، بينما « آية » تتجلى فكراً او روحا في صورة كلمة . . صحيح ان عصورنا المتوسطة كانت هي ايضاً تعطي للمفرد

٥) لسان العرب .

Signum معاني روحية (٦) ، علامة التعرف على المسيح (اشارة الصليب) ، لغة التخاطب بين بعض الفرق الدينية . مثل دقة الجرس التي تشير الى اوقات القداس ، او المؤذن الذي يدعو الى الصلاة . وعلى هذا ، اصبحنا ندرك ان تكون هذه الاشارات المتعادية كانت تثير ، في فاس او في غرناطة ، بين اصحاب العقيدة الغالبة والأقلية المارقة ، مشاحنات تدهشنا اليوم بعنفها . وعلى كل حال ، فعلى مثل هذه المسافة من الماضي ، تمحي بعض الفوارق التي كانت تفصل ، لثلاثين سنة خلت ، بين اسلام منطو على عقيدته ، وغرب يهدف الى السيطرة على العالم ، مثل البيريك Alberich . وتتجـه الفوارق من جديد الى التقلص بين غرب يحاكم نفسه واسلام يسير نحو الحياة الحديثة . وظاهر ، اذن ، ان هذه الفوارق تقتصر على طبيعة تاريخ يحدث تعديلاً في القيم والأشكال . وما تعبر عنه هـذه الفوارق من طابع مميز ، وما لا يحيد عن جوهره ، علينا ان نحصره ونفسره ، بدلاً من ان نركز عليه تعريفات تحمل الكثير من سوء الاستعمال .

وللمسيحية رموزهـا عن الرسل . ويقول روفين Ruffin ان هؤلاء كانوا يريدون ان تسمى هذه القاعدة رمزاً Symbole لأن هذه تعني ، باليونانية ، في آن واحد المبدأ الاساسي Initium = Principe والاصطلاح = la Convention Collatio والقديس اوغسطينوس يوضح هـذا المفهوم بالجوء الى تشبيه باشارة تعارف بين التجار (٧) . وبوسعنا القول ايضـاً : تعارف بين رفاق ، او متآمرين ، او مبتدئين في تلقي الاسرار . انه مظهر التواطـؤ السري ، المظهر الأداتي . والتأويل « التقليدي » « يطرد » ، قدر استطاعته ، المشكل الاجتماعي

---

٦) دارمبرج Daremberg وساجليو Saglio وفروند Freund وديكانج Du Cange هذا القاموس يثبت سبعة عشر معنى للمفرد .

٧) قاموس الاثار المسيحية القديمة والطقوس الدينية .

Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie

انظر ايضاً فيما يتعلق بالاسلام مقالة مرجليوث في موسوعة الديانة والاخلاق .

Encyclopoedia of Religion and Ethics

حتى ما يختص منه بالطرق الدينية ، او بالكهنوت ، كي يقصر مراجعه على « زخم الاندفاع نحو المقدس » [٨] . ولكن هذا الامر يؤدي الى تشويه معنى الزائدة المتقدمة الاغريقية Sun التي يرتكز عليها ، بالعكس ، علم الاجتماع الحديث . والمظهر الأداتي l'instrumental يبتدىء بكل قوته في رسالة ميرسيا الياد [٩] Mircia Eliade ففي نظره ، بقدر ما تكون الرموز دينية ، بقدر ما تهرب من التاريخ ، او على الاقل لا تخضع له إلا بنعومـــة . وبالاحرى ، هي ترتبط بالتزامات الانسان الاولى نحو العالم . وهكذا يبدو انها تنتقل الينا تحت أشكال راهنة - صـــور او كلمات او اشياء . ويلعب الشرق دوراً اساسياً في عمليات الانتقال هذه .

ولنلجأ ، على الطرف الآخر ، الى علمـــاء الاجتماع . وطريقة جرفيتش Gurvitch معروفة ، بصفائهـــا الأدراكي الذي كان من الممكن ان يصبح بالغ الجمود لو لم يمهره دائماً بنوع من الرعشة وما يشبه التكثير بوساطة الحركة . وهو يحدد الرموز كآيات اجتماعية هي غير ملائمة ووسيطة في الوقت نفسه [١٠] وهذه الرموز ترجع الى شمول اوسع ، ثقلاً ونوعاً ، من مادتها الأداتية وحتى من الافراد الذين تخاطبهم . ففي هذا الشمول (الاجتماعي هنا ، ولكن يمكننا نعته بالشمول المتسامي) تستقي الرموز قوتها وقدرتها على اثارة الانفعـــال وعلى التحريض . وغناها يرتبط بضريبة عدم كفايتها في الاداء بوضوح . فهي تنبىء بصورة أقل امانة مما تنبىء الجملة المتسلسلة . ويستتبع ذلك ان الكلمات تستطيع ، في الرياضة الروحية او في الفن ، ان تتخذ قيمة رمزية تكاد تسير عكس قيمتها

---

٨) ر . آللو R. Alleau « طبيعة الرموز » .

٩) ميرسيا الياد : « الصور والرموز ، محاولة حول الرمزية السحرية - الدينيـــة » - دار جاليمار ١٩٥٢

١٠) ج . جرفيتش : « رسالة علم الاجتماع » ١٩٥٠ ص ٧٥ وما يلي .

الانبائية أعني قيمتها في التبادل النفعي [١١]

فعلم تاريخ اللغة ، اذ يميز بين سجلين : سجل المعبّر (او العبارة) وسجل المعبّر عنه [١٢] ، يسمح بابداء هذه الآراء . فمثلاً ، ان عبارة ما ، عندما نلفظهـا تتضمن المعبّر الصوتي والمحتوي المعبّر عنه حيث يجب التمييز بين نصيب الإنباء ونصيب الاثارة . وبين هذين النصيبـين ، يرتب المذهب الكلاسيكي (او المنهجي) توازناً حاذقاً . اما المذهب الشعري الحديث فيهدم هذا التوازن . وقد كان ريمبو يقول : لقد كنت أسجل ما لا سبيل الى التعبير عنه . لقد كنت أرسي حالات الدوار » . بينما يصح تشبيه قصيـدة من راسين بمثلث متكافىء الضلعـين حيث يتأمن التوازن بـين كل العناصر : الموسيقى اللفظيـة . والطاقة الانبائية العملية ، والقدرة على الاثارة [١٣] . ونحن ، اليوم ، نخضع بحساسيتنا ، اكثر ما نخضع لهذه القدرة الاخيرة . نحن نطلب من الانفعـال الجمالي ان يشارك في قيم ليس بينها شيء مشترك غير انها تتجاوز الفردي والعملي والمعقول : موجات كبيرة من الإجمـاع الاجتماعي ، وانطلاقة نحو المقدس ، وغطسة في اللاوعي . وما يصح على الشعر يصح ايضاً على الفنـون الاخرى ، وبصورة تحتمل امتيازات أقل ، هو يصـح على فن القول ، والاشارة ، وعلى الاشياء . فكل شيء في داخلنا وحولنا يسعه أن يأخذ معناه ، حالما ان الشيء

---

١١) هذا الجانب العملي من التبادل اللغوي قد القي الضـوء عليه خاصة من قبل هنري لوفيفر Henri Lefèvre في بحثه : « الحاجات واللغة » في مجموعة « ابحـاث واحاديث فلسفية واقتصادية » عدد ٣ ، باريس ١٩٥٨

١٢) انظر سوسير Saussure : « محاضرات في العلم العـام للغات المقارنة » دار بايو Payot ١٩٥٥ ، ص ٩٨ وما يلي .

١٣) وبكلمات اخرى ، يبقى هذا الامر شعراً بالضبط بقدر ما فيه من هذه العودة الى اللاتجزئة الاولى (التي سبقت الحضارة الانسانية ، اذا شئنا) بين « الوظائف » المتعددة التي يفصل بينها تحليلنا بصورة كيفيـة ، في اللغة : وبصورة خاطئة ، في نظر هيدجر في كتابه : « رسالة حول النزعة الانسانية » عن دار اوبيه Aubier ص ٧٩

والاشارة والقول تبادل ، قليلا او كثيراً ، كنهما المبتذل مقابل بلوغ ما هو أعمق واوحب . والرمز يكتسب قوة تزداد كلما ظهر ان التبادل غير متكافىء . ومما يمد في جوهر قوته ضآلة الاداة ، وعدم توافقها مع اي شيء واع او عملي ، وأخيراً نوع من التبلور .

وبالضبط ، يتحدد « الرمز »*(١٤) ، في اللغة العربية ، بمعنى يكاد يتجرد من الاساس المادي : انه همس ، انه حركة صامتة في الشفاه او في الجفون ، انه تلميح ، انه نبرة . ووفقاً للابهام المميز للغة ، تنتهي هذه الكلمة العميقة باتخاذ الالوان الأكثر تنوعاً ، وايقاعاً ، في نوع من التناوب بين الخير والشر .

فما هي ، مثلا ، « الرمّازة »* او « الغمازة »* ، والكلمتان تستعملان في معنى واحد ؟ انها المراة التي تبث حديثها دون تهجئة ، فلا تستعين بالكلام وانما ، مثلا ، ترمش بجفنيها دلالة على الدعوة او القبول . وقد تكون المرأة الكيسة ، تلك التي تجيب بضغطة من الانامل ، او بأية صورة اخرى ، ولكنها ، على كل حال ، لا تستخدم عملية الكلام ، ناقل التحريمات الصارمة ، والقوى الخطرة . ولكن تماماً على الطرف المناقض لهذه القيم الانفعالية ، يقوم « الرجل ، رمز الرأي »* ، وهو الحكيم ، الذي يحتقر الخطاب ولا يعبر عما في نفسه إلا بصورة اقوال تلمح ولا تصرح ، وربما بصورة صمت من يعلم ، « صمت الحكمة »* او بأية صورة اخرى ايضاً ، بوساطة سحنته او مسلكه .

وهناك كلمة اخرى ذات استعمال اكثر شيوعاً اليوم بمعنى « الازمة » هي كلمة « شعار »* انها تحير بترف معانيها المصطلح عليها في اللغة القديمة . فاصحاب القواميس يقيمون ، عن صواب او خطأ ، علاقة بينها وكلمة « شعر »* (بفتح الشين) وهي تعني ايضاً « التفاف الشجر في الغاب » ، و « الظل » ، او ايضاً الثوب الأكثر سرية » ، « او الثوب الداخلي » ، وبالتالي « الجوهر الحميم

---

١٤) انظر « لسان العرب » حول كل هذه الكلمات .

للجسد » ، وذلك انسياقاً مع هذه الشطحات الشهوانية التي تميز بصـــورة فائقة مدنية من هذا النوع . وهناك اشتقاق آخر : العلامـــة التي تدمغ بها الضحية ، لدرجة انهم كانوا يقولون ، في الجاهلية ، عندما يقتل أحد الملوك: لقد « أشعر » * أي « لقد وسم » ، فتلقى الجرح الرمزي ، ضريبة الدم التي ترفعه الى عالمٍ من عمليات الانتهاك المدهشة ، ومن التبعات المأساوية . واخيراً تعني كلمة « شعار » « الراية » و « صرخة الحرب » وهنا تلتقي المعاني التي تقود ، بتعميقهـــا لما يحمله شيء ما من وجوه الاختلاف والتباين مع غيره ، الى الدلالة الرمزية ، اي المعبرة عما هو ارحب وعما هو اعمق .

ومن طريق آخر ، تقود اليهـــا مفردات مثل « وسم » و « سمة » . فهي تشير الى العادات في حيـــاة البداوة ورعاية المواشي . فالبدو يشرمون آذان انعامهم او يحدثون جراحاً في اكتافها ليدلوا على انتمائها الى هذه القبيلة او تلك وفي هذا الميسم الجسدي جهر بالشخصية . و « الوسيم » * ، اي الانسان الحسيب ، يحمل نسبه في وجهه : الجمال ذا الدلالات ، لو صح القول ، الذي كان قدمـــاء العرب مولعين به .

ولنهمل كلمة « علامة »* التي تحمل من الوعي والتكلف اكثر مما يتلاءم مع حديثنا ولنعد الى المفرد المهيب الذي ذكرته سابقاً . فان سور القرآن تتتابـع كحبات المسبحة في ايقاع يبهر الانفاس ، كل جملة فيها تشكل « آية » ، واصحاب القواميس يجعلون من لفظة « آية » نوعاً من التقطيع في الترتيـــل . ونظام اشارات . وهناك تفسيرات اخرى تلتفت الى الكيان الفردي ؛ معجزة التوحد الذاتي الذي يكمن في كل كائن : وهكذا يمكن القول : « آية رجل »* ، أي شخصية رجل . وهذا الرهط خرج بكامله :« خرجت القوم بآياتهم » * وبهـذا المفهوم للكامل وللمجمل ، نحن نهتدي الى احد الاشياء القليلة التي يراهـــا علماء الاجتماع واللاهوت ، في اتفاق غريب فيما بينهم حول هـــذه النقطة ، كامنة في الرمز .

الشوق الرمزي   وهذا الغني بالالفاظ يحمل دلالة لا يكذبها الشرق الحديث لا باشخاصه ولا بأشيائه . وهذه هي بعض الملامح التي جُمعت تقريباً ، على وجه الصدفة ، للتدليل على ذلك .

ففي تموز ١٩٥٨ ، كان السيد عبد الرحمن ، ابن المهدي السوداني ، يعالج قلبه في جنيف . وفي غرفته المطلية بالدهان الوضيء ؛ والمتألقة بترف الفراغ الذي تعرف المدنية الصناعية كيف تحيط به المرضى ، كان الشيخ يستريح . وخلفه ، على الشباك ، كان يتدلى سيف ذهبي ، هو سيف قاهر جوردون . وكان « السيد » ينقل هذا الاثر ذا المغزى كلما ترك بلاده . هكذا قال لي . فالرمزية كانت متعمدة ، في هذه الحالة .

ولكن من الاصعب تفسير تلك الراية الحمراء التي تخفق فوق مساجد كربلاء ، كما لو كانت تهدف للتمثيل على الآراء التي تجعل من الدعوات الشيعية مظهراً للثورة الدائمة في الاسلام . ولكن لو ذهبنا الى ما هو اعمق لرأينا انها تتعلق بفن معاني الألوان الذي وضعت له الصوفية الايرانية تفسيرات وحواشي دقيقة . فقد كان السمعاني يقول : تسيطر على الانسان سبعة مراكز ، لكل منها لونه : الاخضر الذي يبشر بمحمد وبالمذهب الشيعي ، والأسود الذي يبشر بالمسيح الخ ... [١٥]

لمَ اللجوء الى هذه التأملات الفكرية ؟ ففي المدينة الاسلامية ، يتفجر الرمز من كل مكان . ان نداء المؤذن ، وازدحام المصلين يوم الجمعة وتزويد المدينة بمسجد جامع مركزي ، ومقامات في الاحياء ، منابر وأضرحة ، كل ذلك يخضع المدينة بكاملها لتخطيط مدني قائم على الاشارة والآية . فلننظر من قرب اكبر .

---

١٥) هـ . كربان H. Corbin : « الخيال الخلاق في صوفية ابن العربي » باريس ١٩٥٨ ص ٤٦

ان قباب الآثار تشير الى قبة الفلك كما تشير قواعدها المربعة الزوايا الى الارض: انها رمزية مناقضة لرمزية الشعوب الهندية ـ اوربيـة . والزخرف العربي هـو ايضاً رمز . فبرسومه ومادته ، هو يعطي المغزى اكثر مما يفصح عن المعنى . وفيه يستلهم الفنان التقليدي تشابك الخطوط . وتعانق الخطوط يقترح على المتفرج لغزاً يفترض حله ، عبر كل المعاني الحرفية ، ما لا يعبر عنه بالكلمات . وحتى حين تستخدم الكتابة العربية في الظروف الاكثر عادية : الرسائل والعقـود ؛ فهي توحي اكثر مما تنبيء . وتقسيمها البنائي الى حروف صوتية وحروف صامتة يثير تجاوبات من كل نوع : موسيقية وصوفية على السواء . ولهذا السبب، لا تعطي اللغة المحكية من اللغة العربية المكتوبة غير هيكل مشوه . او ما يقارب السخرية . ففن الدلالات الحسية الذي تدور عليـه اللهجة العاميـة يناقض فن الدلالات الكينونية الذي تتضمنه اللغة الفصحى ، « اللغة » * ، ومن هنا ، كان شجب العامية من قبـــل حركات الانبعـاث القومي التي تحاول ان تستمد من الكلاسيكية ليس تجاوباتها في الدعوة للوحدة العربية ، وانما وسيلة للتأجيج عن طريق تضادها . ونحن نلمس هنا احدى قضايا الساعة المحرقة . فليس من الجماليـة الصرف ان يلقى هـذا الدور على عاتق الاطار المهيب وعلى وسائل التبـادل ـ بالكتابة والقول ـ التي تستمد القومية العربية منها اغلب قوة دفعها الجارفة ، على الاقل في كل فترة ما بين الحربين .

فلكي يتبوأ التاريخ الحديث ، اضطر الشرق ان يتحول كله الى رمز .

الشرق في
النظرة الاجمالية

هكذا هو لا يزال يبدو ويصدم حتى اليوم ، رغم تصنيعه المتزايد واندفاعاته الزمنية المتنامية . وباتفاق من الصدفة متناقض الظاهر ،هذه البشارة

التي بحث عنها ووجدها فيه الشعراء والمتصوفون ، من السهروردي الى نوفال ، البشارة بالحقائق القديمة التي تحمل الينا رسالة تقاليده وملامحه وحتى جسده ، هذه البشارة لا تستطيع ان تغيب عن انتبـــاه حتى اكثر الناس جهلاً بهذه الشؤون . ووصف الخبر الصحفي يلتقي هنا مع افكار المؤرخ التأليفية ، ومع تأملات المريد الصوفي .

في كل مشهد من مشاهد مدن الشرق يتفجر عدم التناسب بين نطاق الحياة ونطاق الاشياء ونوع من التصادم العنيف بين عهود الماضي ومستويات الكائن في الحاضر . فقـد بقيت حيـاة الاسكندرية القديمة في منعطفـات الازقة وعلى سطيحات المقاهي ، وفي الصباح الزاخر بالغبار واللؤلؤ ، والعشيات العابقة بمشاهد الفجور في « سيدي بشر » . ويمكنني القول ، ان كثيرين غير الشاعر كافافيس Kavafis[١٦] قد أحسوا بذلك . فكل مدن الشرق هي « قلاع الذكريات » بمعنى انها تمجد الحقير وتدنس الرفيع والمقدس . فكل عملية « تجديد » * تتضمن مثل هذا التدنيس . وعلى العموم يسيء الناس كثيراً فهم هذا الامر ، في الخارج . فبغداد ، في ايامنا هذه ، هي مدينة يقوم فيها الماضي شاهداً وعرضـة للتشويه . وتغري جادات ٌعريضة ، مستقيمة الهندسة ، صميم متاهات مبنية من الطين الاسمر ، محدثة تضاداً صارخـاً مع القباب المبنيـة من القيشاني الازرق ، على الطريقـة الفارسية ، ولكنها تتفق مع هذه الجسور المعدنية الضخمة التي يبنيها « كروب » لحساب السوق المشتركة . ويأخذ بخناقك تناقض آخر حينما تزور المتحف العربي . وهو يشغل بناء قديماً كان ملحقا بمسجد المرجان الذي يفصله ، اليوم ، عنه شارع الرشيد . انه بناء من الفيء الرطب والغنى الصامت . وعندما تتنفس قليلاً بين

١٦) انظر ترجمة مرغريت يورسينار « تقدمة نقدية لقسطنطين كافافي » عن دار جاليمار ١٩٥٩ . وفي المذهب الاسكندراني ، ليس بالامكان فصل كافافيس عن تذييلات لورنس دوريل Lawrence Durrel المذهلة .

قاعتين ، وتنظر من الشباك ، ترى « بانك ستويت » (شارع البنـــوك) الذي تركزت فيه اليوم كل المصارف مثلما كان الصـــيارفة يتجمعون في الماضي . وتستطيع عيناك ان تحيط على التوالي بفخاريات بديعة من سامراء مصطفة على رفوفها،وقريباً منها اعمدة الحديد والاسمنت المسلح التي شيدتها رأسمالية متبجحة .

والانطباع نفسه يشعر به من ينظر الى القاهرة من الجزيرة . فهـــذه الضفة تغيرت تماماً منذ سنتين . فقد غطتهـــا حانات شعبية تقوم بدور الرئات بالنسبة للضواحي . وقد زرتها مؤخراً . وكنت اوى امامي صفاً غير منتظم من البيوت يحد الضفة اليمنى . واساليب البناء من كل طراز تتربع فيه في آن واحـــد ، شاهدة على تتابع العصور والاذواق . فهناك بعض دور قديمة بناها سراة العهود الماضية . وهي مغطاة بتخاريم وزخارف تشارك فيما يُعرف ، بالمغرب ، تحت اسم « طراز جونار» « Style Jonnart » . وهو يقابل ، في مصر ، الطراز الايطالي الذي كان يسود في النصف الاول من القرن العشرين . وفندق سميراميس نموذج عنه . ولكن الفنادق الحديثة ، مثل شبرد الجديد وهيلتون ، (١٧) تحرص على تحاشي كل زخرف مصطنع بقدر ما تتحاشى كل طابع محلي .

والى اليسار يقوم مقر الجامعة العربية . وبناء آخر يسد الافق ، ويقوم الى اليمين ، من جانب الروضة ، ويشرع عاليـــاً في الاجواء ، كشعار ملتهب كل ليلة ، اعلاناً هجومياً عن الكوكا كولا . ومع ذلك ، على الضفة ، تمامـــاً بازاء النادي ، يمكن تمييز مقام احد الأولياء ، يتصل بالنيـــل . لقد ابتلعته الابنية . وتشاء الصدفة ان تكون المكاتب التي تحيط به (في رصيف شارع ماسبيرو) محتلة من قبل وكلاء الآلات والاعتـــدة الضخمة : اجهزة لقياس ضغط القاطرات ، وتركيب الفلزات المعدنية .

---

١٧) لقد رأيت ، منذ كتابة هذه السطور ، فندق هيلتون بعد انجاز بنائه . وبودي ابداء تحفظات عديدة حول هذا الصنيع الفخم المتسم بجمالية عربات النوم .

ودون خشية من الغلو في هذا النوع من المقولة المعاكسة (Antithèse) التي تكون مادة الشرق الحاضر بعينها ، اود ان اشير ، ايضاً ، الى طرابلس (لبنان). فمن حديقة زرعت باذنجاناً تنبسط على الضفة اليسرى من مسيل « ابو علي » ، انا اشاهد امامي هضبة هي « القبة » التي تبرز قمتها صوراً مضحكة بغرابتهـا : مشارف جريئة ومآذن مثلمة . وتضطرب دنيا من بهلوانيـــة الباطون المسلح ، بزهو ، حول آثار اسلام القرون الوسطى . اسلام يتمثل بالمداميك المنحوتة ، وبالأزقة الظليـــلة ، وبالشعريات الخشبية الغريبة التي تتطلع النساء من خلال ثقوبها .

وخلفي يقع الحي الفرنكي ، المتسلق هضبة حي « ابو سمرا » نحو قلعـــة سانت جيل الصليبي . والى اليسار ، حول حي « التل » تشع طرابلس الحديثة ، اشعاع الكوكب ، بصـــورة جادات عريضة ، ولكن ليس بدون ان تقوم الصناعة الناشطة – صناعة الزيت والصابون والحلويات – بالمطالبة بالاتفاق المتجدد بين المدينة وريف الزيتون والبرتقال .

وتلك كذلك هي حال حلب ، التي كان ياقوت يشيد بها ، لوفرة بقولهـا ، ولغنى السهل الفسيح الذي كان يمتد أبعد من مدى البصر حولها . والقلعـة التي ظلت دائماً تدعي الانتماء الى ابراهيم الخليل . تشمخ فوق مربّع من ابنية تنتشر حولها مثل مصراعي صدفة . وهـــذا الانقسام يعود بعيداً الى الماضي . فالى الغرب لا تزال تلوح ، تحت تخطيط الشوارع ، الهندسة . وقد تبناهـا التخطيط العمراني الحديث واستعدادها لحسابه ، في ردّة غريبة . وفي الشرق يسود التشابك الاسيوي ، تراث القرون الوسطى ، مثل الاسواق الكبيرة . ويبقى العهـــد التركي حياً ، في بذخ الدور الارستقراطية ذات الرخام المتعدد الالوان والأبهاء الداخلية التي ترطب جوها شلالات مائيـــة مصطنعة تحمل إسماً في غاية الجمال : « سلسبيل »*وتسعى المدينة الحديثة بحركة تصنيع عميقة ،وبحيويتها المتشككة،

لتكون جديرة بماضيها الذي لا يسبر له غور ، من طريق تحديه .

وبالطبع فان ذلك لا يتم دون حدوث اضرار . فالتضاد بين الحقب والميول، وعدم التناسب بين الذكرى والامال والرداءة ، كل ذلك يجعل من كل شيء في الشرق ، دلالة ومقياساً اكثر مما يجعل منه واقعاً . ولذلك ، لا يزال من الممكن التجول فيه ، في عصرنا هذا ، مثلما كان يتجول جيرار دي نرفال . الا اذا كان المرء يطوف فيه مثل مدير البنك الدولي للتعمير والانماء . ولربما تجري الامور هكذا ، او بما يقارب ذلك قليلاً او كثيراً ، في مجتمعات اخرى . ولكن ليس في مكان آخر ترفعُ فيه تباينات ٌ بمثل هذه الضخامة ،الشيء المعاش والمحسوس الى قيم ذات دلالة ، مماثلة . او تفرض فيه على الواقع الحاضر عمليات مواجهة بمثل هذا الطابع الساحق .

الحنين والرجاء والاحساس بقصر العمر ، هذه هي الابعاد الثلاثة التي تحد الحياة العربية ، في ايامنا هذه . ولهذا السبب ، فان كل ما يعمل فيها وكل ما يقال : الحركات والاقوال والاشياء نفسها تتخذ فيها ،على التوالي صفات متضادة: حميمية ، جلال ، مأساة ، لو شئنا ؛ وفي المجموع ملهاة. هذا السجل المزدوج من الانفعال والتمثيل يقود المتبحر في دراسة العرب والعربي نفسه الى المفاجآت وسوء التقديرات . والتحليل يخرج من ذلك ، عادة بمواقف وأفكار متناقضة ما لم يدع نفسه ينساق مع احد الموقفين المتعاكسين : إما اللطف المشبوه وإما سوء النية المخطىء [١٨] . واما مع الاثنين في آن واحد . وفي الواقع ،هذا الموقف المزدوج ليس الا صورة الجواب ، عند الاخرين ، على ما يحسه العرب بالنسبة الى انفسهم : تفاؤل متهور ، او تشاؤم مضنٍ . او كلا الاثنين في آن واحد . ومن هنا كان ترددهم الذي قلما يفقهه الاخرون .

---

١٨) لا نود هنا ، ان نذكر عناوين ...

وحيث يفشل علم النفس في تفسير ظاهرة من هذا النوع ، بغير ايراد المقولات المتعاكسة (Antithèses) : حبك مؤامرات وعنف ، مساومة ووهم ، نبـــل وجشع ، يستطيع التحليل الخاص بعلم المعاني ان يكون اكثر طموحاً ، واذا كان دون كيشوت الشرقي [١٩] يدهشك بغمزة من عينه تشركك في التواطؤ ، بينما يستطيع سانشو ، الدسم الشهوانية ، على طريقة اهل المدن ، ان يموت كبطل لا نفعي [٢٠]، فلنكن حذرين من التوقف عند عمليات المقابلة هذه بين المتضادات التي غذتها واستغلتها طويلاً مناورات بارعة من قبل الغير .

والتفسير المؤقت على الاقل ، هو ان العرب في امــــالهم ، وأطار حياتهم ، والتقلبات التي يضطربون فيهـــا ، يخرجون بفضيلة خاصة بهم من مقارنة الحاضر الموجع بالماضي والمستقبل اللذين لا حد لهما ، كلاهما ، فكل شيء فيهـــم وبهم وحولهم يتبلور في رموز مؤثرة . ومن ذلك ، سوف تفيد مغامرتهم الحديثـــة وتعاني في آن واحد .

... الشوق في التاريخ حتى حصول الاستقلال ، اكدت البلدان العربية نفسها ، بتمردها ضد الشيء بالذات ، الذي كان يساند ، بصورة رئيسية ، التوسع الغربي : أعني : الشؤون الاقتصادية. وقد جعلت تحليلات كلود ليفي ستراوس Claude Lévi - Strauss[٢١]

---

١٩) وبعد كل حساب ، فان كيشوت نفسه يمثل هذه المساجلة بين الرمزي والمحسوس التي تدور في بعض الشعوب ، في بعض الفترات ، اكثر مما تدور في غيرها .

٢٠) ومن هنا الدهشة المضحكة الى حد ما التي تخالج القوى الغربية امام الشدة المقاتلة التي يبديها ، رغم الذهنيات المتلقاة ، اشخاص من المدينة : سواء كانوا بورجوازيين من دمشق او أعضاء برلمان قاهريين. وفي هذه الايام يبدو ان المحارب البدوي هو الذي يجد نفسه موضوعاً ضد التيار لانه يقف ضد التاريخ : فهو لم يعد يتضمن « معنى » لذلك يضل انصاره .

٢١) الذي سوف يعذرني اذا استقيت الآن ، من اثره البالغ الغنى هـذا النموذج الخاص بادارة العمليات .

شيئاً مألوفاً من تقسيم ثلاثي متراتب للتبادل : تبادل النساء وتبـــادل الكلمات وتبادل الاموال . فمنذ نصف قرن ونيف* ، ولكن بصورة اكثر إلحاحاً على مر الايام ، ينافح الاسلام عن نفسه بالتكاثر المدهش في عدد السكان ، وهو نوع من اللجوء الى الحياة البدائية ، التي تغمر شيئاً فشيئاً كل السدود ، وبالبعث اللغوي الذي يتيح طواف العواطف الوحدوية من الاطلسي الى الخليج الفارسي . أليس في ذلك ، اذا صح القول ، تمرد المستويين البروليتاريين للتبادل ، على التبـــادل الاقتصادي ، وهو الامتياز الذي تنفرد به البلدان المتطورة .

وفي الواقع،فان الشرق يبغي ، اكثر فأكثر،الوصول . الى هذا المستوى غير الارستقراطي، فهو يعلم ، علم من كان الضحية وموضوع النزاع ، ان منافسات الحياة الحاضرة تقوم هناك . ونزعة من هذا النوع ، والنضال الذي تندرج في إطاره ، يغيران اطراف العلاقات المعنية . وينتج عن ذلك ان هذه الاطراف لا تستطيع ان تكون متضادة ، هكذا ، فيا بينها الا بفضل تبسيط خادع لخطوط الصورة .أكيد ان التغيرات التي تُمارس وفقاً لها، وبالنسبة لبعضها البعض،حيوية لا يمكن لجمها،ونزعة عاطفية يغلب عليها الطابع الخطابي واقتصاد يزداد إلزاميـة يوماً عن يوم ،ولكن يغذي آمالاً ظليعة ، أكيد ان هـذه التغيرات تعطي المتبحر بشؤون الشرق قاعدة ارتكاز ملائمة.ومع ذلك،علينا الا نميز في هـذه المجتمعات، إلا موقتاً ولحاجات البحث:النصيب العـائد لكل من القوتين اللتـين تضعهما على طرفي نقيض ، تعسفاً ، ولكن بغرض التسهيل ، المقابلات الكلاسيكيـــة بين الروح* والمادة* . فلنتصورهما لحظة كما لو كانتا تنبثقـان من بؤرتين متنافستين ، وكما لو كان كل شخص وكل شيء في هذه البلدان يتأثر من تداخلهما . وعلى الأقل، هذه الرؤية المبسطة تستمد بعض القيمة ليس فقط من فكرة ان العرب يكوّنون انفسهم بانفسهم ولكن من الحركة التاريخية التي ترج مجتمعهم ، ذا الماضي الباهر، وذا الذاتية الدينية ، في معركة تكيّف عسيرة مـــع عالم الآلة . وعند طرفي التناقض : من جهة قوة مادية ، كانت حتى اليوم وقفاً على الغرب ، تبدو للذين

يقاسون وطأتها مجردة من السماحة والشرعية وحتى من التعقل ، ومن جهة اخرى مثالية تثور ضد التعسف ولكنها تطمع بالعودات المادية . وعلى هذا النحو فسّر الملايين من العرب ، في سنة ١٩٥٦ النزاع حول السويس . وفي الواقع ، فان « العدوان الثلاثي الغادر » تبع تأميم القناة . وهـذا التأميم اعلن عقب رفض القروض المطلوبة للسد العالي ، أي في سبيل الارتقاء الى الاقتصادي . اذن هم لم يكونوا يثورون باسم العدالة فحسب ، وانما في سبيل الولوج الى نظام الخصم نفسه نظام المنجزات المادية الملموسة . وموقف من هذا النوع كان يبـدو لهم « واقعياً » بقدر ما يبدو متفقاً مع المقاييس الاخلاقية . ومن هنا قوة جاذبيته التي لا يمكن قصرها على الاندفاعات الطائشة للمثالية المكبوتة .

ومع ذلك ، فان كثيراً من هذه التصرفات السلوكية في الشرق تبدو ، اكثر من مثيلاتها عندنا ، مأخوذة بالعاطفي والأخلاقي . وعلى الرغم من ان النزاعات بين العقيدة والحياة الحديثة فقدت ضراوتها ، فانها لا تزال كامنـة . واحياناً كثيرة تحل محلها توترات من مجال آخر ، مثلاً توتر وطنية تسعى لضم ابنـاء القومية الواحدة رغم فواصل الحدود السياسية . ففي سنة ١٩٥٦ فسخت سوريا اتفاقية لتصدير القمح من محافظة الجزيرة كتعبير عن نصرتها للقضيـة الجزائرية : و « العمليات المثلثة » التي تبعت ذلك كلفت الفلاح (السوري) غالياً ، ولكن المثالية السياسية ظلت سليمة معافاة . وبجهد كبير استطاع مطار بيروت ان يحتفظ بشركة الخطوط الفرنسية (آير - فرانس) وهي مصدر مداخيـل محسوسة ، وان يحميها من نتائج المقاطعة (١٩٥٧)

ويؤكد أحد الاقتصاديين المصريين ، بوضوح كبير ، ان العناصر المادية للنمو الاقتصادي يجب ان تستبعد اذا كانت لا تتلاءم مع العدالة . وبالطبع ، هـذا التشدد يقبل بالتسويات ، عند التطبيق ، بروح موضوعية » - بسبب الحاجة الى القروض والمعرفة التقنية والتجهيزات - التي لا يزال الخارج يفرض نفسه بوساطتها .

ومن جهة اخرى ، هو يصطدم او يتعـــاون ، حسب الحالات ، مع قوى غير متعقلة يلجأ اليها ، دون وهم كبير ، ربما ليستحث حماسة الجماهير التي يحدث لها ايضاً ان تجره او تشوهه . وهـــذا الامر يعطي سير الشرق طابع مزيج من السذاجة والدهاء ، يدهش المراقب الذي لا يتنبه لذلك ويعود اغلب الاحيان بالفائدة على المنتفع الداخلي او الخارجي .

طرافات عربية وقواسم مشتركة عالمية

اذن ليس بالوسع عزل ما لا يقبل العزل . والشرق العربي في جهده للاتجاه نحو المجال الاقتصادي والتقنية اللذين يسيران العالم ، يبقى هو ذاته ، وكل باحث او رجل عمل يقترب منه من خارج ، وكل مصلـــح وطني ، يسعى لاثارة انفعاله من داخل ، يتبين فيه اسلوباً خاصاً .

وعلى كل حال ، ينبغي على التحليل ألا يقتصر على احـــكام ولا على وصفات مختصرة . وبامتناعه عن أن يجعل من الغرابة ، والخيال ، واللامعقول حصة هذه المجتمعات ، هو يلاحظ ان الكثير من المجتمعات الاخرى يعتلي هو ايضاً ، عن طيب خاطر ، صهوة البُراق : حتى تلك المجتمعات التي اخترعت المذهب الايجابي. وان دراسة اميركية حديثة كانت تحمل هذا العنوان : « الفرنسيون المؤمنـون بالخرافات » [٢٢] وهي تحصي ، عنـدنا ، السهولة نفسها في تصديق الخرافة التي تدهشنا عند العرب . وهكذا إذن ، تتعلق القضية بتفاوت في الدرجة اكثر مما تتعلق بتفاوت في الطبيعة . ويقتضي اذن ان نفصل ، في النشاطات الحاضرة للشرق ، نصيب المادي والمعقول عن نصيب مثالية ملائمة للحماس مثلمـــا للخطأ . فاطلاق الصفة يلزمنا أقل مما يلزمنا ان نقيس او ان نحدد النسب . وبكلمة

٢٢) مجلة : « الاطلسي » حزيران ١٩٥٨ . وهـذا ايضاً هو معنى كتاب لوثي Lüthy الحاد البصيرة « فرنسا عند ساعة قبة كنيستها » .

يلزمنا ان نعين « العوامل المتغيرة التي تكون اللعبة وتشوش القانون . وبالفعل، فان الكثير من هذه العوامل المتغيرة ، المتعلقة بالأصول القديمة لهذه المجتمعات ، تظهر استدامة العوامل غير المتغيرة (٢٣) . Invariants

والحق يقال ، هل يختلف الحال بالنسبة الينا ، الى هـذا الحد ؟ فمنذ زمن طويل ، تخلت الابحـاث الاقتصـادية عن افتراض علاقات بسيطة بين الانسان الاقتصادي Homo œconomicus والسوق . فقد اكتسبت هذه الابحاث غنى ومرونة . انها لم تعد تؤمن بحتميات جافة ، ولا بآراء تزعم وجود ظواهر طبيعية وعادية . انها تحقق التقدم ذاته الذي حققته الجغرافية الاقتصادية التي ترفض كل التكثيفات المباشرة للانسان مع بيئته . ولكنها تتحدث عن مبادلات بين المجتمع والطبيعة . وبفضل هذه المدرسة التي ينتمي اليها الكثيرون من الفرنسيين يظهر علم النفس ظهوراً قاهراً في العلم الاقتصادي (٢٤)

ومن الان فصاعـداً يغزو علم نفس متنوع ومتشعب ، باطمئنان وثقة ، نطاق اللامعقول ذاته . والحق يقال ،بدأت الحركة منذ زمن طويل . وقد كان فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto يقصر أو كان يود ان يقصر الاقتصـاد على آلية مفكرة . ولكن علينا ان نذكر انه كتب كتاب « علم اجتماع » ليدرس هذه « الرواسب » و« التفرعات » الشهيرة التي يفترض انها المسؤولة ، الى حـد كبير ، عن تصرف الانسان . واللورد كينز ، الذي كان له تأثير كبير على

---

٢٣) انا استعير هذه الكلمة مع كل القيم التي تعطيها اياها الدراسة الكبرى التي قام بها لويس ماسينيون عن « وثبة الاسلام » ؛ في الانسيكلوبيديا الفرنسية . المجلد العشرون١٩٥٩، الفصل السابع ص ٢٠ و ٣٥ و ١١

٢٤) انظر خاصة المقال المتسم بالروح التجديدية : « علم الاقتصاد وعلم الاجتماع » الذي كتبه ا . بياتييه A. Piatier في « مجلة العلوم الاخلاقية والسياسية ١٩٥٩ ص ٥ وما يلي ، والنظرات النافذة التي ألقاها الجغرافي لو لانون Le Lannon حول الانسان والاسلوب في زاويته بصحيفة لوموند ، عدد ٢٩ – ٣٠ حزيران ١٩٥٨

معاصرينـــا ، يشير ، هو ايضـــاً الى ظاهرات الاستعـــداد الجماعي . وهو يعزو اليهـا دوراً رئيسياً في لعبة مـــا يسميه بالعوامل المتغيرة المستقلة Variables indépendants. (٢٥) وما القول بتحليل هذه الظاهرات التي نسميها باستحياء : « ظاهرات النمو » والتي يختصرها الآخرون بكلمة « التخلف »؟ انه الجانب النفسي ، الجانب الثقافي ، والانساني ، الذي يلعب ، هنـا ، الدور الاساسي . ولا يسعني ان أعيد ، بهذه المناسبة ، تحليلات فرنسوا بيرو الحاسمة . فهي توجه الضربة القاضية الى خرافة التصرف الاقتصـادي الذي تقوده قوانين السوق « المعقولة » ، وقوانين التنافس والربح (٢٦) . فهذه التصرفات ، « شرقية » كانت او « غربية » تدخل في الحساب عوامل تتجاوز الحصر . فهي تتأرجـــح دائماً بين العمـــلي والرمزي . فكل شيء فيها هو دلالة (أو آية) ، وكل شيء هو نفع .

ولكن الدالّ والنافع يتعانقان فيها بصور متنوعة ، حسب الحالات . والتاريخ الاجتماعي ، بنزوعه الى تقصّي الظاهرات المميزة للأشخاص والاشياء والفترات ، ألا يتهيأ ليعيد تكوين هذه النوعية المميزة للعرب التي لا تعبر عنهـــا الابحاث النفسية والاقتصادية الا بصورة ناقصة ؟

والشرق العربي بأسره ، الخارج من النظام الاستعماري ليدخـــل في نظام القوميات ، هو الذي يضـع نفسه « خارج السوق » (اي خارج الصفقات) .

---

٢٥) انظر ، في سبيل بحث واضح ، دقيـق ، كتاب جيمس James : « تاريخ الفكر الاقتصادي في القرن العشرين » ، باريس ١٩٥٥ ، الذي استعنت به ، عن طيب خاطر.

٢٦) وبالاضافة الى الصفحـــات الكلاسيكية التي كتبها فرنسوا بيرو ، انظر جوتفريد ايزرمان Gottfried Eisermann : « علم الاجتماع والمعرفة والنظرية الاقتصادية » ، في مجلة « الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع » المجلد الثامن عشر ١٩٥٥ ، ص ١٧ ؛ وهناك مناقشة نيرة توضح هذه المفاهيم كتبها ف . بوريكو F. Bourricaud في مقدمة لكتاب تالكوت بارسونز Talcott Parsons عن دار بلون ١٩٥٥ ص ١٢ وما يلي .

فهو قد عانى من مواقف القوة اكثر بكثير مما عانى من المواقف الاقتصـادية ، بمعناها الضيق . وهو يبغي اليوم ان يتفلت من تأثيرها ، بالأسلوب نفسه . وهو يحاول ان يستبدل ما سماه فرنسوا بيرو « اقتصاد السيطرة » بما يمكن ان نسميه ، لو جاز لي القول ، « نزع السيطرة » La dé-domination اقتصاد قائم على العودة للانطلاق ، او ربما على ارتكاز افضل . وعلى ذلك ، نجد الكثير من الشواهد في الادب الاقتصادي اليومي ، في الفترة الاخيرة : تأميم السويس ، تمصير البنوك ، الضغط على شركات البترول ، الخ . . . وبهـــذا المعنى يمكن القول انه ، في عالم يسير نحو التماثل والنهج الموحّد ، يحافظ العرب على سيرهم الخاص . وحتى الان ، تولد الدلالة الآتية ، عندهم ، الواقعة اكثر مما تسند الواقعـــة الدلالة . وارادة الكينونة تغلب على ارادة العمل . هي ، على كل حال ، تسبقها ، ومن هنا كان المشهد الغريب الذي يتبدّى لنا في تحرر يذهب من التأكيد الى التحقيق ، من الابنية الفوقية الى القاعـــدة . وهو يؤكد نفسه تحرراً سياسياً اولاً ، ثم يسعى ليصبح تحرراً اقتصادياً واجتماعياً ، أي ليبرر ذاته ، او بعبارة أخرى ، ليُشعر بجدارة حدوثه ! ففي ٢٢ يوليو ١٩٥٨ ، كرس الرئيس عبـــد الناصر خطاباً كبيراً لعلاقات مصر مع العالم . والامر الذي له مغزاه الكبير ، هو انه تذرع بالحـالة الطارئة ، وبعـــدم استعداده للكلام ليبرر قصره حديثـه على السياسة الخارجية ، مرجئاً تحليل السياسة الداخلية وخاصة الاقتصادية الى ما بعـد . ففي نظر العالم الاجتماعي ، يشكل هذا الامر قلباً في ترتيب العوامل . ولكن للرأي العام الشرقي متطلباته . والكاتب اللبناني محمد وهبي يلحظ نوع القلب الذي ينزعه على نقيض الغرب . فالغرب ، كما يقول ، يحتفظ بجشعه الواقعي وماكيافيليتـه للسياسة الخارجية ، بينما تتعلق السياسة الداخلية ، عنده ، بالمبادىء الرفيعة . أما بالنسبة للدول العربية ، فالأمر على العكس تماماً . فالحيلة والاطماع تعيث في الداخل ،

بينما تعلن ، في الخارج مثالية ، سمحاء ولكنها مخدوعة [٢٧] ، اغلب الأحيان . واستتباعاً لذلك ، فان ترتيب عمليات الارتقاء الى الاستقلال السياسي يتم عكساً لدرجة التهيؤ الداخلي لهذا الاستقلال . فالبلد الذي تحرر اولاً ، من بينها ، هو المملكة السعودية التي لا تزال أكثرها بعداً عن روح الحياة الحديثة ، ثم العراق الذي لم تمسه النهضة * ، ثم مصر [٢٨] ، ثم سوريا ولبنان . وهذا الاخير هو اكثر هذه البلدان تشبعاً بالثقافة الغربية واقلها ابتلاء بالأمية ، وفيه أعلى مستوى للدخل الفردي ، والطراز الاوروبي للعيش الاكثر بروزاً .

بالتأكيد سوف يكون من الغلو والتناقض ان نتابع بالتفصيل هذه الموازنات التي كانت ، ذهاباً من اوربا الى الشرق العربي ، تبدو متقابلة بصورة معكوسة بحيث نصل ، اليوم ، الى ما يمكن تسميته العهد الفيكتوري لعملية التخلص من الاستعمار . ولكن هناك ، دون ريب ، نصيباً من الحقيقة . وهو يعود الى الدور البنّاء والمنفر ، والحاسم في كل حال ، الذي يلعبه الغرب في هذا التاريخ الذي يصنع اليوم حوله او ضده . ومن هنا ، كان حوار عميق حول الهويّة . ومن هنا ، كان ابهام اساسي : حول مفهوم « القومية »* الذي يستعصي كثيراً على التحديد ، على وجه الضبط . هل هي النزعة الوطنية ؟ ام تمجيد العرق ؟ ام الشعور القومي ؟ اليكم تحديد القومية الذي يعطيه الشاعر السوداني ، محي الدين صابر في المؤتمر الثالث للأدباء العرب (١٩٥٧) :

---

٢٧) محمد وهبي : « ازمة التمدن العربي » ـ بيروت ١٩٥٦ — ص ٩٦

٢٨) في مقابلة صحفية مع مندوب الاهرام ، بتاريخ ٢ تموز ١٩٥٩ ، يعيد عبد الناصر الاولية للعامل الاقتصادي بكلمات تتسم بصرامة مذهلة . وهو يذهب الى حد القول ان ثورة ١٩٥٢ سبقت تشكلها الذاتي الذي يبقى حتماً المجاوز . ولا ريب في ان الديموقراطية هي ، في الغرب ، سياسية قبل ان تكون اقتصادية او اجتماعية . وحسب التعبير المعروف ، هي لم تأت « سائرة على رأسها » ولكن وفقاً لسياق بين من التحضير الاقتصادي . ومع ذلك ، يمكن التساؤل اذا كانت هذه الاولية للرأس ، اذا امكن القول ، (ونعني بها العاطفة والنظرية العقائدية) ليست اصيلة في كل توتر ثوري .

« القومية ليست مفهوماً عرقياً ، وانما نضالاً في سبيل تحقيق القيم المثالية المدنية الصناعية ، وخاصة ، من بين هذه القيم ، اقربها للعدل في الميادين السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية . وهي ايضاً مجموعة مصالح حيوية مشتركة ومشاركة في المصير تتحقق عبر العرق العربي وتتجاوزه ، لان هذه المصالح وهذا المصير يظلان مرتبطين بمصالح العالم الحاضر بأجمعه وبمصيره » . (٢٩)

فالقومية* ، اذن ، هي جهد العرب لكي يتوافقوا مع الآخرين دون ان يتخلوا عن امانتهم لذاتهم . ولا يهم ان لا يكون الحوار ، دائماً ، مطروحاً بوضوح ، ولا موضوع الاحساس الجلي . وهذا المطلب المتناقض يعيدنا الى قلب الواقع الذي ندرسه . فعبر المباشر وتناقضاته ، وعبر النصيب من الحقيقة الذي توصلنا اليه هذه التناقضات ، يكشف هذا المطلب كثيراً من الخصائص التي التمست فيها اقتراباً أولياً من العرب ، في مناظرة مزدوجة ، بين الخاص المميز والعالمي ، وبين التاريخي والمقدس (٣٠) .

---

٢٩) محي الدين صابر هو ذو تكوين ثقافي فرنسي . ولنذكر بالآثار التالية ، بصفتها شواهد على الهموم نفسها حتى في عناوينها : « في القومية والانسانية » لكمال يوسف الحاج (بيروت ١٩٥٧) ، « العروبة والانسانية » لحدوهبي (بيروت ١٩٥٩) ، والشاعر الكبير سعيد عقل يطلب ، من الناشئة ، في محاضرته « مشكلة النخبة في الشرق » - (١٩٥٤) - ان تؤمن التناسق بين وطنية الامة ووطنية العالم .

٣٠) من الصدف السعيدة ان يظهر في بيروت ، في الفترة التي كان فيها هذا الكتاب قيد الطبع ، وبصورة جد متأخرة ، بحيث لا تسمح بأخذه بعين الاعتبار ، الكتاب القيم الذي كتبه قسطنطين زريق : « نحن والتاريخ » . ولا يمكن تصور تلاق اكثر دلالة بين التطور الذي حاول تحليله هنا والاعلان عن موقف الوعي التاريخي الذي يقفه اصحاب العلاقة انفسهم .

الفصل الثالث

الاقتراب من الجانب الاقتصادي *

يفري شارع الرشيد اسواق بغداد ويبترها بترا . والتخطيط العمراني الحديث، يضع ، على العموم ، ترتيباً للماضي يغلب عليه شكل الزاوية، فوق ترتيب مقوس الخطوط، وبحركة تراكب . ومع ذلك ، منذ القديم القديم ، كانت الخطوط تتقاطع ، في هذه الاسواق ، تقاطع ضلعي الزاوية المستقيمة ، كما لو كان

---

* ترتكز فصول هذا الكتاب المكرسة للاقتصاد ، كاملة ، كما سوف يبدو ، على المصادر المحلية وعلى انطباعات مباشرة . ولن افوت ، ابداً ، في هذا المجال ، ذكر الابحاث العامة الاولى التي ساعدت على فك عقد هذه المادة المعقدة : ش . عيساوي : « مصر : تحليل اقتصادي واجتماعي » (١٩٥٧) ، و« مصر في اواسط القرن » (١٩٥٩) ، ودورين واريمر Doreen Warrimer : « الارض والفقر في الشرق الاوسط » (١٩٤٨) والاثر الحي، والزاخر بالمعلومات الذي وضعه ج . و س . لاكوتير J. et S. Lacouture بعنوان : « مصر في تحركها » (١٩٥٦) ومجموعات المحاضرات غير المنشورة التي اعطاها من منبره التدريسي ، البروفسور اندره فيليب Pr. André Philippe ، اثر رحلة الى مصر عام ١٩٥٩ ، واخيراً المستندات المفيدة ، وان كانت متأخرة ، ورسمية ، التي تتضمنها تقارير منظمة الامم المتحدة . وفي هذا الميدان بالذات ، بدأت المصادر العربية تقدم محاولات تأليفية قيمة . وسوف يلاحظ أنني استعين بها على نطاق واسع . وقد استخدمت باستمرار النشرة الاقتصادية لبنك مصر الوطني والمجلة السورية القيمة : « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ، التي سنشير اليهما بالرمزين : « ن . إ ق . » للأولى و « . إق . م . س . ب . ع . » للثانية .

النموذج الهليني لم ينفك عن التحكم بخطط الاسواق ، من اللاذقية الى اعماق المغرب الاقصى . وقد كنت اطوف في هـــذه المتاهات الهندسية حيث لا تزال تحوم المهارة الحرفية والزخارف المتكلفة الباقية من العصور القديمة ، كما تحوم حول باب زويلة في القاهرة . ولكن التفاهة الصاعدة على كوكبنا تهدد هذه (النفائس) وتطمسها . أكيد اننا لا نزال نلاحظ ، في مواضع كثيرة من هذه الاسواق ، أضرحة اولئك الذين تعتبرهم العقيدة الشيعية « وكلاء » الامام المهدي الغائب ، وعقلاءها *. وقد رأيت اثنين من هذه الأضرحة حيث كان بعض الرجال والنساء يقومون بالندب والنواح .فدخلت مخزن تاجر يقوم قريباً منهـما . ويبـدو ان هذا التاجر قد أقام طويلاً في اليابان . وكانت احاديثه لا تقل عن احاديث أي تاجر يعمل في اكثر المراكز التجارية انفتاحـاً على العالم . وقد كنت اقارن تجربته ونشاطه واطلاعه البعيد عن السذاجة مع تلك المظاهر من الايمان والألم . فكيف يمكن الانتقال من المزايا الاولى الى الصـور الثانية ؟ وكيف يستطيع رجل لا يعرف كيف يجد العزاء عن مقتل علي ، ان يدبر امور اعماله بمثل تلك الفعالية ؟.

في الماضي ، كانت غالبية الاعمال التجارية ، في هذه الاماكن ، بيد اليهود ، وعند مغادرتهم البلاد ، اصبح من الضروري استبدالهم .وجغرافية هذا الاستبدال تخضع لنواميس غريبة . فاكثر الصاغة جاؤوا من صفوف الصابئة(الحرانيين)، الاسطوريين . والكلدانيون يديرون الفنادق . والشيعيون استعادوا قسماً كبيراً من الاعمال ، وخاصة المصرفية حيث يتلاقون مع ابناء الأقليات الاخرى ، بينما يستولي السنيون على النشاطات المتصلة بالتقاليد والمبادرة الحكوميــة . وقد تكون هنـاك فائدة كبيرة في ان ندرس بالتفصيـل ، في بغداد ، كما في مدن شرقية اخرى ، تبدلات من هذا النوع . وفي مكان آخر تقدم عملية « تمصير » المجتمعات ، في هذه الايام بالذات ، الاحتمالات المخبرية نفسها .

ففي هذه البلدان ؛ كما عندنا ، الجماعة البشرية هي ، قبل كل شيء ، مـــا تتعارض فيه مــع الجماعات الاخرى : ربما تمسك بنسب ، وبصورة اكيدة بأحد الطقوس ، وخاصة بعض مواقف سلوكية ، وكذلك في بعض الحالات ، تقسيم في العمل . وهذه العمليات الابدالية في بغداد ، بتحريكها امام اعيننا بوضوح يقارب وضوح الاختبـــارات ، خصائص الجماعات ، ذات الجذور العريقة ، في عملية تحوير وتكييف اقتصادي،تبين أهمية المقارنة التمييزية في تثبيت الشخصيـات، وأهمية العامل الدائم في الحدث المتطور . وهذه الخواطر لا تصح على هـــذه الرقعة الصغيرة من الشرق وحدها . فالزائر الفرنسي ، باتصاله بهذه الامكنة ، وهؤلاء الكائنات ، كان يشعر ايضاً في نفسه ، كما بالنسبة اليـــه ، بالفوارق ووجوه الاستدامة ، والرابط الخفي بين هذه وتلك .

ووفقاً لتصفيات موجزة ، ولكن ضرورية ، تدخل دموع المؤمنين عنـــد أضرحة الائمة ، « وكلاء»* ، الامام الغائب في نطاق التقوى والرمز. وعلى العكس ، فان مسلك تاجرنا هو « واقعي » وعصري . ولكن ، عنده ، كما عنـــدنا ، تخضع قيم واضحة مثل هذا الوضوح لعمليات المقاصة ، وتمتزج ببعضهـا البعض . وبينه وبيننا كما بين الجماعات ،القائمة داخل مجتمعه الخاص به ، ربما تتباين الفترات والاجهزة وحدها . ومع ذلك ، علينا ان نتطلع الى اعلى والى ابعـــد ، وان نترك في الوقت الحاضر ، مجال التصرفات الفردية او الطائفيـــة (او الجماعية) لنتناول الشرق العربي في مجموعه . اذ ان عمليات اختيار تاريخية واسعة ،يرتكز، الكثير منها على التعقل ، تسيّر هذه التغيرات او التباينات . وبما ان الشرق قد اطال تأمله في ذاته ؛ منذ القديم ، في سبيل إرساء الاسس لكيانه ، اي في سبيل تمييز نفسه عن الآخرين ، فان أولى محاولاتنا للاقتراب منه بغية فهمه وادراكه ، سوف تحملنا على توجيه الاسئلة للاخلاقية التي اعطاها لنفسه ، في علاقاته مع المجال الاقتصادي .

 كنا نتعثر على الطريق الغبراء بين بغداد وكربلاء . وكان ، جاري في السيارة ، قاضياً شيعياً كبيراً يعمل مستشاراً في محكمة التمييز [1] . وعلى الرغم من ان ثقافته كانت محلية بحتة ، فهو قد اكتسب اتجاهاً للدراسة المقارنة ، اما بفضل اطلاعه على الابحاث القانونيـــة المصرية ، واما عن طريق قراءته ترجمات لآثار فرنسية . وقد تناول الحديث ، بالطبع ، مصير اولئك الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً والذين يزرعون ، على ضفاف الاقنية ، « الجداول »* المتفرعة من النهر ، هذه الاراضي الريفية التي تحمل ، بصورة غريبة ، اسماً لاتينياً ، رُستق (لعله يعادل كلمة Rustica ؟) [2] . وكان يصرخ حولنا طابع القدم والبلى الطاغي ، والبؤس العريق . وهذه المظاهر كانت تزلزل النفس بأمداء اشد واعمق ، بسبب الطبيعة الحارة التي كانت تنبع من تلك الزوايا المروّية وتنبجس في صورة نوافير حقيقية من نخيل . وكانت كربلاء تلوح امامنا ، بتقواها التقليدية ، المتجليـــة حول قباب مآذنها الذهبية . فكيف يمكن فسخ الاتفاق مع الاشياء العتيقة ، او بالحري كيف يمكن العثور من جديد في قلب شيخوختهـا على النسغ (المادية) الذي يبعث الازهار المتجدد .

وقد فسر لي رفيقي كيف يجهد الشرع الجعفري ليجدد نفسه كي يواجـــه ضرورات الحياة العصرية . مثلاً قضية التأمين : فالحديث عن التأمين يعني الحديث عن الحظر . فهذا العامل « الغرر »* ، وهو واسطة النقل لصنوف الحظر والتحريم في المجال الاخلاقي الصرف . هم يدوورن حوله ، ببساطة ، حين يعتـــبرون ان التأمين ليس كسباً محفوفاً بالاخطار ، وانما تعبيراً مجرداً لمعنى التضامن والتكافل وفي ذلك مفهوم ينطوي على بذخ لا يطاله اي تحريم .

---

١) احمد جمال الدين : « الوقف » - بغداد ١٩٥٥ ، « الاستملاك » بغداد ١٩٥٦

٢) انظر بالمقابل كتاب ج . فوك : J. Fück « العربية » ترجمة دنيزو Denizeau باريس ١٩٥٥ ، ص ١٦٨ الذي يرجح ، على ما يبدو ، مصدراً فارسياً لهذه الكلمة .

وانظر ايضاً مسألة الاستملاك . فعندما تصـــل الدولة الى الاستيلاء على « الملك »* ، هذا الشيء المقدس ، لضرورات المصلحة العامـــة ، هي ترتكب مخالفة للشريعـة . ولكن حيلة شرعية تسمح بالتأكيد ان الدولة تتصرف ، في هذه الحالة ، كوكيل عن المالك الشرعي . فليس هنـــاك طفرة ، وانما ، بالاختصار ، عودة الى « الامة »* لخير المجموع . وحتى الفائدة ، هـذا المحرّم ، بل ذروة المحرمات ، يجيزها (من كلمـة « اجارة »*) المشرعون المستنيرون ، بتشبيهه بشراكة التوصيـــة ، لان شراكة التوصية مشروعة ، انما لن تسمى الفائدة باسمها ، « فائدة »* او كما كان القدماء يقولون تندراً ، « سلفاً يجر نفعاً »* وانما « ربحاً »* و « استرباحاً »* . وكل هذا يعود بالخير العميم .

بمثل هذه الطرق ، امكن في كثير من البلدان الاسلامية تجنيد الاوقاف ، او « الحبوس » واعادتها الى دورة التداول الاقتصـادي . والمشترع العراقي ، مثل المشترع التونسي والمصري ، اضطر لمواجهة مشكلة الاوقاف الذرية * التي كانت تخرج من التعامل فئات كبيرة من العقارات . ويضيف المستشار ،رفيقي، ضاحكاً : على كل حال ، ليس من ضرر في استبعاد الوقف ، وهو حيلة* شرعية ، باللجوء الى حيل شرعية اخرى .

أكيد ، انني كنت اتحدث الى شخص ذي ذهن نيّر . ولا شيء كان يضمن ان يتبعه علماء كربلاء الذين كانوا يزمعون تقديم واجبات الضيافة لنا ، مثلما في ايام التوراة ، في كل النقاط تلك . ولكنه كان يعبر عن الاتجـــاه الظافر . فلا يمكن القول ، اذن ، لن تعارض العقيدة الاتباعية والاتجاه العصري المتحرر يثير امام المسلمين صعوبات مستعصية الحل . انما على صعيد النزاع العقائدي الذي يُدخل في اللعبة اعمق الأغوار ، لانه يضع وجهاً لوجه مفهومين مختلفين للعالم ، نرى ان المساجلة قد تغلغلت ، في كل مكان ، الى صميم الاخلاق . فليس المجتمع هو الذي يلتزم وانما مواقف يتردد حائراً بينها اكثر مما هو ينقسم على نفسه .

وان من الافكار الشائعة ، عندنا ، والتي نكرر دائماً ترددها مثلما يتكرر

على ألسنة الشرقيين، تلك التي تضـــع اتباعيتهم المحافظة واستسلامهم للقضاء والقدر الخ.. على نقيض سلوكنا النشيط. اما ان تكون هذه المفاهيم غير مقصورة على الاساتذة الغربيين، فانني لا اريد ان اعطي إلا البرهان التـالي على ذلك: كتاب الدكتور سعد ماهر حمزة، وهو اقتصادي مصري يدرس في السودان وعنوان الكتاب الذي صدر حديثاً: «التنميـة الاقتصادية والجمود الاجتماعي: تعارض وتناقض». واذا تصفحنا الكتاب، نجد انه يقتصر على تحليل الشروط الذهنية التي تميز العالمين حول هذه النقطـة. تحيز سلبي، من الجانب الشرقي، يمكن ان يعزى الى الافراط بالروحانية. والمؤلف يشعر بصعوبة في التعبير عن آرائه دون المساس بالدين. لذلك فهو يستعمل لغة التلميح والاستعارات. وهو يكرس، مثلاً، فصلاً، «للروحانية»* كعقبة للمواقف الاقتصادية وهو يفضح عند معاصريه عدة رواسب من الماضي: رواسب ثقافية وسياسية ونفسية.

غير ان ما يعيب هذه الشهادة هو تشاؤمها. ففي كل الملامح التي يفضحهـا، يرى الرأي العام الخصائص لماضٍ يجب الغاؤه. وفي الواقع، تنهار هذه الحقائق، إذ ان هناك حقائق، يوماً بعد يوم في مراميها الاجتماعية والاخلاقيـة. وهي تشكل، بالنسبة لمجموعات تتطور وتكبر مع الايام، الشيء ذاته الذي تثور ضده والذي يتحتم العمل بالرغم منه.

ونتيجة لتطور غريب، تصبح القاعدة هي الشذوذ، وتلتجيء الى الاستثناء الاجتماعي او الابتعاد الجغرافي. والسخرية او الفضيحة اللتان يثيرهما، من هـذا الجانب، عتق النظام اليمـــني، والتشدد السعودي، ودعاية لا تلتفت الا الى الماضي مثل الدعاية التي يقوم بها الاخـــوان المسلمون، تدلان على ان المساجلة نفسها لم تعد ترتكز، بصورة عامة الى اخلاقية مقررة. ولكنها تحتفظ بمفاعيل نفسية. انها تفعل فعل عمليات اظهار الندامة (ولنأخذها بمعناهـــا المادي) التي تميّع جرأة الخطوط، في رسمٍ ما، بما تضفيه من رخاوة وليونة.

وبموازاة الازدهار في « الفقه »* الشافعي و « الاجتهـــاد »* الجعفري في العراق ، شرعت المظاهر الجديدة للسلوك الاقتصادي تلاقي ، في الشرق العربي ، صيغاً تعبر عنها . وهذه الصيغ التعبيرية قد تكون طبعة اكثر مما يلزم ومتبعـة للدروس المحفوظة . ولكنها تثير الاهتمام بقدر ما تعكس جيـــلاً او جيلين من التعليم المحلي (٣) .

فقد ظهرت العلوم الاقتصادية ، في مصر ، في ترجمة للبيروابوليو Leroy - Beaulieu ذروة كلاسيكية اصبحت تبدو ، اليوم ، بالية ! وكانت النظرة الانجلوسكسونية تفرض نفسها ، في الوقت ذاته : واذا بكتاب تود Tood يسيطر زمناً طويلاً ، بالتنافس مع كتاب ليروا - بوليو . وبانتظار ذلك كانت مدرسة الحقوق تزدهر ، تغذيها الكلية الفرنسية ، ثم معهد الدراسات العليـــا للتجارة ، الذي اصبح كلية التجارة . وهذه الاخيرة ، كانت تستوحي في الوقت نفسه من الدروس الفرنسية والبريطانية . وفي سنوات ١٩٢٠ ، كانت مبادرات « فريق مصر »* تمجد نظريات قصيرة العمر وتدعو كذلك لتجربة مقدامة . وفي الوقت نفسه ، آخذ العمـــل العقائدي في تعليم الدكتور احمد محمد ابراهيم يمارس اثره . وقد عمل دوره المكون على اعطاء الاتجاه الفرنسي المكانة الدائمة التي فقدها قليلاً . فافضل الاقتصاديين ، حالياً ، من امثال علي جرتيـلي وعبد المنعم القيسوني ، وسيد مرعي ، هم من ذوي الثقـــافة الانجليزية . ولكن في الجهود الاخيرة التي يبذلها المجلس الاقتصادي ، او مجلس التخطيط ، مع اسماعيل صبري عبدالله ، مثلاً ، او ابراهيم حلمي عبد الرحمن ، تلقى ابحـــاث المدرسة الفرنسية ترحيباً وانتباهاً ، وبعض التطبيقات العملية .

والذي يهمنا من هذا الامر ، ليس نزاعاً عقيماً بين رجال الجامعات ، ولكن

---

٣) ان الوقائع المنوه بها هنا ، مستمدة من بحث القاه الدكتور وهيب مسيحة في المؤتمر الذي عقدته منظمة اليونسكو في دمشق عام ١٩٥٤ حول تعليم العلوم الاجتماعية والعلوم الاقتصادية في التعليم العالي » .

ما يسهم، في ابحاث فرنسوا بيرو F. Perroux وشارل بيتلهيم Ch. Bettelheim و أ . بياتييه A. Plattier ولو من دروب مختلفة ، في تحليل التخلف في النمو ، وما يبطن من عمليات تحريض على بحث مبدع ، طريف : ففي ذلك ، السبيل الوحيد ، امام الشرق ، لتحاشي التشدد واليأس في آن واحد ، تشدد يستوحي من عادات عقائدية قديمة ويأس ينتشر ، اكثر الاحيان ، بفضل التحليلات الحنبلية (اي الكثيرة الارتباط بحرفية النصوص والسنة) .

فلا مجال اذن للتعجب اذا رأينا المؤتمر الأسيوي الافريقي الذي انعقد في القاهرة بين ٨ و ١١ كانون اول ١٩٥٨ يوحي ، رغم التفاوت بين المشتركين فيه ، وبالنسبة الى غير المشتركين ، بانشاء منظمة لا تدهشك بطابعها الهجومي او الدفاعي بقدر ما تدهشك بالانتباه الذي تفرضه نحو قضية الإعلام الراهن (٤). فقد تكررت كلمة درس عشرات المرات في هذه التوصيات . وبعد الان ، اصبح عسيراً ان نعذر من يكرس كتاباً كاملًا ، كما فعل الدكتور حمزه لدرس « التناقضات والتضادات » بين المواقف المتنازعة . فالايجابي مضطر لان يربح الجولة ، هناك كما في كل مكان . انها قضية حياة او موت . ولكن ما يبقي ، يستحق ان يبقى — وكل بناء ايجابي رهن بهذا البقاء — انه شخصية تنحصر في ابرازها أولى المهام الملقاة على عاتق الاقتصاديين .

---

٤) في نشرة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية تتضمن توصيات مؤتمر ٨ كانون اول ١٩٥٨ ، واستتباعاً لهذا المؤتمر ، انظر الندوة التي اقيمت في بروكسيل ، برئاسة البروفسور آبيل Pr. Abel ، بين ٢٧ و ٢٩ ايار ١٩٥٩ حول : « السوق المشتركة الاسيوية الافريقية : وانظر ايضاً النشرة « الاوضاع المالية العربية » الصادرة في القاهرة ، عام ١٩٥٨ ، وبحث مندوب الجامعة العربية ، الدكتور محمد رفعت ، في ندوة بروكسيل .

الحظ ان انتماء العالم العربي ، عامة الى منطقة شبه صحراوية ، رغم الفروقات المناخية الدقيقة الناتجة عن القرب او البعد بالنسبة للبحر ، الذي يؤثر كعامل معتدل ، او كعامل استوائي ، هذا الانتماء يترك آثاره على كل تاريخه حتى يومنا الحاضر ، فالأساس العام يرتكز ، على زراعة وتربية حيوانية من الطراز المتسع ، رغم انهما قابلتان لتفاوت نموذجي واسع سعة التفاوت بين الجمّال في الصحراء الكبرى او في نجد وزارع الحبوب في السهول السورية وفلاح وادي النيل . اذ في حالة الراعي ، كما في حالة الذي يحرث ارضاً بعلية (غير مروية) يكون النظام لا سببياً .فان لعبة القوى الطبيعية هي التي تؤمن نمو النباتات والحيوانات ، دون ان يكون بوسع الجهد الانساني ان يدخل فيها تغييرات قابلة للقياس .

وعلى هذا القاع الاساسي الفسيح والخاضع للحظ ، تعرض المدن التقليدية : فاس ودمشق والقاهرة وحلب وبغداد في تألق متفجر امتياز رخائها التجاري وأبهتها الثقافية . وفيما هي تشكل عواصم التمسك باخلاقية تبادلية ، هي كذلك مراكز المضاربة والربا . وتحررها الليبرالي يخضع تارة لقواعد الاسلام المتشددة ، وتارة يظهر مهارة فائقة في فن الكسب التجاري ، وفي كلتا الحالتين ، يتحقق الهروب من الخطر .

فالاسلام يخشى الحظ والمخاطرة [٥] كالتثمير العفوي للرأسمال . ففي نظره ، يحمل « النمو »* شوائب خطرة لا تستطيع غير « الزكاة » * تطهيرها . وعلى كل حال ، هو يبغي حصرها بشدة . ويسيطر في هذه المجتمعات التجارية القديمة ، نوع من التأرجح بين موقفين : موقف قائم على التمسك بالاخلاقية الحنبلية ، وينكر في التجارة كل ما يمكن ان يشتم منه ، من قريب او بعيد ، رائحة التعامل

---

٥) انظر خاصة النظرية القديمة التي قدمها فيلكس آرين Felix Arin والتي لا تزال صالحة وكثيرة الايحاء .

لأجل ، حيث يكف التبادل عن كونه مباشراً . اذ ان الصفقة بدون وساطة ، او اذا جاز القول ، الصفقة التي تشبه الالتحام بالسلاح الأبيض ، تظل هي المفضلة عند اهل « الفقه » .

وفي الجانب الآخر ، يقوم قطب المضاربة . فلعبة الربا الفاحش ، والمضاربة تكسبان من الاتساع ماتخسرانه من المطابقة مع التفسير المتشدد للشرع . ومن هنا ، كانت النزاعات حول الاخلاقية والمناقشات التي لا حد لها في داخل المجتمع ، وربما داخل النفوس ايضاً . أكيد ان النزاعات والمناقشات ، كما رأينا ، قد تجردت من حدتها العقائدية ، منذ ان حاول عالم كالشيخ محمد عبده ان يجري عمليات توفيقية ظاهرة الاهمية بين الشريعة الصارمة والضرورات العملية التي لا شك فيها . ولكن لا يمكن ان يقال انه لم يبق من هذه المحاولات شيء البتة في الكثير من المواقف الحديثة . ويقولون ، انه حتى اليوم يوجد حسابات مصرفية لا يطالب اصحاب الودائع ابداً بفائدة عنها عندما تستحق : الامر الذي لا يسوء صاحب المصرف !

وفي مصر ، كما في سوريا ، [٦] عانى نظام التأمين صعوبة كبيرة في توسيع قدمه ، وان تاريخ هذه المؤسسة يظهر تردداً غريباً وخجلاً ، من جانب الرأسمال المحلي ، في التوظف بهذه العمليات . وقد وجدت اصلاحات ١٩٥٧ في القاهرة و ١٩٥٩ في دمشق ، ان هذا القطاع لا تزال تديره الشركات الاجنبية . وبالاختصار ، فان المواطن[٧] لا يعنى بهذا القطاع الا بفضل تدخل الدولة ، وكرهاً عنه .

---

٦) حول تاريخ عمليات التأمين ، في مصر ، انظر المجلة الاقتصادية ١٩٥٠ ، القسم الثالث ص ١٦٧ – ١٦٨ وشباط ١٩٥٩ ، والمجلة الاقتصادية السياسية ، القاهرة ، كانون اول ١٩٥٧

٧) انظر « مجلة الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » عدد تموز ١٩٥٨ وشباط ١٩٥٩

وحتى محاولات التخطيط الرسمي التي يسلكها ، اليوم الكثير من هذه البلدان ، لا تخلو من امكانية تفسيرها ، كما سنرى ، كمحاولات تتحـــذر من الانكار التقليدي للمخاطرة .

صحيح ان احد هذه البلدان بقي بطل الليبرالية . انه بطل التوظيفات الضخمة والمغامرة الكبرى . ولكن من أي نوع هذه التوظيفات ، وهـذه المغامرة ؟ فلنفحص بعض الحالات . تبدأ العملية بالاستعانة برؤوس الاموال الاجنبيـة . انها تبدأ من قروض كثيفة . ثم شيئاً فشيئاً ، وبنوع من الحذر المبطن ، يشتري الوطنيون المؤسسة . وقد جرت الامور على هذه الصـورة بالنسبة الى شركة طيران نشيطة لم تملك الرساميل اللبنانية اكثرية أسهمها إلا في نهاية تطور بطيء ، كان يرتكز على استبعاد المخاطرة . وهذا الامر ينطبق ايضـــاً على مؤسسات بيروتية كثيرة . صحيح انها تلجأ للاستلاف ولكن بطرق خاصة وشخصية جداً.

انها تحصل على القرض ، في الاصل ، بفضل واجهة من العلاقات الانسانية ، ومن الانفاق الباذخ وصلات القربى والمصـــاهرة . ويمكن القول ان الزواج ، احياناً ، ليس ، في بعض الاوساط ، غير نوع من تصالب سمعات في السوق التجارية وتلاقي آمال في التمويل . آمال تتحقق احياناً كثيرة . ولكنها قد تخفق ايضاً . اذ ان النمو الفجائي يعني ايضاً الهبوط السريع . فالترف العائلي يدوم عشرين او ثلاثين سنة . وهو يتعرض لهزات الاحداث . ولكنه يتمتع ايضاً بالحظوظ التي تحملها . وبأي دهاء في المناورة ! كل شيء يصبح مادة للربح بالنسبة للبعض : الاعانات لجياع الجبل ، تربع الانتداب الفرنسي ، ثم زواله ، والحرب مع اسرائيل ، وأزمة السويس ، والعمليات المثلثة التي يثيرها انقطاع العلاقات الرسمية بين بعض البلدان الخ .. وكثير من عمليات الاثراء تبدو ضرباً من المعجزات . انها نوع من التولد الذاتي ،كما يقول ، بلهجة فكهة الاستاذ تيلاك Mr. Teilhac [8]

---

٨) ومن هنا التشابك الجذابي ، داخل الاخلاق العائلية هذه ، بين التمسك بالتقاليد العائلية او الطائفية ، والنظرة المفتوحة واسعة على الدنيا .

وقد كنت ، مؤخراً ، أمر قريباً من بناية في شارع الحمراء في منطقة « رأس بيروت » . وقد ارتأى بعض الاصدقاء ان يسألوا عن المالك ، فدلوهم على رجل يلبس الشروال ، وهو نوع من البنطلون المنتفخ ، يجلس على مقعـــد صغير من القش ، خاص بباعة الخضار . انه يرعى مدخل بنايته . وهو يزهو بكونه مالكاً حتى ليكاد لا يصدق عينيه . وعندمـــا نسأله تأجير شقة ، يجيب : « لا ، لست مستعجلاً ! » . فان شرفه ، كذلك حديث يتعارض مع ذلك . وفي الحقيقة ، هو لا يدرك بعد بوضوح ان عقاراته ليست الوسائل لتأمين الدخل. فالمجد يكفيه حتى الآن . ولكن المرشح للاستئجار لا يخسر شيئاً بالانتظار ...

« هل الثمن حقيقي » ؟ هكذا يتساءل احد مراسليّ [٩] . وهذه الكلمة العميقة : « لقد كوّن لنفسه ذهنية ثراء لا تقل اهميـــة عن الثراء ذاته » . وها نحن في صميم نشاط العهد الثلاثي ، وحتى ما بعد العهد الثلاثي ، اذا صح القول : فبالطبع ، للرمز الاسبقية على الشيء . وكم يبقى هؤلاء المضاربون بعيدين عن رأسمالية الاستثمار ! وحسب المنطق السليم ، يتحـــتم ان تنتهي هـــذه الحالة بالافلاسات . ولكن اذا حدث افلاس واحد ، فسوف يتبعـه خمسون افلاس ، بل مائة . ولسوف يتناثر المجتمع في سلسلة تصاعدية .

وهذا المجتمع يبقى ، اذن ، بفضل تعقد تركيبه . ويمكن القول ايضـــا ، بفضل سرعة عطبه ، التي تجند من العنصر الانساني اكثر مما يلزم لتحدي القوانين الاقتصادية بشجاعة . هذا المجتمع يستهدف ، في النزعة التجارية ، غائية ذاته في حين تسعى مجتمعات عربية اخرى الى هذه الغائية ، بوساطة التخطيط . والبعض من رجال الاعمال هؤلاء قد لا يكونون غير مضاربين بالمعنى الذي يعطيه الغرب لهذه الكلمة . ولكن مغامرتهم تضمن نفسها من الانهيار ، بحذر كبير ، بمختلف

---

٩) وهم كثيرون . ومعلوماتي ترتكز على تسجيلات مباشرة اجريتها بذاتي في هذا البلد المضياف . وانا انتهز هذه الفرصة لاشير الى ما لأحاديثي مع العديد من الاصدقاء العطوفين من دين يطوقون به عنقي في دراستي للمجتمع اللبناني .

وجوه التضامن العائلي ، والطائفي ، والوطني والدولي ، بحيث ان المجموع ، في نهاية المطاف ،يبقى قائماً بفضل تشابك اجزائه تشابكاً لا فكاك منه ونِعم الوضع هذا ، لانه يظهر الكثير من فضائل المهارة والوفاء .

الشيء كل مجتمع انساني يرتكز على نسيج مادي يخضعه لفعله ويتلقى الانفعال به ، هذا النسيج يتألف عملياً من « اشياء » . ان لسان العرب ، وهو عادة في غاية الوضوح ، يكتفي بان يقول : « الشيء نعلم ما هو » . وبكل أسف ، اننا لا نعلم !ولكن لنبعد عنا بحثاً فلسفياً صرفاً . ولنكتف بالتاريخ .

فالاشياء ، حينما ينظر اليها في علاقاتها مع المجتمعات العربية الحاضرة ، انما هي اولاً الموضوع البصري الذي يقف فوق الطبيعة حيث يرتسم جهد بني الانسان ، الطبيعة بامتياز عفويتها وخصبها .

وفي القطب المقابل : الشيء الذي يتدفق على البلدان « المتخلفة النمو »بشكل بضائع صناعية ، انتجها الآخرون .

ويمكننا ان ندرك للوهلة الاولى التعارض بين هذين المظهرين : الطبيعة في جانب ، والصناعة في الجانب الآخر . والعرب يعانون من شعور قديم بالحرمان ، في هذا الجانب وهذاك . فهم في انقسامهم الجغرافي ، او في شعورهم بالاحتباس او اللجم ، حسب ضرورات القوى التي يشجبونها ، لا يستغلون استغلالاً كاملاً محيطهم الخاص بهم .اما فيما يتعلق بالصناعة ، فهم لا يزالون متخلفين عن الاجانب : واحياناً كثيرة هم ، بالنسبة للآخرين ، لا يعدون ان يكونوا اسواقاً او مصادر للمواد الاولية ، او احتياطا لليد العاملة . او على العكس ، جماهير مثيرة للقلق من ضحايا البطالة او نقص التغذية ، فتصبح مرتعاً موعوداً للأفكار الهدامة .

وهناك ما هو أسوأ . فعلى صعيد التحليل نفسه ،هم بلغوا ، في الوقت الحاضر، حد لوم أنفسهم على الافراط بالذاتية او الانفعالية عندهم . وفي مقالات مجلاتهم ، وفي خطبهم ، ومؤتمراتهم ، هم يضعون ، « الموضوعية »* التي يرونها ضرورية مقابل مبالغاتهم العاطفية . فهل هم على صواب في ذلك ؟ فالموضوعيـــة التي يتصورونها ، أليست آلية وعلميـــة ، وتجريدية اكثر من اللازم ؟ ألا تبالغ في الفصل ، فيما ترسمه المفهوم الغربي « للموضوع » ، بين مفهوم « الشيء » ومفهوم « المشروع » ، فالعلم الحديث ، والتقنية الحديثة ، ليسا جافين الى هـذا الحد . وليس من قبيل الصدف ان تتوافق الثورة الصناعية ، في المكان والزمان ، مـع الثورة الرومنطيقية . وهذه الاخيرة تبث الروح في « الشيء الجماد »الذي يتحول ، من جانب آخر ، داخل المصنع . والتقنية العالية التي تفترض فهماً عميقاً لقوانين المادة ، ربما هي ليست غير شكل آخر من الحساسية بالاشياء . واذا كان هـذا الامر يصح ، في تحديد الحرفي والصناعي، فان الثاني هو الذي يبدو « طبيعياً » اكثر .

ان جرد مكتسبات الاسلام في منطقـــة البحر المتوسط ، في الفترات وفي البلدان التي لم تدخلها الحضارة الآلية ،تفضح بصورة أكيدة فقره النسبي بالمعدات. وذلك على السواء في الحياة البدوية (١٠) وفي حياة المدينة (١١) : ويمكن تحديد بدء نضوب الازدهار في الصناعة اليدوية عنـد القرن الخامس عشر . (١٢) فالفن الذي كان يدخل في عداد المقومات التقليدية لهذه المجتمعات ، والذي كان يشكل

---

١٠) انظر دي بوشيان De Boucheman :« التجهيز المادي للحياة المادية في سوريا » ١٩٣٤ والجردات التي كانت تنشرها المجلة المغربية الممتازة « فنون وتقنيات » .

١١) دون ريب بسبب ان الاثاث الاسلامي هو « أثاث معد للارض » . ومن هنا غلبـة السجاد . انظر بحث هنري سيريغ Henri Seyrig عن كتـاب كيرت ايردمـان Kurt Erdman في مجموعة « سوريا » ١٩٥٧ . ص ٣٧٣

١٢) انظر ج . ويت g. Wett و ل . هوتكور L. Hautecœur في كتـاب « مساجد القاهرة » الجزء الاول ؛ ١٩٣٢ ص ٨٩ وما يلي .

اكثر مثلها العليا حياة ، كان يحتقر الاشكال التمثيلية . انه يفضل دقائق الزخارف على تقليد الاشياء المحسوسة . ومنذ شهور كنت اتأمل باعجاب ، في مدينة الخرطوم ، تماثيل من العاج او الآبنوس ، من صنع فائق الدقة كانت مصطفة على الرصيف . ولكنها كانت شخوصاً مسطحة ، رغم أثر النحت فيها . وقد طمس الفنان النتوءات البارزة على سطحها ، كما لو كان ، هو نفسه ، بخيلاً بابداعه او خائفاً منه . وحتى هذا اليوم ، بين الاطفال الذين يحيكون السجاجيد ، من رمسيس ويصا واصف الى حرانية ، قرب القاهرة ،يتميز الاقباط بالنزعة لتصوير الكائنات الحية ، والمسلمون بالنزعة للتزيين الهندسي . أهو لقاء بحكم الصدفة ، ام استمرار عوامل وراثية سحيقة ؟

فلنترك الكلام ، حول هذه النقطة لعلماء النفس ، ولنسأل اللغة عن الحجة القاطعة . انها لغة تتنزل من علٍ . وليس من لغة اخرى يصح فيها مثلما يصح كلام هيدجر Heidegger عندما يشبهها «ببيت الكائن » والى هذه الكلاسيكية المقدسة يزعم العودة رجال النهضة * في البلاد العربية اكثر مما يدعون الى ترقية اللغات العامية . فهذه اللغة تعمل اذن بعكس التطور الذي أصاب اللغات المتفرعة من العالم الروماني . والبادرة تدل على ان الخيار قد وقع على الرمز اكثر مما وقع على الشيء . ونذهب الى ابعد من ذلك فنقول انها تدل على االسعي لاستعادة الاشياء بوساطة احياء الرمز . ولي عودة الى هذه الفكرة ، فيما بعد .

واخيراً ، فان البلدان العربية قد قاست من جمود سياسي طويل . وحتى التحولات الكبرى التي ظهرت في الحقبة الحديثة ، ظلت هذه البلدان تخضع لعالم الآخرين ، اكثر مما حاولت تكييف عالمها الذاتي بصورة فاعلة .

وفي هذه المرحلة التي يمكننا تسميتها المرحلة التقليدية كان عدد الشيء الموضوع ، وشكله وطابعه يعكس علاقات قوة احادية الاتجاه .

فمصر تنتج القطن ولكن المنسوجات القطنية كانت تأتيها من مانشيستر .

ولبنان يغرس اشجار التوت . ولكن حرائر معامل ليون تغزو المساكن الغنية في فاس مثلما في حلب ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الترف في المفروشات وفي الزينة النسائية . وماذا نقول عن المعادن ! وحتى يومنا هذا ، تكفيك زيارة لاسواق بغداد لتقنعك ان الأدوات والآنية والأجهزة كلها مستوردة . الحرفي يحافظ على بقائه في بعض الجوانب الفرعية . فاميركا تقدم السيارات وآلات منتج النفط بينما ينحت الصائغ الوطني حليه الذهبية. انهاقسمة غير متكافئة! ان مجرد النظر الى واجهات المخازن يكفي للحكم على طوفان السلع والمنتجات التي تنهمر على هذا المجتمع ، او ، وفقاً لتلاقي قاس لبعض الكلمات ، انها تتسلل اليه وتغزوه .

وفي هذه المرحلة ، لا تتجلى مقدرة العالم الشرقي على انتاج الاشياء إلا في الانواع الأثرية . انها تعبر عن ماض متألق ولكنه حافل بمعاني الدمار . وفي المدن تذّوي البيوع بالمزاد مقتنيات العائلات الاقطاعية او الموسرة . وكم من عظة كان بامكاننا استخلاصها منها ، لو كان بوسعنا ان ننقب في سجلات هذه العائلات ! وها هي الكنوز المقدسة التي كانت ترفل بها دور الحريم او السلطان قد تبعثرت مع الرياح الاربع ! فمن استغلالها ، بل من اذلالها ولدت تجارة مدرة للربح . وهذه الاشياء تنتهي عند تاجر الأثريات ، في البازار [١٣] ، واخيراً في المتحف . فالشيء ـ الموضوع (او المتاع) الشرقي ، عندما يوضع في الواجهة ، ويعزل عن كل نشاط ، وكل اشارة حية ، يفقد طاقته بالنسبة للحاضر . والمجتمع الذي انتجه ، بسبب انه يحتقر ، او حُمل على ان يحتقر الحضارة القائمة على الاشياء ، يتجه الى ان يصبح هو نفسه ملك او متاع الآخرين .

وانه لدرس مثير للحماس ان نسجل ، في كل حالة بمفردها ، التحولات التي يفرضها هذا النظام على الشيء ـ المتاع نفسه . لقد فقد دوره ومعناه . وبالتالي ،

---

١٣) وكم يكون حافلاً بالعبر تاريخ « البازار » في الشرق ، تاريخ البيوع بالمزاد ، ومخازن الاثريات ، او على العكس ، تاريخ المخازن الكبرى الخاصة بالاشياء الجاهزة .

فقد تغيرت ، احياناً كثيرة ، مادته واستدارته . فهـذا المحور اللولبي للمعصرة المصنوع من خشب الزيتون ، قد اصبح محملاً للمصبـــاح . والسجادة التي لم تعد مرقداً او مضجعاً وانما أداة للزينة ، قـد انقلبت ظهراً لوجه . فهي تبـدي نوع صوفها ونتج عن ذلك تحسين في حياكتها وفي ألوانهـا . وزخرت الطاولات المنخفضة بالأصداف والاحجار المنزلة . وانطلق السماسرة لصيد مصابيح المساجد العتيقة . وبعد الآن ، لن تضيء هذه المصابيح جو الصلاة . والمصالح المختصة ، كما تزعم ، بحماية الفنون الوطنية ، لا تطمح ، منـــذ زمن طويل ، لانقاذ الحرفي ، بسوى تشجيع « القطعـــة الفنية » (١٥) . وهذه الاخيرة ، اذ فقدت وظيفتهـــا ، تُقدُ او ترسم بحيث ترضي اذواق هواة طابع شرقي مشبوه :هو انكار لوظيفتها كوعاء (لقابليتها لان تكون وعاء او أداة) . ومع ذلك فان الخفاف (النعال) اليابانية ، وكنزات الصوف الايطالية ، والاواني المعدنيـة ، ولعب الاطفال والسلع الرخيصة المموّهة تغزو المدن «القيصرية »* ذات الجلال . وان « جهاز » العرائس الذي يتغير تكوينه من مكان الى آخر ، ومن طبقـة الى طبقة ، ومن زمن الى آخر ، من شأنه ان يعطي مستندات تاريخية عن التوازنات غير المتكافئة التي تحدث بين المنتجات المحلية والمنتجات المستوردة . والصراع يمتد الى قلب الحياة العائلية الحميمة وحتى الى اكثر خفقات الانفعال سرّية.

وقد كان الامر كذلك ، في كل مكان من العـــالم العربي ، حتى قبل ما بين الحربين بقليل. ولا يزال الاندماج في السوق العالمية والتوحيد المتزايد للاذواق ، وانحطاط الحرف اليدوية القديمة ، يعمق ،الى يومنا هذا ، ملامح هذه الظاهرة . ولكن ، في انتظار ذلك تحققت ، في المشرق ، او ظهرت الرغبـــة في تحقيق ثورة الانسان الصناع . وبموازاة ذلك ، اكتشف العرب ،من جديد ، الطبيعة ،

---

١٥) اتجاه خاطىء ومضر ، ومخاطرة مستحيلة ، توافقـــا مع انحلال النظام الاستعماري في المشرق مثلما في المغرب . ويتبع هاتين الظاهرتين ، اليوم ، في كل ملامحهما ، نزوع لا سبيل للدفاع عنه نحو الاكتفاء الذاتي .

بفضل شعراء المهجر . ولكن هل سبق لهم ان فقدوها ومتى ؟

لنرجع الى « لسان العرب » . فبينما تتضمن كلمات « Physis » اليونانية و « Natura » اللاتينية ، منذ ايام التأملات الفلسفية الاولى ، تتضمن كامل المعاني ، تقريباً ، التي نعطيها اياها في اليوم ، بوسعنا ان نفتش عن هذا المعنى في مفرد « الطبيعة » ، فلا نجده في معجمنا الصادر في القرن الرابع عشر . لنحلل المفرد . ان كلمتي « Physis » و « Natura » تشيران باشتقاقهما الى فعل « التولد » « والنتاج » [١٦] وعلى العكس ، تشير كلمة « الطبيعة » الى الجذر : « طبع » ، اي « وسم » وضرب وانبأ . والطبيعة هي « الطابع » الذي يمنحه المبدع الالهي . فنحن اذن بعيدون عن المعنى الذي يعطيه لهذا المعنى كاتب مثل الريحاني في اشعاره النثرية ، عندما يضفي عليه اتساعاً كونياً يذكرنا قليلاً بالشاعر لوكريس .

ومع سنوات ١٩٣٠ ، تبدأ مرحلة اخرى هي اكثر مادية بكثير : مرحلة الصنع . وانا أضع انطلاقها الحقيقي عند التدابير الاولى التي اتخذتها ، في آن واحد تقريباً ، لحماية السوق الداخلية ، بلدان متنوعة الانظمة مثل مصر ولبنان وسوريا [١٧] .

ومنذ هذه الفترة ، يبغي الشرق ، بشوق كل يوم اكبر ، ان يرى نفسه صانعاً منتجاته . وبالطبع ، صانعاً منسوجاته ، قبل كل شيء . صحيح ان النمو الصناعي في « المحلة الكبرى » ، كما في دمشق ، ليس متابعة لتقاليد حرفية عريقة . ولسوء الحظ ، فان التحول في التقنيات ، وما رافقه من تحول نفسي لم يكونا موضوع أي تحقيق مفصل . فان معرفتنا للشرق لم تبلغ هذه المرحلة بعد . ومع ذلك فانما نستطيع التمييز بين تتابع الانماط . فمنذ فترة ما بين

---

١٦) مجموعة مفردات لا لاند Vocabulaire de Lalande

١٧) برهان الدجاني : « الاقتصاد العربي » ، بيروت ، ١٩٥٨ ؛ ص ١١٦

الحربين وجدت تعاليم المعلمين الايطاليين ، في مصر ، من يتبعها ويتمثلها في حقل العمارة ، او في الحقل الذي يهمنـــا اكثر : حقل المفروشات . ولكن الأمرين متلازمان .

فالحديث عن الاثاث يوحي بالحديث عن الجدار الذي يقوم الاثاث امامه . والمتاع النموذجي لهذه الحقبة لم يعد السجاد وانما هذه الطاولة الجدارية المشحونة بالطلاء الذهبي ، والخارجة من محلات الفيشاوي . والتي تدفعها الموضـة العصرية اليوم الى اقاصي السودان والكويت والعربية السعودية .

اما النمط الثالث المتطور ، فهو الذي ينطلق من الحدادة او السمكرية . مثل ذلك ، مصنع المصاعد الكهربائية القائم في سن الفيـــل ، قرب بيروت والذي يعود اصله الى مشغل صغير للتصليحات . وهنا ، كما في المجالات الاخرى ، يفجر الانتقال من الحرفية الآلية الى الاستثمارة الصناعية خصباً مليئاً بالوعود .

واخيراً ، فان مناهج اكثر جذرية ، واكثر تنظيماً تهم الآن ، في مصر ، بتجميع السيارة والطيارة ، وحتى بصنع المحرك . وكل تخطيـــط للتنمية يحلم بصناعة تعدينية كبيرة . ولنقارن اليوم جدول المنتجات المصنوعة الذي ينشره ، كل سنة ، اتحاد الصناعات المصرية بالجداول الجمركية لسني ما قبـــل الحرب . فنلاحظ ان الاشياء المستوردة والاشياء المصنوعة تتجه نحو التوازن . انها حالة مثالية . وهي تعبر عن رغبات اكثر مما تعبر عن واقع . جائز ولكنه تطور لا مراء فيه .

وهناك ما هو اكثر . فالمزادات التي تفتح في القاهرة ، اليوم ، (خاصـــة منذ حجز الاموال الملكية) تجتذب زبائن هم باكثريتهم من ابنـــاء البلد . فالبورجوازية العالية الشرقية قد تحولت ليس فقط الى المفروشات والرياش وانما ايضاً الى التحف النفيسة والى المجموعات النادرة . وقد تجاوزت ، منـــذ زمن طويل ، الذوق التركي المغرم بالمرايا ، والزجاجيات ، والساعات الثابتة : ضروب

من المفروشات الغيبية التي كانت تتأجج فيهـــا شهوانية عريقة ولكن متأنقة .
واليوم ، يشيع مع الولع بالمفروشات ، الولع بوظائفها وبطابعهـا . وليس من منزل زوجي ناشىء يستغني عن سرير الزوجيـــة وطاولة الطعام ، وعن جهاز للراديو وبعض اللوحات على الجدران . وانتهى المشرق بتأمين اسواقه ومخازنه الكبرى ذات الاسعار المحددة . وفي شارع الموسكي بالقاهرة يلتقي العديد من هذه المخازن . هذا الحي هو حي الاشياء العتيقة والسياحة والتبعية ، حتى الآن . وبذلك ، لم يعد يشكل إلا عائقاً يعرقل مشاريع عمرانيـــة مولعة بالجديد ، ويجرح حساً وطنياً مولعاً بنظام الاكتفاء الذاتي . ولكن ما ان اتخـذ القرار بهدمه ، حتى ثار الرأي العام وفرض العودة عنه . أي تناقض بين موقف بمثـل هذا النضج وهمجية محطمة للمقدسات كانت لجنة الآثار التاريخيـة ، في القاهرة ، تنبه لاخطارها منذ جيل ! ورد الفعل في قضية الموسكي لا ينطلق من لجنـــة مؤلفة من اختصاصيـــين بعلم الجمال وأساتذة ، وانما من شعب بسيط يحس بفوائد السياحة ، طبعاً ، ولكن ايضاً بسحر الاحجار القديمة ، والاشياء العتيقة [١٨] .

وفيما يتعلق بالفنانين ، فقد أخذ الحس بالاشياء يحل عند غالبيتهم محل الالهام المجرد ، وفي ذلك انتقال من أحد قطبي الانفعال الجمالي الى القطب الآخر [١٩] .

وفي الوقت ذاته ، تتأكد واقعية أدبية ومدرسة تصويرية في فن الرسم تبدو لنا، أحياناً ، تصويرية أكثر مما يجب . اذ ان الغرب ، في انتظار ذلك ، قد سئم الأسلوب التصويري وبدأ يتطلع جهة المجرد اذا لم يتطلع جهـة « الشيء السريالي » !

---

١٨) ريبورتاجات في الصحافة المصرية الاسبوعية .

١٩) انه تعارض منهجي (كلاسيكي) منذ و . ورينجر W. Worringer انظر « التجريد والولادة المرافقة » في مجلة « متحف الجيب » : العددان ١ و ٢ ، ١٩٥٩ وسوف أعود ، فيما بعد ، لتفصيل اكثر حول هذا الجانب الهام .

وهناك شيء مميز آخر : اننا نرى ، فى بيروت والقاهرة ودمشق ،ظاهره الشروع في عمل المجموعات التي تعنى بالسلالات والاقوام البشرية ، ومنذ الآن تنشط التحريات والابحاث ، وهي لا تتناول فقط النواحي الفولكلورية ، اذ أن التراث اللفظي قد أثار دوماً اهتمام العرب ، ولكن أيضاً الأشياء الحسية ، « القطع » ، ومن الغريب ، من وجهة العادات التقليدية ، أن يكرّس من الجهد ما كرسه كاتب مثل سعد الخادم ، للبحث في العلاقات بين الفن والتربية الاجتماعية ، استناداً الى رسوم أطفال أو إلى العفوية الشعبية ، انها بادرة أخيرة . ولكنها تذهب بعيداً (٢٠)

« فالشيء » غيّر، اذن ، معناه عند العرب في مدى جيل أو جيلين ، وذلك بفضل هذا الكفاح الذي يزداد قسوة يوماً بعد يوم ، والذي يضعون فيه وجهاً لوجه متقابلين مبادرتهم وظفرهم المتجدد بشخصيتهم من جهة ، والتبعية « والتشيؤ » ، من جهة أخرى ، وهذا الأمر لم يمكن تحقيقه عندهم الا بفضل انفتاح عاطفي هائل ، وهذا الجهر بالعواطف الذي يتجاوز بالطبع كل نزعة ، وأحياناً كل فعالية ، عدّل النظام الذي كانت تنتظم فيه مواقفهم ومفاهيمهم وأعمالهم .

العدد طيلة قرن وأكثر ، كانت الكمية الجشعة — التوظيفات في صناعة الحرير في لبنان ، الستراتيجية الرأسمالية في القنال ، الديون العثمانية والديون المصرية — قد أخذت بغزو الشرق ، وهذا الجانب الذي دخل في مخيلة الجماهير منذ الحرب الأخيرة عن طريق المساومات حول النفط ، والمناقشات حول قروض البنك الدولي ،

٢٠) سعد الخادم : « دراسة في رسوم الاطفال » ، القاهرة ١٩٥٣ ، وآثاره الاخرى حول الثقافة الشعبية ، واعادة التثقيف الفني لليافعين ، والتجربة اليدوية وآثارها التثقيفية ، والجامعات الشعبية (من ١٩٥٣ الى ١٩٥٩) .

وتقديرات الأمم المتحدة ، الخ ... قد أصبح موضع شعور نافد الصبر كل يوم أكثر ، وطيلة أجيال عديدة ، قضي على هذه البلدان ان تنوء تحت الكمية بدلاً من أن تصنعها ، وأن تتحملها من غرب كان في مرحلته الصاعدة ، حينذاك ، مرحلة المصانع اليدوية الكبيرة ، وغزو الأسواق .

فلننظر مثلاً ، في تاريخ مصر منذ ستين سنة ، ما أحدثته زراعة القطن والثورة شبه الكاملة التي فرضتها على مشاهدها الريفية ، وعلى مشاهدها الفكرية فعلى مدى طويل ، وفيما يشبه البعث الفرعوني ، كدح المصري في شق الترع وجرف التراب وتسوية الأرض وادارة عجلة آلات للري في خدمة المصنع البعيد ، ودفعة واحدة ، انتهى بالتخلي عن هذه الثقة بالطبيعة التي كانت تأتيه بفضل الفيضان السنوي الدافق بالخير ، وكان عليه ، اذا أمكنني القول ، أن يجري تحولاً في ذاته هو رهن باقتصاد كان يلتهم من العمل حداً حمل الناس على التساؤل ، في حدود سنة ١٩١٠ ، عما اذا كانت مصر لن تعجز عن تأمين اليد العاملة . أما اليوم ، فعلى العكس ، تحمل البطالة الهائلة القلق الى نفس كل رجل دولة في الشرق ، وبالمقابل إلى نفس كل اقتصادي اجنبي . انه لثأر الكمية الغريب ! ان تلميذ الساحر الغربي يخرج « الكمية الشرقية » من تحته وضده .

وهي تأخذ أولاً شكل نمو في عدد السكان يستحثه التقدم الصحي بما يشبه لسع السياط ، وتعداد السكان في مصر ، يبلغ اليوم ٢٣ مليوناً . صحيح أن البطالة المخيفة تستتبع ذلك، ولكن كيف يسعنا الا نرى في هذا الأمر جواباً من نمط معين على تحديات الأجنبي ؟ أكيد أن هذا الجواب لا يقف على مستوى الصراع الاقتصادي او التنافس التقني ، ولكن على مستوى حيوية مقتضبة تستعصي على كل شرط وكل تنبؤ ، وبكبرياء تمجد هذه البلدان أبعادها الجديدة . ففي كل احصاء للسكان ، وكل تصريح صحفي ، يتجلى مرة بعد أخرى التزايد . فمثلاً على ذلك ، في القاهرة ، وحدها ، مجرد كون

٧٤٤,٠٠٠ بطاقة تموين قد وزعت على الأهلين ، قد أعطي الحق لحاملي البطاقات بالحصول على أكثر من مليوني أقة من السكر شهرياً ، اذا كان لهم القوة على شرائها . وسنوياً ، تستهلك العاصمة من الشاي والقهوة ، ما يعادل عشرة ملايين من الجنيهات المصرية ، أي ما يزيد على عشرة مليارات من الفرنكات ! والتعليم هو أيضاً ، بدأ يتجه نحو الطابع الكمي . وذلك يصح ، ليس فقط في المدرسة الابتدائية ، وانما في الكلية الجامعية . وكل سنة ، يقرر المجلس الأعلى للجامعات أنهم سيقبلون ، في الجامعات الاربع ، العدد كذا من آلاف الطلبة ، ففي سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩ ، قبلوا ٨٦٠٠ طالباً منهم ٣٢٠٠ في جامعة القاهرة و ٢٧٠٠ في جامعة عين شمس و ٢٦٠٠ في الاسكندرية . وليس الوقت صالحاً للبحث فيما اذا كان هذا الزخم لا يخلو من العمق ، فاننا نخرج بالانطباع الذي مؤداه أن الشرق يختار جانب الكميّة ، بالنسبة للثقافة أيضاً وخلافاً لماضٍ حافل بالباطنية والندوات (الروحية أو الفكرية) ، (٢١) انه يحسب ان الأمر مؤقت وأن الزمن سيتكفل بالباقي . ولكن ألا يدع نفسه تقع في الكمين ، بهذه الطريقة ؟

لا يهم : فالانفصال عن التقاليد أصبح من العنف بحيث لا يسعنا أن نقلل من تقدير أهمية هذه الأمارة ، فالمتشرع يتحول عن المثقف الأناني الذي يحصر نفسه داخل ندوة « أهل الخاصة » * وعن «الانتلجنسيا » (طبقة أهل الفكر) الذين لا يشكلون الا أقليّة ترتكز على ثقافة استثنائية ، فيذهب اختيار المتشرع نحو الجماهير . وهذا هو سبب العديد من المؤتمرات التي تعقد لتوسيع التعليم « الالزامي » * ولتصفية الأمية ، الخ .

واذا كنا نريد أن ننصب انفسنا دائنين للرقم ، حتى على هذا الصعيد ، فبأي حماس لا نبدي موافقتنا على ضرورة التعداد في كل المجالات ! فبذلك يجتاحنا

---

٢١) الامر الذي يثور عليه جورج حنين فى افتتاحية نيرة ولكن مليئة بالتناقضات ، كتبها في صحيفة « البورصة المصرية » ، تموز سنة ١٩٥٨ .

شعور مسكر بالدخول في الحياة الحديثـــة . فالاحصاء هو صلاة الدنيا الحاضرة ...

وها كم شهادات مميزة : ففي سنة ١٩٥٧ ، اقترحت الأمم المتحدة على الادارة المصرية اجراء تعداد للسكان . فتعذر انجاز هذا العمل لاسباب عديدة، خاصة بسبب أن العملية كانت تتطلب اشتراك ثلاثين ألف موظف أو خبير ، ولكن مبلغ مليونين ونصف من الجنيهات المصرية قد صرف لاشاعة « الوعي الاحصائي » عند الجمهور . التعبير جميل ، وأنا اقتطعه من احدى الصحف [٢٢] وفي كل مكان تزهر المعاهد والمجلات الاحصائية ، وهكذا يوجد أثنتان أو ثلاث منها في بيروت وحدها . وتلزمنا مجموعـــة مستندات ووثائق في حقل التربية ، ليست متوفرة حتى الآن – وهل جرت يا ترى ، حتى محاولة القيام بجمعها – كي نستطيع تقدير الطريقة التي يصاب فيهـــا الطالب العربي ، رغم نفور عرقي من علم حساب الاحتمال ، أي من لعبة الحظ ، بالتعلق بهذا العلم ، ربما من الطريق الجانبيـة للتجريد الرياضي ، وبـذلك ، يجد نفسه في مناخه العائلي ، فما الحسابات المعبرة بالأرقام ، ووضع المعدلات الحسابية في جوهرهـا غير طريقة لتفادي الحظ ، ولاحلال العقل في الأشياء ، بحثاً عن أسبابها ...

فقد بعُدَ الزمن الذي كان فيه أحد مفسري القرآن ، مثل الشيخ القاسمي ، يلجأ ، في سبيل وصف دمشق إلى رسم العشرات من جماعات الحرفيين ورجال المهن ، معطياً لكل منها ملامحها ، ودون ريب أيضاً ، صفتها بموجب الشرع[٢٣] وقد بعُد الزمن الذي كان فيـــه محمد كرد علي يجهد ، في دمشق أيضاً ، في

---

٢٢) « البورصة المصرية » عدد ١٧ تموز ١٩٥٨ . وعدة مؤتمرات لاحصائيين عرب أو في سبيل احصاء عربي ، خاصة في القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٥٨

٢٣) مخطوطة لا تزال قيد النشر من قبل مجموعة « الماضي والحاضر » في القسم السادس من معهد الدراسات العليا ، مع مقدمة من لويس ماسينيون .

استنطاق عبر الأماكن الأثرية والناس والعادات على غرار أسلوب « الخطط » * القديم . وهـــذا شفيق الاخرس يقوم اليوم بوصف سوق دمشق بوساطة المخططات البيانية : تأرجح الاسعار في علاقته بموسم الغوطة والتبادل الدولي ، ونبض مجموعة النقد ، ونمو الخطة . ففي الحقيقة تبدو المقارنة خصبة بين الصور المتتابعة التي تعطيها للسوق الدمشقي دراسات متباينـة تباين دراسات القاسمي وكرد علي وشفيق الاخرس . هل هو الواقع نفسه الذي يراه على التوالي ، شيخ اتباعي للتقاليد ، ثم مثقف ذو نزعة قومية ، ثم اقتصادي متخرج من معاهدنا ؟ أم أن الواقع نفسه قد تغير ؟

فحوالي عـــام ١٩٠٠ ، وبالرغم من دوي الحدث الخارجي الذي يقترب شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من الخضوع لصناعة الآخرين وان كان هذا الخضوع لمـّا يزل مستحيياً ومباشر "كان لا يزال بالامكان دراسة الحياة الدمشقية " دراسة مرهونة بالتعاقب القديم الذي ينصب الاخلاق مقابل التجارة ، والعقيدة الدينية مقابل حياة العصر ، فيتحلل الكل ويهرب الى حياة حضرية باهرة .!

وحوالي ١٩٣٠ ، يتدرج كل شيء في المساجلة المزدوجة بين التعلق بالماضي والاقبال على الحياة العصرية ، بين النزعة التحررية والتبعية . واليوم ، فيما يعبر الرقم عن الكمية ويسيطر عليها ، هو يشكل الكابح للأهواء القومية وموضوع تنازعها . وهذه المجتمعات تطلب من الرقم أن يوجه هـــذا الاندفاع العاطفي وهذا الدفق اللفظي والقلبي اللذين يعصفان بهذه المجتمعات وأن يقيم التوازن مع هذا الاندفاع وهـــذا الدفق ، اكثر مما تطلب منه أن يملن عنهما . وهي تجد ، بل تريد أن تجد في النمو ـ الاقتصادي اذا أمكن ، وفي الوقت الحاضر ، النمو في احصاء المجموعات الانسانية ـ أخلاقية راهنة تزيد أحياناً متطلباتهـا وأحياناً تضع متطلباتها مقابل نداءات العاطفة . كل ذلك بصورة انتهازية تتفاوت في قوتها .

وعلى هذا ، فان القيام باحصاء ليس بالشيء القليل في البلدان العربية ، ففيه تتداخل رزانة الاضطلاع بمهمة مع رشاقة اللعب ، وممارسة المواهب الجديدة مع الامتهان الباسم للماضي . لقد كرس العراق مجلداً كاملاً للاحصاء الذي أجراه عام ١٩٥٧ . [٢٤] انه وثيقة حافلة بالدروس بالنسبة الينا !

وذات يوم ، يبدأ الاحصاء في الساعة الرابعة صباحاً ، وفي كل الدساكر والتجمعات الانسانية . وهنا وهناك تقع حوادث ذات دلالة . انهم مثقفو الطبقة الحديثة ، طلاباً واساتذة الذين يروحون ويجيئون ويدقون باباً بعد باب .

« ما هي مهنتك ؟ » — صحافي * : رائد اساليب جديدة في الاعلام والحماسة . ثم ، الى جانبه « الدباغ » * الشيخ و « الفلاح » * الذي ينتمي بنسبه الى سومر ، ولصقه السكري أو مصلح أجهزة الراديو ، ان لم يكن « مهندس التخطيط المدني » أو « المهندس المعماري » *

ويدق الباب : « ما هي مهنتك ؟ — مسجل الاحصاء . — وماذا يعني مسجل الاحصائي ؟ — إنه امرؤ يدق ابواب الناس في الساعة الرابعة صباحاً — وما هي شروط عمله ؟ — انه أجير دون اجرة » .

وهناك نادرة أخرى : « كم غرفة عندكم في البيت ؟ — انتظر دقيقة كي أصعد لعد الغرف » !

ومنها أيضاً : « كم عمرك ؟ — ستون عاماً : — وعمر زوجتك ؟ — أربعون سنة . — منذ كم سنة انتما متزوجان ؟ — منذ أربعين سنة » . —

ومنها : « ما هي مهنتك ؟ — « خبير بالبطالة » * .

أو : ما هي مهنة زوجتك ؟ — خبيرة في التبذير . —

---

٢٤) عملية التسجيل العام لسنة ١٩٥٧ ، بغداد ١٩٥٨

وما هي مهنة حماتك ؟ ـ خبيرة في المضايقة » (٢٥)

وعندما يمر مسجل الاحصاء أمــام منزل يصعب عليــه التهرب من واجبات الضيافة فبالأقل ، عليه أن يقبل بعض البيض ، على سبيل الهديــة . ويا لصعوبة حفظ الاسماء ! وفي الأصل لا يمكن تذكر أسماء الجدود . فاذا غربت هــذه الاسماء عن البال ، تصبح أسماء الأئمة هي المهيأة للحلول محلها . وبالطبع ، يصبح حتماً الاكثار من اسم كاظم والحسين . ولكن في الأجيال الأخيرة يـتردد اسم ناصر كثيراً ...

وختاماً لعمليات احصاء السكان ، يستنتج السيد أركان العبادي ، الذي كان وزيراً في ذلك الحين ، هذا المغزى (٢٦) انه يتبين أهمية عمل من هذا النوع في مثل هذا المجتمع . في جانبه التربوي والاخلاقي والمعنوي . فالمجتمع يعرف ذاته ، ويعيد التفكير بذاته : انها فضيحة كبرى ، لأنها تقطع الصلة مع التقاليد السامية القديمة التي كانت تجعل من تعداد القطعان خطيئة وبالحري من تعداد الانسان .

وأخيراً ، فهناك جانب ، أود أن أسميه جانب اللعب يكمن في اللذة التي نشعر بها ليس فقط في انجاز المهمة ، وانما أيضاً في السير الى الامام ، وكما يقول مــدير الاحصاء ، في أن نعطي شيئاً ملموساً وأساساً محسوساً للمشاريع المقبلة للدولة ، « أساساً كونكريتياً » . * فلنبد اعجابنا ، في طريقنا ، بالمفرد المولّد : ولكن الم تكن المحاولة شيئاً فذاً ؟

وبعد ، هذا الجوع الحماسي الذي يظهره العرب منذ الآن ، للعد ، والقياس ، والتقدير الكمي ، بالامكان ان نستشف منه نزعة عقلانية غــير مكتملة ،

---

٢٥ : المصدر نفسه ص ٣٠٤
٢٦ : المصدر نفسه ص ٣٣٨

وجاذبية الاستيراد . ولكن علينا أيضاً ان نعرف كيف نقرأ فيهـا شيئاً آخر ، فالعدد هو أيضاً الغيبية (متافيزيق). فاقامة السيطرة ، أو استعادة السيطرة على الاشياء والكائنات ، هي ، أصلاً وجوهراً ، اعادة الاتصال بمواقف منطقية أو لاهوتية قديمة يكمن فيها سر التفاؤل الخصب . بالتأكيد ، لم يصل المشرق الى المرحلة التي يعيد فيهـا وضع العقل في قلب الوجود ، باللجوء لتقدم العلوم التجريبية والطرق المنهجية . ولكنه يشارك بطرق وسيطة ، في هذه المطامح التي تميد بها البلدان المتطورة . وكان ذلك حتمياً ، وفي محاولته لاستعادة سيطرته على نفسه ، لا يسعنا أن ندهش للحماس الذي يبديه في القيام بتعداد ذاته وقياس ذاته ، الأمر الذي هو أيضاً ، في احد معانيه ، نوع من المقامرة على الارقام ومن المحاولة لبعث كون ، مثلما كانت في القديم تطمح مدرسة التأملات العددية .

ومن هنا كانت بعض المبالغات المفيدة في تنويرنا .

فالتجريد الجاف الملازم للأرقام . يجرؤ في الوقت الحاضر على اقتحام اللغة العربية . وقد كرس أحد اصدقائي ، من الاساتذة السوريين ، مجلداً ضخماً في حساب الدلائل لتكرار وقـوع الكلمات ليس في اللغة المحكية ، الامر الذي يحتمل ان يكون مفيداً ، ولا في اللغة الفصحى ، وهو شيء ثمين ، وانما في لغة الكتب المدرسية المستعملة في خمسة بلدان شرقية ، انها لأرادة طيبة جبارة [٢٧]

واننا نراها في كثير من التجارب التربوية . وبتصفح بعض هـذه المجلات التعليمية العديدة ، والشديدة العناية ، وبدراسة البعض من هـذه البواكير لمحاولات ما سوف يصبح علم الاجتماع العربي ، المكتوب باقلام عرب ، لا يسع المرء إلا أن يدهش لهـذا الغلو في التقدير الكمي ، فالدراسة هي تنظيم

---

٢٧ – وقد أثارت المحاولة اعجاب ر . بلاشير وذعره ، (انظر مجلة (أرابيكا) سنة ١٩٥٤ ص ٢٣٨ .)

السؤال والجواب . والسؤال هو العدّ ، الأمر الذي تتضافر على خلقه مفاعيل « ذهنية اقتصاديـة » متعجلة . مفرطة في الاتجاه نحو الاكتفاء بالوصفات ، ومبالغة البحث عن الاحصاءات ، باسم الواقعية والتشدد . ولربما لا يزال اللجوء الى التجريد الفقهي القديم يطل تحت هـذا الغرام بالارقام ، في المواضع التي لا منطلبات المادة تبرره ولاسلامة الاعلام .

وفي هــذا الأمر يكمن الحظ ، على وجه التأكيد ، فبوسع « التحديد بالارقام » – في المعنى المزدوج لهذه الكلمة – أن يعقب بصورة مشؤومـة اللاتحديد بالارقام الذي تحاوله هذه البلدان من ذاتها . انه انعدام للاصالة ، على الاقل ، ! وهذا العشق للكمية الذي يخشاه البعض ، قد شجبه الآخرون ، على اعتبار أنه يحمل على العودة الى « التشييء » . وبوسع قوى داخلية وخارجية أن تسهم في تحقيق هذا التشييء ، فمن الخارج كل ما يحاول أن يسرمد العهد الاستعماري ، بشكل أو بآخر . ومن الداخل الحماس البالغ الايجاز ، في الاكتفاء بتمثيل الطريقة والأسلوب عند الآخرين . انه لالتقاء متناقض في الوضع الاسوأ ! فبضد هـذه النزعة ، ينبغي أن يتسلح كل جهـد عربي نحو المستقبل ، بالتحليل والعمل .

نظرة اجمالية

لنجمع ، ولو للحظـة ، العناصر التي عالجناها بالتتابع في هذا الفصل ، رغم مزالق مثل هذه العملية التأليفية . هذه العناصر ترسم الملامح الكبرى لتطور حدث في المواقف الاساسية ، فانعتاق الشرق يستهدف الابتكار الاقتصادي لانه يرى فيه عن حق ، صميم القلب من الاستقلال ، ولانه ، في الوقت نفسه ، يستطيـع بهذه الوسيلة ، أن يرقى الى صعيد المتسلطين السابقـين . ولتحقيق ذلك ، يتعين على هــذا الانعتاق أن يزعزع الكثير من وجوه التوازن القديمة . وليس بوسع

العلاقات بين المرء والمجتمع والطبيعة ان تبقى على مـــا كانت عليه في الفترة التقليدية ، ولا على ما يهواه الايمان الديني . وبعد الآن سوف تنصبّ الجهود على الظفر بالحتميات التي تسير الظاهرة الصناعية .

وفي المرتبة الثانيــــة ، ينبغي القبول بالنظرة الى الحظ والمخاطرة ، القاعدة المشتركة بين اللعبة الرأسمالية ، وروح الاقـــدام على العمل ، والاحصاءات ، وبصورة متساوقة ، سوف تتابـــع السيطرة على الشيء – الموضوع بوساطـة الصنع ، وعلى عـــالم الكمية . وكل ذلك ، يتحقق ويتم تصوُّره وانجازه واحداث فعاليته بصورة تتفاوت في الوضوح أو في الكمال أو في الشدة ، ولكنه يبدو ، في كل مكان ، خفاقاً ومشرعاً عالياً ، وسهلاً تمييزه .

ولكن ، بالطبع ، كل ذلك لن يتحقق دون أن يستثير مقاومـــة المواقف القديمة ، ودون أن يخلف العادات الموروثة باقية تحت الزي الجديد . انه لنقاش مفتوح بين الحاضر المتجه ضد الماضي ، وبين الماضي المتجـه ضد الحاضر ، إنمـا ما ينتصر أكثر الاحيان، فهو التسويات والمصالحات البارعة التي تخفي او تكشف لعبة معقدة : وبالرغم من ذلك ، يؤدي كل ذلك الى طفرة هائـلة وقد كتب مؤخراً أحد النقاد المصريـين ، ولعله أكثرهم نزوعاً فلسفياً ، في كتابـه عن مشاكل الفن الجديـد : « ان التمييز القديم الذي كان يقول به اساتذتنا بـين الاسلوب والجوهر ، قـد اختفى ، لان جيلنا قـد رأى شيئاً خارقاً للعـادة : « اختلطت الذات بالموضوع » * (٢٨) وهنا يحدث اكثر من التأثير المتبادل بـين الذات والموضوع . فهناك تـأثير متبادل آخر بين الجوهر ومظاهره المحسوسة ، بين المثال والفعل ، بين ارادة الكون وارادة الفعل ، فالغرب يقوم ، في هـذا الحوار ، بدور النموذج والمنفر في آن واحد .

---

٢٨) محمد مندور : « قضايا جديدة في الادب الحديث » بيروت . ص ٨

ولكن علينا ألا نستبق التطورات المقبلة . وها نحن ، في الوقت الحاضر ، قد عدنا الى الانتباز (المقولة المعاكسة) التي كانت تبعثهـــا في نفسي مشاهدة اسواق بغداد ، والتي يوقظها العديد من المشاهد الاخرى ، الطبيعية والذهنية ، في الشرق الحديث . أهو الرمز أم الواقع ؟ ربما يستطيع التحليل ، بعد هـــذه المحاولات الاولية للاقتراب ، من الموضوع ان يتتبـع : من قرب اكبر ، تبادلها المتعدد الاشكال .

الفصل الرابع

الجانب المالي : داء الدلالة

في الفترة التي تنتهي فيها المرحلة الاستعمارية من التاريخ ، يبدو ان الطريق التي اجتازها التابعون والمهيمنون لم تقد هذه الفئة او تلك الى النتائج ذاتها . فالوضع الاستعماري كان يجمع ، في الأمداء نفسها ، فترتين جد مختلفتين . فالتابعون كانوا كذلك لأن وتيراتهم التي تتسارع في بعض المواضع قد تباطأت ، على العموم ، وهمدت . — وهذا الموضوع قد كشفت اليوم عنه الدراسات حول الانعكاسات الاجتماعيـة للتقدم التقني . ونظام التلمذ والتدرّج القاسي (Le Compagnonnage) الذي بدأ في عهد الآلة البخارية ، ينتهي في عهد القرن الذري بالنسبة للمستعمر (بكسر الميم) السابق . أما بالنسبة للمستعمر (بفتح الميم) السابق ، فانه وقد بدأ في مرحلة المحرك الانساني او الحيواني ، لا ينتهي الا إلى مرحلة الآلة المستوردة . ومصر التي تقدمت ، في هـذا المجال ، صعداً مثل صعود السهم ، لا تزال في مرحلة الشروع بالصهر والتعدين والضبط

والتجهيز [1] . فانه يحلولنا أن نردد أن الانعتاق قد أقبل على العرب بفضل لعبة قوى لا اقتصادية . فالثورة اللغوية والثورة الملازمة لتزايد السكان قد أعطتهم حتى الآن اسلحتهم الرئيسية .

بالتأكيد ، كثيرون منهم ينكرون في الوقت الحاضر أثر هذه القوى المبهمة . وهناك نقطة خاصة لا تعود الكلمة والعاطفة تبدوان فيها قادرتين على اسداء المعونة ، في البلدان المتحررة حديثاً . وذلك بمقدار ما تصطدمان ، ليس بالقوى القاهرة فحسب ، وانما أيضاً بالحاجة القاتلة للمال .

والمعلوم أن الرأسمال لا يُفترض ولا يُغنّى . وفي البلدان العربية هو ضعيف ومصطنع . وسوف يظل كذلك طالما يعرقل الزخم الهائل لتزايد السكان نمو الدخل الفردي [2] . وبما أنه يبدو ، في نظم تتسم بالفوارق الاجتماعية الكبيرة ، أن كل معدل وسطي ، عندما نأخذه في سياق هذه المعاني ، ليس الا ضرباً من التعابير المجردة من المدلول ، فان المصلح القومي الذي يعلم بذلك محمول على أن يشعر من جرائه بقلق أكبر . واستتباعاً لواقع أن الشرق يسلم بالمفاهيم الكلاسيكية للاقتصاد ، يستطيع اليأس أن يستحوذ على الاذهان الاكثر حصافة أمام ضخامة الجهد الذي يتحتم بذله .

---

١) والخوف من اتساع الهوة بين البلدان المتطورة والبلدان التي كانت تابعة في السابق يغذي ، منذ صيف سنة ١٩٥٩ مجموعة من الادب السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تفرد له مكاناً كبيراً الصحف والخطب التي تلقى في الندوات الدولية . أهي حملة منسقة أم هدنة للتنفس في جو التوتر بين الكتلتين ؟ قد يكون من المفيد كتابة علم اجتماع استشراقي ولكن أيضاً علم اجتماع لدراسة المواقف الدولية بالنسبة للشرق ولدراسة مواقف الشرق نفسه بالنسبة لهذه المواقف وبالنسبة لذاته .... اي « تعدد الجوانب » لو صح القول .

٢) الدكتور نزية أحمد ضيف يؤكد على الانعكاس الطبيعي للتخطيط الاقتصادي وحسابات الدخل القومي والفردي . وان دراسته حول التخطيط تشتمل بمجموعها على عرض لطريقة « حسابات الامة » ، انظر رسائل المجلس القومي للتخطيط » المصرية . رقم ٧ ص ١ .

الرساميل الشكل الحديث للقدر .

فبلاد مثل مصر يتحتّم عليها ، لكي تحافظ فقط على المستوى المتواضع لمعيشتها، أن تتمتع بنمو يعادل النمو في البلدان الاكثر تطوراً ، أي ان عليها ان توظف من دخلها القومي أكثر بكثير من نسبة العشرة بالمائة التي تعتزم فرنسا مثلاً توظيفها . وفوق ذلك ، من اللازم أن يضاف الى هذه النسبة أموال متوفرة قادرة على تصفية الامية ، واشاعة الصحة الاجتماعية الخ ... وهذا الذي تجهد مصر لتحقيقه كيفما اتفق . ويظهر أن أموال الادخار المحررة قد ارتفعت ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٥٧ الى ٤٦٠ مليون جنيه مصري أي بنسبة ١١٥ مليوناً في السنة ، من أصل دخل قومي يقارب ٩٠٠ مليون جنيه ، والخطة الحكومية تأمل أن ترفع أموال الادخار في عام ١٩٧٨ الى ٣٦٤٤ مليوناً من الجنيهات المصرية ، أي بزيادة ٤٠ الى ٥٠ جنيهاً مصرياً [٣] وربما أكثر بالنسبة للفرد الواحد .

ورغم هذه النظرة المتفائلة ، علينا أن نعتبر أنه خارج عائدات البترول ، والارباح المنتظرة للقنال ، يعود جانب من الدور الكلاسيكي الذي كان يؤديه الادخار ، في هذه البلدان، الى التمويل الاجنبي . وينتج عن ذلك مخاطر هائلة. ففي نهاية المرحلة الاستعمارية، يطالب التابعون السابقون انفسهم بهذه التوظيفات المندفعة بعيداً من المركز Placements centrifuges والتي استطاعوا أن يروا فيها الشكل الأخير للرأسمالية .وبوسع هذا العود على بدء الباعث للعجب أن يثير عن حق ،القلق في الوقت ذاته الذي يفرض اعادة النظر في النظرية .

---

٣) شفيق أخرس : « مضاعفة الدخل القومي في الجمهورية العربية المتحدة في عشر او خمس عشرة أو عشرين سنة . » مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » – السنة الثانية – عدد ١٨ .

صحيح ان مؤسسات دولية ، كالمصرف الدولي للتعمير والتنمية الذي نحن مدينون له ببعض دراسات تعتبر منطلقات في هــذا الحقل ، حول العراق ، والأردن ، وسوريا (٤) لا تهدد زبائنها بالمخاطر السياسية ذاتها التي كان يهددها بهــا الدين العثماني ، أو شركة قناة السويس ، مهما بلغ من حقيقة « الطابع الدولي » الذي كانت تزعمـــه في ذلك الحـين . ولكن يلزم البلد الناشىء الكثير من المثالية للاعتقاد بان قروضاً تستطيع الى هذا الحد ان تخرج من جسدها المادي فلا تعود تنقل ، في أجـــل قريب أو بعيد ، نفوذاً لا يقبل الا عن كراهية . فالنقطة الرابعة ، اذ تحتقر التغطية الدوليـــة ذاتها ، عرضة لحملات لاذعة من قبل الرأي العام . والمصارف والشركات الفرنسية ــ الانجليزية في مصر قد دفعت غالياً ثمن علاقات الترابط التي يقيمها الشرقي ، عن حق ، بين كل نشاط اجنبي حتى ولو كان منزهــاً عن النفعية (مثل البحث العلمي) ، « والاستعمار » الموقـوت . وبالحري عندما يكون هذا النشاط مدراً للمال .

وعندما نواجه رؤية الأشياء ، يصبح من الممكن اعتبار الحاجة الى الرساميل في الحالة الحاضرة لهذه البلدان نابعـــة من مرامي بناءة وليس من النزعة لتبذير المال ، كما في السابق . ومع ذلك فهي تعبر عن الوضع المتدني نفسه ، وفي هــذا الوضع بالذات تكمن اليوم التبعية الستراتيجية ، مثلمـا كانت في الماضي تكمن التبعية الاستعمارية .

وبالوسع تفسير حساسية بلد مثل مصر عندما نقيس مدى الأغوار في حياتها الريفية الحميمة التي استطاعت الديون الأجنبية ان تتغلغل اليها (٥) . والتوكيب

---

٤) ظهرت هذه الدراسات في منشورات جون هوبكنز ، في بلتيمور ، الولايات المتحدة ، على التناوب في اعوام ١٩٥٢ ، و ١٩٥٥ و ١٩٥٧

٥) ابراهيم عامر ؛ « الارض والفلاح » القاهرة ، ١٩٥٧ . ص ٧٠ وما يليها

الفلاحي يتمتع بسلطان قاهر في هذه البلاد. فهو يحيط من كل مكان بالاقتصاد المناضل . ومعلوم ان البنوك الأجنبية هي التي اثقلت بالديون كاهل الفلاح ، زمناً طويلاً . وقد بلغ هذا الأمر حدّ : انه في عام ١٩٠٧ ، كانت الملكية العقارية المقدرة بمائة وعشرين مليون جنيه ، مدينة بعشرين مليوناً اي بنسبة السدس من قيمتها . ومنذ ذلك الحين اتجه الوضع نحو العافية . ولكن رغم كل الجهود المبذولة ، لم يتحقق بعد تخليص الفلاح من ديونه بصورة حقيقية . والأبدال براسمالية ذات أكثرية مصرية لم يؤد الى الآثار الخلاقة التي كان بالوسع انتظارها ، فمثلاً : قد جرت في سنة ١٩٣٢ تصفية فرع زراعي اسسه البنك الوطني المصري (بنك مصر) سنة ١٩٠٢ . فقد لوحظ حينذاك ان كل سهم بقيمة ٥ جنيهات قد سحب ربحاً قدره ثماني جنيهات .

وربما تكون ضخامة الربح والدخل ، في التكوين التقليدي هي العامل الوحيد القادر على تحريك الراسمال ، طالما يقتصر على وسائل اقل عنفاً من الوسائل التي تتبعها الثورة المصرية منذ ١٩٥٢ وبالفعل نحن نعلم انها استهدفت اذابة الجليد عن هذا الراسمال الذي كان ، بدفن نفسه في الأرض ، يجعل من الفدّان رمزاً اكثر منه واقعاً ، وقد كانت اجرة الفدان ، عام ١٩٥٥ ، تبلغ ٥٠ جنيهاً مصرياً في السنة اي تماماً ريع هذا الفدان نفسه ، ولكن فيم كان الفلاح يتشبث؟ ليس من اجل ان يعيش بالمعنى الاقتصادي للعبارة . فلنقل : من اجل أن يوجد ! يا للرمز الرائع ، ولكن يا للاقتصاد المرعب .

قد سبق لي أن أشرت الى نظريات الاستاذ تيلاك [٦] التي يعطيها كتاب

---

٦) الشرق الاوسط : دفاتر I . S . E . A باريس ١٩٥٧ ، ومحاضرات الاستاذ تيلاك غير المنشورة في المعهد الفرنسي للحقوق .

السيد غناجه الحديث [٧] صدى مدوياً . وفي نظر هذا الباحث ، يشكو الاقتصاد في بلدان الشرق الأوسط من علل عميقة ، فقد أفقد التنافر بين نمو الموارد والنمو في عدد السكان ؛ وكذلك النقص ، النسبي على الأقل ، في التجهيز الاجتماعي ، طابعه الانساني . وفوق ذلك ، هو يبدو مفككاً ومتناثراً لأنه مرتبط ارتباط التبعية بالخارج : زبائن النفط في الجنوب الشرقي ، جاذبية المضاربة والعمليات المثلثة ، على ساحل البحر المتوسط ، عبوديات الزراعة الأحادية في مصر ، الخ ...

اللجوء الى المجهول الشرقي

ما العمل اذن ؟ أن نصبح انفسنا من جديد . لقد لاقت افكار « غناجة » هذه معارضة منيرة للعقل . فقد انتقدها أحد الاقتصاديين السوريين . ولكن هذا النقد لم يتناول محتواها ، بقدر ما تناول مداها البصري [٨] وهذا المدى لا يفسح مجالاً واسعاً للعروبة ، وهو ذاته يبدو متراكباً فوق الواقع كما يصفه أو كما يثيره كاملا ، حالياً ، طرح معنوي ومادي على السواء ، أكثر مما يبدو مندمجاً في هذا الواقع . هذا الشجى وهذا الانفعال يطغى على التفسيرات العربية ، ولكن لنعرف كيف نميز ، تحت الاندفاع الحماسي عند المتناقشين الغريزة التي لا تخطىء في التعرف الى المجهول الشرقي [٩]

---

٧) ا . غناجه : النمو الاقتصادي والبناء في الشرق الاوسط ، باريس ١٩٥٨ .

٨) هشام متولي : حول « كتاب جديد » مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ، عدد آذار ١٩٥٩ ص ٦٨ وما يلي .

٩) سبق ا ه . أ . ر ، جب H.A.R.Gibb ان استعمل ، بمعنى آخر ، العبارة : « العامل × » انظر كتاب « الشرق الاوسط في المرحلة الانتقالية . » من منشورات و ، لاكور W . Loqueur عام ١٩٥٨ .

ومنذ عشر سنوات ونيف ، كانت الامم المتحدة تقـــدر بالف وثلاثمائة مليون دولار المبلغ اللازم لرفع اقتصاد الشرق الأدنى بنسبة ٢ بالمائة سنويـاً . وبوسائل مخيفة الى حدما ، قدّرت المبالغ المدخرة بقيمة ٥٤٠ مليوناً : بمـــا يؤدّي ، في نظرهـــا ، الى عجز قدره ٧٦٠ مليوناً . (١٠) ومعلوم ، منذ هذه التقديرات ، ان كثيراً من الأشياء قد حدثت في هـــذه البلدان ، عدا الثورة السياسية : فان مكتسبات هامةمن البناء السفلي الاجتماعي والمادي هي موضوع اعتزاز في البيانات الحكوميّة التي تلقي بأرقامهـا مثل ضربات المطارق وتعلق نجاحاتهـــا بوتيرة أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر تسارعاً ، والتفاؤل يتضرم في مناسبات « اسبوع التنميـــة » في العراق (١١) . وفي الخطب والنشرات والكراريس التي يصدرها مجلس الانتاج أو مجلس الخدمات بمناسبة التخطيطات القائمـة في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة (١٢) ، واذا امتنعت مصادر القروض الخارجية (عن الاقراض) ، نتجت هزات غريبة في القانون الدولي وأزمـة في التشكلات السياسية ، وقد رأينا ذلك عام ١٩٥٦ ، والمنجزات لا تنفك تتتابع، في كل الميـادين : في القوى المائيـــة ، وفي الصناعة ، وفي التعليم . ويلاحظ

---

١٠) غناجه : المصدر نفسه ص ٤٧ وما يلي .

١١) حيث تطبع مجموعة وثائقية مصورة باللغتين العربية والانجليزية .

١٢) هناك أدب بكامله يشتمل بصورة طبيعية على نشرات للدعايـة وكذلك « كتيبات » للارشاد والتيسير المفيد. (أنظر : « تطور الانتاج الصناعي والزراعي في عشر سنوات ») واطروحات مثل تلك التي ينشرها مجلس التخطيط والتي سلمت لي » كرمـــا ولطفاً ، وبعض دراسات متتبعة مثـــل دراسة الدكتور مرعي عن الاصلاح الزراعي : والدراسة التي لا تحمل اسم مؤلفها عن التصنيـع ، وأخيراً الجلد الذي صدر مؤخراً والذي يقدم جرداً احصائيـــاً لجميع وجوه النشاط في مصر عن السنة الجارية : « الكتاب السنوي » عام ١٩٥٩

أصحاب البنوك بدهشة إنه لا الوضع المالي ينهـــار ولا الدينامية تلجم [١٣] . وليس لي ان أوضح ، هنا ، ماهية ومدى التقييدات والتوترات التي فرضت ثمناً لذلك ، اذ أن هذه الملاحظة تتجاوز حدود المناسبة والمكان .

فها هي شعوب كان من المفروض ، وفقاً للحس السليم . وباستثناء البلدان المنتجة للنفط (كالسعودية والكويت) ان تتخبط في صعوبات مرعبة ، ناتجة بمجموعها ، عن عدم الاستعداد التقني ، وغياب الاحتياطي والتسارع في عـدد السكان . ومعلوم الآن ان هذه الشعوب تواجه هذه الصعوبات بمشقة لا تخلو من المباهاة الظاهرة . فكيف يمكن تفسير هذا الشذوذ ؟ هـــل يعود ذلك الى ان الموارد المحلية ، او المساعدة الاقتصادية الأجنبية قد قدرت أقل مما هي عليـه ؟ والأرجح ان سبب ذلك هو تجاهل عوامل ليست اقتصادية حقيقة ، وتستحق اكيداً ، في هذه المرحلة من النمو وفي هذا المركب السياسي ، انتباهاً أكثر مما تحظى بـــه عادة من قبل المراقبين التقليديين ، فان معالجتي ليست معالجة اقتصادي . فهي لن تجد أية صعوبة في التسليم بهـــذا النوع من عدم الفهم ، بصفته معطى أوليـــاً ، ولا نزال نذكر دهشة خبير دولي ، دعي الى درس الاوضاع المالية اللبنانية ، فما كان منه ، عندما وجد الازدهـار حيث كان من المفروض أن ينتظر البؤس أو الافـــلاس التحليل الدقيق ، إلا ان نصح هؤلاء المتوسطين الاذكياء بأن يتابعوا عمل ما كانوا يعملونه حتى الآن ، ولكن عمل

---

١٣) انظر مثلا التقرير عن « الاوضاع المصرية » الذي نشر في المجلة الفصلية للبنك البلجيكي والدولي في مصر ، تشرين أول ١٩٥٨ . وهناك تاريخ مفيد للمراحل القديمة لتوظيف الرساميل في مصر يمكن العثور عليه في النشرة الاقتصادية ، ١٩٥٦ العدد العاشر ص ٣١٠ وفي مقالي حسين خلاف ، « تمويل التنمية في مصر » وهنري تادرس « التطورات الاخيرة لميزان المدفوعات المصرية » اللذين نشرا أولهما في مجلد ١٩٥٥ وثانيهـــما في مجلد ١٩٥٧ من مجلة « الاوراق الاقتصادية للشرق الاوسط » الصادرة باللغة الانجليزية في بيروت .

ماذا ؟ هذا ما لم يتوصل اختصاص الخبير الى توضيحه .

نحن لا نعني أنه يقتضى اقامة نظام من اللاعقلاني أو مما لا يمكن الاعتراف به . بل على العكس ، ان خلاص هذه البلدان مرهون من وجوه عديدة ، باعادة بناء منطقية . ولكن على تحليل الصعوبات الحاضرة أن يؤدي ليس الى استخدام وصفات جاهزة ، ناتجة عن رواسب تجربة أو عقيدة اقتصادية دولية ، وانما الى البحث عن أسلوب ملائم . ويصح في هذا المجال ، ما يصح في جميع الوجوه الأخرى من الحيلة الشرقية . فالواجب الأول هو شعار : «اعرف نفسك بنفسك» والى هذا كان أ بياتيه A . Piatier يدعو مستمعيه المصريين ، في محاضرتين القاهما سنة ١٩٥٦ (١٤) . فقد برهن على أنه ، بالرغم من النظريات الكلاسيكية ، كان من اللازم الأبقاء على الأمل ، والاقدام على العمل ، واطراح مفهوم « الانسان الاقتصادي Homo œconominus » . فهذا المفهوم يستطيع الابعث النفور عند عالم الاجتماع . فهو يهمل بطابعه الاعتباطي المفرط عناصر جغرافية وتاريخية وعقلية تلعب دوراً حاسماً . « فالقوة النفسية عند الشعوب هي أثمن « رأسمال » ، والذي يميز الإنسان « المتطور » عن الإنسان المتخلف في تطوره » هو القدرة على « الجواب » .

وهذه القدرة ، التي يتطلبها على السواء التي القديم وطاقات الحاضر الناشطة يملكها العرب الى درجة قوية . فوفقاً لنظرة مثل هذه لا يعود للزخم الاقتصادي غير مجرد الاستمرار المطابق للزخم الذي يساعدهم على استعادة شخصيتهم ، بطرق أكثر الاحيان غير منتظرة ، ولكن سر الفشل أو النجاح يكمن في صواب المطابقة . فكثير من قواهم ، وهي ناقلات الخلق ، والهرب ايضاً ،

---

١٤) بياتيه : وجوه التفاوت الاقتصادي والسياسي والنمو على المستوى الاقليمي وعلى المستوى العالمي » القاهرة ١٩٥٦ S . O . P . Press

يجب ان توجه في اتجاه كان من المستحيل التنبوء منذ عشر سنوات فقط . ومن هنا كانت الضرورة القاتلة بالنسبة ، اليهم ، للتحليل ولاعادة النظر . وهذا ما يمكن أن يسمى ثورة .

تكوين رأسمال عربي نحن لا نملك معطيات واضحة كمياً حول سؤال بهذه الأهمية ، في نظر الاختصاصيين واهل المهنة ، وهو السؤال المتعلق بتكوين الرأسمال . وليس من دراسة وافية في هذا الحقل (١٥) . ولا يزالون في هذا الموضوع ، عند مرحلة التحقيق الذي يستند الى « الامارات الخارجية » والمقابلات الصحفية ، ذات الميل المفرط الى تفسير التفسيرات ! ومع ذلك ، فــان المخاطرة لا تمنع دراسة منبهة خاصة للتطورات ، وللتحركات وللمواقف .

وهذه الدراسة تلاحظ فيضاً مالياً متدفقاً ينهمر ، من العربيــة السعودية وامارات الخليج الفارسي ، على لبنان بصورة توظيفات عقاريــة أو وجوه استهلاك باذخة ، وعلى القاهرة بصورة تشييد أبنيــة على الضفة اليسرى للنيل ، وفي كل مكان بصورة رواتب وهبــات ، ونفوذ ، وفي خط مقابل ، تزود عائدات النفط ، التي ينبع منها هذا الفيض . البلدان العربية بالعملات القوية وبالقدرات المالية. ومن اللازم تتبع هذه القدرات في سرها وفي ظهورها المفاجىء غير المنتظر أحياناً ، أو المنتظر اكثر مما يلزم ... والمعونــة الاجنبية ، ومن الآن فصاعداً ، عائــدات القنال ، تشكلان مصدرين آخرين من مصادرالقطع النادر .

وهناك ظاهرة أخرى ، اقل تميزاً جغرافياً ، تعود أسبابها الى تنقلات الثروة

---

١٥) رغم جهود علمية قيمة ، مثلاً جهود جماعة من الاقتصاديين في الجامعة الاميركية .

العقارية ، المرتبطة بمصير طبقة من كبار الملاكين وهذه الطبقة تلقت على التوالي في مصر (١٩٥٢) وفي سوريا (١٩٥٨) وفي العراق (١٩٥٨) ضربات الاصلاحات الزراعية ، وهذه الاصلاحات كانت تبشر بهدفين : عتق طاقات كانت هاجعة منذ أجيال ، في زراعة روتينية ، وتحرير الفلاح . وهذا المظهر الثاني ، رغم أنه الاكثر جذرية ، لن يستوقفني الآن . وفيما يتعلق بتحريك الرساميل العقارية ، يبدو ان التحديد الفعلي لمساحة الأملاك ، وتحديد الأجور ، الذي لا يقل عنه اتساماً بالأثر الحاسم ، شرعا في تحويل قسم من التوظيفات نحو الصناعة ، في مصر ، البلد الذي كان اول من سلك هذه الطريق . وبهذا الشكل أصبحت مساهمة الرأسمال الخاص ملحوظة ، بنسبة لا يمكن اغفالها ، من قبل البرامج المصرية ،وتشكل موضوع تصريحات رسمية تهدف الى تشجيعها، ان لم نقل الى الحض عليها . [١٦] ولا يزال من السابق لأوانه ان نتبين في سوريا والعراق ما اذا كان التطور نفسه بدأ يرتسم . وفي العراق ، سبق لنظام الاقطاعية العقارية ان بدأ ، على الأقل في بعض الحالات ، نوعاً من عملية التحول . فقد كانوا عام ١٩٥٨ يذكرون في سوق بغداد المالية ، اسماء ثمانية الى عشرة من اصحاب المليارات ، ومنهم العديدون الذين كانوا يحملون اسماء عريقة : الدامرجي ، والخضيري ، والشبيبي . وفي مصر ايضاً ارتسمت تباشير هذه التنقلات من الريف الى المدن الى حد ان الدولة اضطرت الى أن تظهر مؤخراً قلقها من اتجاه مفرط نحو التخفي بصورة عقارات للايجار .

ويعود ضرب ثالث من الأموال القابلة للتثمير الى مخلفات الجيوش الحليفة . فمن المبالغ الطائلة التي انفقتها تكونت ثروات سهلة ، لقيطة ، كانت المضاربة

---

١٦) تصريح عبد الناصر عند افتتاح مصانع النسيج في حوش بلاص ، في سوريا ، بتاريخ ٢٤ اذار ١٩٥٩ . فقد كان في ذلك التصريح اعادة الاعتبار للرأسمال الخاص،وفي الوقت نفسه دعوة الى « للاشتراكية التعاونية » . وهناك بادرة توفيقيّة أخرى : مؤتمر M. I. D. E. C. المنعقد في القاهرة من ١٥ الى ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٩ .

تغرف منها على نطاق واسع ، وفي مجال مماثل من الأفكار ، يلزمنا أن نشير الى المكانة التي تحتلها روح الأعمال ، والتجارة ، والعمولة ، والسمسرة ، والنزعة التجارية على العموم ، حيث كانت الأخلاق التجارية القديمة ، الراسخة الجذور في تقاليد المدن ، تتنافس على الاولية مع الاتجاهات الجديدة ، بنصيب متفاوت من الفعالية ، (حلب ودمشق الخ ..) وحيث كانت التبادلات النشيطة مع الخارج تشكل الجانب المسيطر من الاقتصاد ، ونوعاً من الوجه المالي للتعلق العاطفي بالغرب (لبنان) .

كيف يمكن تصنيف هذه الروافد المختلفة ، بالنسبة لبعضها البعض ؟ هنا ، حول هذه القضية ، يلزم ان يكون بتصرفنا أرقام ، وللفور . ويتفق أن الامكانيات الحالية لمصادر الدراسة لا تزال بعيدة جداً عن الدخول في الحساب ، لو اعتمدنا على نشرة جد حديثة من الجامعة العربية . ويشكو برهان الدجاني ، في محاولته لجمع المعطيات الملتقطة ، بمناسبة انعقاد مؤتمر الغرف التجارية ، من عدم أهلية هذه الاحصاءات للثقة [١٧] ووجوه من التباين الكبير تفصل ، من هذه الناحية ، بين البلدان المختلفة . ففي البعض منها ، يواكب عدم النضج في الطرق المتبعة المبالغات في الدعاية ، وفي البعض الآخر ، على العكس ، نرى محاولة جدية لاستقاء المعلومات قيد التكون .

لنتصفح نشرة الدكتور فينيلون Fénelon حول الدخل الوطني في العراق[١٨] والمؤلف واحد من الخبراء الذين يبثون الروح في مجلس الاعمار . وهذا المكتب،

---

١٧) برهان الدجاني: المصدر نفسه الذي اوردناه في المقدمة .

١٨) انها بين المؤلفات التي نملكها او على الاقل التي نشرت ، واحدة من اكثرها جدارة بالثقة .

الذي كان يتمتع بشبه حصانة داخل البلد ، كان يتصور نفسه آلة لتحويل قسم من عائدات البترول الى تجهيزات. وهذا الطلاق الواقعي بين التجهيز المادي وانعكاساته الانسانية يبدو واحداً من الأسباب العميقة للثورة العرّاقية . ولكنَ هــذا لا ينفي كون أن عملا هاماً قد تراكم . وبكثير من العلم الموثوق بــه ، يقوم التقرير أولاً بسبر «دلائل» اقتصادية واجتماعية : (Indicateurs économiques) مثلاً استهلاك التيار الكهربائي . واذا كان تصدير النفط يرتفع في العراق ، من ٦ ملايين طن عام ١٩٥٠ الى ٢٩ مليوناً عام ١٩٥٦ ، مع كل ما يتبع ذلك من عائدات ، بينما مجموع الصادرات الاخرى لا يرتفع الا الى ١٣ مليوناً من الدينارات ، في التاريخ نفسه . والسمة التي تكاد تكون مستمرة لهذه البلدان : هي الضعف النسبي للواردات والصادرات بالنسبة للدخل الوطني . ففي العراق ، يقدر هذا الدخل عام ١٩٥٦ ، بمبلغ قدره ٣٠٣ ملايين من الدنانير : أو ما يعادل ٤٣٠ ملياراً من الفرنكات . ولنسجل أنه في عــام ١٩٥٦ ، بلغت توظيفات مجلس الاعمار وحدها ٤٥ مليوناً من الدنانــير ، هذا باستثناء جميع التوظيفات الادارية والخاصة ، مقابل دخل اجمالي يقدر بمبلغ ٣٠٣ مليوناً : انهــا نسبة مئوية ضخمة .

وما من أحد ، في الوقت الحاضر ، يقدر على التدقيق في هذه الارقام . وقد يسمح لنا بأن نفضل على هذه الارقام الاشارة النفسية التاليــة ، على اتسامها بخيبة الامل ؛ وهي مستقاة من تقرير صادر عن مسؤولــين آخرين في بلد آخر « ان نسبة الاموال المدخرة في هذا البلد منخفضة جداً ، بسبب النسبة الضئيلة للدخل الوطني » « واكثر مشاريع التنمية هي تلك التي يبتعد عنها الافراد إما لانها تحمل ، من جهة الاستثمار ، كثيراً من المخاطر وقليلاً من الارباح ، وامــا

لانها تتطلب الكثير من رؤوس الأموال لفترة طويلة »[19]

وهذه الجملة تتضمن واقعتين أو ثلاث وقائـــع مهمة . أولاهما هي الخوف القديم من المخاطر : ولنكرر انه يعود الى جذور عرقيــة . وكيف ينظم نفسه داخل نفسيات التجار هذه مع حب اللعب ؟ هذا ما تسمح دراسات مقارنـــة تاريخية دقيقة وحدها ، بأن تتبيّنه .

وثانيهـما هو الحذر من التجميد البطيء للأموال . وهكذا ، فـان التاجر الحلبي [20] ، كما كان لا يزال يشاهد في فترة ما بين الحربين ، يحتفظ بقسم من ثروتـه في صورة احتياطي من الاراضي : وهو بـذلك يقف على حدود الملامـح النموذجيـــة لسيد الارض الاقطـاعي . وهو يكثر بقية ثروتـه بالتبادل التجاري ، الذي تزداد وتيرته تسارعـاً على قدر ازدهاره . وهو يسلك تقريباً سلوك ابرة التطريز الرشيقة فوق نسيج حياة المدينة فـان نجاحه رهن بكثافة علاقاته . وهـــذا النمط من النشاطات لم يعد يتناسب أبداً مع الزمن الجديد . ولكن الذهنيات تبقى . وفي رأي احد الاقتصاديين السوريين ، هذا هو السبب الذي يوجب على الدولة «أن تسد النقص الذي يخلفه تقاعس الافراد» . ونظام الاقتصاد الموجه يفرض نفسه هنا ليس بسبب عمليات اختيار نظرية ،وانما

---

١٩) « مجلة الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » ١٩٥٩ ، ويحلل التقرير الرسمي للمجلس الدائم لتنمية الانتاج القومي لعام ١٩٥٥ ، بالصراحة نفسها ، التوجيه السيء للمداخيل وللادخار ، ص ١١٠ وما يلي .

٢٠) انني مدين ، في هذه النقطة للمحامي ادمون رباط ، ابن احد كبار تجـــار حلب ، بالكثير من ذكريات طفولته الثمينة ، وحلب ، بأسواقها المسقوفة التي تعلوهـــا قلعة ابراهيم ، هي نقطة التلاقي التقليدية بين اوربا وآسيا الدنيـــا والمتوسطة والقصوى ، وهي تعرض علينا التتابع الاكثر اثارة من الاختبارات التاريخية، كيف تنتظم داخل هذا الاطار هاتان العلاقتان بالنسبة لبعضهما البعض : من جهة علاقة الشرق والغرب ، ومن جهة أخرى علاقة الصنع بالمواد الاولية . وكيف تغير هذا التنظيم بل وبدا اتجاهه خلال العصور : هذا هو موضوع تحقيق ذي فائدة حاسمة ، ولكن أين وصلت الابحاث عن المجموعات الانسانية في الشرق الادنى ؟

لمواجهة النواقص في الابنية الموروثة .

ولهذه الولادة العسيرة للرأسمال الصناعي ، تكرس نشرة مصرفية حديثة مقالاً ذا مغزى [٢١] ، وبلهجة كلاسيكية ، يبدأ المحرر بالقول انه يجب البحث في الادخار عن مصدر الاموال للتوظيف ، انما هناك شكلان للادخار : الادخار الحر والادخار الاجباري (الضرائب وعمليات الدولة الأخرى) ، ومحررنا ، الذي ينتمي الى مجموعة بنك مصر ، يميل الى الحرية . فهو يتمنى أن ينحو التراكم العفوي ، الى حد ما ، « الى تكوين رأس المال » * لكن هذا التكوين يعرقله « سوء التنظيم » ** ، وها هو ، بالرغم من اعلانه عن نزعته الليبرالية ، ينجر الى هذه النظرات التي يقتضي ، بموجبها تبديل البيئة رأساً على عقب ، حتى تعمل فيها النواميس الاقتصادية بصورة حقيقية ، والاسس *** نفسها هي فاسدة ، وبالأخص الأسس البسيكولوجية ، ومنها الحذر من توظيف رأس المال ، والخوف من الاموال المنقولة ، والعادات النقدية المشؤومة : كل ذلك يقود المحرر الى تمني قيام ترابط بين الادخار ومشاريع محدودة للتنمية . يجب اذن انشاء « مراكز قطبية » للتنمية ، وهي سوف تلعب دور المحرضات على الادخار . وسوف يكون هناك نوع من التسوية بين نظام الاقتصاد الموجه والنظام الليبرالي ، ولكن ذلك يقود أيضاً الى مراقبة توظيف الرساميل : صحيح أن هذه المراقبة سوف تتم فقط بوساطة المصارف والمؤسسات النقدية الأخرى ، لن يكون هناك نظام اقتصاد موجه صريح ولا ادارة الدولة المباشرة . ولكن ، بعد كل هذا المطاف ، سوف تتابع رؤية الفرق بين موقف مثل هذا والموقف الذي كان ، منذ عدة سنوات سلفت ، يستوحي منه

---

٢١) النشرة الاقتصادية . بنك مصر ١٩٥٧ ص ١٨ وما يلي : مقال عن تمويل النمو الاقتصادي . انظر خاصة الكراس الذي كتبه محمد سامي محمد عن دور العامل النقدي (رسائل المجلس القومي للتخطيط، رقم ٢)

مقرر بنك مصر الوطني ، السيد علي الشمسي ، (٢٢)

وفي تقريره لعام ١٩٥٣ ، يشكو هذا المالي ، وهو من البورجوازيين الكبار ، نوعاً من التمنع في توظيف الرساميل ، ومن الجمود الذي كان يتأتى، في نظره ؛ من الخوف المزدوج من « تدخلات الدولة المتقطعة » ومن نظام ضرائب سيىء».
وماذا كان بامكانه أن يقول ، منذ ذلك الحين؟ انه كان يعبر عن وجهة نظر مالي كلاسيكي ، ولنقل رأسمالي دولي ، وبهذه الصورة كان يبدي رد فعله ازاء المبادرات الاولى للجمهورية ، ومجموعة تقارير البنك الوطني ، في السنوات السابقة ، كانت تقدم دون ريب ، ملاحظات من النوع ذاته ، دائماً الشكوى ذاتها : كل الاموال المتوفرة تمتصها الارض ، والابنية . والترف . قيم عشائرية بالوسع أن نرى فيها تسوية من طراز سيء بين روح الكسب التجاري في المدن والمناقبية الاستقراطية عند البدو .

وبغريزة عميقة ، بحث المجتمع الاسلامي دائماً عن عمليات تأليف (سانتيز) تعمق وتتأكد بصورة متفاوتة حسب البيئات والازمنة بين المدينة والبادية ، ولكن عمليات التسوية الخيرة للجيل السابق ، الذي كان جيل القومية البورجوازية ، لم تكن تستطيع تلبية المتطلبات الحاضرة . ونظام تسلط الدولة الذي نعزوه بشيء من التسرع ، الى عدوى قادمة من البعيد ، يبدو « جواباً » منطقياً لعدم الملاءمة هذه .

التوسع المصرفي

ولكن لا توجد مفاهيم صافية بحتة . فتدخل الدولة وتدخل رجال الاعمال يتداخلان مع كل شيء بصورة متفاوتة حتى يومنا هذا ، وهما يدلان على

---

٢٢) تقرير علي الشمسي ، عام ١٩٥٣ . ولنجد الاسف نفسه معبراً عنه في تقرير بنك مصر الوطني لعام ١٩٥٠ . وبصورة دورية حتى عام ١٩٥٢ ، بهذا النوع من الوثائق .

حماس متفاوت كذلك للتواصل مع الرأسمال الاجنبي . وبالامكان تتبع هذا الحوار المزدوج في تاريخ المصارف العربيـة . فبنك مصر الوطني الذي تأسس عام ١٨٩٨ لم يحصل على امتياز الاصدار الا بعد ذلك التاريخ . وفي عام ١٩٢٠، كان انطلاق بنك مصر . انه منعطف كبير في تـاريخ الاعمـال الشرقية . وفي عام ١٩٥١ ، كان انشاء البنك الصناعي الذي يدشن سياسة التسليف المخصص . ان هذا التطور قـد جاء متأخراً في العراق ، إن العراق ظـل حتى عام ١٩٥١ جزءاً من المنطقة النقدية الهنديـة . ولم يكن ذلك مجرد صدفة بحتة . فـإن تأسيس البنك الوطني العراقي لم يتم الا عام ١٩٤٧ (٢٥) ، وهو لم يبدأ عمـله الا عام ١٩٤٩ ، ولم يصبح مصرفاً مركزياً الا عام ١٩٥٦ برأسمال قدره ٥٠ مليون دينار . مع امتياز الاصدار وكذلك المراقبة والتوجيه .

ومنذ ذلك الحين ، وفي كل مكان في هذه البلدان ، تكاثر الجهد وتنوع . فلكل من هذه البلدان أصبح مصرفها المركزي ، ما عدا لبنان ، الذي لا يزال يحمل إرث الانتـداب . ولكن منـذ ذلك الوقت . أصبحنا نرى مصارف وظيفية تسعى بصورة ناقصة على كل حـال ، لتكوين مراكز استقطـاب للتسليف ، وأخيراً تطل مصارف الأعمال العربية : ويعدون منها ما يزيد على العشرة . وها هو مثلاً البنك العربي ذو الرساميل العراقية واللبنانيـــة : وبين اللبنانيين ، المـالي اميل البستاني ، وبـين العراقيين بضعة من أكبر شخصيات العهـد السابق . وقراءة موازنة عام ١٩٥٧ (٢٦) كانت تعطي انطباعـاً بالنمو الحقيقي او الوهمي . اذ لا يسعني بالطبع ان استعين هنـا بالمقاييس التقنيـة .

٢٥) النشرة الاقتصادية ، ١٩٤٩ العدد الثالث ، ص ١٣٨ ، تعطي تاريخ هـذا التطور . انظر ايضاً المصدر نفسه ، عام ١٩٥٦ ، العدد التاسع ص ٢٧١

٢٦) التقرير السنوي الثامن والعشرون ، البنك العربي ، شركة محددة ، بغداد ١٩٥٧ (باللغة الانجليزية) . والنشرة زاخرة بالصور والرسوم البيانية الملونة ، وعلى الغلاف ، صورة فرع طرابلس (ليبيا)

ولكن لنلاحظ أن المداخيل رتفعت من عام ١٩٥٦ الى عـــام ١٩٥٧ من ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار الى ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار . والارباح الصافية تضاعفت فمن ٣٠٠٫٠٠٠ دينار (أي من ٤٠٠ الى ٤٥٠ مليون فرنك) ارتفعت الى ٦٢٠٫٠٠٠ دينار ، وزع منها مـــا يقارب ٤٠٠٫٠٠٠ دينار .. والاحظ ، ماراً ، ارتفاع نسبة الارباح الموزعة : فهو ، على ما يبدو من مستلزمات اجتذاب الرساميل . وأخيراً هناك سمة مميزة للرأسماليـــة العربية الناشئة : انها لا تقوم بالمخاطرة الاعلى أمل استهلاك النفقات بصورة باذخة .

وسير هـذه المصارف ، على الرغم من ادعائها بأنـــه سير يتمشى مع روح العصر ، يعكس الخصائص المحليـة التي سبق لفؤاد مرسي ان وصفها دون عطف : التأثير المفرط لحجم النقد ، ولتقلباتـــه ، وتنقلاته ، على العمليات المصرفية وعلى الاقتصاد بوجه عام ؛ وضعف الودائع وبالمقابل أهمية عمليـات الربا الفاحش ، فوحي التسليف وتناثره ، وتأخر * المؤسسة المركزية ذاتها (٢٧) كل هذا ، يصح بالنسبة لمصر (١٩٥٥) . وفي نظر المؤلف نفسه ، عـــام ١٩٥٨ أيضاً لم تكن الحالة اكثر اشراقاً في لبنان وسوريا حيث ظهر أن غلبة المؤسسات الأجنبية ، والضعف النسبي ، وعدم التخصص عند البنوك العربية (بما فيها بنك مصر) وحتى انشاء المصرف المركزي ، قد بلغ حداً أصبح لزامـــاً فيه ان نرى الحسنة الرئيسية لهذه المؤسسات في قدرتها على البقاء رغم المنافسة . وهذه الحالة ، كما تعلم تتطور يوماً بعد يوم ، وحسب البلدان ، اما في اتجاه نظام لتوجيه الدولة كل يوم أكثر بروزاً ، واما في اتجاه تعدد المبادرات

---

٢٧) الدكتور فؤاد مرسي « النقود والبنوك في البلاد العربية » ، « مصر والسودان » ، القاهرة ، ١٩٥٥ . ثم « سوريا ولبنان » ، القاهرة ، ١٩٥٧ . هـذان البحثان يـدخلان في مجموعة الوثائق المفيدة التي نشرها معهد الدراسات العربية ، لدى الجامعة العربيـة ، والتي تسلمت لي ، كرماً ولطفاً . مع شكري للدكتور شفيق غربال .

الخاصة في المجال متسع كبير امام رجال المصارف الاجانب ليفصحوا في الكثير من هذه المبادرات . الأساليب المفرطة في الانسياق مع النزوات الغريبة الكيفية، واننا نحدس انه يسيطر، في هذا الآمر، مزيج واضح من قدرات هي ، عند البعض، على مستوى عالمي ، ومن الوفاء عند البعض الآخر لنمط تقليدي أكثر مما يلزم : روح المضاربة المجنونة ، التي تلطفها عادات المجاملة والكياسة واستشارة الحظ (الاستخارة *) .

واكيد ، يقتضي عدم الوثوق ، بالنسبة للاحظات من هذا النوع ، بأقوال منافسين جردوا من امتيازاتهم قليلا أو كثيراً . ولكن هل رجال الاعمال العرب أنفسهم ، اكثر رقة في ملاحظاتهم ؟ فقد كتب لي واحد منهم ممن استشرتهم حول هذا الامر : اذا اودنا التمعن في الامور ، وجدنا ان المضاربة والتجارة مترابطتان بصورة حميمة . فليس من مضاربة بدون تجارة وليس من تجارة بدون مضاربة » . اما فيما يتعلق بعادة اكتناز الاموال وخزنها ، فان « الميوعة » الكبيرة في الاقتصاد اللبناني قد جعلتها تتضاءل : فهي أقل بروزاً في لبنان اليوم مما كانت عليه في السابق ، او مما هي عليه في بلد مثل سوريا . ومع ذلك ، فأن بيروت تشكل دائماً سوقاً كلاسيكية كبيرة للذهب . ولكن هذا الذهب ، أو ، بصورة اعم ، هذا الاساس الكبير من الأموال المتوفرة ، هل هو دائماً في أساس الاعمال التجارية الكبيرة ؟ ويكتب لي مراسلي نفسه : « عندنا تسيطر رأسمالية دون رأسمال » . فالبنوك العربية او الاجنبية أو اللبنانية ، تجني الربح من استخدام نفوذها اكثر مما تجنيه من زج احتياطيها . وتقوم بينها منافسة محمومة تمتد وتتجلى حتى في عرض السيارات الفخمة أمام أبهة الواجهات . وفي وسط مدينة بيروت حيث تباع الاراضي بأسعار فاحشة يزدحم ما يقارب العشرون مؤسسة مصرفية كبيرة فرنسية وبلجيكية وبريطانية ، والبنك العربي ، الذي سبق ذكره ، وبنك الرافدين ، وبنك

القاهرة ، والبنك السعودي للتجارة ، وبنك بيروت ـ الرياض ، وبنك حمصي، وبنك انترا ، الخ ...

ويقابل هذه اللوحة من الليبرالية التنافسية ، بصورة متوازية ، كما يقال ، لوحة الموسسات المصرفية الكبيرة التابعة للدولة التي تعطيها المرحلة الحديثة توسعاً طاغياً وخطابياً ؛ اذا امكنني القول ، والتقرير الاخير المصرف المركزي السوري يوجه نحو هذا المقاوم الطريف جهداً في التحليل والمراقبة بودنا ان نتبين فيه لهجة « الحسبة » * في العصور الحديثة !

الاخلاق والاشياء تغير في المواقف ، وتغير في اساليب القول . وانا لا اريد دليلاً عليه غير لغات الاعمال ، المشابهة تماماً للغات الاوساط الاوربية والاميركية والتي تتجلى في الصفحات المخصصة للبورصة ، في القاهرة والاسكندرية ودمشق او في الصحف المخصصة . وتعدد الصحف الاقتصادية ليس سمة ذات مغزى ضئيل: مجلة كوميرس دي ليفان (تجارة المشرق) لصاحبها كسروان لبكي في بيروت ، وجريدة التجارة والبحرية . الصادرة في الاسكندرية ،(بالفرنسية). والمجلة الاقتصادية والسياسية المصرية لصاحبها عادل ثابت (بالانجليزية) ، او النشرات التي تصدرها المصارف بالفرنسية والانجليزية والعربية في القاهرة وبيروت ، ومجموعة النشرات التي اصدرها بنك مصر الوطني تشكل مجموعة وثائق جد مهمة ، وعميدة الصحف اليومية المصرية « الاهرام » شرعت في اصدار عدد اقتصادي اسبوعي [٢٨] وفي الاعداد الاخيرة ، نجد مقالات صادرة عن ماليين يعتبر البعض منهم خبراء دوليين ، وهي شبيهة جداً بالمقالات التي نجدها في منشوراتنا المتخصصة . ومشاغلها ذاتها هي متشابهة : دراسات أسواق ، احصاءات ، مخاوف ضرائبية ، وتعليقات حول البورصة . وعلى مسافة بضع صفحات ، نسمع هدير تدخل الدولة المتفجر أو المتسلل تحت

---

٢٨) « الاهرام الاقتصادي » ، رقم ١٧ ، في ١ كانون الثاني ١٩٥٩

الارض ، والاشارات الى « سوق الاوراق المالية » * الناشطة في القاهرة كما في الاسكندرية رغم فرض الدولة ضرائب في فترات متكررة ، أو في بيروت[٢٩] رغم ارتباط بالغ مع اسهم أجنبية ، واخيراً زاوية حول سوق الذهب وشارع الموسكي القديم ، ملأى بالنوادر ولكنها ظاهرة العناية .

اذ انه لا يزال هناك شارع الموسكي ، والشرق القديم – سماسرة لبنانيون ، مهربون كويتيون ، وكثيرون غيرهم في كل مكان تقريباً – وهذا لا يعني أن هذا الجو الطريف ليس غالباً مدراً للأرباح ، وتقدر أملاك اللبنانيين في الخارج بمائتي مليون دولار . وتضع نادرة شعبية على المسرح بائعين متجولين ، يدعى احدهما مارون والثاني كاظم ، وهذا يدل على طائفتهما واصلهما . وفيما كانا يعملان في احد الادغال البعيدة في افريقيا ، اسرهما الزنوج المتوحشون وربطوهما إلى احـــد الاعمدة بينما الماء يغلي في قـــدر كبيرة . فيبتهل مارون الى سيدة بكفيا وكاظم يسلم امره لسيدنا الحسين ، ولكن زعيم اكلة لحوم البشر الذي كان يصغي اليهما يناديهما بلغة اشمونية : هو نفسه مهاجر من دير القمر ! .

ولبنان يبقى ملك التركيبات الكبرى حيث يستخدم كل شيء ، كما رأينا ، حتى اكثر العوامل حميمية : مثلاً التسليف العائلي . وكما تحول البنوك الكبيرة ، في هذا المركز المالي ، نفوذها الى طاقة نقدية ، كذلك تعمل العائلات اللبنانية الكبيرة ، وتشعباتها الكوزموبوليتية (الضاربة في اقطار الدنيا) تقوم سنداً وظهيراً لها . وكل شيء يتم بمكالمات تليفونية عـــبر المحيطات ، وتستخدم اللغة العامية بمثابة شيفرة ، بحيث لا يفهم الغرباء ، وهكذا تعقد في بيروت صفقة

---

٢٩) حول بورصات الاموال في مصر ، انظر « النشرة الاقتصادية » ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ٢٢ . وفي بيروت : ر ، برينجي : R. Pringuey سوق الاموال المنقولة في بيروت » اطروحة ، بيروت مطبوعـــة على الرونيو ، كل شكري المؤلف وللأستاذ ب . ديكرو Prof. B. Ducros

بـيع قطن مصري بين تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، وتتم عمليات نقل عملة بين الاوراجواي والبرتغال . والقرار : الذي اتخذ مؤخراً ، بتأمين سرية المصارف يحمل لهذه الامكانيات الرشيقة مساهمة الكثير من عمليـــات العطف والتواطؤ الاجنبيين ...

واشتراكي على غط تولستوي ، مثل جنبلاط ، يبدو قاسياً جـــداً بالنسبة لهـــذه التصرفات الخلقية التي لا يمكن ، بالفعل ، الزعم بانها تمثل كل « الروح اللبنانية » (٣٠) . اذ ان اثرياء الهجرة انفسهم يظهرون عناداً رائعـــاً في التعلق بجذورهم الفلاحية . وهم يوظفـــون ثرواتهم في عمل كروم ذات جلالي باهظة التكاليف وفي تشييد فيلات جبلية . وغرس اشجار التفاح اصبح امراً رمزياً في لبنان مثلما كان غرس اشجار التوت في الماضي . وهذه الزراعـــة تستهدف الاسواق العربية التي تمونها روح فينيقيا القديمة بالخدمات : مندمجة ، الى حد ما، مع مداها الجغرافي .

وهذه التطورات ، وفي الوقت ذاته هذه الديمومات ، تعطي الدليل على انه من واجب دراسة للانماط في الشرق التمييز بين الحقب والبيئات . فالنظـــام الليبرالي المنفتح ، الذي استطاب لبنان ليعيش فيه حتى الآن لا يشكل في ذاته غير بقعة يدور حولها الجدل من داخل ومن خارج (٣١) اما خارج هذه البقعة ، فان نظرة واحدة تلقى ، على اقتصاد الشرق الادنى ، حوالي حزيران ١٩٥٨ ، كانت كافية للتمييز بين بقعة يسيطر فيهـــا تحدي الحكم التقني ، (الحكم التقنوقراطي) وهي العراق ، وبقعة تسيطر فيها المركزية الأرادية ، وهي مصر ،

٣٠) كمال جنبلاط « حقيقة الثورة اللبنانية » ، بيروت ، ١٩٥٩ ص ١٠ ، حول « العامل المركنتيلي » او « التجرلي » الذي يريد الغاءه في البلاد .

٣١) محاورات كانت صحافة الجمهورية العربية المتحدة تعكس اصداءها المشجعة منذ صيف ١٩٥٨ ، ولكن عادت للتأجج في دمشق في اتجاه معاكس هذه المرة .

وهذا التكوين قد تغير منذ ذلك الحين ، بسبب الثورة العراقية . وسوف يظل يتغير . على كل حال ، ليس بالوسع تمثله ، إلا بصورة مصطنعة ، في شكل فواصل عازلة بالغة الوضوح . فالأنماط الثلاثة تؤثر ، بصورة متغيرة ، في الفئات الثلاث ، وربما في وجوه السلوك الثلاثة .

والنظام الليبرالي يضرب بجذوره بعيداً في ماضي المدن في الشرق والحكم التقنوقراطي (حكم المتفوقين تقنياً) سواء كانوا الفراعنة ، او اللورد كرومر او مجلس الاعمار ، يؤجج فرص نجاحه في بلدان ألجئت الى الطفرات التحولية في التكنيك . ونظام الاقتصاد الموجه ، كما سبق لي القول ، يقوم بمثابة تعويض تقليدي عن مبالغات النظام المركنتيلي (نظام سيطرة التجارة على الاقتصاد) ونواقصه .

والضرورة المشتركة للبناء تشمل العديد من وجوه التنوع وتتجه نحو تنسيق الوتيرة .. وفي لبنان ، يلاقي سلطان التجارة ، بواكير معارضيه . وفي العراق لم تفسخ الثورة حتى الآن عقودها مع شركة الآي بي سي[٣٢] « والتنظيم الاقتصادي المصري » يعلن ، لعام ١٩٥٧ ، ان ٤٧ مليوناً من الجنيهات سوف توظف ، منها ٣٨ ، أي ٦٥ بالمائة في الصناعة وحدها . وفي الوقت ذاته ، نقرأ في احدى صحف القاهرة ، في الزاوية المخصصة للبورصة ان « الرأسمال المصري يهتم اكثر فاكثر بسوق الاوراق (الاسهم) المالية ، وقد بدات توظيفاته تدخل في الحساب : وتتركز جهوده بصورة خاصة اكثر فاكثر على الصناعة ، لانه يعرف انها مدعوة لمستقبل باهر » . ونقرأ ايضاً : « ان المهندس احمد عبود ، الذي حصل على قرض بالدولارات من بنك التصدير والاستيراد ، سوف يعمل على توسيع مصنع الاسمدة الكيماوية وزيادة الانتاج[٣٣] » . تعليقات استبعد

---

٣٢) ان بحث جميل سعيد ، « العراق الجديد » ، ١٩٥٨ ، وهو اول كتاب صدر بعد الثورة العراقية ، لم يتضمن اي هجوم على مجلس الاعمار . ومنذ ذلك الحين ، فقدت ميزانية المجلس استقلالها ، وباتت المؤسسة في ادارة حكومية موحدة .

٣٣) صحيفة لابورس الجيبسيان ١٢ تموز ١٩٥٨ .

نصها ، بسبب النقص في العناصر الكافية ، ولكن يتحتم علينا التأمل فيها . وسوريا تحمل هذه التأثيرات الى ذروتها . فعبثاً هي تعمل على تصنيع نفسها ، فهي تفاخر ايضاً بتقاليدها التجارية . وبين سوريا ومصر ، لا تنطبق نسبة عدد السكان على نسبة التجارة الخارجية في البلدين : فان مصر تبيع وتشتري نسبياً أقل بكثير مما كانت سوريا تبيع وتشتري قبل الوحدة بين البلدين . ففي سنة ١٩٥٧ ، مثلاً ، بلغت صادرات سوريا ١٥٩ مليون دولار مقابل ٥٠٠ مليون دولار فقط من الصادرات المصرية : أي نسبة واحد الى ثلاثة بينما تبلغ نسبة عدد السكان في البلدين واحد الى خمسة . اما نسبة الصادرات فهي واحد الى اثنين تماماً : ٢٥٠ مليوناً من الدولارات مقابل ٥٠٠ مليون . صحيح ان كل شيء يتغير وان اتفاقيات المقاصة تفرض على التجار السوريين ضرورة ألا يشتروا إلا من بلدان لم يصب ميزان مدفوعاتها بعجز ليس بالنسبة لسوريا وحدها ، وانما مع مجموعة الجمهورية العربية المتحدة ، اي عملياً من بلدان اوربا الشرقية . ولا يمكن تفسير هذا الشيء الا اذا كان بالامكان ارجاع سببه الى اتفاقات المساعدة الفنية ، وبالتالي ، الا اذا كان يندرج في نظام [٣٤] . ولكن هذا النظام يثير احتجاجات التجارة القديمة .

وبالرغم من ان التقاليد المحلية ، والاتجاهات البسيكولوجية تجندها مناقبية ترتكز على الاستصلاح والانعتاق ، فان عليها بالفعل ان تقوم بمصالحة مع النظام السياسي في الوقت ذاته الذي تنزل فيه داخل اطار تقليدي وتعطي صورة عن تجربة أريد لها ان تكون مقبولة . وفعالية العملية ، على كل حال ، سوف تكون مرهونة بملاءمتها ، بصلاحها . وذلك لان على العمل ان يتوافق مع ظروف البيئة التاريخية وان يماشي على أقرب ما يكون ، التعرجات التي تحدثها في اللعبة الاقتصادية ، لعبة (العامل) المتغير الشرقي ، الذي يسهل كثيراً الاحساس به ، ولكن يعسر كثيراً تحديده .

---

٣٤) اتفاقات مصر مع اوربا الشرقية .

الاستحياء امام الذات ولكن بيننا لا يسع البنّاء الشرقي ان يؤسس تجارب معقولة إلا على دقة احكامه بالنسبة الى ذاته ، فهو يبغي البقاء وفياً للدروس التي تلقاهـــا : الموازنة بين المبادلات ، والتأطر داخـــل السوق ، وتحاشي التضخم المالي . واحتقاره ، الفطري على الأقل ، لطرائف مسلكه لا يعادله الا عجز شريكه الاجنبي عن فهمهـا . فنظريونا الذين لم يعودوا يرون ، في بلادهم ، ان توظيف الامـوال هو النتيجة الإلزاميـة للادخـار ، يطبقون دائماً هـذه القواعد المثيرة للعجب على البلدان الشرقية . وان اسباباً من التزمت في حساب الموازنة ، كانت من جملة الأسباب التي أدت ، على مـا يقال ، سنة ١٩٥٦ ، الى رفض البنك الدولي للتعمير والانماء منح القرض الذي طلبته مصر لانشاء السد العالي . سبب صغير ونتائج ضخمـة . فهناك اذن ، امـام الاقتصاديين الشرقيين والاوروبيين او على الاقل امام اكثرهم ضرورة قاهرة لتجديد شباب مخططات التحاليل .

ويكفي ، للاقتناع بذلك ، ان نفحص مسلك هذه البلدان اكثر مما نفحص التفسير الذي تعطيه هي له . (٣٥) فهذه البلدان تقوم في البحث عن ذاتهـا . انه سوقها في البيـع والشراء . وانه لبحث اقتصادهـا الموجه . ومراحـل العنف التي يستفظعها الغربيون من وقت لآخر تدخل في نطاق هـذا البحث . والانطلاق من جديد ، والصيد الحسن (مثل تأميم السويس وما تبعه) يدخلان كذلك في هذا البحث . وبمنطق اكثر مما يبدو : لان هذين الامرين يشكلان نوعاً من

---

٣٥) علينا ان نحيي باهتمام مثل محاولة الدكتور يسري علي مصطفى لنقدر المدى الذي تطبق فيه مختلف طرق المحاسبة الوطنية على الواقع الاقتصادي الوطني (رسائل التخطيط القومي ، رقم ٥١ ص ٣٥ وما يلي) . وانا لا استطيع هنا ان ادخل في التفصيلات التي يستدعيها تطور الفكر الاقتصادي والتكنيك المالي في الشرق ، رغم الاهمية البالغة لهذه التشابكات الاجتماعية والنفسانية .

انقلاب المرحلة الاستعمارية . ويعقب السيطرة ، فترة إبطال السيطرة ، الذي تتحقق ، قدر المستطاع ، بثمن باهظ يتبدى في صورة فورة للاحداث والعواطف ، والمخاطر ...

وهكذا يقدم العرب للآخرين ولأنفسهم الدليل على براعتهم في المحافظة على الوجود . والاقتناع بالشهادة ليس ضرورياً لهم بأقل من جزوة الحرارة لوجود ثائر ضد عالم مفرط في قسوته . وعندما تكون النظرة من هذه الزاوية ، تبدو في المضاربة او الشدة في نظام الاقتصاد الموجه كطريقتين ، متحالفتين كانتا ام متنافستين ، لتجاوز النفعي ، او لارضاء متطلباته الشديدة ، او لتلافي نواقصه . ومن هنا كان هذا السحر الذي يذهل الخصوم ، وهذه المبالغات التي تثير القلق عند الاصدقاء . ومن هنا البراعة في اقناع الآخرين ، من أضعفهم الى اقواهم ، باتخاذ الحجة ، على التناوب ، من القوة الذاتية او من الضعف الذاتي . ومن هنا حسن الحيلة في استخدام هذا الاقتصاد المرتكز على المساعدة ، الذي نما بعد الحرب استخداماً بلغ حد جعله فريضة خلقية تلزم الذي يقدم المساعدة ، وفضح تقصيره واظهاره على انه اهانة ، وفي الوقت ذاته فضح الضآلة النسبية للمعونة الملتقطة على هذه الصورة !

اذن ، فان فن الاقتصاد الحافل بالايماءات عند العرب أصدق في الوقت الحاضر من انظمتهم . وتحت وجوه السلوك المتناقضة ، التي تميز رجال اعمالهم الكبار ورجال دولتهم الكبار ، تطل النزعة الغريزية نحو شيء بوسعه ان يبعث الدفء في الدروس العتيقة للعالم الخارجي وبالنسبة للعرب ، داخل المنافسات الخفية والوحشية التي لا يزالون ميدان رهانها اكثر منهم لاعبيها ، تجد في ذلك الرغبة في ان ينقذوا ، بالالتجاء الى ذاتهم ، استطابتهم طعم الحياة وأملاً تلغمه التأخيرات المخيفة . وفي هذا ايضاً الرغبة في الهرب من اسلوب الآخرين في أجل قريب او بعيد ، وليس بوسع آمالنا إلا ان ترافقهم في هذه المحاولة . اذ ان نجاحها يعني ، بالنسبة اليهم كما بالنسبة الينا ، ان الانسان انتهى بان يسيطر على دلائله عبر الهزات المرعبة في العصر الصناعي .

الفصل الخامس

الارتقاء إلى التقنية
أو انبعاث الشيء

لنذهب للبحث عن خلافات أخرى او اتفاقات اخرى في موقـــع يمثل الكلاسيكية الكبيرة المنهارة : جوار باب زويلة ، في القاهرة .

ولبلوغ هذا المكان ، لا بد من المرور بشارع « تحت الربع » الشعبي . ويشير الاسم الى تلك الابنيـــة الفسيحة المتعددة الطوابق ، حيث كان يتحرك منـــذ القرون الوسطى ، شطر بكامله من العشيرة (ربع) . واكثر هذه المساكن لم تعد تؤوي احلام سيدات كبار مثل عائشة التيمورية . حتى ولا احلام البورجوازية المكبوتة التي تبرز حياتها فيما بين الحربين ، سلسلة روايات نجيب محفوظ . فالطبقة الاجتماعية الراقية قد هربت الى الاحياء الحديثة ، تاركة للطبقـة الشعبية الدنيا بؤس الاستمرار وسحر الولاء .

ها هي معروضات من التنك والقصدير ، بعضها مقصوصة على شكل خيول ، للعب الاطفال ، واخرى مصنوعة بالمقاييس المألوفة . وفي كل مكان ، تبـــدو صناعة حاذقة من محاولة استصلاح الحاجيات . وهي لا تزال تتلطى في محاريب

باب فخم [1] او في زوايا الاسوار او في الأبهة الخربة البادية في « الحوانيت » القديمة . فقد خلف مصنع الاحذية الخفيفة (الاخفاف) محلات بيع الشباشب المغربية . وهنا ايضاً ، في ثنية من الجدران العتيقة ، يدح نجار موبيليا « روائعه » لنا : مسجداً بكامله من الخشب ركب في الاسكندرية . ويعرض امامنا باباً من الجلد ذي الزخارف الدقيقة . فكأن بعض المواهب القديمة ، اذ تنكرت لها الحياة الحديثة ، قد استمرت من البقاء في الاحياء الدنيا : حرف نافخ الزجاج ، وناحت الرخام ، وحافر الخشب . ويدير النداف أداته الغريبة ذات الشكل الشبيه بالقيثارة ، كما لو كان أحد عازفي العصور القديمة . وأدنى من ذلك ايضاً يضطرب عالم شبه طفيلي من الاشياء المجموعة من كل مكان والتي تستصلح لاعادة استعمالها . وعلى بضع خطوات من مسجد المؤيد او من الفخامة الرومانية – البيزنطية البادية على باب زويلة ، تتلوى قساطل من الرصاص على واجهات متآكلة . وتستخدم نفايات المدينة كوقود في أحد الحمامات المغربية ، وكذلك لانضاج الفول المدمس المعد لإطعام ابناء الطبقة الدنيا الباحثين عن أطايب الطعام مما يثير امام البلدية مشكلة لم تحل حتى الان ، ومنذ قبل الفجر ، سوف تذهب عربات الباعة من هذه الامكنة المهيبة والبائسة حيث يحشر ، في مدى جد ضيق ، طبيب شعبي ، خبير بجميع الأدواء ، واستاذ من الأزهر ، يقطن في احدى خبيئات الأسوار ، وآلاف السماسرة ، وبائعو الحاجيات العتيقة ، وحراس قصر احد التجار [2] المتسولون ، وجماهير المارة التي لا ينقطع سيلها ليلاً ولا نهاراً .

---

١) هذه المحاريب في زويلة تدعى فجوات ، وهو تعبير رمزي ، على نحو ما ، وسوف نعود اليه في بحثنا (انظر ص ٢٥٦ من النص الفرنسي التالية) .

٢) قصر جمال الدين ابو الذهب (من القرن السابع عشر) . انظر « بوتي » Pauty في قصور ومنازل من العهود الاسلامية في القاهرة ص . ٥٦

كلمات وأناس هذا الفقر المتحايل ، المختبىء تحت سقيفات الماضي ، يشهد على حيـــوية وطبيعة لحظتهابدقة الرواية المصرية الحديثة . وليس اكيداً ان اطاره هو «منزل الموت المحقق » [٣] . اذ ان هذه البشرية ، بالرغم من اطارها القائم على الخراب الفخم ، وعلى الرغم من ملامح الانحطاط العديدة ، تنقـــذ نفسها بالاستمرار والخصب . وهي تتبع مجرى التاريخ الشرقي . ولكن كم تبرز متضـــادة مع النماذج التي تغذيها الثورة التقنية ، ابناء الآلة هؤلاء ، الذين يضع محمد صدقي على المسرح مراراتهم التي بدأت تتحفز للقتال [٤] ! وانهــــا ، بالتأكيد ، لمشكلة بالنسبة لحكومات هذه البلدان ان تحسن تحديد مكان الجماهير العمالية من الطراز الحديث والجماهير الأوسع التي يستمر الماضي فيها ، وان تحدد الواحـــدة منها بالنسبة للاخرى . وهذا الاستمرار في البقاء أليس توسيباً ؟ ام انه يسمح باطلالة قوى لم تزل غير مستكملة ؟ اية من هذه الجماهير هي الاكثر تمثيلاً ، او اذا شئنا بصورة افضل ، ايتهـا الاكثر دلالة على زخم المجموعة البشرية المعنيـة في المكان والفترة الراهنين ؟ اذ انه اذا كانت الصيرورة الصناعية لم تعد موضع شك بالنسبة لمجتمعنا ، فان مراحلها ، وانعطافاتها ، وانحرافاتها المحتملة ، وصلاحيـــة النماذج الانسانية التي تجندها ، هي كلها رهن بشخصية البيئة . ومن هنا كانت الافتراضات الصعبة ، وعمليات الاختيار الخطرة التي تقع على عاتق رجل الدولة . ومن هنـا كان تردد عالم الاجتماع امام مادة لم يستكشف منها إلا أقلها. ومن زاوية التاريخ ، وعلم النفس ، تلزم معرفة كيف استطاعت هذه الأصول الفلاحية والحرفية ان تولد مواقف صناعية ؛ حيث يتاح للافهام ان تدرك اتصـال الزمان والمكان وربما الفئة . ومعضلة من هذا النوع ، في صميم قرننا العشرين ؛ لم توضّح البتة .

---

٣) ولا بد من تذكر الوصف المزلزل والمثير للاشمئزاز الذي كتبه كوسيري Cossery 1958

٤) « الانفار » ؛ ١٩٥٦ ، « الأيدي الخشنة ١٩٥٨ .

ولكن ما الذي حدث في مصر وسوريا حتى تخلي الكفاءة اليدوية في النسيج مكانها للصناعة القطنية ؟ أهو استبدال ام تحول ؟ نحن لا نعرف ويا للأسف شيئاً عن هذا الامر [٥] ، ان علم الاجتماع في الشرق ، لم يبلغ بعد مرحلة القلق المتجه نحو الدراسات الأحادية المواضيع . ولكن ربما يتحقق هذا العمل في السنين المقبلة [٦] « فاللقاءات » بين حرفية الماضي ومصنع الحاضر ليست ، على كل حال، نادرة . وليس خالياً من الاهمية أن تبدو خطة للتصنيع مثل خطة سوريا عاملة على البحث عن هذه اللقاءات بصورة منظمة .

وسواء أكانت لقاءات او عمليات انفصام ، فان ذلك لا يقلل من حقيقة ان الانتقال الى التقنية الآلية بشكل قفزة مفاجئة ونكاد نقول تحولاً اساسياً . وان المضاربة الحسابية القديمة ، ودهاء التاجر والصيرفي لم يكونا ينفصلان عن النظام الرأسمالي من النمط الحديث الا بقدر حذرهما من علم المحتملات . بينما يفصل الابداع التقني الصناعة الحرفيه ، وهي ابنة عم الفن ، عن الانتاج الصناعي. ويزداد اتساعاً بعد الشقة بين الظروف التاريخية التي فرضت فيها الصناعة الآلية نفسها على الشرق : وقد كانت ظروف المعاهدات الاستعمارية . فالصناعة الشرقية لم تستطع ان تنمو إلا فوق طمي الانهيار المتحلل .

واللغة تعكس هذه الظاهرة [٧] . فاللغة العربية تحس بالضيق في التعبير عن التقنية . وهي تلجأ الى تعريب (مفردات) تستعيرها من لغات اوربية . وفي المنشورات المحلية التي يلجأ اليها هذا البحث عن طيب خاطر ، تعود دون كلل كلمات نابية في سمع الأذن المعتادة على الفصحى مثل : « تكنيكي » ، «وتقني » « وميكانيكي » ..

---

٥) لنشر مع ذلك ، لتحقيقات حسن الساعاتي ، في الميدان الصناعي .

٦) خاصة اذا تركز تعاون علمي صحيح بين مؤسسات علمية محلية واجنبية .

٧) حول كلمتي « الفن » و « الآلة » انظر لسان العرب ، المجلد الخامس .

وصحيح ان اللغة القديمة كانت تشتمل على مفرد يستعمل اليوم احياناً بمعنى « التكنيك » ولكن بصورة اكثر اختيـاراً ، للدلالة على معنى الفن . انهـــا ازدواجية حافلة بالدروس . فالتمييز يظل غامضاً بين الفني والحرفي والصناعي . اذ ماذا تعني ، بالفعل كلمة « فن » ؟ في الأصل ، لا شيء غير « ضرب » وصيغة و « شكل » ، « فرجل بفنين » ، « Rajulun bi - fannin » هو رجل صنـــاع ، « حاذق » وخاصة حاذق باللغة : مما يسمح من بعض النواحي ، لعبقرية مثل هذه تتعشق الكلمة ، أن تتدرج نحو المعاني التقنية حقاً : هذا الرجـــل هو حاذق في تقنيته (اي في فنـــه) التي هي اللغه . ومن هنـــا كانت عبارة « فنـان » ، « يا للمعجزة ! » . ولربما يجب ايضاً الصعود الى علم لمصـادر الكلمات اكثر حسية : « فن » بمعنى « غصن » ، او « فنن » . هل تقوم هذه الصورة في أساس الاشتقاقات ؟ هل الغصن الذي يتفرع أعطى معنى التنوع والتفنن ؟ نحن لا نعلم من الامر شيئاً .

ويستعملون اليوم مفرداً آخر للدلالة على الاداة : انه مفرد « الآلة » . وهو يعود الى جذر لا نهاية ، تقريباً ، لمعانيه ومرادفاتها . آلة : المعنى المادي الاول الذي يمكن العثور عليه لهذا المفرد هو معنى « عمد الخيمة الخشبي » ، ومن هناك يجري الانتقال بسهولة : الى كلمة « الآلة » بمعنى « الماكينة » . وفي الشرق ، تسمع في ايامنـــا الصفة « آلي » تدمغ شيئاً « ميكانيكياً » ، أي شيئاً مادياً محتقراً ، او حتى مادي الطبيعة ، نقيض « وظيفي » او « عضوي » . ولنلاحظ ، مع ذلك ، انهم يستعملون بانتظام ، تقريبـــاً ، عبارات مأخوذة من اللغات الغربية ، في هذه الكتابات التي تنم بدورها عن مهارة فائقة ، اذ انه حتى الابحاث حول التنسيق الصناعي تقدم اليوم في المؤتمرات باللغة العربيـــة . في الأمر اذن إبدال وزيادات ، اكثر مما فيه مطابقة كلمات سابقة .

والانقطاع في الكلام يعكس الانقطاع في الشيء ولا يلزم ان ندهش لهذا

الامر . فالصناعة الحديثة لم تظهر في الشرق مولدة لانتاج محمولة تبعاته ، ومنفعل لا مفروض ، إلا مدة طويلة بعـــد ان فرضت نفسها بشكل منتجات . بل ويمكن القول ان التطور أبعد من ان يكون قد اصبح مستكملاً ، بل وأبعـد من ان يكون قد بوشر به . ومن هذه الناحية ، ايضاً ، يبدو تاريخ الشرق كما لو كان مقلوباً بالنسبة لتاريخ الغرب المعاصر . فان هذا الاخير يبدأ ، على وجـه الضبط ، بثورة تقنية ، ليؤسس ، تدريجياً بعد ذلك ، وحـــدة وطنية ، بل وحدات اقتصادية ، ثم ينتقل الى رؤية اعادة الترتيب الاجتماعي ، ذاهباً دائماً من الاكثر حسية الى الأكثر مثالية ومن القوة الى العدل . أمـــا بالنسبة للشرق ، فالأمر على العكس ، تماماً . فهو يبدأ بالمثل العليا ، او على الاقل بالمطالبة بالعدل. ويكاد يصح على هذا التاريخ الشرقي ما قاله ماركس عن فلسفة هيجل : « يجب قلبها رأساً على عقب ، لانها تمشي على رأسها » . وان بعضاً من بلدان المنطقـــة تحاول ان تحقق هذا القلب . وهكذا فان الانسان الشرقي لا ينطلق من التقنية، وانما ينزع نحو التقنية ، فيكتسب التقنية . ولكن ، في الاصل ، هو يبدو لنا ، على عكس الانسان الغربي ، الذي هو انسان عامل Homo Faber (انسان صناع) هو يبدو لنا مرتبطاً بقيم اخرى . فالشرقي ، هو ، او بالأحرى ، كان اللاعامل le non febrere القليل العمل . ولم يكن رب العمل الاوربي يكف عن رميه بالانتقادات ، التي كانت ، بالفعل ، عمليات ادانة . ولا شك في ان القوة « الآلية » الكامنة في العامل المصري كانت ، منذ زمن طويل ، موضوع تقدير . ولكن قدرته على المبادرة ، كان يفترض انها تنطفيء منذ الحداثة [٨] ! ونحن نعرف ان ملاحظات من هذا النوع ، متحدرة من تحيز ، هو نفسه مرتكز على مغالطة سوسيولوجية ، قد غذّت تدابير من التمييز العنصري ، في الشرق ،

---

٨) عباد باشا : « اولية القوى الآلية عند العرق المصري » نشرة معهد الدراسات المصري السلسلة الثالثـــة ، العدد ٢ ص ٢٠٥ وما يلي . ويعزى الطراز نفسه من الملاحظات الى المنسينيور لافيجيري ، على الطرف الآخر من عالم البحر المتوسط .

وفي مواضع اخرى ، حتى يومنا هذا ...

ومهما كان الأمر ، ففي عهد كرومر ، حيث يلاحظ رسمياً (٩) تفسخ المجتمع الحرفي القديم ، كانت المؤهلات والكفاءات العاليـــة تُطلب من الغريب . من المالطي واليوناني ، اللذين لا نزال نجدهمـــا تقريباً في كل مكان ، وحتى من الايطالي . ودور هذا الاخير ، الذي يمكن تحديده تاريخيـاً ، يستحق لحظة من الانتباه . ففي القسم الاول من القرن ، في مصر ، « عقد » العامـل الايطالي ، اذا صح القول ، « الارتباط » مع التقاليد الحرفية ، في البلاد . فهو الذي بنى المدينة الحديثة في القاهرة وطلاها بهذه الالوان الطلائيـة الصفراء المستوحاة من جنوى او من تورينو . وقد ترك الكثير من التلامذة . فكثيرون من الصناعيين الصغار الحاليين ، من ذوي العمر الناضج ، يتباهون بانهم تعلموا المهنة الى جانب معلم اجنبي . والذوق الايطالي في المفروشات ، والبناء ، والزجاجيات قد استمر حتى الحرب العالمية الثانية . اما تأثير « الوكلاء » فقد كان من مستوى آخر ، ومن فترة امتدت الى ما بعد الحرب . مستشارون بريطانيون متوارون ، ومهندسون او مفكرون فرنسيون ، وكل الأناس الذين يعتمرون الطربوش ، ويتقنون فن اللباقة الاجتماعية ، ويقيمون علاقات تفاهم وود مـع البورجوازية المحليـــة ، ويقبضـون اجوراً باهظة ، ويحسنون استقبـال الناس . ويدعمهم معنوياً ، اذا صح القول ، نفوذ الدول المسيطرة . بنوك في الميدان ، واساطيل ليست بعيدة ، والقناة التي تستثير الاحلام ... هذا العالم ، الذي مات او كاد منذ عام ١٩٤٠ ، قد فقد قلعته الاخيرة عند التأميم عام ١٩٥٦ . وبين الفترتين ، بدأ عهد الخبير *. فمصر ترسل موظفيها الى البلدان الشقيقة ، وتستورد « الخبير »* الاجنبي . وهذا الاخير لم يعد له البتة رابطة مع المجتمـــع المحلي الذي تحول ، بكل تأكيد . وتجربته الانسانية مع البلد (الذي يعيش فيه تقتصر على العموم على علاقات زمالة

---

٩) تقرير اللورد كرومر لسنة ١٩٠٤ ، القاهرة ، ١٩٠٥ يحتوي نظرات تنبؤية حول هذا الموضوع .

بسيطة مع الخبير " الشرقي . ولا يبدو على الحكومة التي تستعين به انها راغبة في توسيع هذه العلاقات . وبلاد مثل مصر ، رغم روح الود الوراثية التي تميزها ، تتجه شيئاً فشيئاً نحو عزل الفنيين المستوردين ، فيما يشبه التدبير الوقائي . فهناك سعي لدمجهم في نوع من آلية تتسم بضغط الأزرار : فلتلبية هذه الحاجة او تلك يضغط على زر : الخبير يعمل ، ويقبض أجره . وعلى هذا النحو ، يستطيع البلد ان يستورد كل التقنية التي يريد ، والاناس التقنية على قدر ما يشتهي ، دون ان يبذل من نفسه اكثر مما يجب . ولكنه يبذل نفسه ولا يهمل شيئاً لتكوين الفنيين من ابنائه .

واذا سألت هؤلاء الفنيين الشرقيين تلاحظ انهم قلما يرضون عن انفسهم . انهم يعتبرون ان بلدانهم قد دخلت مرحلة انتقالية ، مولدة ضيقاً يصورونه اكثر الاحيان بلهجة متشائمة . ولا يزال يتردد في سمعي قول احد الصناعيين العراقيين وهو يستنكر الاضرار التي لحقت بالجيل الشاب في بلده بسبب اهتمامه بالشؤون التقنية . وقد قال لي ان كلية الهندسة الفخمة ظلت زمناً طويلاً لا تجتذب غير الايتام ! وبالفعل ، ففي كل نظام قائم على وراثة الذكور ، يعهد احياناً كثيرة الى اليتيم ، او ابن « المراة الاخرى » ، بكل الاعمال الوضيعة ... ولنصغ الى هذا المهندس اللبناني . انه يأسف للاستخدام السيء الذي يصيب اولئك الذين يتخرجون كل عام من معهد الهندسة في بيروت . وقد حققت مطالبهم في نقاط عديدة . فقد لاحظ انه ، في بلد ينقصه مهندسون معماريون ، كانوا يستغنون عنهم في تشييد عدة أبنية ، كانت تشكل اخطاراً على العائلات التي تقطنها . وقد توصل المهندسون الى الفوز باحتكار عمليات البناء بصفتهم معماريين. انما في الآونة الحاضرة ، عادت اللامساواة الى الظهور : فان الاقبال على طلب البعض منهم اكبر منه على البعض الآخر . فانتهى الأمر بتخصيص نصيب سنوي من الابنية (للمهندسين الناجحين) . ومما يؤسف له ، ان البعض من هؤلاء الذين « يركض » الناس وراءهم ، اصبحوا يجنون المال الوفير من تواقيعهم ...

تقنية ، ومطالب مهنية من جانب ، ومقاومة وطرق تحايل خاصة بالبيئة : اننا ندرك هنا الصميم الحي من أحد مواطن الصراع في الشرق الحاضر فقد رأينا ان المهندس ليس مرتاحاً : ربما بالذات لان تكوينه الثقافي ومثله الاعلى يبعدانه عن مجتمعه وحتى ، في الحالات القصوى ، ربما هو لا يعترف بمجتمعه . ومجتمعه لم يعد يفهمه . وقد ابرزت رواية عراقية ناضجة بالألم « اليد والماء والارض »[10] ، صدرت بعد عقد معاهدة بورتسموث بقليل (١٩٤٨) المحاولة اليائسة التي قام بها بعض الشبان الذين انطلقوا لاصلاح بلادهم ، واخيراً الهزيمة التي منوا بها . وهناك ، يحدثونك عن البطالة المؤسفة التي يتخبط فيها حملة الشهادات العليا المتخرجون حديثاً من جامعات اجنبية وانا افكر باحدهم وهو خريج معهد البوليتينيك فاصبح وزيراً حقاً ، ولكنه ، بالفعل لم يستطع ان يبدع في بلده ، شيئاً بمستوى ثقافته . واذا كان بالامكان القول ، انسياقاً مع احد المعاني ان الثورة العسكرية تمثل ، خاصة في مصر ، ارتقاء طبقة شبيهة «في دورها بطبقة البورجوازي والفني على السواء » ، فاننا لم نرَ بعد انتصار « المهندس » * في اية بقعة ... وانها لظاهرة ذات مغزى ان نرى ان النشاطية والسلطان الحقيقي لا يزالان يختاران دروباً اخرى .

معدات ومناظر يضع الغلاف الخارجي لاحد الكتب التي صدرت حديثاً صورة مكاري جنباً الى جنب مع صورة مندلة (آلة تمتح النفط من البئر Derrick) . واللوحة التي نشرت بمناسبة انشاء معمل الصلب في حلوان تنصب مداخن مصانع مثيرة للحماس . والمستندات المنشورة في العراق ، بمناسبة « اسبوع التنمية في العراق » ، وكراريس الدعاية لشركة الارامكو تستطيب امثال هذه الوجوه من الاستيحاء . . والتناقض بين البدوي ، المعتمر بالكوفية والعقال وآلات المصنع المعقدة اصبح كلاسيكياً . انه احدى الصور الموجزة البصرية الشائعة عن هذه

---

١٠) ذو النون ايوب ، الذي عاد الى بلاده ، بعد انقطاع طويل في المنفى .

البلدان وهذه الادمغة . ويقابل عالم الانحناء والتجميـــل الرخيص عالم القضيب الحديدي والخـط العسكري : زوايا ، وبراغي ، ودقة وأسرار على السواء من جانب ماكينة ، ومن الجانب الآخر الزخرف العربي . ان الحضـارة الصناعيـة ترسخ فناً كوفياً جديداً في الشرق الحاضر !

وهي لا تأتي فقط بامضاء او بلغة وانما بالطبع هي تحمل ايضـاً اشياء . وفي باديء الامر لا تُفقه هذه الحضارة إلا على صورة اجساد . اولاً لانها على هـــذا الشكل ، قد فرضت نفسها مع التوسع الاوربي ، آتية من الخارج ، قادمة من البعيد . ولكن ايضـــاً لانها تطلبت من الحساسية الشرقية ، شهية نحو الاشياء الصلدة اذا صح القول ، يشتد عنفها على مدى كبتها الطويل .

وهذه « الجسدية » ليست غائبة ابداً عن الاسلام ؛ وربما هي تسيطر حتى على نظريته في العقود . وانني أراها في النزعة الحاضرة لاقامـة المعارض . وانا هنا أفكر بمعرض دمشق . وانما افكر بالمظاهرات التي تنظم ، دون انقطاع ، في حديقة الجزيرة بالقاهرة .وهذه المعارض تنبسط امام الانظار كحدائق الحيوان، فتعرض فيها وتروض حاجيات العالم الصناعي . انما ، بعـــد اغلاق الابواب ، يندر ان يحمل العارض دبه . وكلما بدا الصنف انيقـاً ، معقداً ، وشهياً ، كلما أظهر صاحب السلطان المحلي رغبـة في اكتسابه . وهكذا فهو يحتفظ بمعدات مرتفعة التكاليف ، احيـــاناً لا فائدة مباشرة منهـــا . مثـال ذلك آلات للاحصـــاء الالكتروني . ومثـال ذلك آلات للتحليل الطيفي . والاتحاد السوفياتي قدم مؤخراً « مفاعلاً ذرياً » للابحاث للجمهورية العربية المتحـــدة وان أحد مواد الطعم التي يلوح بها (الاتحاد السوفياتي) للحلول محل الولايات المتحدة ، أو التي تشرعها اليابان للتسلل الى سوق مشتركة أسيوية افريقية ، هي بالذات قضية العودة الى نظـــام المقايضة : مقايضة الآلات بالقطن ، التقليل من

استعمال المال في دورة التعامل ، التقليل من استعمال العملات النقدية ، او ، اذا تطلعنا بعمق أكثر ، تشكل الآلة « الدلالة » او « النقد » .

وفي اتجاه معاكس ، بدأت البلدان العربية بعرض منتجاتها في الخارج . مثال ذلك (معروضاتها) في بروكسيل ، صيف ١٩٥٨ . وقد كانت أجنحتها مجمعة في كتلة واحدة تحتل ١٥٠٠ متراً مربعاً : مثلما كان للمكسيك ، وعلى بنود التصنيف العام الاثنين والخمسين ، قدمت مصر ٢٣ بنداً ، وسوريا ثلاثة عشر ، والعراق تسعة ، والاردن سبعة ، واذا كان انتاج التبغ ألهم بصورة خاصة العارضين ، فان فئات مثل : الدباغة الصناعية ، والاقمشة ، وصناعة التعدين ، والصناعة الكيماوية ، كانت تبسط باعتزاز محق أحدث مظاهر التقدم [١١] .

ولئن تشوقت هذه الحمية المندفعة من الوهلة الاولى نحو قمم التقنية ، فان ذلك قد يبعث القلق في نفس الاقتصادي ، ولكنه لا يدهش المؤرخ . وعلى العكس ، فان لهذه البلدان ، بالتأكيد ، مصلحة في تجديد مسلكها ، دون أن تدع نفسها تحت ضغط الشيء الذي نجح في مواضع أخرى : حذر فلاحي ، وبطء بورجوازي صغير . ولكن الذي يستوقفني أكثر هو الظاهرة البسيكولوجية ، القادمة من بعيد ، والتي تتأكد في هذا الاندفاع نحو جسد الآلة ومصيرها .

اذ ان الكثير من المعدات هي الزامية ، ووجودها ذاته يحرك حولها أمواجاً من الابداع الصناعي ، وهي تتضمن قيمة التربية ، قيمة التحريض . انها تخلق سلاسل (تحركات) جديدة في حياة البلد . ولهذا السبب فان على كل درس لهذه التقنيات أن يبدأ بجرد المعدات التي تتكدس في هذا البلد ، بما فيها

---

١١) وثائق أمانة سر المعرض ، التي وضعت بتصرفي عن تكرم .

التجهيزات العسكرية ، وهذا الجرد لن يلتفت فقط الى الاداة (الكاملة) وانما الى قطعها واجزائها . اذ ان القطع تهم كثيراً ، فان الاداة تسقط اذا لم يكن بالوسع تغيير هذه القطعة التفصيلية او تلك ، في مـدة معينة من الزمن . وبعد زمن طويل من الانقطاع الذي حدث عقب عام ١٩٥٦ ، بقيت المعدات الغربية على حظها بالبقاء لانها كانت مرفقة باحتياطي من قطعها : ففي السوق لم يكد يوجد غير قطع من اصل غربي (فرنسي ، او انجليزي ، أو اميركي) . وقـــد نتج عن ذلك بطء في استيراد معدات أخرى . وفي هذه القضية بالذات ، فـان الاقتصاد الغربي ، يبدي المقاومـــة في سوق القاهرة في هذه الايام بفضل ميوعته (١٢) .

ومع الزمن ، قام الشيء الصناعي ، الذي يتمتع هو ذاته بالمبادرة ، بتجديد المشهد ، بالطبع . كانت المدن اول ما اصيب . ففي القاهرة والاسكندريـة ، ودمشق ، وبيروت ، وحلب تنمو ضواحي صناعية ، ولكن وجههـا العمراني يجهد هو ايضاً في الاتجاه نحو تقنية من احدث طراز .

وبعد الآن ، اصبح للجزيرة في القاهرة برج ايفلها : بناء من الباطون ساحق كبرج الناقوس ، يبدو معداً لغاية كبيرة وخفية ، انه ، على كل حال ، اعلان عن ارادة تقنيـة : وكذلك كان برج ايفلنا الذي كان سمة وشارة لصناعـــة التعدين في نهاية قرننا ، ونحو المصب يتوثب من النيل دفق هائل من المـــاء : انه مربع « الفونتانا » الذي يقلد (أحـــد مشاهد) جنيف ، وفي غوطة دمشق ترتفع مداخن المصانع : بين اشجار المشمش ، وعندما تدخل المدينة ، تستقبلك إثر جنائن بردى ، جادة مزهوة ، خططها ايكوشار ، يحف بها ميدان المعرض الفسيح

---

١٢) ان هذه الكلمة ، غير المستحبة بحد ذاتها ، تسيء اليها فوق ذلك المعاني التي تعطيهـــا اياها البسيكولوجيا السارتريه . ولكن « الميوعة » هي عامل اقتصادي قوي : بالوسع البحث عن تفسيرات عدة له ، على الصعيد الثقافي .

الذي يتقدم جامع السلطان سليم .

ونجد التحولات نفسها في بغداد ، فهذه المدينة التي كانت زمناً طويــلاً ، احد أطراف الدنيــا ، اصبحت محطة كبيرة للطيران . وفي شارع الرشيد ، يترصدك عند كل خمسين متراً مكتب لاحدى شركات الطيران : يبيع الهروب كاحدى جنيات العصر الحديث . وواجهات هذه (الشركات) تتناوب مــع واجهات المخازن الكبيرة . واكثرها اناقة يعرض عليك ، في الواجهات ملابس من تفصيل باريس ، وبالقرب منها تتلألأ أعلانات دور السينما . وسوق البنوك ينصب جدرانه الأمامية ، ومنها الجدار الأمامي لبنك الرافدين ، الذي تقولب بأكمله على شكل خليات النحل ليحمي داخل البناء من الشمس ، بالطبع ، هذه الطبقة الاخيرة من الصور لا تخفي الطبقات السابقة : في البعيد التخطيط العمراني الأول ، الذي كان عثمانيــاً ؛ ثم أقرب نجد طرازاً استعمارياً بشعاً ، نصف انجليزي ، نصف هندي ، نصف الماني من مونيخ وأخيراً ــ رانا هنــا اميل للتبسيط ــ السيل المتدفق بعد حربنــا الأخيرة ، والذي لا يزال هنا ملجوماً بالماضي ؛ ولكنه يتدفق ظافراً الى ما وراء الباب الشرقي نحو دجلة ، في صورة دارات متشابهة كلها .

والعالم الصناعي لا ينتصر فقط بالاشكال الخارجية للابنية ، انه يغزو طرق اللباس . والعلاج ، والطبخ . انه يضخم نسبة الأغذيــة المستوردة من البعيد ، « والمعلبة » او « الموضبة » ، كما يقولون ، فمصر لم تبدأ بانتاج الأطعمة المحفوظة الا في عام ١٩٣٠ ، وكثير من رجــال الاقتصاد قد ساورهم القلق من جراء ذلك فهم يقولون : اي تناقض غريب في السعي لانتاج اطعمة محفوظة في هــذه البلاد التي تنتج الوفير من الاطعمة الخضراء ، والتي يمكن القول أن الارض ، تتفجر فيها ، مرتين في العام ، بصورة سيلولوز (المادة الليفيــة العضوية الرئيسية التي يتألف منها القطن ــ المترجم) ، والتي يمتلىء فيهــا الجمل نفسه حتى تنتفخ

اوداجة سمنة ! ولكننا نعلم أن الناس يستهلكون ، أكثر فأكثر ، من الاطعمة المحفوظة ، التي تأتي من المغرب (علب السردين) ، ومن استراليا الخ ... ويكشف تحقيق جد غريب ، أجري في الريف نفسه ، في شبين الكوم ، حول معروضات أحد محلات البقالة الفرنجية، ان واحداً وتسعين صنفاً من المحفوظات، كانت ممثلة في هذه المعروضات [13] مشكلة ٢٦ بالمائة من الرأسمال .

وهكذا يكتمل غزو الإنسان القديم ، من داخل ، ومن خارج .

نحو مدنية الشيء الصناعي

ان احد الملامح المثيرة للانتباه في الصحافة العربية ، في مصر خاصة ، ولكن أيضاً في بغداد وفي بيروت ، هو المكان الذي تكرسه لمظاهر التقدم التقني : البعثة الفلانية تسافر الى أوربا والى الولايات المتحدة ، أو الى تشيكوسلوفاكيا بغية اكتساب دواعي الجدارة : وأعني بها المؤهلات ، واول طائرة فيسكاونت ، يقودها وطني ، تصل الى القاهرة (عام ١٩٥٨) . ورئيس الحكومة يدشن مصنعاً ، بل عدة مصانع ، وهذا أفضل . ويختلج الشعور بقيام ارادة منظمة لاثارة الشيء من طريق تمجيده ، الأمر الذي ليس رديئاً من الناحية النفسية .

وبالطبع ، يلزمنا أن نرى ماذا تغطي هذه الحركة لدى الرأي العام . ومعلوم أن الوسائل التي نملكها لتقدير هذا الاندفاع نحو التقنية تدخل في مجال بحث بالغ التخصص مما يجعل عرضاً (مثل عرضنا هنا) مقتصراً على الالتفات للمواقف الاجتماعية أعجز من أن يجند هذه الوسائل ، وقد يصبح ، في هذه الحال ، من الضروري اللجوء الى نقد مجموعة وثائق داخلية ، من العسير الوصول اليها ، على كل حال . انما هناك عدد من المقاييس التي يسهل الامساك بها :

١٣) رسالة الى المؤتمر الخامس للمهندسين في القاهرة

الارتياد المتزايد لكليات العلوم، ومعاهد الهندسة ، واشتراك الشرقيين المحسوس في حلقات دراسية علمية تدور حول مواضيع شاقة، كعلم القيادة الاوتوماتيكية والعلوم الذرية [١٤] ؛ والبحث العلمي والموازنات التي تخصص له : ضخمة نسبياً في بلد مثل مصر .

من المؤكد ان البلدان العربية الاكثر تقدماً قد سلكت منعطفاً نحو شيء لم يكن يفرض نفسه بحد ذاته ، لان الضرورات لا تظهر الا بامعان الروية والنضج وبالتفكير القادر على التمييز ، حتى في التقدم المادي ، بين النصيب العائد للشيء الذي يضطلع به ويؤخذ على العاتق والنصيب العائد للشيء الذي يُتلقى مجانياً ، (ولو كان هذا الشيء المجاني يكلف كثيراً في النهاية) . وان مفهوماً من هذا الضرب ، يعيد بناء الواقع بعمليات اقتراب تزداد حصافة شيئاً فشيئاً ، يعبر عنه ، في علم الاقتصاد بالتخطيط ، وفي العلم بالبحث ، وهذان الجانبان المتوازيان ، قد تم جلاؤهما كلاهما ، بوضوح في المقال الافتتاحي للمجلة القيّمة « المجلّة » [١٥] . ومؤلف هذه الدراسة الهامة يحرص على رفض رؤية تتشبث اكثر مما يجب بالتطبيقات وتضحي بالأساس النظري : وهذا الاتجاه ، بالفعل ، هو الذي تلزمنا محاربته في الشرق ، لان المذهب النفعي يشكل فيه اكثر الاحيان ، نمطاً موازياً للمواقف القديمة القائمة على القدرية والاتكالية ، وفي اليوم الذي يتغلغل فيه هذا الموقف النير أكثر فأكثر في صميم الواقع ، وفي اليوم الذي ترافق فيه بحكمة البحوث في العلوم المضبوطة ،

---

١٤) في المؤتمر الثاني للطاقة الذرية ، الذي انعقد في جنيف عام ١٩٥٨ ، كان اسهام الشرقيين هاماً . والبعض من ارائهم أدى بالبروفسور فرانسيس بيرين الى اتخاذ موقف .

١٥) ابراهيم حلمي عبد الرحمن « الثورة العلمية الكبرى وموقفنا منها » ص ٥٣ وما يلي. ويدير هذا العالم اليوم المجلس المصري لخطة التنمية . وانا مدين له تكرمه بتزويدي بمجموعة « الرسائل » التي ينشرها ، وبمطارحة هامة في أيلول الماضي .

البحوث في العلوم الانسانية ، تكون خطوة حاسمة قد جرى اجتيازها [١٦] ...

ومهما كان الامر، وبحصر موضوعنا في العلوم المضبوطة ، نستطيع ان نلاحظ ارتقاءً منوعاً تبعاً للمادة والبلدان . فالاونيسكو تنشر بصورة دورية ملخصاً تحليلياً لهذه الآثار . وقد قمت ، على سبيل التسلية ، بأحصائها حسب الفئات المختلفة . فوصلت لسنة ١٩٥٥ ، وهي فترة قد تم تجاوزها الى الرقم المرتفع ٦٩٢ دراسة نشرت في الشرق حول مواضيع علمية وتقنية .

علوم عامة	١٣ دراسة
علم فلك وفيزياء الأرض	١١
فيزياء تطبيقية	١٠
كيمياء	٤٧
علوم جيولوجية	٣٨
بيولوجيا	٦٤
علوم طبية	٣٥٥ (وهي مهنة قديمة في البيئة)
علوم زراعية وبيطرية	١٣٩ [١٧]

وبالامكان إكمال التحقيق بالتثبت مما اذا كان الباحثون المحليون يسجلون شهادات اختراع . وقد استقيت المعلومات من مصادرها المحلية . وقيل انه لا يوجد (مخترعون من أبناء البلاد) . ففي لبنان ، حيث كل الناس يبحثون

١٦) كثير من هذه البلدان تؤسس أو تنمي معاهد للعلوم الاجتماعية بمساعدة الاونسكو . والعناية التي توجه للعلوم الاجتماعية هي أختبار حاسم للتنمية .

١٧) « ملخصات من المقالات العلمية والتقنية »
Abstracts of Scientific and Technical Papers »
منشورات الاونيسكو عن عام ١٩٥٥ ،وهذا المركز الوثائقي العلمي في الدقي اصبح اليوم مصرياً بحتاً و بعد أن كان يعمل في الاتجاهين .

كعصابذة قانون ، وحيث يضعون دائماً الحجة في جانبهم ، ترد الاكثرية الساحقة من هـذه الشهادات من قبل الاجانب . ولكن هنـاك أيضاً بعض الاختراعات المحلية : مثلاً طريقة لاغلاق قناني الويسكي : هـــذا الامر ليس موضوعاً للاحتقار ، فنحن أيضاً عندنا مبـاراة « ليبين » * ويهـم التقنية ، في الاصل ، ان تبدأ بالاشياء الصغيرة . وقد أودع مخترع آخر نموذج بطاقـــة بريدية للحجاج الى مكة المكرمــــة : فالناس يرسلون دائماً تمنياتهم في جميـع المناسبات الكبيرة في الحياة ، وهذا اللبناني الفطن قد وجد صيغة درت عليه، دون ريب ، ارباحـاً كبيرة . ولكنهم يـدلون ايضاً ، في النبطية ، البلدة الشيعية ، على ضريح مهاجر ** من عائلة الصباح [١٨] اكتسب القاباً عالية في الولايات المتحدة بتسجيل العديـــد من الاختراعات في الحقل الصناعي ، وفي الجدل الذي يثيره فكري أباظة ضد جامعة الأزهر ، ينحي باللائمة على التربيـة التقليدية لانها تعقم نشئاً قادراً على أن ينجح بصورة باهرة في الخـــارج ، في الميدان العلمي ، كما في الميادين الاخرى : وهو يـــذكر أسماء العديدين من الفنيين المصريين الذين شقوا طريقهم في العالم الفسيح ، وهو بـــذلك ، يفتح امام بحثنا دروباً لا يستطيع أن يسلكها في الوقت الحاضر : فنقارن ، بواسطة

---

*مباراة ليبين Le Concours Lépine هي مباراةتقام سنوياً بينأصحاب الاختراعات الصغيرة (واكثرها يتعلق بتحسين استخدام الادوات والآلات الشائعة) ، وهي تعطي المناسبة لاقامة معرض سنوي في باريس لعرض الاختراعات المقدمة للمباراة . « المترجم »

** هوحسن كامل الصباح : أحد اللبنانيين الافذاذ في المهجر الاميركي نبـغ في علم الفيزياء واحتل مراكز هندسية وعلمية - رفيعة في الولايات المتحدة حيث توفي منذ حوالي ربع قرن ، « المترجم »

١٨) هذا الضريح صورة تمثل البلدة . وقد اصبحت العائلة فيه لوحة وثائقية ، وقـــد ترك « هذا المهاجر » مجموعة رسائل غير منشورة ، متبادلة بينه وأكبر علماء عصره ، ومن بينهم اينشتاين .

اختبارات وأنماط أخرى من التحقيق ـ مثلاً انماط بيوغرافية ـ تعرّف هؤلاء الشبان الشرقيين بالنسبة للتقنية عندما ينتقلون (الى بلد اجنبي) ويستوطنون فيه . وان عدداً من الصعوبات النابعة من البيئة الاجتماعية يدخل دون شك في نطاق هذا البحث الخاص بعلم النفس المقارن ، ولا نزال مجردين من وسائل البحث في هذه المواضيع الدقيقة ، وسيبقى الامر كذلك طالما ليس بتصرفنا ، في هذا الباب دراسات أساسية احادية الموضوع ، بينما أكثر هذه الظاهرات يختبيء ؛ حالياً ، خلف غلالة كثيفة من العقائد والاهواء .

ثلاثة امتحانات للضمير

وبسبب انعدام عمليات سبرأغوار في دراسات أحادية الموضوع ، لم يقدم عليها أحد حتى الآن ، او أجهل انا وجودها ، سوف استنجد بثلاث سلاسل من الوثائق ، تقدم ضمانات كافية من العفوية ، بهذه الضروب من امتحان الضمير التي تشكلها دورياً المؤتمرات الشرقية . وانه لشيء زاخر بالدروس بالنسبة لنا ، اذ انه في هذه المؤتمرات ، وخاصة ، اذا لم تكن دولية ، وانما فقط بين الدول العربية ، يتحلل المساهمون من كل « عقدة» ، ويستندون الى تجاربهم بكل اخلاص . .

وها هو ، مثلاً ، مؤتمر خاص بالتعليم التقني ، عقدته الدول العربية في القاهرة في كانون اول ١٩٥٧ (١٩) وبين الشخصيات التي كانت حاضرة . نذكر مربياً مصرياً ، يعمل حالياً كمدير مساعد للمكتب الدولي للعمل ، في جنيف : هو الدكتور عباس مصطفى عمار . وانا الحظ في خطابه ، التوصيات الصائبة الى حد كبير . فهو يناشد زملاءه بألا يقصروا بحثهم على مجرد الصياغة اللفظية ،

---

١٩) وتقدم محاضره ، المطبوعة على الرونيوتيب ، مجموعة ثمينة من الوثائق التاريخية والاحصائية والتربوية .

وعلى الدفق الخطابي للتوصيات ، وانما بأن ينتقلوا الى مرحلة التطبيق والتنفيذ . انهـا نظرة مسؤول . ونظرة نابعـة من التجربة . وانك لتجد ، بصورة شبه دائمة ، في هـــذه المؤتمرات توصيات من النوع نفسه ، ونقداً للفظية ودعوة للانتقال الى المنجزات . ولسوء الحظ فانها تبقى اغلب الاحيان دون جدوى . وفي ذلك اليوم ، قدم كل بلد عربي تقريراً ، وكثير من هـذه الوثائق تحتوي على نبذات تاريخية واحصاءات .وتنطبق هذه الملاحظة على العراق ؛ وعلى مصر ، حيث يـميز محرر التقرير بين مـا لا يقل عن ست فترات للتنمية . اولاً انشاء مدرسة تطبيقية في بولاق . فقد كانت منطلقاً لتخريج الفنيين وانصاف الفنيين الذين لعبوا دوراً مهماً في تنمية المنطقـة ، واخيراً يصل المحرر ، الذي لم يكن ابداً ينظر بعين العطف الى مبادرات العهـد الملكي ، الى الفترة السادسة : من سنة ١٩٥٦ الى يومنا هذا ، فالنظام رقم ٢٢ الصادر سنة ١٩٥٦ يشكل وثيقـة التعليم التقني في مصر . وهو يميز بين : المدارس الاعدادية ، المفتوحة لكل قادم والتي تخرج عمالاً من مستوى « عادي » * ، والمدارس التقنية الثانويـــة التي لا تقبل الا شباناً يحملون شهادة ابتدائية : فتدوم الدروس فيها ثلاث سنوات مع امكانية الوصول في نهاية الشوط ، وبعد اجتياز الامتحان بنجاح ؛ الى دخول مدرسة الهندسة ، وانها لفرصة ثمينة بالنسبة لطلاب من اصل شعبي ، ثم انشاء معهد معلمين للتعليم الصناعي ، واخـيراً تعميم الدروس التطبيقيـة . اذ ان داء التعليم التقني ، في كل هذه البلدان ، هو في بقائه تجريديـاً وفي عدم اثارة ه للعمل الا نادراً .

ومهما كان الامر ، فهـذه هي النتائج ليس للاصلاح ، الذي لم يؤت ثمـاره بعد ، وانما لهذا التاريخ الطويل من التعليم التقني في مصر . ففي سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، احصي ٩,٨٠٠ طـالب في التعليم التقني الثانـوي ؛ ويـأملون أن

يرتفع هـذا العدد في عام ١٩٦٠ – ٦١ الى ١٢٬٠٠٠ طالب . وفيما يتعلق بالتعليم الاعدادي ، تصبح الارقام ، بالنسبة للسنتين المذكورتين ١٣٬٠٠٠ و ١٧٬٠٠٠ . وللوهلة الاولى ، بوسعنا ان ندهش لكون التفاوت النسبي ليس اكبر من ذلك : فهناك ، على ما يبدو ، « طلاب ثانويون » ، اكثر مما يجب بالنسبة « للطلاب الابتدائيين » . والانتقادات حول هذه النقطة ، لا تعدم : إذ ان صفة التقنية لا تتضمن فقط صفة التقنية العاليـة ، ولكن ايضاً المراحل الوسيطة ؛ واغلب الاحيان ، ما ينعدم هو الاهتمام بالقاعدة . لذلك فان الانتخاب النهائي يصبح قاسياً : ١٢٤٤ ناجحاً من بين ٩٨٠٠ طالب . ولكن ما الذي سوف يعمله المرفوضون ؟

وفي سوريا تطرح تقريباً المشاكل نفسها : تلك التي تنشر الاسى في التعليم التقني في كل البلدان . ومجموعات الطلبة تظل لسوء الحظ ضئيلة . وعدد الطلاب يقتصر على ٤٨٣ وعدد المتخرجين في سنة ١٩٥٦ – ١٩٥٧ لا يعدو ٣٣، واننا نتصور ما يمكن ان تكون عليه توصيات المؤتمر : توسيع الجهد ، ودفع اكبر نحو التطبيقات العملية ، وهكذا ... انها تقريباً توصيات جميع المؤتمرات التقنية ، في كل مكان تقريباً ، ولكن في كل تقرير ، هنا تتكشف ملامح طريفة من البسيكولوجيا الاجتماعية تحت غطاء البحث التاريخي والاحصائي .

وفي القاهرة ، انعقد مؤتمر للمهندسين العرب [٢٠] ، عام ١٩٥٤ . ونحن مدينون له بما يقارب الخمسين من الدراسات الدقيقة الاحادية الموضوع :

---

٢٠) الى جانب التقرير العام ، نشرت مجموعة من عدة عشرات من اللوحات استمد منها الكثير من المعلومات الواردة اعلاه . أنظر خاصة أبحاث منصور خليل ، حلمي سيد فهمي ، رشاد البراوي ، سعد لوقا من بين ابحاث أخرى . وقد تلطف المهندس جوزيف نجار باعارتها لي .

مجموعة وثائق لا شبيه لها من هـــذه البلدان في عهدنــا الحاضر . وبين المشتركين ، اخصائيون أصبح بعضهم منـــذ ذلك الحين وزراء ، بينما ألقي البعض في السجون . ورغم هذا التفاوت في الحظ ، أو هذه الزعزعـــة في الاوضاع التي تقاسيها الطبقة المثقفة بمجموعها في الشرق ، نشعر عندهم جميعاً الطموح نفسه نحو الموضوعية . ويكشف الدكتور رشاد البراوي « لعله راشد البراوي – المترجم » عن نقاط الضعف الخطيرة التي تثقل الحيـاة الصناعيـة وتعرقل انطلاقها بسبب الظروف الاجتماعية والبسيكولوجية غير الملائمـــة : عدم قبول المخاطرة ، الخوف من المسؤوليات . فقدان البورجوازية الحقيقيه . وهناك عملية اسهام ،تكادتحمل الميسم السان سيموني ، توحي «بتناسق اجتماعي على أساس تقني » . وبعض النقاد يؤكدون على اللامبالاة في الكثير من خطط التنمية ، وانعدام التحضير في أعمال التخطيط العمراني . من جملة اعمال أخرى والنقص الحالي في معاهد الهندسة الخ ...

وهناك تعليقات مثيرة للاهتمام حول عدم النضج في اليد العاملة ، والضعف الجسدي الذي يُعزى لسوء التغذية وايضاً حول مسؤولية أرباب العمل الذين لم يعرفوا حتى الآن ، وشأنهم في ذلك شأن الادارة ، كيف يعثرون على طرق للكشف في خضم الجماهير الوطنية عن المواهب المهنية الجديرة بأن تنمى بالمران والممارسة .

ولكن اذا كان العديدون من المشتركين بالمؤتمر يبدو عليهم الاغراق في التشاؤم ، فان نوعية غالبية الدراسات تحمل على الأمل . فكثير منها يبدو عليها أنها من مستوى علمي رفيع : مثلا الدراسة التي توجت بتقدير معهـــد (الدراسات العليا بالقاهرة) والخاصة بدرس دينامية أنواع التربة : انها دراسة أحادية الموضوع لانارة القاهرة ، من جانبها التاريخي والتقني والفكر العملي ،

أيضاً ، بمجد هذه الصفحات . فعلى الصناعة الوطنية ، كي يمكن الاضطلاع بها، أن تلتصق ، أقرب مـــا يمكن ، مع الانتاج ، ومع الاستهلاك ، ومع الطباع المحلية . ومن هنا الاهمية الكبرى بالنسبة لهذه البلدان ، الكامنـة في قيام صناعات تحويلية : فهي ، اذا امكنني القول ، أولاها في التأثير على الاحساس القلبي [٢١] فاذا كانت صناعة الفولاد تبهر ، بالمعنى الكلاسيكي للكلمـة ، وتثير الحماس ، فان صناعة حفظ الخضار والفواكه مثلاً ، تمس عن قرب عادات الفلاحين ، الراسخة هي نفسها في صورة طقوس . وقمر الدين (وهو من لب المشمش الناتج في غوطة دمشق) يلعب دوره في رمضان ، وليس بأمر خـالٍ من الأهمية أن لا تكون صناعة التجفيف ، في مصر ، سوى امتداد لصناعـة هذه العزبة الصغيرة ، القائمة في جملة قرى أخرى ، في مديرية « ميت غـامر » حيث يحسنون ، منذ الازمان السحيقة ، حفظ البامياء*

« فالعالم الصناعي الجديد » الذي يحرك الآمال العريضة عند هؤلاء الفنيين ، ليس فقط يحظى بتحضير علمي وجدي عند المبشرين به وانما أيضاً يمتلك وجدانهم الاجتماعي الحـــاد . فالمهندسون لا يقللون من مسؤولياتهم. ولكنهم يشعرون بعمق ، في تناوب التفاؤل والتشاؤم المألوفـين لدى الشرقي ، بالدور المزدوج الوجه الملقى على عاتقهم : دور رسل التقدم المادي ، ولكن أيضاً دورالنائحين على التقدم المجرد ، نواح كاسانـــدر على طروادة ، دور مثقفين خابت أكثر الاحيان أحلامهم ، ولكن أيضاً محركين أقوياء لمجتمعهم ...

وهذا هو امتحان الضمير الثالث . انها محاضر مؤتمر تحديد وتنسيق المعايير

---

٢١) والامر الذي يحمل مغزى كبيراً ان رسائل مجلس الانماء « ١٩٥٨ - ١٩٥٩ » تكرس نفس الاهمية للاستهلاك . انظر النشرات رقم ٢٥ عن منتجات الارض ، ورقم ٣٩ عن المنتجات المعدنية ، ورقم ٤١ عن صناعة الاغذية ، ورقم ٤٦ عن سياسة الاستهلاك « من تأليف الدكتور كمال رمزي ستينو »

والمقاييس المنعقد في بيروت عام ١٩٥٨ . وبالامكان أن نرى في توحيد المعايير والمقاييس كلاسيكية الشيء الصناعي [٢٢] . فان ضرورات الانتـاج الواسع والتسويق تفرض عليه أشكالاً ومقاييس وعيارات نسقيّة تصبح شيئاً فشيئاً دولية . انها تتيح مبادلات واسعة للبضائـــع ، وتستطيع أن تبعث الامل ، عند حلول الاجل ، بأن ينسق الانتاج ، ورويداً رويـداً الاستهلاك والمواقف الفكرية عند مختلف البلدان . وانه لأمر حافل بالمعاني أن يبغي الشرق اختبار قدرته في هـذا الميدان ، وان ينعقد هذا المؤتمر في بيروت ، وعند افتتاحه ، اشار الوزير اللبناني باعتزاز الى ان لبنان هو ثاني بلد (عربي) ، بعـد مصر ، ينشىء مركزاً لتنسيق المقاييس والمعايير (الصناعية؟). وبالفعل، ففي بيروت كان يوجد معهد للبحوث الصناعية . ويظهر أحــــد أعضائه ، الدكتور كمال سعد ، الى اي حد يمكن أن يـــؤذي انعدام تنسيق المواصفات . فلبنان كان يصدر حتى الآن حنفيات وحمامات ماء من صناعة جيدة : فيأتي صناعي مزيف وينتج منها اعداداً تخرج عن المعيار القياسي بحكم الطبيعة ، لان هذا المعيار الموحد غير موجود . وهكذا يفقد لبنان اسواقه لتصدير هذه البضاعة . وليس هناك في المؤسسات التي تعنى بتصدير الفواكه والخضار من مقاييس تتناسب مع مجهود البلاد نفسها : لذلك فان هـــذا الانتاج لا يزال مصابـاً بانخفاض في الاسعار . فهو لا يبلغ مستوى السمعة التجارية الرفيعـة التي بوسعه ان يطمح اليها ، انه انعدام ادوات القياس الخ ...

وهكذا نرى تعبيراً عن الاسف والحسرة. اذ ، في الواقع ، لا يوضع تنسيق المقاييس والمواصفات موضع التطبيق الا في بلد شرقي واحد : مصر ؛ ويحـدده الدكتور محمود طلعت هـذه المكاسب الدقيقـة . فان فكرة وضع المقاييس لم

---

٢٢) محاضر نشرت في عدد خاص من مجلة « بريدتنسيق المقاييس »

ترد على خاطر المهندسين المصريين الا في عام ١٩٣٩ ، ومنذ عام ١٩٤٧ تطالب رابطتهم باحراز هذا التقدم وفي عام ١٩٤٩ ، تتشكل لجان لهذه الغايــة ، والشيء المثير للاهتمام ، انهم يشركون فيها عالماً لغوياً مشهوراً ، فبالاضافة الى الصعوبات المعتادة لتنسيق المواصفات والمقاييس في العالم ،توجد في البلدان العربية صعوبة المصطلحات التي تبعث الاضطراب فيها . وهـذا الامر لايمنع الجهد في الميادين الاكثر حسية ، وتنتدب رابطـة المهندسين المصريـين أحد اعضائها لدى لجـان التنسيق في انجلترا وفرنسا . واخيراً في كانون الثاني من عام ١٩٥٧ نشأ مرسوم حكومي نموذجاً قياسياً مصريـاً . وكانت خطوة حاسمة . فهذا بلد شرقي يقف في صف البلدان ذات الانتـاج الكبير والصناعة المتقدمة . انه يسمو الى حضارة الشيء . وهذا الامر يتطلب تدابير من هذا النوع : تعيين هيئة قانونية لتوحيد الموازين والمكاييل . وانشاء معايير للمـواد والمنتجات ، والبحث عن الوسائـل والطرق بحيث تستطيع المـواد والمنتجات ان تطابق تصنيفات النماذج القياسية ، وتموين المنتجين الصناعيين بقطع الغيار .

وينحصر الجواب الأهم في انضمام مصر الى النظام المتري . وفي الواقـع ، فان ذلك لا يسير دون عناء . ففي عام ١٩٥١ تقرر الانتقال الى الوحدات المترية ، لكن في عام ١٩٥٧ تجددت المهلة لخمس سنوات ، بحيث يتـاح توسيع هوامش التكيف . وفي عام ١٩٥٨ ينبىء اعلان في الصحف أن ادارة الوسم أو الترقيم والموازين ستوقف في المواعيد الآتية ترقيم أو رسم الوحدات غـــير المترية : وحدات الكيل للحبوب ، كانون الثاني ١٩٥٩ ؛ محطات ضخ البنزين : حزيران ١٩٥٩ ، قبابين غير مترية : كانون الثاني ١٩٦٠ .

ولنلاحظ أن هذه الثورة الهائلة تتم خلال أزمة السويس فتمر دون أن ينتبه أحد لها ، ومع ذلك فان بوسع المؤرخ أن يستخرج دروساً عديـدة من

هذا التوافق : ففي الوقت الذي كانت البلدان العربية ، وفي طليعتها مصر ، ترفع لواء قوميتها ، كانت تجري بدقـــة ، وبانصياع ، اذا أمكن القول ، توحيد مقاييسها ومعاييرها الصناعية وتنضم الى النظام المتري .

ومع ذلك ، ما الذي يفعله القلب ؟

يروي الرئيس فؤاد شهاب نادرة غنية بالدلالة (٢٣) ينتوي أحـــد الفلاحين بيع بغله لاقتناء سيارة شبيهة بسيارة أحد اغنياءالقرية ، فيمضي الى المدينة ، رغم توسلات امرأته . ولكن الحظ ، أو العناية الالهيــة شاءا أن يرى على طريقـه السيارة معطلة . فيجرها البغل الى القرية . انها عودة غير مشرفة للالـــة ، ولكنها مليئة بالوعود بالنسبة للحيوان العزيز الذي انتصر على السيارة . وبــلا ريب ، يصح الأمر على الكثير من الأشياء اذا اخذت في مجموعها . وهـــذا النوع من المغامرة ، أو من المديح ليس خاصاً بالحضارة الفلاحيـــة القديمة ففي كتاب « رحلة الى الغد »* ، يستعمل توفيق الحكيم نوعاً من الرواية المرتكزة على التصور العلمي ليمثل سفرة بـــين الكواكب يقوم بها شخصان حكم عليهما بالاعدام ويختلفان الى أبعد حدود الاختلاف : فالواحد مثالي والآخر مـــادي وبالبطع يفضل المؤلف الشخص الأول . فيجعله يتزوج ، على أرض مجهولة امرأة سمراء : هي الماضي ، وهي الفكر ، انها الشرق . ولكن هذا الاختيار يهيـج نقد محمود أمين العالم (٢٤) . وهذا الأخير يقوم بتمجيد الآلة * في قطعة رائعـــة

---

٢٣) انظر المقطع المترجم من قبل ف . مونتيل V . Monteil في صحيفة « الاوريان » بيروت ، عدد ٦ أيلول ١٩٥٨ .

٢٤) محمود أمين العالم : « فلسفة المسرح عند توفيق الحكيم » ، في مجلة « الشهر » عدد تشرين الثاني ١٩٥٨ . وهذا البحث يشكل مع نص انور عبد الملك حول التاريخ : كمقدمة لترجمته لجوردون تشايلد ، أحد اهم الكتابات العقائدية للانتلجنسيا المـــاركسية الشرقية ، انظر كذلك في رؤية مغايرة ، عبد الجليل حسن « معنى الانسان والآلة » مجلة « الآداب » ، تشرين ١٩٥٨ .

حافلة بالتفاؤل العلمي .(٢٥)

فهناك اذن انقسام في المواقف . وهذا الانقسام موجود في الغرب نفسه ، حيث نرى أيضاً أناساً يشدهم الحنين الى أحد القصور الذهبية ويتنافسون مع عشاق اليوتوبيا : ونحن نعلم ان الماركسية تمجد ، على الصعيد الأدبي بالذات ، أمل الانسان الصناعي . ولكن ، في الشرق ، يتبطن النزاع بجوار آخر خاص به ، فالشرقي ، ازاء التقنية التي ينطلق نحوها بخطى حثيثة ، يشعر بتمزق خاص : فهذه التقنية كانت تبدو له حتى الآن من فعل الغرب والخارج . أما الآن فانه يريد اكتسابها ، ولكن بعد رفض أخلاقية الغرب الأجنبي ، المرتبطة الى مدى بعيد بتقنيته . فهل يمكن تحقيق ذلك !

---

٢٥) هذا التساؤل العلمي ليس جديداً في الشرق ؛ ففي اوائل القرن ، كان المقلع بالنسبة لمجلة « المقتطف » التي لا تزال آثار الدكتور فؤاد صروف وفيه لحظها ، انظر مثلا بحثه في الكراس « البحث العلمي في العالم العربي » بيروت ١٩٥٨ وكتابه الجديد حول المذهب - العلمي الايجابي .

الفصل السادس

التردد حول المنشأة: (L'Entreprise)

المنشأة تدغم بصورة دينامية الرأسمال والتقنية مـــع المبادرة الشخصية . ويجهد المرء في ادراك قوى تتجاوزه وفي ربطهـــا في عملية امساك بالطبيعة تضيق قبضتها بصورة متزايدة يوماً بعد يوم . ونتج عن ذلك ان منشيء العمل لعب ، حتى اليوم ، دور المحرك المثالي للتاريخ الاقتصادي ، مثلما كتبه المؤلفون الغربيون . وقد لعب هذا الدور بقدر ما لعبه المخترع ، وهذا الدور الذي سبق أن تراءى لكانتيللون Cantillon والذي حدده جان باتيست ساي J.B . Say قد وجد مغنيه في شومبيتر Schumpeter . وفي نظر هذا النمساوي الذائع الصيت لا يمكن أن يخلط بين منشيء العمل ورجل المال ولا بينه ورجل الادارة ، وحتى الفني. فهو بعض من كل هولاء . فهو يوحد كل هؤلاء ويستخدمهـم لأغراضه التي هي أغراض خلق وابتكار . ولهذا السبب يشتمل تتابـــع الحقب أيضاً على تتابع الانماط : من الصانـــع – التاجر الذي ظهر في المرحلة الأولى للثورة الصناعية ، الى قادة الصناعة في القسم الأول من القرن التاسع عشر ، لنصل الى وجوه المدراء ورؤساء الادارة والمؤسسين ، التي عرفها القرن العشرون ، والتي

تتكاثر في كل مكان على الكرة الارضية تقريباً : وهم على السواء محركو الحضارة الصناعية ونتاجها [1]

التطبيق الشرقي للنظرية

ليس في اللغة العربيـــة كلمة تعبر عن هذا الشيء . فكلمة « المؤسسة » * تعادل كلمة Institution وكذلك كلمة « المنظمة » * أما المفرد « المقاول » * فيـدل على منفذ الاعمال الذي يتعاقد ، في الدرجة الثانية ، ابتغاء الحصول على العمل . وحتى كلمتا « المهندس » * « والمتعهد » * الذي يتعهد بتأديـــة خدمات ، لا تعبران عن هـذه الفكرة القائمـــة على المبادرة الحسية والمضمون التقنولوجي والاقتصادي على السواء . التي توحي بهـا كلمة Entreprise . وفي الاساس ، يتوزع النمط ، في الشرق ، بين عدة أنماط أخرى لم تتجمع أبداً حتى الآن . فالمهندس ورجل الاعمال الكبير والبيروقراطي الكبير يضطلعون بالوظيفة تحت ألقاب مختلفة ، ولكن دائماً بصورة منقوصة ، فهذه الوظيفة لا تبدو إذن بعدُ مرسومـة بوضوح . ويعود اضطرابهـــا الى ملامح أخرى بن تكوّن الرأسمال والتطور التقني في هذه البلدان ، وليس من المستغرب أن تؤكد مثـل هذه العلاقات المتبادلة ، على السواء اللغة والنمطية المألوفه التي يمكنها أن تُبنى مثلاً ، على ذمة محاضر وصور صحفية . انه اضطراب يعكس تأخراً أو وعداً : وبين الاثنين ينبغي القيام باختيار .

وقد اهتمت الجامعة الاميركية في بيروت بهذه المشكلة . وقد كرس أحد

---

١) وهنا أيضاً ، أنا استعين بالابحاث الواضحة التي وضعهـــا جيمس ، حول الشرق العربي انظر مقال ش . عيساوي « طبقة منشئي الأعمال » في كتاب « القوى الاجتماعية في الشرق الشرق الاوسط » الصادر بالانجليزية عن دار نيشر Fisher عام ١٩٥٥ ، ص ١١٦ وما يلي .

أساتذتها ، يوسف صايغ ، أطروحته التي لم تنشر لبحث المشكلة ، وهـــذه الاطروحة قد نوقشت في جامعة جون هوبكنز [٢] . وقـــد بدأ قسم العلوم الاقتصاديـــة ، في السنة الفائتة ، مشروع تحقيق اجهل نتائجـه . ولكن عرض موضوعه يكشف عن اتجاهاته [٣] . وتتعلق المسألة خاصة بالعثور على الملامح المميزة لمنشيء الأعمال ، كما ترتسم في التجربة او في التقنية الغربيتين . والذي يحدث هو ان الطريقة القياسية تصل حتماً الى مأزق . وهذا الامر ، كنا نعلمه منذ نقطة الانطلاق . وفي رأي صايغ، تفعل البيئة الشرقية كعامل مُضيق وحتى كعامـل قسري بالنسبة للنمط . وبالرغم من الحساسية الكبيرة عند منشئي لأعمال المحتملين تجاه الكسب ، يؤثر عليهم دافع من هذا الطراز أقـــل مما يؤثر في البلدان الغربية . فمنشيء الأعمال العراقي : مثـلاً ، سوف يتجـه ، بالأحرى ، نحو المبادرات التجارية ، لانه يخشى مخاطر المغامرة الـكامنـة في المحاولات الصناعية، وهو ، كذلك يحس بتثبيط عزيمته بسبب ضآلة الرأسمال ، عند الانطلاق . وهو كذلك ، يحس بأنه أعزل بسبب جهله لطرق التنظيم . ولهذا السبب يتألف الافراد الذين يبلغون مستوى المنشأة من الاجـانب في أكثر الاحيان ، أو من ابناء الاقليات .

---

٢) يوسف أ . صايغ : أطروحة لم تنشر (١٩٥٣) ونسخة مأخوذة عن مقال نشر في مجلة « تاريخ انشاء الاعمـــال Entrepreneurial History (عن مركز الابحاث في تاريخ انشاء الاعمال) هارفارد ١٩٥٨ ص . ١٢٣ وما يلي .

٣) تحت ادارة الاستاذ سعيد حمـــاده « الاطار الادراكي وتخطيط المراحل لدراسة انشاء الأعمال في علاقتها بالتنمية في لبنان » . الجامعة الاميركية ، بيروت ، أول آب ١٩٥٨ . انظر ارثر أ . ميلز Arthur A. Mills « المنشأة الخاصة في لبنان » الجامعة الاميركية ـ S. D (١٩٥٩)

وبقدر ما هم من اهل البلاد ، هم يغتربون بالنسبة الى بلدهم ، وينعزلون داخل اراضيها ، Ils s'exterritorialisent ،حسب تعبير صايـغ : اي انهم يتخذون لوناً اجتماعياً وذهنياً يميزهم بصورة بارزة عن البيئـة الاصلية . وفي النهاية ، ينكرهم وطنهم .

وفي مثل هذا الطابع المتشائم ، هي محاضرة للبروفسور الاميركي مورّو – بيرجر Morroe - Berger الذي توحي مصر له تشخيصاً سلبياً (٤) ، فهـو لا يعتقد إن من حق الشرق ان يرجو تقدمـه من المنشأة او من تنمية المنشأة . بل من عمليات مشاركة وتلاحم ، من اي نـوع كانت ، بين الراسمـال المحلي والاجنبي ، وبين الراسمال الخاص والعام . وينبغي على الشرق ان يرقب نموه الصناعي من عمليات تحقق التعانق والاتصال بـين رساميل ، من أي مصدر جاءت ، وتلقيها جميعاً على تجمعات عمالية ، أكثر مما يمكنه أن يرقب من مسلك خاص ، يطابق ما عرفه الغربيون تحت اسم المنشأة ، وبالاختصار فان الصنيـع الاقتصادي سوف يولد من التلاقي العملي بـين مدّ التيار النقدي وقوة العمل .

وبصفته عالماً اجتماعياً ، يؤكد مورّو – بيرجر على العامـل « التبايني » . ونحن سوف نتبعه في هـذه النقطة . ولكنه في ارتكازه ، عن صواب ، على الحديث والمقابلة الشخصية ، من المحتمل ان يكون قد أخذ ، أكثر مما يجب ، وقف سائد في الشرق ، يجسده يوسف صايغ : وهو رد الفعل المبهم عند كل الباحثين الشرقيين بالنسبة لبيئتهـم . وهو يقودهم بالتناوب ، الى انكار أي

---

٤) مورّو – بيرجر : « الطبقة المتوسطة في العالم العربي » : من محاضرات جامعـة برنستون ، وهذا العالم الاجتماعي هو أحد القلائل الذين أدركوا أنـه في سبيل دراسة الشرق يقتضي درس اللغة العربية . وهذا من باب الابتداء بالبداية .

فارق ، حتى ولو كان متعلقاً بتفصيل دقيق ، أو بتكييف أو بمرحلة ، من النوع الذي يمكنه أن يميّز هذه البيئة عن البلدان المتقدمة ، ثم الى التذمر من كون لا شيء ، في هذه البيئة يسير ، في نهاية المطاف ، مثلما في المواطن الأخرى . وان الصور الاجمالية للنظرية الاقتصادية ، كما تبدو في رؤية من هـــذا النوع ، على السواء تصلح للشرق وتتلاءم مع أوضاعه وتظهر عوراتـه ونواقصه ، بصورة مضخمّة . ولكن هذه الأحكام تكشف عن انقطاع الجذور لدى الباحث الشرقي اكثر مما تعبر عن الواقع . وبكل تأكيد ، سوف يكون الأساس أمتن ليسجّل تاريخياً ، الكثير من هذه « الظواهر الغريبة » .

وقد رأينا أن الاسلام يوصي بالنوع المباشر من التعامل ، بعملية (خـــذ وهات) تقريباً . وبالاختصار ، بنوع من الالتحام الجسدي التعاقدي . وحالما يؤجّل التنفيذ ، كما في البيع لأجل ، أو في التوصية ، يبـــدي التردد ، وهو يصب شكوكه على الصيغ ذاتها التي يدين الاقتصاد العالمي لها بنموه ، فهـــذا الاقتصاد يرتكز على ثقافة الاحتمالات ، بينما الاسلام يحرم المخاطرة أو الصدفة . انما ، لا يتعلق الأمر هنا بحائل نظري ، فهـــو لم يعد يوقظ مآسي ضميرية ، في غالبية الأحوال ، فعلى التحقيق أن يتجه نحو المواقف الحديثة : ليس لانهـا تحررت تماماً من هذه الخلفيّة العقائدية ، ولكن لأن التاريخ يجدد الحالات .

والقضية لا تتعلق أبـــداً باستنكار عجز مزعوم لدى البورجوازية أو الشبيبة الشرقية ، في مجال انشاء الاعمـال ، وبفضحه على ضوء فرضيّات مسبقـة من الغربي . وانما بمحاولة لتحديد لعبة الاستمرار وعدم الاستمرار ، في هذه الناحية . وبصورة راهنة ، ينبغي للدراسة ان تميز ، حسب المستويات البسكولوجية ، بين الاقاليم الجغرافية ومراحل التطور . وهذه الاخيرة بامكانها ان تُلحظ بوضـوح اختباري . اذ ان الاوساط العربية المختلفة تبدي مراحل مختلفـــة وتشرك شتى المواضيع المتعلقة بادخال الطابع الحديث . ذلك ان الشرق اصبح منشئاً للاعمال ،

بالرغم من النظرية . وهو قد اصبح ذلك ، بانشاء الاعمال كما تقتضي الاصول .

الملامح التاريخية قبل عام ١٩٣٠ : لا شيء يمكن التنويه به غير تمتمات . ونقطة الانطلاق

لحركة التصنيع تطابق بدايات حركة الحماية الجمركيـــة . وفي ذلك الوقت ، تتضخم نشاطات مجموعة بنك مصر . وأخذ يعطي ، بصورة منتظمـة ، سلفات للمؤسسات الصناعية . وفي عام ١٩٤٥ ، يقولون عامـة ان مصر ، اذا لم نتكلم عن غيرها ، قد استطاعت ان تؤمن حاجاتها الداخلية بالنسب التالية :

السكر :	١٠٠ بالمائة	الدقيق :	٩٩ بالمائة
الكحول :	١٠٠ بالمائة	خيوط القطن :	٩٦ بالمائة
السجاير :	١٠٠ بالمائة	الاحذية :	٩٠ بالمائة
الملح :	١٠٠ بالمائة	الترابة :	٩٠ بالمائة
الصابون :	٩٠ بالمائة	المفروشات :	٨٠ بالمائة
البيرة وأعواد الثقاب :	٧٥ بالمائة	الزيوت النباتية :	٦٠بالمائة (٥)

والتقدم في توظيف الاموال قد تلازم مع الوتيرة نفسها.فمن ٨٦ مليوناً من الجنيهات المصرية في سنة واحدة ، عام ١٩٣٩ ، ارتفع(مجموع الاموال الموظفة) الى ٩١،٤٠ مليوناً عام ١٩٤٥ ، ثم الى ١١٤ عام ١٩٤٧ . وفي نهاية ١٩٥٠قارب ١٤٠ مليوناً من الجنيهـــات ، أي بزيادة ٥٠ بالمائة منذ ١٩٤٥ بالنسبة لمجموع القطاعات وبزيادة ٪ ١٧٠ فيما خص الرأسمال (٦) .

---

٥) « النشرة الاقتصادية » الجزء الثالث ، ١١٣ (احصاء ١٩٤٥) ، ١٩٥١ ، الجزء الرابع ، ٢٤٩ (التقدم بعد الحرب) ، عام ١٩٥٤ الجزء السابع ١٠ (مجلة الصناعات المصرية لعام ١٩٥٣) وعام ١٩٥٢ ، الجزء الخامس ، ١٢٤ (حول المصرف الصناعي) .

٦) « النشرة الاقتصادية » : عام ١٩٥٧ ، الجزء العاشر ، ٣٣٨ (التقدم بين ١٩٤٥ - ١٩٥٤

وانه لزاخر بالعبر ان تقارن هذه الارقام ، المستقاة من نشرة بنك مصر الوطني ، بالارقام التي اعطتها ، في فترة لاحقة ، غرف التجارة العربيـــة للفترة الواقعة بين ١٩٥٠ و ١٩٥٣ والتي نقلهـــا احد المؤلفات الحديثة . وعند ذاك ، تسد مصر حاجاتها بنسبة ٩٥ بالمائة : منسوجات وخيوط صناعيـــة ، ٤٧ ٪ ، سكر ٦٤ ٪ ، صناعات كيماوية ، فقط ١٥ ٪ ، أسمـدة ، ٩٦ ٪ ، مصنوعات صغيرة ، اصناف خفيفة من الحديد والصلب ، ٤٠ ٪ [٧] . وبالرغم من ان بعض النسب المئوية قد هبطت ، فان هذه الارقام تسجل تقدماً ، ان لم يكن في نظام الاكتفاء الذاتي ، فعلى الأقل في الانتاج الخام ، وخاصة في المنهجية المنظمة ، وفي التصميم ، بالاضافة الى الاخلاص . أضف الى ذلك ان مصر دخلت من الآن فصاعداً في مرحلة نمو نشيطة . فان دليل الانتاج ، عندما نعتبر ان الدليل القاعدة هو ١٠٠ في عام ١٩٥٢ ، يحمل الارقام التالية (ونحن نستقيها من احصـــاءات كانون اول ١٩٥٨) : الطاقة الكهربائية ، ٢٦٠٪ ، النفط ، ١٤١ ٪ ، الاسمدة ، ٣٦٣ بالمائة ، التوابة (الشمنتو ، ١٥٤ ٪ ، الحديد المبروم ١٩٠ ٪ ، معدن الحديد ١٥٤ ٪ .

طبعاً نحن لا نملك اية وسيلة للتثبت من هذه الارقام ومن مدى صدور هذا التقدم عن التفاؤل الحكومي : وفي كل الاحوال ، هذه الارقام عن التقدم تدل على دينامية محسوسة . وهي تشكل افضل الاجوبة على اعتراضـات الاساتذة . انما المؤرخ لا يستطيع ان يكتفي باشارة شديدة الفحاجـــة ولا ان يؤكد ان ذهنية من طراز صناعي تسيطر دون مشاركة على هذه الاخلاق الاقتصـــادية . وحتى عام ١٩٤٨ ، كانت اكثر الاعمال لا تزال تدار مباشرة من قبل صاحب المنشأة : فلم يكن هناك بعد ، اي انفصال بين الملكية ؛ القريبة من مصادرهـــا العقارية والاقطاعية ؛ ووظيفة الادارة والتقنية وكان لا يزال ، في ذلك الوقت ،

---

٧) برهان الدجاني : المصدر المذكور سابقاً ؛ ص ١٣٦

الكثير من الاجانب بين فئة الموظفين والقليل جداً بين فئة العمال . وخاصـــة ، تصنيف المنشآت حسب عدد الاشخاص العاملين فيها ، كان يعطي هـذه النتائج المدهشة :

١٣٩٥٧ منشأة يعمل في كل منها اقل من ٥ اشخاص .

٤٩١٧ منشأة يعمل فيها من ٥ الى ٩ اشخاص .

وماذا يعني ذلك غير ان تلك المنشئات كانت لا تزال في باب العمل الحرفي ، ان لم يكن بحجمها ، فعلى الاقل بتقنية انتاجها ؟ وفي كل مكان ، تتشبث بالبقاء المنشأة التي تعنى بالاعمال الصغيرة جداً [٨] .

وهذا يجعل من الصعوبة بمكان ، من نواح كثيرة ، قراءة الاحصـــاءات في في البلدان العربية . إذ انه ، فيما يقصرون ، في مصر ، منـذ مدة ، على اعتبار المنشأة فقط . تلك التي يتجاوز عدد عمالها العشرة ، ففي لبنان يهبط الرقم الى ٥ عمال وفي العراق الى واحد [٩] ! فكيف تمكن المقارنة ؟ أو فيما يتعلق بسوريا ، فان مؤلفاً خارجاً لتوه من مؤتمر الغرف التجارية ، يقر بانه لا يعرف شيئاً عن الامر . فالتحديدات التمهيدية ، في هذا الحال ، تختلف او تنعدم .

ومع ذلك ، فانه لا يسعنا انكار وجـــود تقدم لا تستطيع الوثائق والمستندات المصرفية ان تضع اصبعنا عليه فلتر ّ مثلاً ارقام عام ١٩٤٨

ففي صناعة النسيج (ونحن نتصـــور ان صناعة النسيج تؤدي فوراً الى المجموعات الضخمة من المغازل ، والجماهير الحاشدة من العمال ، وبالتـــالي الى

---

٨) النشرة الاقتصادية ، عام ١٩٤٨ الجزء الثالث ، ص ١١٣ (تاريخ الصناعات القطنية) وعام ١٩٤٩ ، الجزء الثاني ، ص ٧٥ و ١٩٥١ ، الجزء الرابع ، ص ٩٥ وما يلي (صناعة السكر) ، وعام ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ١٣ « صنـــاعة الترابة « الشمنتو » وعام ١٩٥٠ الجزء الثالث ص ٢٤٢

٩) برهان الدجاني ، المصدر المذكور سابقاً في المقدمة .

عمليات التوظيف الواسعة) ، على ٩٦٤٤ منشأة ، يوجد ١٢٥٩٥ مالك : (او صاحب منشأة) اذن ، هناك مالكون اكثر من منشآت ! وعلى العكس ، فاذا كانت هذه المنشآت التسعة آلاف تجمع اكثر من ١٠٠٠٠٠ عامل ، اي تقريباً بمعدل ١٢ عامل لكل منها ، فان منشآت استخراج المعادن التي لا يتجاوز عددها ٥٨ منشأة تخص ٣٩ مالكاً وتعد ما يقارب ٧٠٠٠ عامل : فهنا ، حملت التقنية النظام ، اي نظام التركيز الاقتصادي (١٠)

ومنذ ١٩٥١ ، وردت تحفظات شديدة حول القدرات الصناعيـــة للبلد في التقرير السنوي للاتحاد المصري للصناعات . وقد فضح المؤلفون عدم الملائمة بين النظام الجمركي والاداري والتشريعي (١١) . ومع ذلك ، فان قفزة قد حدثت منذ عام ١٩٣٠ . ولم يعد يُكتفى بنظام حماية جمركية يتسم بالخجل والاعتدال. فان ما تعتزم المنتجون الانتساب اليه هو نظام الاكتفاء الذاتي الكلي . انما هم يشتكون من عدم اهتمام البلاد بمشاكل الانتـــاج من فقدان سياسة شاملة ، من واقع ان العمل يتعرض على التوالي لأن يضحى به في سبيل ضرورات التموين او لان يلوح به تمشياً مع أهواء الحركات الاجتماعية او شهوات جبـاية الضرائب . وبالاختصار ، هم يريدون المستحيل : أعني نظام حماية كامل ، ولكن مجرد من رقابة الدولة او من نظام ضرائب ملحاح . انهم يشجبون شبه السرية التي يحتمي طيها كثير من اصحاب المنشآت . انهم يخفون حساباتهم ، وارباحهم ، وعـدد عمالهم ، متوقفين كل اسبوع عن التصريح بانتاجهم » .

لا يجدر بنا ان نبدو قاسين الى هذا الحد . فهذا المنتج الصغير ، القابـع في مشغله الذي يعلوه التراب ، في الاحياء الشعبية ، والمغرب في بعده عن ذهنيـــة « الورشة » الكبيرة (كلمة ذات قرابة مع الكلمة الانجليزية Work - Shop أليس هو الذي وجدناه تحت اشكال تتجه نحو الطابع البالغ الصغر ، في ناحيـة

---

١٠) النشرة الاقتصادية : عام ١٩٤٨ ؛ الجزء الثالث ص ١٢٠ - ١٢١ (الجداول) .
١١) في النشرة الاقتصادية عام ١٩٥١ الجزء الرابع ص ٢٤٧

باب زويلة ؟ ففيه يمكن ان يتحقق الالتقاء بين الصناعة الحديثـــة والمؤهلات الحرفية القديمة . ففي ذلك بعض الشبه بما حدث في القديم في حي سانت انطوان عندنا . وكثير من المكتسبات الحديثـة تستطيع ان تجد هنـاك لقاءها مع اندفاعات عفوية قديمة . وفي هذه الظاهرة مادة كافية لانبعاث التصورات عنـد الطوباوي ، وليس عنده فحسب ...

التنظيم والحياة

لنقفز من حقبة ما قبـل الثورة هذه الى وقتنا الحاضر . فاننـا سنقع اليوم على الملامح العامة نفسها . ولا شك انها ستبرز بصعوبة من سياق مضطرب. ومحاولة تتبع هذا السياق من قرب بالغ ، لا تخلو من خطر الظهور بمظهر من يحاول الاتجاه الصحفي ، او على الاقل ، من يتبنى الاساليب الصحفية التي نرجو لبحثنا الابتعاد عنها . وسأكتفي اذن بالتعرف الى هذه (الملامح) الثابتة في نص رسمي يعمل على محاربتها : انه القانون المصري رقم ٢٦ القاضي بتنظيم الشركات المساهمة . فهو يسعى لتوسيع عدد المساهمين ليمنع التمركز العائلي والاحتكار. وهو يفرض رفع نسبة الاحتياطي في المصارف وتحديد الحد الاعلى من الارباح الموزعة بعشرة بالمائة . وليكن مفهومـاً ان الرأسمال لا يوظف ، عادة ، إلا اذا ضمن تجديد ذاته في ثلاث سنوات او اربع . وليكن مفهوماً ايضاً انه في اكثر الاحيان ، تبقى النظرة ذات طابع تجاري اكثر منها ذات طابع صناعي . حتى لو كان التوظيف في مصانع صغيرة للتريكو (لحياكة الاصواف) كما يحدث في القاهرة ، في هذه الايام بالذات . ويفضلون البناء اكثر من أي شيء آخر : لانه في عملية البناء يتكاثر المال الموظف في سنوات قليـلة ، وكذلك لان هـذه العملية تتصف بطابع الأبهة وبتجسد العمل في صورة أثر مهول . ويحـدث ان

---

١٢٠) التعليق في مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربيـــة » ، عام ١٩٥٩ ، ص . (٨٦)

يُلجأ الى هدم بناية شيدت في حقبة ١٩٣٠ ، ولا تزال في حالة سليمة ، لاقامة بناء جديد : فيتم بذلك الهرب من القوانين التي تحدد الاجور . لذلك تدوي في جميع زوايا القاهرة ، اصوات المعاول التي ترسي الاعمدة في الطبقات السفلى من الارض . ولهذا ايضاً تنهار البنايات المشيدة بعجلة وبصورة مرتجلة ، كما حدث في الاسكندرية . فضد هذه الاخلاق والعادات يعتزم القانون (الذي سبق ذكره) احداث ردة الفعل . وهو ، كذلك ، يحذر ، وعن حق ، من عمليات توزيع الارباح السخية التي يقال انها ، في اكثر الاحيان ما كانت ممكنة إلا بفضل اخفاء النتائج الحقيقية . ابنية ضخمة ، ومصاعد معدنية تحمل على التصور باننا نعيش في المدائن الخيالية التي تبنيها ريشات الرسامين المستقبليين ، وسيارات كاديلاك راسية امام المساكن ، دارات باهظة التكاليف في احياء « العجمى » او « الصحراء » ، ونشر الغنى الباذخ في ملهى « الاوبرج » بالهرم : هذه النداءات لاستجلاب الثقة ، والطمأنينة من جانب المساهم ، ولتشجيع الكفالات ، اصبحت من الان فصاعداً موضوع الريبة وسوء النظرة . وفي عملية توافق لا يسعها ان تدهش عالم الاجتماع ، يشكل انحسارها كذلك ابتعاد طبقة اجتماعية خاصة وذهنية سياسية وحتى نمط جسدي وطبيعي (فيزائي) ولغة ..

وبالطبع ، لا يسمح الاموات بدفن انفسهم ، طواعية . فالنظام الليبرالي التجاري القديم ومظهره المتطرف : المضاربة يظهران اضطراباً عصبياً ازاء هذه التدابير . ورد فعلهما ، العنيف او المستتر ، يتباين ويختلف حسب الوقت والبلاد. وهو يعمل كذلك في سياق يتجاوز الشرق ويتصادم فيه مفهومان اقتصاديان يلعب دور البطل في كل منهما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية . ومن جهة اخرى ، تعمل الظروف المحلية على التأثير على مبادرات الافراد والجماعات ، جاذبة الآمال في هذا الاتجاه او ذاك : التجارة اكثر من التحويل الصناعي ، ان لم يكن العكس . وتتجلى هذه الظاهرة في بيروت ، حيث تتناوب ، على التوالي ، في الاشهر الاخيرة ، عرائض التجار الذين يطالبون بالعودة الى نظام

حرية التعامل اللامحدودة ، واللاملجومة ، ومشاريع الحماية الجمركية الصادرة عن الصناعيين [13] نظرة بنائيـــة من جانب هؤلاء ، ان صح القول . ونظرة واقعية (تستند الى الظروف الاقتصادية الراهنة) من جانب اولئك . ومهما كان الامر ، فهاتان النظريتان تتصادمان اذن ،متواجدتين مع عوامل كثيرة اخرى ، ومخفيتين تحتهما اشياء كثيرة ... وهي تتصادم ايضاً ، بصورة اكثر تخفياً ، في دمشق ، بل وعلانية ، كما حدث في شهر اوكتوبر الماضي ، امام المشير عامر . وهذا ما حدا بشفيق الاخرس ، على ان يشكو ، بكثير من المداورة اللفظية ، « من عدم وضوح عودة الثقة » ، ومن « عادات » الرأسمال المحلي ، الخ ..والى التعاون مع هذا الراسمال والى التسوية بين الاهداف الجديدة والمجهول الشرقي ، كان احد رؤساء الدول ذات النظام الموجه يدعو مواطنيه في الفترة الاخيرة .

الدهاء اللبناني لندعه في حيرة بين : المنهج المتشدد (الارثوذكسي) المزدوج الذي يشرعه الشرق والغرب في وجه بعضها البعض ، من جانب ، ومن جانب آخر المنهج الشرقي الخاص ، هذا الاسلوب الذي يجرب رجـــال الدولة العرب مواهبهم في التمرس به ، والذي يقوم على البحث عن عمليات توازن بارعة وفتية . ولنلاحظ المسلك البرجماتي ، (التلمسي) الذي يتبعه ، منذ اجيال ، رجـــال الصناعة في بيروت [14] .

منذ ربع قرن ، يهرب فتى من مدرسته القائمة في حي فقير . انه يحب استعمال الادوات . فيقضي وقتاً طويلاً في اصلاح (الاشياء) وفي تركيبها وفكها وضبطها . وعلى مدى الزمن ، تصبح هذه « الحرتقة » عملاً صناعياً . وها هو صاحبنـــا في مشغله الصغير . فيوصونه بصنع غرفة مصعد . فينقل نموذجاً مستورداً . ولكن

---

١٣) انظر مر مثلاً : جريدتي « الجريدة » عدد ١٦ - ١١ - ٥٩ ، والاوريان ، عدد ٢٣ - ١١ - ٥٩ ثم افتتاحيات رينه عاجوري حول ازمة دمشق (نوفمبر ١٩٥٩)

١٤) تحقيق ريبورتاج بقلم لوسيان جورج في جريدة الاوريان ، صيف ١٩٥٧

هذا الانتاج يرضي حاجات الزبائن ، فيأتيه المطامع . فينشيء مصنعاً صغيراً في ناحية فرن الشباك ، ثم في سن الفيل (في ضاحية بيروت) ولكن هذه المرة على صعيد اوسع : انه يحتل ٣٠٠٠ متر مربع ويستخدم ١٢٠ عاملاً . لقـــد اتبع تطوره تطور التجهيز المنزلي في بلاده . ومن هذا الجانب تستوقفنا تجربته . فقد بدأ بصنع هذه الافران التي تسير على المازوت والتي انتشرت هنا انتشار البريموس في مصر ، معبراً عن التخفيف التدريجي في اعبـــاء المرأة والندورة المتزايدة في الوقود الطبيعي . وفي عام ١٩٥٠ يبدأ ، في الشرق ، عهد المصاعد الفخمـــة . وهو كذلك عهـــد البنايات الحديثة المشيدة بالاسمنت المسلح ، والمضاربات على الاجور وتوظيف الاموال في المدن . والتطور الثالث الحديث (هو يتمثل في في انتشار) الحاجيات الاضافية في حياة المنزل البورجوازي ، كما كينات الغسيل بين اشياء كثيرة غيرها ، كل ذلك يظهر اضطراباً في الاقتصاد المنزلي ، استطاع صاحبنا ان يفيد منه ، دون ان يقوم بتحليله . ويقوم احد زملائه بالتخصص ، عام ١٩٥٦ ، بشؤون مكيفات الهواء . ويشكل رفض البيئة احد وجـــوه حضارتنا الحاضرة . فان احد الملوك العرب يقوم ، كلما توجه للصيد ، باصطحاب غرفة مكيفة الهواء ، تتبعـــه في تنقلاته ، الامر الذي كان من شأنه ان يبعث الدهشة عند شعراء الجاهلية . وصاحبنا الصناعي لا يقف عند هـــذه المقارنات الباعثة للحنين . فحسبه انه ينتج الكثير من البرادات . يصرفها حتى في اسواق الكويت والعربية السعودية .

وهكذا يبدو الدور الذي يلعبـــه الاستهلاك باشكاله الاكثر ترفاً ، ان لم تكن الاكثر طبيعية ، فهنا تكمن الوعود بالارباح الضخمة . ولهـذا السبب ، يغري الاضواء المتدفقة ليلاً من الاحياء الراقية المتعهد وتستحثه . وفي بيروت لا تظهر النيون الا بصورة خجولة عام ١٩٤٣ ، وفي توافق غريب بين التبـدل في الاطار والتبدل السياسي . فيكرس مهندس لبناني ، يحمل شهادات اوربية عن

جدارة ، نفسه لهذه المهمة. فيتقدم فنه ويغزو كل مجال صنع الاجهزة الكهربائية فينتج المصباح الكهربائي الوطني الاول عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٥٦ يصل انتاجه السنوي الى قرابة النصف مليون مصباح (لمبة) .

ولكن اطار « العيش المريح » « Good Living » ليس الوحيد الذي يتغير امام البصر . فقد رأينا نظام التغذية يتغير هو ايضاً . وبذلك تصيب التحولات (الطفرات) طبقات اجتماعية اوسع . اما الخمور فان سوقها مهددة حقاً بالمواقف العقائدية المتعارضة . انما البيرة تبدو أقل تعرضاً (لمثل هذه التحريمات) ، لحسن الحظ . والصودا بمنجى تام عنها : ومن هنا كانت الجهود المدوية لمساندة هذا المشروب او ذاك . ومن المعروف ان المناقشات ، التي دارت حول مشروب من ماركة تتمتع بشهرة ذائعة ، أحدثت لدى المستوردين قلقاً بالغاً ، زمناً طويلاً . وقد اشتم بعض المتضلعين في القانون ، والمتزمتين ، لعبة شيطانية في القضية : فهل تؤدي الاتهامات والشكوك التي ترمي (هذا المشروب) بصفة المحرم الى خفض عمليات البيع ؟ ولكن الخطوط البيانية لهذه العمليات تنتهي بالصعود قفزاً ، لأن المولج بقسم الاذاعة والانباء لدى الشركة قد نجح في اقناع الجمهور ، بفضل دعاية تتنقل همساً ، بخصائص الشراب المتميزة يبعثه للقوى الجنسية . ويصبح صندوق القناني ، ذات اللون الخمري (لون دم البقر) والاعلان الصارخ ـ المرسوم بالاحرف العربية التزيينية ، مثلما يتوجب (كلما استدعت المصلحة التجارية) ـ جزءاً ملازماً لمشاهد الاطار في المدينة او في الارياف . ولكن تبقى عمليات تراتب واساليب متفاوتة بين وجوه الاستهلاك : فاستعمال الخمرة او البيرة ، والوسكي او الشمبانيا ، او الكوكا كولا يميز اخلاقاً ومستويات معيشة ويكاد يميز عمليات توجيه بسيكولوجي ، بله توجيه سياسي .

ففي لبنان ، عندما ينشيء صناعي مصنعاً للبيرة ، او ينتج خموراً ذات نوع

متوسط ، هو يقوم بمنافسة مؤسسة فرنسية . وهو يقتصر ، على صعيد الوطنية والربح التجاري . وهو يتوصل الى ذلك بفضل عملية (عشائرية) من تقسيم العمل . فبينما يغرق منافسه في نفقات باهظة ، هو يقوم بعمل كل شيء بنفسه ، يساعده ابناء عمه القادمون من الجبل ، والذين يتصفون بقناعتهم وتقشفهم بقدر ما يتصفون بقوتهم . انما لسوء الحظ ، يأتي منافس جديد ، هو مواطن (ابن بلد) ، ويؤسس مثلما أسس . عندئذ ينشب الصراع بين ماركتي البيرة ، والذي سمي « الحرب بين الشقيقين » . وقد دخلت (الصناعة) مرحلة التصدير ، وفي الوقت نفسه ، مرحلة المخاوف فيما خص السوق الداخلية . اذ ان مصانع اخرى للبيرة قد انشئت في سوريا : وها ان صناعيينا بدأوا ، منذ ذلك الحين ، يحلمون بالتعرفات الجمركية الهادفة لحماية (انتاجهم) ...

وهذه المبادرات لا تقف عند نطاق الاستهلاك الشائع . فعمل البناء يجذبهم ، بصورة كلاسيكية . والقيام بالبناء ، يلزم توفر الاسمنت . وهذه المرة تحظى الخطوة التجديدية ، العزيزة على قلب شومبيتر Schumpeter ، بتأييد ومساندة النفوذ الروحي . فان مطراناً هو الذي يؤسس المصنع الاول ، بالاشتراك مع الفرنسيين . وهنا ايضاً يحدث توافق تاريخي ... ولكن الاعمال تتدهور قليلاً ، فتأتي مجموعة سويسرية لانقاذ المشروع . على كل حال ، كانت النظرة الاولى صائبة ، وتحقق المشروع الذي اصبح المصنع الضخم القائم في بلدة « شكا » ، على طريق طرابلس .

وصناعة النسيج قد انطلقت في لبنان ، بصورة طريفة ، وقبل نموها في « المحلة الكبرى » بمصر . فقد بدأ الاخوان عريضة ، وهما ينتميان الى عائلة كبيرة في الشمال اللبناني ، تجربتهما ، عام ١٩٣٧ . وقد حصل واحد منهم كل ثروته في المكسيك . ولم يبق هذا المغترب شاعراً في المهجر . لقد عاد رأسمالياً . فيتمركز

في حي شعبي في طرابلس ، في حي البحصاص ، ذي السمعة السيئة ، والذي كان في ذلك الحين ، ما يمثله حي الروشة في بيروت : اي الموضع المختار لعمليات الانتحار والاعتداءات . ويؤمن اصغر الاخوين بالمستقبل . فها هو ينطلق نحو المجهول . فيزج بكل موارده . وكانت البلاد واقعة تحت الانتداب . فكان عليه ، كما قال ، ان يواجه صراعاً ، من طراز رفيع ، مع المكاتب الحكومية . وقد تحقق النمو الصناعي في هذه البلدان ، دائماً ، ضد العهد الاستعماري . وقد زوده هذا الصراع بنوع من الدينامية الاضافية وبهذه الصفة المعنوية التي يظل العرب دائماً شديدي الحساسية ازاءها . وبصورة عامة ، تبدو السلطات الاجنبية قليلة الميل نحو التصنيع . وفوق ذلك ، هي غارقة في البيروقراطية . وفي النهاية ، يقرر عريضة ، الذي بلغ حد اليأس من تصرفات هؤلاء الموظفين ، ومن مشاكل الجمرك ، والقطع النادر الخ .. ان ينقطع عن التحدث باللغة الفرنسية ! وفي عشية الحرب الاخيرة ، هو يفكر بالسفر الى العراق . فالعراق بلد ما زال بكراً ، تلونه مغامرة فيصل . ومن الخير ان يعيش المرء كصناعي مستقيم في بلد رومانطيقي ، وكفرني في إطار عتيق . ومن هذا التناقض يمكن ان تولد ، لفترة كاملة ، ارباح مثمرة . واخيراً تذهب القضية الى عصبة الامم . والحكم الفرنسي ، واسمه مسيو كيه ، الذي ارسل الى موضع الشكوى ، هو نفسه الذي أقنع عريضة بالبقاء ، مقابل حماية جمركية بنسبة ٢٠ بالماية . واليوم ينتج المصنع ١٢ مليوناً من أمتار النسيج .

مجموعة بنك مصر ومنافسوها

لنتصفح واحداً من هذه والكتب السنوية ، التي ينشرها الاتحاد المصري للصناعات . فمنه يظهر ان عدداً كبيراً من الحاجيات اصبح الآن محلياً . وبعضها من نوع غريب حقاً . مثلاً هذه القبعات من نوع « البيريه الباسكية » التي لا اعلم ان بين المدنيين من يلبسها غير الكاتب توفيق الحكيم . وعلى العكس ، كم

كان الناس يرتقبون صنع الاسمنت باشكاله المختلفة كلها : الباطون ذي الخلايا ، الباطون المضغوط مسبقاً ، الباطون الذي سبق صبه الخ .. وهنـــاك فصول (صناعية) اخرى ، مثلاً صنـع المستحضرات الطبية ، تبعث ذكريات الكفاح المرير بين الاستيراد من الخارج والاحتكار الداخلي . ولائحة المنشئين تشتمل على غالبية كبيرة من الاسماء المحلية ومن المسلمين باكثريتها الآن ، ولكن لا تخلو من بقايا الهجرة اللبنانية في اوائل القرن . اذا لو تصفحنا « كتاباً سنوياً » صدر من عشر سنوات فقط ، لما كان لنا مثل هذا الانطباع الاحصائي . ففي هـــذه الفترة ،استطاع الاقتصاد المصري ان يستعيد مواقفه. والمشاركة الكوزموبوليتية تستعيد حقوقها في الفصل الذي اعطي له هــذا العنوان الحيي : « الموردون الرئيسيون للصناعة المصرية » . فان مصادرها ، وخاصة علاقاتهـا ، تعطي الدليل على مذهب في الاختيار لا يخلو من الامتاع . فهذا واحد يمثل في آن واحــد مؤسسات في الدانمرك ، وبلغاريا وفرنسا ، واميركا . ونجـد البسيكولوجيا الاجتماعية كذلك موضوعاً للدرس في فحص هذا الفن الخاص بالشعارات التجارية: وانا اعني بذلك هذا العرض الطريف للأسماء التجارية ، والشعارات والعناوين البرقية ، والتي تميل احياناً كثيرة للمديح وتعنى بالفأل الحسن : مثلاً عنوان السيد ا ... هو « الاعجاب كايرو Admiration Cairo او التي تشير الى الرحلة التي قامت بها المجموعة العرقية ، كما فعل تاجر جلود حين اختار الاسم: كويروس Cueros » ليوحي موطنه سالونيك ، وربما اسبانيا ، التي ربما تحدر منها اجداده الأبعدون ... (١٥)

---

١٥) « الكتاب السنوي الاتحاد المصري للصناعات » « والتجارة الخارجية في مصر » لعام ٥٥ – ١٩٥٤ . وقد حل الدكتور احمد رفعت محل المأسوف عليه صبحي وحيدة كسكرتير للمؤسسة .

وبالوسع التعليق طويلاً على هذه « الشعارات »* اما الاقتصادي ، فبامكانه ان يقيم جهود المنشأة ، ونجاحاتها او فشلها . اما الباحث البسيكولوجي فبوسعه ان يسعى لجمع تواريخ حياة اشخاص ، او لتصنيف مواقف . ولسوء الحظ ،نحن نصل ، هنا ، الى ضرورة التحريات والاستقصاءات التي يلزم اجراؤها للنفاذ الى التفاصيل الشخصية . صعوبة اضافية تقف في طريق الباحث الاجنبي الذي يقتضيه ألا يتخطى حدوداً معينة من التستر . والطريقة الوحيدة التي يمكن ادراكها هي طريقة الاستجواب ، على ما فيها من حظوظ متفاوتة بالنجاح . ولكن ذلك لا يمنعها من ابراز تنوعات اكيدة ، وكذلك تباعداً في المستويات . فان معرض التجارب اللبنانية الذي خرجت منه ، في أعلى ، ببعض الوجوه ، يشهد خاصة على محاولات وكفاءات فردية ؛كان الحافز لها استهلاك ، تحدوه طاقات بالغة التوتر . وبالطبع ،لا تزال (الرواسب والملامح) القديمة تغلب (في المجتمعات الاخرى)، خارج لبنان . ففي بغداد مثلاً، لا يبدو ان النمط قد تحرر بصورة واضحة . ولربما كان صاحب المنشأة المحلي لم يباشر نشاطه إلا في الاعمال الصغيرة الخاصة بانشاء الطرق ، المرتبطة هي نفسها بعمليات اكبر لتنقل الناس والبضائع . وفي بعض الحالات الممتازة تلتفت الثروة العقارية نحو النشاط المصرفي ، وبصورة اكثر ندرة نحو الانتاج الصناعي . وهكذا فان عائلة الدامرجي التي تكاد تملك جميع حي الباب الشرقي ، في بغداد ، قد انطلقت في انشاء صناعة الدباغة .ومن الضروري وضع الدور الذي تلعبه بيوتات الاسياد والنبلاء ذوي الحساسية ،هنا كما في دمشق (آل العظم مثلاً) كملحق للدور الذي لا يزال بارزاً ، والذي يلعبه أبناء الأقليات . ولكن هذا الدور الاخير عرضة للتغيرات . وهو يتقلص بوضوح في مصر ، في السنوات الاخيرة . وقد بدأ شكل التعاطي الاقتصادي (او الترابط الحيوي) بين المشرف الاوربي والمساعد القبطي ، او المناقص الثانوي السوري ، يوغل شيئاً فشيئاً في مجال الماضي

وبالفعل ، ليس بالوسع فصل الشعور القومي ، والغريزة التي تدفع بالطبقات البورجوازية المحلية الى استعادة المواقع التي يحتلها رجل الاعمال الاجنبي عن هذه التطورات تميزاً هو تطور مؤسسة بنك مصر ، ذي التاريخ الطويل ، والجديد من حيث الفكرة والموارد وكذلك من حيث تطلعاته الجماهيرية .

كان طلعت حرب ، مؤسس هذه المنظمة محافظاً في اخلاقه بقدر ما كان مقداماً في اعماله . فقد سبق له ان أخذ موقفاً معادياً لدعوة قاسم امين الذي كان ينادي بتحرير المرأة من الحجاب . ويقولون انه لم يقبض ابداً فوائد عن امواله الموظفة . وبسبب عداوته لكل اشكال المقامرة ، اجبر احد المدراء البارزين في مؤسسته على بيع مجموعة خيوله للسباق . ورغم أنه كان حائزاً على شهادة الليسانس وجد مولع بالروايات الفرنسية ، فانه كذلك كان اديباً من الطراز التقليدي . وقد عاجله الموت بينما كان يعنى باعادة طبع مجموعة شعرية لصديقه حفني ناصف ، قدّم لها بقلمه . وقد كان شديد التعلق بمكتبته . فقد كان يجمع ، اذن الى صفته كرجل اعمال صفة « الاديب » * والباحث الاخلاقي المسلم . وقد كان تزمته يذكر بتشابكات اخرى بين الاقتصاد والفكر ، لم تكف الأقلام عن التعليق عليها : دور البروتستانية عند نشأة الرأسمالية الصناعية ودور المذهب التزمتي (le Puritanisme) الحنبلي عند مولد الولايات المتحدة الخ .. ومهما كان الامر ، فقد كان الانسان مسلحاً بتجربة راسخة من ادارة الاعمال ، اكتسبت خاصة في كوم أمبو وفي شركة مصر التعاونية . ومنذ عام ١٩١٠ ، هو يفكر بتأسيس مصرف . وقد كان لزاماً على افكاره التي عبر عنها في كتابه « علاج مصر الاقتصادي »* ان تتغلب على جميع الشكوك قبل ان يصل في ٢٧ مايو عام ١٩٢٠ ، الى انشاء المؤسسة . وقد اشترطت هذه المؤسسة اصدار اسهم شخصية (اي ممهورة باسم حاملها) بصورة تسمح بابقاء المؤسسة بأيدي المصريين . وقد استعملت اللغة العربية في كل معاملات

المؤسسة . اذ أن كل ثورة يجب أن ترفق أيضاً بثورة في اللغة المستعملة . وفي الأصل ، هو يعتزم تشجيع مشاريع تتصل بالاقتصاد ، والمشاركة في شركات صناعية ومالية ، وتأسيس غرف تجارية ، ونقابات مهنية وتوسيع روح الاقدام على الأعمال ، والتضامن والتنظيم عند الشبيبة وارساء أسس سليمة للتثقيف الاقتصادي في البلاد .

وهكذا ينمو عنقود ضخم من المنشئات يزيد عددها اليوم على العشرين . ويتضمن منطق هذا النمو عبرة . فهذه المؤسسات تبدأ بالرأس . ففي البدء ، أسست مطبعة وفي صورة أخذت يوم التدشين ، يظهر طلعت حرب محاطاً بالشيخين « التفتازاني » « والنجار » (عام ١٩٢٢) . وهذه الاحاطة تحمل مغزى خاصاً . ففي بداية هذه المشاريع ، نحن لا نجد إذن جو مناجم الفحم ولا اكتشاف « البغلة الجنية » : وانما التأكيد الثقافي . فقد بُدىء بالرمز ، بالاشارة . أما ما نسميه الواقع المادي فأنه لن يأتي الا لاحقاً . ولكن لنلاحظ أيضاً أن ذلك كان يعني البدء بأقل ما يمكن من الاخطار ، والتأكد من التصريف السهل بعد التمهيد له بعملية الاقناع . وتحاشي المنافسة الاجنبية وفي عام ١٩٢٥ تولد الشركة المصرية للمسرح والسينما : التي دلت على قدرة فائقة على التنبؤ بالقوى الاجتماعية ـ البناءة رغم كل شيء ـ التي عملت هذه الانشاءات الفوقية على ابتعاثها واكتشافها في طول العالم العربي وعرضه .

وبالطبع ، تعني قرابة الثلث من المؤسسات التابعة لبنك مصر بشؤون النسيج ، من قريب أو من بعيد . فلم يكن بالامكان ان يكون الامر على غير ذلك ففي هذه العملية الوقحة التي كانت تقوم بها مصانع لانكاشير لتملك الأرض ، والفلاح وأخيراً الدولة المصرية ، كان هناك ما يحفز على القيام بعملية أخذ الثأر ،

أو على الاقل ، على روح المنافسة . ولهذا السبب نرى ظهور شركات مصر لغزل القطن والنسيج ، لحلج القطن ، ولاستخراج الزيت من بزرة القطن ، ولنسج الحرير ، ولتصدير القطن ، ولصناعة الغزل والنسيج من القطن . أخيراً تأسست عام ١٩٤٦ شركة لصنع الحرير الاصطناعي . وهكذا ، اذن ، يصل عدد الشركات التي تهتم بالمنسوجات الى حد السبعة . وأخريات جد متنوعة : مثلاً شركات للملاحة النهرية ، وللتأمين (وهنا تظهر من جديد فكرة المخاطرة ، قلب النمو الرأسمالي الحديث) ، وشركات لصنع الادوية والمستحضرات الطبية ، ولانتاج الاسمنت المسلح ، ولتسويق الزيوت ، الخ ... أعمال ضخمة ، لم تسرْ دائماً ، كلها على ما يرام والتي ربما اصابتها أحياناً الموجة الخلقية التي يحاربها القانون المصري الأخير . ولكن المؤسسة الاحتكارية تنهض من كبوتها وتنعم ، ابتداء من ١٩٣٠ ، بحيويه أكثر اقداماً على الاعمال ، بفضل الزخم الذي يبثه فيها حافظ عفيفي ، وخاصة هي تفيد ، منذ الحرب الاخيرة مثلما تفيد المؤسسات الاخرى ، من دفق الاموال المنهمرة التى كان ينثرها تموين الجيوش الحليفة فوق جميع تلك المنطقة الجغرافية ، من مراكش الى العراق ، والتي سوف تستخدم خاصة في مساندة زعامة البورجوازيات المحلية في معركة الاستقلال . واليوم تستطيع ادارة محمد رشدي أن تفخر برأسمال لبنك مصر يقدر بمليوني جنيه مصري (عام ١٩٥٥) وباحتياطي وصل في السنة نفسها الى ٥,٧٩٨,٢٨٣ جنيه مصر ، وبأرباح صافية تتجاوز ٧٥٠ مليوناً .

وفي المعرض الصناعي الاخير الذي أقيم في الجزيرة [١٧] كانت المؤسسة تحتل

---

١٧) انظر « المجلة الاقتصادية السياسية » يناير عام ١٩٥٩ ص ٣١ . ومنذ كتابة هذه السطور ، اممت الدولة بنك مصر .

القسم الاكبر من القطاع المخصص للمبادرة الخاصة ، في الجناح المركزي .وكانت المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية تؤكد بلوغها مستوى من الجودة يتيح لها المنافسة على الصعيد الدولي . انها لنهاية مطاف جميلة لهذا الرفيق القديم لطريق التحرر المصري . ولكن اذا كانت تجربة مؤسسة مصر ، تنادي ، عن حق بكونها أقدم تجربة في هذا المجال ، فانها لم تعد الوحيدة في الشرق . ففي مصر نفسها تستحق وجوه أخرى أن تسترعي الانتباه . وبامكاننا ان نذكر رائداً في صناعه التعدين هو هنري رباح ، وأناساً مثل فرنسوا تاجر ، شبيه مصري لبوساك ، والسباعي والشوربجي الخ ... ويلزم خاصة استخراج العبرة من حياة مثل حياة المهندس عبود .

فهذا الاخير قد بدأ في فلسطين . وفي عام ١٩٣٠ ، هو يبدي الاهتمام بالصناعات التي تدخل في مجموعة أسوان مثلاً الاسمدة والسكر . ثم بكورنيش الاسكندرية الشهير ، الذي تحدثت عنه الصحافة فيما بعد ، أحاديث جمة ، ثم بقصبة كوم أمبو ، وبأوتوبيسات القاهرة ، واخيراً بكل أنواع المشاريع التي لا تزال قائمة في العهد الحاضر بحظوظ متفاوتة من النجاح .

والنظام الحالي ، كما هو معلوم ، لم يبد أي عطف على راسماليين كبار آخرين ، مرتبطين قليلاً او كثيراً بالاتجاه الوفدي من امثال محمود عبد الفتاح . وفي الحقيقة ، يتمثل صاحب الاقدام الانشائي في الوقت الحاضر ، بالموظف البيروقراطي النشيط ، مثل المهندس محمود يونس ، المدير الحاذق للمنظمة التي خلفت شركة السويس [١٨] . أو بروُلاء الماليين ، ومنهم من ينتمي

---

١٨) انظر كذلك : « قناة السويس ، تحت الإدارة المصرية » نيسان رايار ١٩٥٩ .

الى طراز رفيع ، مثل اولئك الذين جهدوا ، بواقعيتهم وتهذيبهم ، في جنيف والقاهرة لترقيع الأمور بعد عام ١٩٥٦ ، وقد عرفت مصر كيف تقدم ، في هذا المجال ، اناساً يتمتعون بكفاءات عالية ، على صعيد المقارنة الدولية .

ولكن ، في هذه الجولة التي قمنا بها على غير هدى ، والتي قادتنا من بلد بلد الى آخر ، وفقاً للصدف وحاجات دراسة نمطية تنوي عدم التقيد بأية حدود بين بلدان المنطقة ، ها نحن قد اضطرينا للوقوع على نوع من النسخة الثانية لنمط هؤلاء المديرين الرسميين في شخص أميل البستاني ، المدير الدائم الانشراح لمؤسسة الكات، والبستاني ماروني من الجبل قد اعتنق البروتستانتية، وهو ذو ثقافة انجليزية . وهذا يشكل تراكماً رهيباً من الامكانيات ... وهو قد انتهى ، من زمن قريب ، من اصدار كتابه « شكوك وديناميت »[١٩] وهو عبارة عن تحليل للشرق بقلم رجل متشبع بالروح الغربية ولكن تصل مشاريعه لان تقدم لهؤلاء ولأولئك حلولاً تأليفية قائمة على التسوية ، معتمداً على التوفيق بين عامل مظهره وثقافته وميله ، وعامل الضرورات المحلية ، ــ وهو يدركهما بمهارة .

والحل التأليفي الذي يقترحه لم يبدُ عليه أنه لاقى النجاح في المؤتمر العربي الأخير لشؤون البترول الذي كان غائباً عنه أحد كبار الملاكين ، عنيتُ العراق. ومشاعر العرب ، في هذه المرة ، كانت متجهة عكس انتهاز الفرص العملية :

---

١٩) اميل البستاني : « شكوك وديناميت »، الشرق الاوسط في الوقت الحاضر لندن ١٩٥٨ .

فكانت عودة مشروعة لجميع الفرص التي خدمتها تلك المشاعر . ومهما كان الأمر فان إميل البستاني ، بما يملك من مهارة وبشاشة تستخدمان في مفاوضات عسيرة لا أحب ان اصفها بأنهـا « ثلاثية الزوايا » وانمـــا متعددة الزوايا ، ان اميل البستاني يمثل في هـــذا الشرق الذي تشده جاذبية انظمة هيمنة الدولة ، الحالة القصوى من المهارة ، من النوع الليبرالي (او من العهد الليبرالي) .

الفصل السابع

اسامة في العصر الحديث

في نهاية تموز ١٩٥٨ دشن وزير الصناعة المصري صناعات جديدة : لمعالجة الرمل الاسود ، في الاسكندرية ، ولحفظ المأكولات في مواضع أخرى . وأخيراً مصنع الحديد والصلب : وأعني الكومبينة الشهيرة التي أسستها شركة «ديماج» Demag في حلوان . وبالاضافة الى ذلك محطة لتوليد الكهرباء في جنوب القاهرة ، ومصنع لشاحنات السكك الحديدية في حلوان ، ومصنع البطاريات الكهربائية ، وآخر لصنع الادوية [1] . وبعد سنة من ذلك ، يعلن عن خروج السيارة « رمسيس » من المصنع . وقد أصبحت الصفحة الثالثة من الصحف مكرسة لمظاهر النشاط الصناعي وبحكم الصدف ، يمكننا أن نصيد ، ذات يوم من الآيام ، آلاف الوقائع الصغيرة التي تكشف عن ألوان الكفاح والانتصارات بقدر ما تكشف عن الصعوبات المعترضة : قرض بخمسة ملايين ونصف من الجنيهات المصرية قد منح لشراء أدوية من الخارج . وبالفعل ، فان

---

١) انظر صحيفة « البورصة المصرية » في ٢٣ يوليو ١٩٥٨

٢) السيارة « رمسيس » قد دشنت في يوليو ١٩٥٩

المؤسسة الوطنية التي تحتكر هذا الشراء ملزمة في ان تاخذ بعين الاعتبار ، في هذا المجال ، اذواق جمهور معين من الزبائن . « لقد اخذ بعين الاعتبار نـــوع الادوية التي يجب ان تصنع محلياً ، انما سيصار الى استيراد كميات صغـيرة من منتجات مماثلة لتلك التي سوف تصنَع محلياً ،هكذا تعترف الصحيفة والمقاومة التي تبديها فئة معينة من المستهلكين تلوح خلف هذه السطور . إن قرضاً بمليون ونصف يعطي لتشييد مساكن للعمال : عمليـة تكمل في حي « الدقي » وفي احياء اخرى ، مع وجوه متفاوتة من النجاح على الصعيد الجمالي والاجتماعي ، ولكن حسن النية يتحلى بصورة ساطعة .وها هم الخبراء السوفياتيون يظهرون، قادمين للاهتمام بالزنك والفحم : فكانوا فزاعة مخيفة للغرب ــ وتشجيعاً ــ محدوداً جداً ــ للاشتراكية المحلية . وكما لو كان الامر صدفة ، تعلن الصحيفة في مكان يبعد بضعة سطور الى الأسفل ،عن وصول بضائـــع انجليزية الى الاسكندرية ، وعن مبــادلات مع اسوج ، أو أيضاً ، تحت أبواب أخرى : عن انشاء كومبينات انتاجية في سوريا ، وفي سيناء ، وعن صناعـــة مقبلة ، تحويلية، منبئة بصنع ثوب ــ نموذج للطلبة ؛ وهم الزبائن الجاهزون (لاستهلاك مثل هذه البضاعة)[٣]

وبالحقيقة ، كم هناك من أشياء يمكن العثور عليها في صحيفة ... فتحت أقنعة البراءة المزيفة التي يتقنع بها النبأ اليومي ، تطل في وقت واحـد حركة التجميع المركزي للسلطة،والرغبة في الامساك بالاقتصاد من جميـع الأطراف ، في آن واحد ، ومقاومة الواقع والحقائق .

ولم يكن لقضية السويس وقوانين التمصير من أثر ، في هـــذا الميدان الا

---

٣) صحيفة البورصة المصرية ١٣ يوليو ١٩٥٨ .

٤) فيما يتعلق بهذه النبذة التاريخية، راجع خاصة بعد الثورة و«مشروع السنوات الخمس » القاهرة .

بالتعجيل في حركة الاستعادة الوطنية التي بدأت في مصر منذ عهد طويـل . ولكنه ، على كل حال ، تسارع ، وخاصة منهجـة . فينشأ مجلسان كبيران : يشمل واحدهما « الانتاج » * والآخر « الخدمات » * أو التجهيز الاجتماعي .

ومنذ حوادث ١٩٥٦ ، تضطلـع « المؤسسة » * بالشؤون المؤممة ويمارس مجلس « التخطيط » * النوع ذاتـه من الصلاحيات . وليس في نيتي دراسة التناسق المتبادل أو السلطة العائدة لكل من الاجهزة المختلفة ، فاتجاهها المشترك ذو الطابع الموجـــه هو وحده الذي يلفت نظرنا . وهكذا فان «المؤسسة» المرتبطة رأساً برئاسة الجمهورية ، يقع في واجباتها أن تنمي الاقتصاد بعمليات صناعية ، وزراعية ، ومالية ، وحتى تجارية . وأن تقوم ، من جانب آخر ، بالمراقبة المباشرة على المؤسسات الخاصة ومن هنا كان تأليف شركات تجاريـــة ومالية وصناعية تتصف بمساهمة كبيرة بالأموال من قبل الدولة . وقـد نص في المادة السادسة ، على أن الموسسة تستطيـــع ان تشكل مباشرة ، آخرون . وأعضاء مكتب التسيير يجب ان يكونوا مصريين بالولادة ، وان لا تكون لهـم مصالح في الشركات التي يتعامل معها المكتب : وهو تدبير ذو مرمى اشتراكي مهم لأنه يهدف الى تبديل في أرباب السلطة .

دراسة نقدية لنظام الاقتصاد الموجه في الشرق

وبالفعل ، فان هذا المفرد « المؤسسة » * الـذي أنقله الى الفرنسيـة بعبـارة « Institution » والذي ينقـله الجمهور ذو اللسان الفرنسي بعبارة « Organisme économique » أليس هو ، في الحالة الراهنة التي تستوقفنا ، المعادل للمنشأة « Entreprise » ! لقد سبق لي ان اجبت بالنفى على هـــذا السؤال . ولكن يمكن القول ان مصر ، حيث يذهب هذا التوجيه بعيداً جداً تجد في مبادرة الدولة نموذجها الفريد للمنشأة . وهذا النموذج ، يبـدو ؛

لاول وهلة ، ملحقاً « للأعمال الكبرى » التي تقوم في الجو الليبرالي مثل تلك التي نجدها في بيروت مثلاً . ولكن لنحذر من المقارنات المبسطة (الهادفـــة لاكتشاف التضادات) فكل وجوه السلوك العربية ، حتى تلك التي تتنافس من حيث المبادىء والاهداف ، تترابط بينهــا بالقربي ، ومن هنا عمليات تخاصم وتداخل تحير أحياناً كثيرة المراقب الاجنبي ، صحيح ان الحدث يأتي سنداً للتعويضات وأن الوضع السياسي يبسط الأشياء . « فـالمؤسسة » * المصريـة تأتي بصفة وريثةٍ وعاملِ تصفيةٍ . من وجوه كثيرة ، للأعمال الفرنسيـة الانجليزية ، وأشهرها شركة القنال . وهي تنصب نفسها ، على نمـط الشركة الدولية ، المنشأة النموذجيـة . وهذه المقولة المعاكسة (انتيتيز) سوف تسير أحكامها . ففي الشرق اليوم يقف نوعان من الدينامية الاقتصادية متعارضين، على مستوى الكتل الاحتكارية الكبرى : من جهة الشركات الأجنبية الكبرى ومن جهـة أخرى ادارات التسيير المنبثقة عن الدولة . « فالمؤسسة » * ليست امتداداً لمبـادرات أناس من أمثال اميل البستاني أو المهندس عبود . وانما لأمثال شركة قناة السويس السابقة، وشركة مرفـأ بيروت ، وشركات التابلين والارامكو والاي بي سي . ويتأكد التناقض حتى في التفاصيل ، فالارامكو والاي بي سي الخ ... بتقدمها الفني ، والمخططات الستراتيجية التي تحضن الكرة الأرضية بمجموعها ، والشهية الاحتكارية ، تمثل الشكل الأقصى للنظام الرأسمالي التوسعي القديم ،والذي يحمل في الواقع من الطابع «الكولونيالي» أكثر مما تحمل الأشياء التي تدمغها اليوم كلمـــة « استعمار » وبالمقابل ، يبغي النظام العربي القائم على هيمنة الدولة أن يبدو نوعاً من المقاومـة ومن استعادة الحقوق . وهو ، إذ تثقله الظروف المحلية ، وعدم التجربة ، وعـدم الاستقرار المالي ، يبحث عن قوتـــه في التجاوبات الشعبية التي تثير انفعالات الارادة العميقة والتي كانت ، حتى الآن خرساء في هذه البلدان . ومن هنا كانت

غرابة الكثير من مبادراتها ، وكانت الحماسة التي تثيرهـا الفوارق في أساليب العمل ، مظاهر تقف على النقيض من مظـــاهر أخرى تتجلى في شعوب أخرى وتنحدر من أنظمة أخرى ، رغم وجـوه الشبه التي أغدقت بسخاء وبكثير من التساهل . اذ ان رؤية الفوارق الأساسية بين تأميم قناة السويس وتأميم مصانع رينو ، وبـــين مشاريـع المؤسسة وعمليات التخطيط السوفياتية (٤) ، لا تعني في اعتقادنا ، تضخيم جانب الاختصاص في الاقتراب للدراسة ، أو جانب الفوارق الخاصة بالبيئة .

وهذه الامور هي من الحقيقة بحيث ان التحليل لا يستطيـع ان يفصل هذه التجارب الشرقية عن التأييد الاجماعي الصاخب الذي يساند القائـــد أو « الزعيم » * فهو في الواقع ، الذي يلعب ، في هذه المجتمعات ، على الاقل جزئياً ، وفي جوانب معينـة من شخصيته ، الدور الذي يقع ، في مواضع أخرى ، من نصيب المجدد الاقتصادي . وهو يتصل بقوة الاستمرار الاسلامية ، أو على وجـه أعم ، الشرقية ، التي وقع حماتها الفريسيون ، المتظـاهرون بالتقوى والمنادون بالمحافظة على التقاليد ، في أوحال فضائح العهد الاستعماري . فبوسعه إذن ، طالما ان الاجماع يرفعه عالياً ، أن يحرك الرعشات والاصداء المتساوقة العميقة ، ان الكلمة في شفتيه ، تبعث ، موقتاً «اجماع الامة » ● وعلى هذا ، بوسعنا أن نفهم لماذا تبدو السلطة التي يجسد ، والنظام الذي يفرض ، والرفـــاق الذين يفوض ، كما لو كانوا وحدهم القادرين على مواجهة مهام ادخال التيار الحديث.

---

٤) محمود محمد ابراهيم . في محاضرته حول مشاريع التخطيط المصرية والهندية بدا في التأكيد على ان كل عمل تخطيطي مصري يلزمه ان يصدر عن ينابيع قومية ، وان عليه الا يقدم غير منهج مستقى من الواقع الايجابي لحاجاتنا « من واقع احتياجاتنا ● ومن «الظروف» الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تحيط بنا » « رسائل مجلس التخطيط المصري ، رقم ٦ ص ١ » .

ولا يسمه ، وهو على هـــذه الدرب ، إلا أن يحل محل رجل الاعمال وأن يسيطر على المهندس ، ليس فقط لان أسلحة هذين الفردين ، سواء أكانت رأسمالاً أم معرفة تقنية ، هي أبعد من أن تكون على القوة التي هي عليها عندنا ، ولكن خاصة لانه ينافسهما في وظيفتهما ، مؤمناً الغلبة عليهما .

وفي المدينة العربية القديمة كان التاجر ، الذي كان يؤمن التوازن تجاه رجل الدين يشكل الطرف الآخر لعملية التوازن . والتبعية تجاه الاجنبي ؛ قد أحدثت في الوقت الحاضر ، التشويش في اللعبة . فالتاجر ورجل الدين ، كلاهما ، قد أحدثا التسوية مع التبعية ، حتى على صعيد المعارضة . فـــان مشاركتهما في النضال القومي البورجوازي الذي كان يميز فترة ما بين الحزبين حزب « الكتلة السورية » وحزب « الوفـــد » المصري مثلاً لم تستطع ان تنقذ طبقتهما ، ولم تحملها أكثر أهلية للاضطلاع بالمهـــام الجديدة . وسواء كانا متمتعين بخيرات النظام السابق ، او معارضين له ، فانهما يتحملان اليوم ، نتائج انهياره ، لانهما كانا اكثر الأحيان يعملان داخل هذا النظام الدولي . ففي العالم العربي الجديد هذا . الذي تقلد فجأة مسؤوليات الاستقلال . والذي لم يعـــد يحميه بعد الآن من المنافسة العالمية . أي عطف خاص من جانب دولي ، حتى لو كان هـــذا العطف نفعية أو تواطؤاً في هذا العالم ، أقول لم يعد التاجر او رجل القانون ، ولا العاهل هو الذي تتجه اليه الجماهير للاضطلاع بالاهلية للمقاومة أو التجديد وانما هي تلتفت « للزعيم » عامل الاستعادة ، أو على الاقل عامل إعادة النظر ، ومستقطب القوى في جهـــاز وطني تم في السابـــق التخلي عنه أو اضاعة تركيزه .

وهو ، اذ يستمد سلطته من زخم اندفاع شعبي نحو العدالة والعقل ، يعد باعادة الانسجام — الذي ظل مدة طويلة مطموساً — مع أخلاقية لم تستطع الفترة

الليبرالية في هذه البلدان ـــ والتي تشاء الصدف ان تطابق الفترة الاستعمارية ـــ ان تنسي هذه البلدان الحس الغريزي بها ، وبينما نرى ان المذهب الاصلاحي المرتكز على الشريعة ، والذي دفع به الاخوان المسلمون في طريق التطرف الذي لا يطاق ، قد فقد اعتباره بسلوكه الاتباعي التقليدي اكثر مما يسبب عنفه الذي لا يخلو من الدجل ، تقوم مبادرات الزعيم الاقتصادية باعادة التوفيق بين العالم الحديث والاخلاقية الاسلامية . في اطار من الظروف القائمة على الانجازات المحسوسة . وعلى هذا الصعيد ايضاً ، هو يؤكد ذاته اكثر اصالة من خصومه ومنافسيه . واكثر احتراماً للرموز القديمة .

اذ ان الشرق العربي حتى في تكيفاته الأكثر ذكاء مع العالم الصناعي يجد صعوبة في التخلي عن حذره تجاه فائدة الراسمال واخطار التعامل . وفي هذه الظاهرة ما يفسر التحفظ الذي لا يزال يبديه رجال الدولة فيه تجاه العمليات المالية . واذا هم اظهروا اشمئزازاً منفعياً من التضخيم المالي . فليس مرد ذلك فقط الى انهم من مستشاريهم من هم تلامذة قد حفظوا جيداً دروس اساتذة قويمين (اوثوذكس) ولكن خاصة الى انهم يتصرفون بصورة رد فعل ضد نظرة الصيرفي الذين يخشون . عزيزياً ، دهاءها السردابي .

وبعد ، فان الاخلاقية الاسلامية التي يستوحونها كانت ، بتحريمها التقليدي للربا وبرفضها اللعبة المالية ، تعبر مع كل فجاجة صعود الاكثرية التي كانت مبعدة ، حتى الآن ، عن ميل نحو علامات أخرى (غير الربا واللعبة المالية) ، عن ميل نحو العلامة اللفظية . وهذا الموقف لم تنفه الوقائع حتى يومنا هذا . صحيح أن العلامة اللفظية تدخل اليوم في تنافس مع العلامة « الحقيقية » ، فالكلمة والعددي مهددان بالقدر نفسه ، بانتصارات الشيء .

ولكن هذه الانتصارات تستطيع ان ترضي نزعة اسلامية أخرى نحو الاختيار . فان الاتجاه القديم ، في هذه المجتمعات، نحو المباشر والمحسوس يتضافر ويتساند مع الاندفاع نحو المتاع الصناعي ، والاسلام بوسعه أن ينجح في تحقيق عمليات مساوقة (وتوفيق) جديدة ، بفضل عمليات تحويل يجريهـــا مواجهة . فمن هذه الزوايا التي شققناها للنظر أيضاً ، يتفوق « الزعيم » * على رجل الأعمال ، ويعدُ بأكثر وبأفضل في نظر مواطنيه .

وفضلاً عن ذلك ، فـــان التاجر الشرقي ، قد برع أكثر الاحيان ، وحتى هـــذا اليوم ، بالنعومة والنفاذ ، في المضاربات التي يقوم بها أكثر مما يتميز بالاستقامة والدقـة والجرأة في المخاطرة . ومن هنا كانت نزعته نحو المساومـة ، وتردده في توظيف ماله ، وأناقته وطيبته الظاهرة (في علاقاتـــه الانسانية) وبعض التقلب (٧) .وعلى العكس تماماً ، في الحركة الشرقية الجديـــدة العاملة على التشديـــد في المركزية ، يستطيـــع البعض ان يحيوا صعود الروح الحديثـة ، والآخـرون العـودة الى التقاليـد . اما الطبقـــة البيروقراطية (طبقة الموظفين) ، والتي تظل اكثر الاحيان مبهمـــة السلوك ، ومعلقة بارادة الزعيم في اصغر التدابير التي يلزمها ان تأخذها ، فانها تقوم ،حتى باخطائها ، بعملية البناء وبتطمين الضحـايا . وهي تحيط نفسها بملاك متراتب في نظام هرمي يشبه النظام ذاته الذي كان يميز السلطات الشرعية ، او الروحيـة . والتساهل يشمل نواقص هذه الطبقة اكثر مما يشمل الفوضى المتطرفة لدى رجال

---

٧) انظر دالتون بولتر Dalton Polter في « تـــاجر السوق » المنشور في كتاب « القوى الاجتماعية في الشرق الاوسط » طبعة ثانية ص ٩٩ وما يلي .

الاعمال . او بالاحرى هي تنعت نفسها ، في حسناتها وسيئاتها ، على نقيض حسنات وسيئات رجل الاعمال . فهي وطنية فيما يكون ، هو ، تابعاً ، في قليل او كثير ، للاجنبي . وهي منتظمة في مسلكها ، فيما ، هو ، يداور . وهي فظة ، فيما هو يتسلل بنعومة . ولننظر من قرب اكثر . انها تفيد من انقلاب الفترة الاستعمارية ، التي كان يعمل فيها منشئوا الاعمال امثال ويلكوكس Wilcocks [٨] وبول بورد Paul Bourde ، « وبناة الجسور » وغارسي الاشجار اكثر مما كان يفيد أي مستوطن يقوم بمعالجة المواد الاولية او بالعمل الصناعي . ولقد كان اولئك المنشئون يمارسون في الوقت ذاته ، عملية ادخال اساليب جديدة في الحياة حريصة على تجاوز الجوانب المقصورة على جمع الارباح ، وعملية سيطرة كانت تطمح ايضاً الى الاقناع . واذا كان الامر كذلك ، فان المبادرة الاقتصادية تستمد ، في الحاضر ، قيمتها وصحتها في هذه البقعة من العالم ، من حركة التجديد ذاتها ، ولكنها تجري هذه المرة بكفالة مجهود يتجه نحو نزع السيطرة ، فيما يضع الشعور القومي لها أبعاداً تزيد في تضخيمها [٩] .

ولئن حدث ان توافقت هذه الصحة في المبادرة الاقتصادية الصائبة مع ظاهرة استمرار في نظام هيمنة السلطة ، الراسخ الجذور على ضفاف النيل ، فانها لا تجند الاجماع فحسب تبعاً لذلك ، فهذا قليل ، ولكنها تكسب الفعالية . وعملية

---

٨) الذي اظهرت الصحافة الوطنية المصرية نحوه روحاً عالية من الانصاف . وسكوت مونكريف Scott - Moncrieff ، وهو احد العاملين في شؤون الري ، هو على حد علمي ، الانجليزي الوحيد الذي ترك اسمه على احد شوارع القاهرة .

٩) يؤكد بحث قيم لتيري بروثرو E. Terry Prothro وليفون مليكيان Levon Meliklan في مجلة Public Opinion Quarterly الجزء ١٧ ، العدد ٣ ، مستنداً الى اختبارات اجريت في الجامعة الاميركية ببيروت ، صحة المقياس .F المدعو « المقياس الكاليفورني » . « ولكنه لا يظهر نسبة ايجابية بين نظام الحكم الفردي والاتجاه المحافظ في السياسة والاقتصاد » وردت بالانجليزية في النص الاصلي. فليس « الاسلوب » وحده ، هو الثوري ، وانما الوظيفة التي هي نوع من « التجديد » ، بمفهومه الكلاسيكي .

الارتقاء والتسامي غير المنتظرة التي حققها المرشدون المصريون في قناة السويس، بعد ١٩٥٦ ، تؤكد ، بصورة موازية ، العلاقة الحميمة بين كل هذه الظاهرات ، واثر الدينامية الجماعية على ميدان كان المخطط النظري الليبوالي يحسبه وقفاً على التجربة والتخصص . ولكن علينا ألا نذهب بعيداً في مثل هذه المراهنات . اذ ان التعليق على النجاح او الفشل ، بعد حدوثهما ، هو اسهل من التنبؤ بهما علمياً . ولكن من الذي يجرؤ على اهمال ما يمكن ان ينجم عن هذا « الدرس » ؟

زخم النشاط المصري لقد سبق لي ان فحصت بعض جوانب تاريخية من حركة التصنيع في مصر ، من زاوية المنشأة . وعندما ينظر اليها من زاوية مجهودات الدولة ، نرى انها ترجع الى يوم أمنت الدولة ، بتقديم عقاراتها ، الاعتمادات التي منحتها مؤسسة بنك مصر ، في عام ١٩٢٣ . [١٠] وفي عام ١٩٤٧ ، كان انشاء البنك الصناعي . وتعطي ثورة ١٩٥٢ اندفاعاً متسارعاً لهذه النشاطات . ومنذ عام ١٩٥٦ ، هم يتحدثون عن التخطيط . وتقوي هذه السياسة ، وعن صواب ، جانب الدرس . فترتسم لوحة اجمالية تكاد تكون اوتوماتيكية لقيادة جميع المجهودات . وهذه المجهودات كان عليها ان تنظم نفسها رهناً بتنمية ذات عدة شعب : الصناعات ، المناجم ، النفط ، وفي الوقت ذاته ، الانتاجية والتثقيف المهني . او يلزم ان يدرس كل مشروع من عشر زوايا ، لا اكثر ولا أقل . مثلاً : الانعكاسات المرتقبة للمشروع على الدخل القومي ، وحاجات التمويل ، والحاجات الى العملات الاجنبية ، الربح المنتظر ، وامكانيات تأليف رأسمال في المستقبل ، والتأثيرات على الانتاج ، وعلى الاستهلاك ، واخيراً الانعكاسات الستراتيجية ، وهذا الجانب يترك للأخير ، ولكنه ، من بعض الوجوه ، قد يتحكم ببقية الجوانب ، وأخذاً بعين الاعتبار للنظرة المرتكزة على الاكتفاء

---

١٠) النشرة الاقتصادية . عام ١٩٤٨ المجلد الثالث . ص ١٣٣

الذاتي .

ورغم كل هذا ، فليست هنـــاك رغبة في تثبيط عزائم الراسمال الخاص ، فالاموال العامــــة تكتفي بان تدل على الطريق . انها هي التي تبدأ بتشكيل الرأسمال الموظف . ويفترض ان تستطيع الرساميل الخاصة توسيع مجالهـــا في التوظيف ، في خلال خمس سنوات [11] . وهكـــذا ففي سنة ١٩٦٠ ، يرتفع الرأسمال الخاص الموظف ، في المصانع (التي انشئت) الى قرابة الخمسين مليوناً من الجنيهات ،والرأسمال العام يبلغ فقط ثلاثة وعشرين مليوناً.وذلك يعود ايضاً الى ان المصانع التحويلية تهم بصورة اكثر مباشرة الرأسمال الخاص .وفي قطاعات اخرى ، تنقلب النسبة . وبصورة متوازية تصدر كل انواع التدابير التي تكرس سلطات تحكم الدولة بالاقتصاد وتقويها : ويرى بنك الاصـــدار نفسه مسلحاً بصلاحيات تعطيه حصة الاسد [12] ، ومنهـا حق مراقبة عمليات التسليف ، والاشراف على البنوك الاخرى ،فهو يستطيـع ،مثلاً ،ان يفرض على هذه البنوك ان تودع في خزائنه اموالاً بنسبة يستطيع ان يحددها هو ذاته . وهو كذلك الذي يحدد نسب الاموال النقدية التي يتحتم على هـــذه البنوك الاحتفاظ بها ، وهو يستطيـع حتى انشاء اقسام تجارية ذات قدرة مباشرة على المنافسة . وفي مقـــالة ليست بالبعيدة يحتج الدكتور سعيد [13] على هذا التدبير الاخير ، الذي يبدو ، في نظره ، تدخلاً اكثر من اللازم (في الميدان التجاري) . وفي الاتجـــاه ذاته يذهب قانون الشركات المساهمة المعد لطبع تسيير هـــذه المؤسسات بالطابع الديموقراطي . (اي بتفتيت ملكية الاسهم بتوزيعها بين عدد اكبر من المساهمين ـ المترجم) . وامثال هـــذه التدابير ، المرفقة بحملة تمصير الوظائف في المنشآت

---

١١) « الصناعة بعد الثورة » ص ١٠٤ وما يلي .

١٢) القانون المصري رقم ١٦٣ ، من عام ١٩٥٧

١٣) « مصر المعاصرة » العدد ٢٩٢ – ١٩٥٨

الخاصة ، تهدف الى تقليص الدور الذي يعتبر اكبر مما يجب ، والذي كان يلعبه، في الاقتصاد المصري شخصان متوازيان : : الوجيه (او ابن الذوات المصري) والأجنبي ، البيك والخواجه ، الوجهان التقليديان اللذان لا يخلوان من الطرافة في هذا الاطار الخاص . وهي تتجه ، بشكل ملحوظ ، الى اعادة توزيع الدخل والوظيفة والى بعث بورجوازية متوسطة وصغيرة يشكل الجيش رأس الحربة فيها ، ان صح التشبيه ، وذلك بتوسيع المشاركة من قبل اصحاب الرساميل المدخرة الصغيرة ، وباحداث تعدد في المراكز البيروقراطية في زمن قد يطول وقد يقصر .

ومما لا شك فيه، ان مثل هذه التطلعات لا تستطيع ان توضع موضع التنفيذ دون حداث هزات ، ولا دون ارتكاب اخطاء ،بعضها يدعو كثيراً للأسف . وهي ، بالتأكيد ، عرضة لنقد خصوم النظام الموجه ، وضحاياه . ولكن الانتقادات التي تبرز قضية فعالية (هذه التدابير) تبدو اكثرها خطورة . فهي تشير ، مستندة الى الوقائع احياناً واحياناً بصورة مجردة ، الى الارتجال وعدم التناسق . فيقال ، مثلاً ، ان فرناً ينفجر لان الفحم لم يصل في الوقت المناسب ، وان احد الالمان الذي قدم عرضاً في احد العطاءات (الالتزامات) لم يستطع ان يدرك الاعتراضات ، الدالة على « تخلف » ظاهر ، التي واجهوا بها عرضه لاقامة مصنع لعجين الورق : فكاد يجن ، وأخذ يهيم على وجهه ، في شارع سليمان باشا ، يخاطب نفسه كمن به مس ، على كل حال ، فان حرارة القيظ كان من شأنها ان تعين على احداث هذا الاضطراب . وفي موضع آخر ، يصار سراً الى بيع عتاد باهظ الثمن . وهناك ايضاً فشل تجربة « مديرية التحرير » التي كانت ، على ما يبدو الوحيدة التي اذيع خبرها بصراحة . والى الصعوبات العامة التي تلاقيها عمليات التسيير من قبل الدولة ، تضاف الصعوبات التي تقيمها عدة من الاخطاء ووجوه العجز التي يمكن ان تعزى الى ماضٍ ثقيل ، الى « جاذبية التاريخ »

هذه ، التي كان يدل عليها صبحي وحيدة ؛ في كتاب بالغ النباهة . وهذه الجاذبية هي من الثقل بحيث لا يبقى امام الجهود المبذولة لرفعها الا ان تندحر ، حيناً ، او ان تتجاوز الحد المعقول ، حيناً آخر .

وقد رأينا ان توظيف الرساميل الخاصة قد بدا دائماً بالغ الوجل في هـــذه البلاد . وربما قد بقي على هذا الحال ، وقد ظل ، زمنــاً طويلاً ، يتخذ الشكل الاقطاعي ، ويتبع الاراضي التي كان يحتكرها الاسياد . وبعد الثورة ، وتطبيق الاصلاح الزراعي ، وهبوط اجارات الاملاك الزراعية تهاجر الرساميل الخاصة الى العقارات في المدن . فاضطرت الحكومة ، في سبيل إخراجها من مكمنها هذا ، الى اللجوء لتحديد الاجور ، ليس فقط فيما يتعلق بالابنية القديمة ولكن حتى فيما يختص بالعمارات الجديدة . وفي الوقت الحاضر ، يقوم الرأسمال الخاص ، الذي يشعر بانه مطارد ، بعمليـــات الاختباء (الاكتناز) ، او الاستيداع في البنوك ، او بالمضاربة في البورصة . وهو ، بهذه الاشكال ، يفيد ، على طريقتــه الخاصة ، من قفزة الاسعار التي حتمتها تدابير الحماية في سبيل الاكتفاء الذاتي . ولكن ذلك لا يسمح بالقول انه بدأ ، حقاً ، بمبادرة نابعة من ذاته ، في التوظيف البنّاء . وانا التجاوز الصعوبات التي تعود الى عدم الكفاية في تدريب الموظفين . فالطبقة البيروقراطية الصغيرة تظل اكثر الاحيان مغلولة اليدين او عديمة الكفاءة . وليس بالوسع ان تنتزع منها اكثر القرارات تواضعاً الا بكل صعوبة بالغـة . واكثر الاحيان يبلغ شلال اللامسؤولية ، الصاعد ، ان صح القول ، حداً من الجمود يجعل الموظف دائم الرجوع الى الرئيس او الى ممثليه العسكريين ، في كل قضية ، مهما كانت صغيرة . وفي كثير من الحالات ، يفرض القانون ذاته ، على الادارة ان ترجع الى مجلس الدولة (مجلس الشورى) ، في القضايا التي تثير مسألة مبدأ . وتتأخر المعاملات في انتظار رأي مجلس الشورى ، وهو هيأة بطيئة في عمليات وضعها وولادة قراراتها و كل منشأة ملزمة بالرجوع الى رأي ارفع المراجع ، قبل ان

تقرر زيادة الرواتب بمعدل ١٥ جنيهاً مصرياً . وبالرجوع اليها ايضاً ، كلما اقتضت الحاجة الاتصال باجنبي . وبعض مساوىء النظام البيروقراطي ، المشتركة في كل البلدان ، تتضاعف هنا باخطاء خاصة بالوسط ، وبالضيق الذي تحسه الطبقات التي ارتفعت حديثاً . فالمبادرة تخيف الموظفين . والعمل يبلبلهم . والدولة تبسط سيطرة تزداد ، يوماً عن يوم ، ايغالاً في العزلة . وكلما اقتضى الامر السفر للخارج ، يتحتم على طالب السفر ان يستجدي طويلاً ، وبصورة عقيمة ، تأشيرة للخروج .

وربما يكون الانقطاع عن الخارج اكثر ظاهرات هذا المجتمع حزاً في النفوس ، على الاقل بالنسبة لكبار البورجوازية ، ولكن ايضاً بالنسبة للمثقفين ، وهذا اخطر . طبعاً تبغي الدولة ، من احداث هذا الانقطاع توفير النقد النادر ، وتحاشي التخلي عن الذات ، وان لم يتناول غير الاخلاق والنفوس . وانها لرغبات جد مشروعة ! ولكن يكمن خلفها خطر الوقوع في عزلة (شبيهة بعزلة ابناء الجزُر) يعسر تصورها بل فهمها في العالم الحالي ، ولا يسع نزعات نظام الاكتفاء الذاتي الا ان تحمل اليها تشجيعاً اخطر من الفشل . والموقف تجاه الخبير الاجنبي يمثل ، مثلما دونت في مكان آخر ، على الاتجاهات الجديدة . فهذا الاجنبي المستورد ، يبدو عليهم انهم يريدون حصر عمله في تقديم لوازم مكتبية او تقنيات . وان تصل الامور التي يقدمها ، معقمة (بيضاء من غير سوء) . وان سياسة كاملة ، مستندة على التأشيرات ، والموافقات المسبقة ، واللجان التي تقف حجاباً منيعاً ، وعلى خطر الاستخدام والتدقيق في الترجمات ، ومراقبة المطبوعات تسعى الى غربلة كل ما يرد من الخارج ، سواء كان بضاعة او خدمات او افكاراً . انهم يريدون تجريد هذه المستوردات من كل ما يمكن ان تحمل من « شوائب » او من اوشاب . وهم ، بذلك ، يحسبون ان بامكانهم استخدام العلم الاجنبي ، او بالحري التقنية الاجنبية ، بعد ادخالها في جهاز التعقيم هذا ، وبعد عزلها عن

كل سياق اخلاقي او روحي . وموقف من هذا النوع لا بد ان يدعـو للقلق ، وان كان له ما يفسره . وفي نهاية المطاف ، هو سوف يؤدي الى عمليـة « محو الثقافة » (او نزع الثقافة) التي بدأ يخشاها الكثيرون من الجامعيين .

وبالأكيد ، هـذه اخطار ، وعمليات تجاوز ، او تقاعس تصححها احياناً كثيرة طيبة هذا الشعب الظريف ، والسخاء السمح اللذين يعرف كيف يستقبل بهما – وفي الطليعة مثقفوه قبل الآخرين – ما يحسه من صراحة واخلاص عنـد الغير ، حتى في النقد . والمقارنة بوسعها ان تطمئنه ، بهذا الصـدد . ففي فترة النمو ، ليس العجب في ان يخطىء المرء ، او ان يفشل احياناً . انما العجب ان ينجح بعض الاحيان . وقد سجل بعض المراقبين الجديين ، مثل اندره فيليب في بحث جد حديث ، تقدماً كبيراً في اعداد مشروع التنمية المصري الجديد بالنسبة لمشروع سنة ١٩٥٦ . اما المؤرخ الاجتماعي ، فهو لا يدع الانفعال يأخذ منـه امام الفشل او النقض . ولكنه يتمنى المزيد من الانتقاد ، والمزيد من المعلومات . وهو يسجل باهتمام تقدماً في المفهوم [١٤] الذي يعنيه – ويعني الجمهورية العربيـة المتحدة [١٤ مكررة] اكثر مما يعنيـه النجاح او الفشل المادي . ويعطي عالم اجتماعي مصري تعريفاً للقرن العشرين بقوله انه « عصر التخطيط » . وهـذا التخطيط يبدو ، في مفهومه الواسع نوعاً من « التصور الاجمالي » ، الاجتماعي والاقتصادي على السواء ، لما يراد ان يكون عليه المستقبل في فترة معينـة . فالى هذا التحسس الاجمالي تعود ، في نهاية المطاف امكانيات التعديل والتصحيح ، والحظوظ بالنجاح ، المتوفرة امام البلدان العربية . فمثل هذا التحسس يتيح لهذه البلدان فرصة التفاهم والمصالحة مع الوجود العالمي .

---

١٤ يسرني ان استشهد بمحاضرة الدكتور ابراهيـم حلمي عبد الرحمن في مؤتمر رودس (اوكتوبر ١٩٥٨) وعنوانها : « التوازن في النظرة الى التقـدم ، والتنظيم الاجتماعي ، والحرية في مجتمع متحول » . (العنوان بالانجليزية – المترجم)

١٤ مكررة) حامد عمار

جولة حول حركة التصنيع الشرقية

لقد سبق لي ان قلت ان الشيء الصناعي قد بدأ بغزو الشرق في صورة بضائع استهلاكية، ثم في صورة معدات. وفي مرحلة ثانية، اقبل الشرق على تلك الآلة: وهذه هي المرحلة التي تعبر عنها، اليوم، المعارض، وحركات الاستيراد والتكوين المنظم للمعدات، والذي تعلن عنه حملات دعاية ناشطة. ومرحلة ثالثة، هي مرحلة الانتاج الصناعي، بدأت تلوح في الأفق. ومن هنا كانت الاهمية التاريخية والبسيكولوجية والرمزية، على السواء التي ترتديها حركة التصنيع في الشرق. وأخذاً بعين الاعتبار ان ظروف البيئة هي ما هي عليه، فان الطريقة التي تتيح الحصول على الحد الأقصى من النجاح للجهود المبذولة هي في وضع مشاريع واسعة وفي القيام باعمال انشائية جبارة، فهذه المشاريع والاعمال، بمجرد كونها تصدر عن الدولة، على الاقل لجهة ضخامتها واتساعها، تقدم فائدة اضافية. وهي انها تسمح بتشغيل جماهير العمال التي يحررها تفتيت الطبقات الفلاحية وتعمل على تحويل مفاهيم قديمة للتراتب الاجتماعي لا تزال قائمة في النفوس، تحويلاً طبيعياً الى نظام اقتصادي قائم على تركز السلطات بيد الدولة.

ويتجه النظام نحو بناء اهرامه. او بالأحرى يشعر بالحاجة الملحة، المتحدرة اليه من اغوار الاجيال السحيقة، لأن يبني اهراماً، في إطار جديد تماماً. حاجة تفرضها، طبعاً، الضرورات الاقتصادية. ولكن هناك ضرورات ثقافية ومعنوية تكاد تكون على القدر نفسه من القوة. إذ ان محاولة من هذا النوع تشهد على زخم اندفاعي لا يفرط بحقوق البلاد ولا يأتي من الغير، كما كان يحدث في المحاولات الاستعمارية لاستثمار موارد البلد، ولكنه يصعد من اعماقها. وهذه المحاولة تغذي، في الوقت نفسه، هذا الزخم الاندفاعي. وهكذا يأتي، بصورة موازية، التفسير للعناية، المفرطة اكثر الاحيان في نظر الاقتصادي،

التي توجهها هذه البلدان لانواع الانتاج الاساسية ، وبصورة نموذجية خاصة ، لانتاج الصلب .

لقد كان يوجد في مصر ، صناعة صغيرة للحديد ، كانت تقوم بصورة تقليدية[١٥] وكانت تستخدم الحديد « الخردة »* الذي كانت تقوم باعادة صهره ، بنسبة ٣٠,٠٠٠ طن في العام تقريباً ، على اساس الحديد الصافي . وقد أتت الحرب بالكثير من الحديد الخردة الى القطر المصري : وقد كان هذا احد نعم الحرب . وكان وزن هذه النفايات المعدنية يقدر بمائتي الف طن . فكان ان ولدت فكرة تنظيم صناعة تعدينية . فارسلت بعثات الى اسوج والمانيا . وقد كان مصدر الهواجس أمر الوقود ، اذ ان البلد ينقصها الوقود المحلي ، على الاقل بصورة قابلة للاستثمار . هل بالامكان استخدام مواد بديلة ، كالزفت (او الحمّر) او سيقان قصب السكر ؟ كل ذلك يعطي نتائج غير مرضية . فينتهي الامر بضربة جريئة . لقد وُجه الى الشركة الالمانية « ديماج » طلب باجراء الدراسة . وتمشياً مع نصائح هذه الشركة ، يجري وضع الخطوط لتصاميم الشركة المصرية للحديد والصلب العاملة في حلوان ، والتي بدأت العمل عام ١٩٥٨ . وقد كان من شأن صناعة تعدينية من هذا النوع ، يقتضيها الاتيان بكل شيء من الخارج ، تقريباً ، انها وجهت تحدياً للبيئة . فالصعوبات ضخمة ، ولكن القيمة المعنوية ضخمة ايضاً ! .

---

١٥) نشرة قدمت في المؤتمر الخامس للمهندسين بعنوان « الصناعة بعد الثورة » (بالانجليزية) : ونشرة حول الشركة المصرية للحديد والصلب ، وفي النشرة الاقتصادية الصادرة عام ١٩٥٤ ، ص ١١٠ ، مقالاً حول الاتفاقية الاولى المعقودة بين البنك الصناعي ، وبنك مصر ، وشركة مصر للنسيج ، وشركة مصر للتأمين من جهة ، وشركة « داماج » Damag الالمانية ، من جهة اخرى .

والشيء نفسه يصح على « السد العالي »[١٦] الذي كثر الحديث عنه : فهو نوع من الصورة الثانية لمشروع قناة السويس ، والرد الوطني المقابل لعمل كوزموبوليتي ، والجواب بالمنجز المندمج » في حياة الامة المواجه للمنجز « المبسوط » من خارج . والهالة الخلقية التي تحيط بالمشروع هي على جانب كبير من القدرة على الدلالة . فمصر تترقب العمل الجبار الباهر ليس فقط ان يعطيها المصدر الذي يتدفق منه كل شيء : الماء ، والخصب ،والغذاء والكهرباء ، ومصر" جديدة ستولد شيئاً فشيئاً .ولكنها تترقب ايضاً وخاصة نوعاً من الاكتمال الجغرافي والمنطقي ، المبطن بعودة تاريخية خارقة . فلنتذكر مصر الفرعونية ، ووحدة وادي النيل ، والقوة الهائلة التي كانت تتركز في يدي سيد الماء ، سيد النيل . أكيد ، يدخل في مشروع السد العالي شيء من هذه الفكرة وليس فقط حسابات اقتصادية . وربما يلزمنا الالتفات بمثل هذه النظرة الى مشروع ري الصحراء الذي يروى انه سيسير من واحة الى واحة ، متبعاً ما يسمى « دروب الاربعين » : « اربعين يوماً » او ربما « اربعين ولياً او قديساً » ويمتد محور المشروع من « خرجه » الى « سيوا » ثم الى « السلوم » . انها طريق القوافل القديمة القادمة من « دارفور » . واقدام النياق قد حفرت فيها ، على مر الزمن ، أخاديد وحفراً جعلت الدرب تبدو على صورة خط طولي مرت عليه المسلفة ، يمتد امامك حتى اللانهاية .

فاذا تحقق هذان المشروعان ، ستولد مصر على القياس الفرعوني . فاذا نظر اليها من هذه الزاوية ، يبدو عملها التخطيطي على انه تمشٍ مع السابقة السوفياتية او مع نصائح البنك الدولي للتعمير والتنمية أقل بكثير مما هو بمثابة استتباع للأمجاد القديمة ، ومحاولة لاستعادة الجوهر الأصيل : أي الشيء ذاته

---

١٦) النشرة التي كتبها المهندس يوسف سمائية حول استخدام مياه النيل ، من مجموعة « الرسائل» التي يصدرها المجلس القومي للتخطيط .

الذي تهدف اليه ، بنجاح كبير او صغير ، جميع فئات هذا المجتمع .

ومن هنا كان الدوي الشعبي الذي يحمل في هذا الوقت زعيماً مثل جمال عبد الناصر بمشاريعه . لا يصح ان نفتش عن اسباب ذلك في مهابة الخطيب الساحر او في الانفعالية العربية فحسب . أكيد انه عرف كيف يثير هـذه التشنجات العاطفية ، وهذه الصور من الهذيان اللفظي ، وفي الوقت ذاته اضطرابات هـذه الجماهير المأخوذة بحمى الدوران ، التي سبق لي ان رأيت فيها أشكالاً عتيقة من المبادلات . ولكن تحت ذلك ، وعبره ، تقوم الحلقات البنائية التي تحاول هذه الدراسة اكتشافها تحت تعقيد الأناس والاحداث والاشياء .

وكل البلدان العربيـــة لا تسير في الطريق نفسه . فوفقاً للوثائق التي يسعنا مراجعتها ، يبدو على سوريا انها فضلت .ان تختـار الصناعات التحويليـــة . فان المكان الذي كانت تحتله الزراعة ، في دخلها القومي عام ١٩٥٧ ، كان يتمتع بالصدارة : ١٠٥٩ مليون ليرة سورية مقابل ٢٥٧ مليون فقط للصناعة ، و ٣٨٨ للتجارة (لان البلاد تراعي رسالتها التجارية) .وكان المجموع يبلغ٢٠٨٥ مليوناً من الليرات السورية ، يأتي ٤٥ بالمائة اي حوالي النصف منه من الزراعة . فليس من باب الصدفة ، والحال هكذا ، ان تفرض صناعـة التحويل نفسها على منظمة التخطيط . يضـــاف الى ذلك ، بالطبع ، عوامل اخرى ، بسبب صيغ سياسية جديدة ، وخاصة بسبب الوحدة المصرية ــ السورية التي فرضت توزيعاً في المهام .

وفي سوريا القديمـة كان تحالف تقليدي يربط بين انواع ثلاثة من النشاط ، بين انماط ثلاثة من الناس ، بين اتجاهات ثلاثة : جنائن الغوطة ، المحيطة بدمشق ، والتي تبسط حولها باشجار زيتونها ، وصفصافها ، ومشمشها ، وفي داخل المدينة ،

السوق وتجاره ، واخيراً الندوات الادبية ، التي كانت ترمز في الماضي الى الجو الأكاديمي الخاص بدمشق ، والذي يعـود الى الماضي السحيق . فهذه الوجوه الثلاثة من النشاط ،هذه الأنماط الثلاثة من الناس ، كان يربط بينها نظام حضاري واحد. فقد كان يمنحها الحساسية المرهفة واللاذعة التي يقع احياناً كثيرة للاجنبي والغريب ان يذوق مرارة تجربتها . وان انسانية من هـذا النوع كانت تظل مشدودة الى الاحداث الطبيعية والى جمال الاطار . وهذا الامر كان بالنسبة لها طريقة ، شعرية ومدرة للربح في آن واحد لتكثير تقاليد الجاهليـة ، من طريق التعلق بالاسلام . وهكذا يتم الالتحام بين الثقافة والطبيعة ، واندماجها في كل. عانت السلطات الاجنبيـة ، عثمانية كانت ، او فرنسية ، مقاومة ضارية منه ، احياناً كثيرة . فهل من الغرابة او من المبالغة في شيء ان نجد ، اليـوم ، تحت اعمدة الارقام ، والتحليلات المتجهمة التي تزخر بها الوثائق الماليـة ، التحالف المستمر ذاته ؟

وفي التقرير الاخير المصرف المركزي في سوريا تطل ، في كل لحظـة ، اشارات الى الحياة الزراعيـة ، وحتى الى تعاقب الفصول . وفي عام ١٩٥٦ — ١٩٥٧ كانت ازمة السويس . فاستتبع ذلك هبـوط في اسعار الجملة على هذه المنتجات الغذائية يعزوه المحرر الى موسم خيّر دافق بالحبوب والفواكه ، بدلاً من ان يعزوه الى هذه الجلبة الدولية المدوية . فكانت ملاحظة ريفية (جديرة بفرجيل) ، في وسط هـذه الحركة الدولية التي أدت الى تصـادم الامم : انـنا نرى انبعـاث الخضرة المعربدة في بساتين الغوطة . هـذا الذي حدث عام ١٩٥٦ – ١٩٥٧ . وحتى اليـوم ، في اواخر ١٩٥٩ وبدايـة ١٩٦٠ تتفطر قلوب المصارف، حزناً للتقلص الذي طرأ على الثقة بأصحاب المشاريـع وبالتالي ، للتباطؤ في النشاط التجاري . ولكنهم يعزونه الى الموسم الرديء عام ١٩٥٨ . وعلى العكس ، فهم يأملون نهاية الانحسار المصرفي ، استناداً الى وعود الموسم الذي لا يزال في مستهله .

والمشروع السوري للخمس سنوات اضطر ، لكي ينطبق على الحقائق المحلية ، أن يبعث نفسه من القبر ، اذا صح القول . إذ أنه في الأصل ، كانت تسيطر على هذا التخطيط نظرات منهجية وأفكار مسبقة . قد رأينا أن الطريقة المصرية كانت تعتبر عشرة مقاييس للاولوية ، انما من بين هذه المقاييس العشرة ، لا تأتي المقاييس التي تتصل بطبيعة الأشياء الا في المرتبة السادسة أو الثامنة وهذا الأمر يصح في مصر مثلما يصح في سوريا . ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فان خصائص البلد تبرز وتتفجر حقيقة ان المشروع السوري « لخطة التنمية » لا يلحظ في حقل التعدين غير مصنع واحد لانتاج قطع الغيار ، وانتاج السلاسل في حلب ، انطلاقاً من الاسلاك الحديدية المصنوعة في مصر ، وصنع هياكل معدنيه ، وأواني وشاسي ، وصهاريج ، انطلاقاً من الصفائح المصرية ، أيضاً . فانتباه القائمين على مشاريع التخطيط يتركز على الاستهلاك .

وفي مجموعة الاعتمادات التي قدرت بخمسماية مليون ليرة سورية ، تحتل عمليات التحويل المركز الثاني ، بعد الصناعة البترولية مباشرة « وهذه الاخيرة هي صناعة ذات أهمية استراتيجية أكثر منها اقتصادية : وهي تستخدم ٢١٦ مليوناً من الليرات السورية » بينما الحقل التعديني لا يشغل الا مليونين و ٧٣٠ الفاً من الليرات السورية ،أي حوالي واحد بالمائة من اعتمادات صناعة النفط .فالاستهلاك هو وحده ، الجدير بالاهمية ، وكذلك عمليات التحويل ، التي تجعل انتقال المنتجات الطبيعية الى سلع استهلاكية ناشطاً ومحسوساً ؛ وخطة التنمية تهتم ، اذن عن قريب كبير ، بالملح ، والعلب، والحليب ، وعمليات التوضيب والزيوت وبالطبع كذلك ، بعمليات غزل القطن ونسجه . وتمكن ملاحظة مجهود جدير بالعناية للحد من المركزية . فحمص سوف تصبح عاصمة النسيج ، ودمشق عاصمة شغل التريكو ، وحلب سوف تصنع السجاد والاغطية الصوفية . وسوف يوزع انتاج ٦٠٠٠ متر مربع من « الكليم » (سجادات أو أبسطة صغيرة) بين المدن الكبرى الخمس .

وهناك ايضاً الانتاج الثقافي . وهو يلعب دوراً كبيراً منذ الازمنة البعيدة ، في الشرق . وهذا الدور قد ازداد في هذه الايام . وانطلاقاً من غابات الجمهورية السورية ، من هذه الغياض التي تكثر فيها اشجار الحور والصفصاف والتي تحيط بمدينة دمشق ، سوف تصنع عجينة الورق ، اللازمة لورق الجرائد . والحاجة الى هذا الورق هي هائلة ، لا كابح لها . فالجمهورية العربية المتحدة تستهلك سنوياً ١٧٠٠٠ طناً من ورق الجرائد . وسوف يصار الى تحقيق ما هو اكثر دلالة : فسيتم تركيب ٢٥٠٠٠ جهاز للراديو سنوياً : وهكذا يعود للظهور ، هنا ايضاً ، سلطان الكلمة ومقتضياتها .

وبالطبع ، هناك اشياء كثيرة يمكن ايرادها حول المشروع السوري لخطة التنمية ، وحول الفوارق في التوجيه التي تميزه عن مشروع الخطة المصرية ، ودمج البلدين ، نتيجة لحركة الوحدة العربية ، ادى الى توزيع للمهام لا شأن لي بامتداحه او بنقده : فالراي العام هو الذي سيتولى ذلك ، والنتائج هي التي ستكون الوسيلة للحكم ، ولكن في كل الحالات ، علينا ان نلاحظ ان الخطة السورية تعير انتباهاً رئيسياً للعوامل النفسية والمحلية . وربما هي تظهر ، على هذا الشكل ، نوعاً من الحماس التعويضي ، فان تقيدها بطبيعة البلد يتضمن دلالات على « نعومة » تحليلاتها التي يتجلى فيها الحس السياسي والمرونة والحنكه المتحدرة بالوراثة من اجيال بعيدة ، والتي تفرض نفسها ، او من الضروري ان تفرض نفسها ، على كل محاولة للاقتراب بالدواسة من الجانب الاقتصادي .

وعلى العكس من الجمهورية العربية المتحدة : يملك العراق موارد ضخمة لرؤوس الاموال . وهو لم يستوف هذه السنة ، بمثابة عائدات النفط ، غير ١١٣ مليار فرنك ، عن انتاج نفط بلغ ٣٢ مليوناً من الاطنان ، وعادة كان

يذهب ٧٠ بالمائة من هذه المبالغ الى صناديق مكتب الاعمار ، الذى كان يديره خبراء عالميون . ولبضعة أشهر خلت ، كان يقتضي التنويه ، في مجال التخطيط والمجهود الحكومي ، بأسبوع التنمية الذي كان ينظم في بغداد ، في فصل الربيع والاسبوع الذي انعقد عام ١٩٥٨ كان يظهر نتائج جد مدهشة ، ويمكن العثور على الاهتمام بالشؤون المائية في صميم المشاغل العراقيـــة كما في مصر وسوريا ولبنان وحتى السعودية . وعلينا ان نحمي في هـــذه الظاهرة ليس فقط الخاصة الوراثية ، وعملية الاختيار الحكيمة ، وانما احدى المحاولات الصائبة للتوفيق بين المجتمعات العربيه ومعطيات بيئتها .

وحوادث العراق ، التي وقعت منذ تموز ١٩٥٨ ، هي في آن واحد قريبـة وبعيدة أكثر من اللازم ليمكن لنا أن نتبين الى أي مدى سوف تخضع هـــذه المخططات الاقتصادية أو لا تخضع لتوجيهات جديدة ، وفي أول كتاب صدر في بغداد بعد الثورة : لا يشير المؤلف ، حسين جميل ، إلى مجلس الاعمار ؛ لا بخير ولا بشر ، رغم الحملات العنيفة والمحمومـــة التي شنها على النظام السابق . ولا شك لأنه كان يعتبره أداة مسخرة لخدمة الاجنبي ، فهـــو لا يعزو الأخطاء ومظاهر التقصير الا لعمل الحكومة . أما عندنا ، فأن مجلس الاعمار قـد أثار انتقادات مستوحاة من مواقف تشدّد جديدة فرضها على نفسه العلم الاقتصادي في تحليلات « التطور المتخلف » التي يرأسها فرنسوا بيرو [١٨] (F.Perroux) ولكي تثبت بيئة أهليتها للتقدم الاقتصادي ، عليها أن تستوفي ثـلاثة شروط : أن تكون قادرة على الابداع الاقتصادي ، وان يكون هذا الابداع قادراً

---

١٨) ج . بلاردون G. Blardone في Cahiers del' I.S.E.A ، عدد كانون الاول عام ١٩٥٨ ص ٠ ٩٨ .

على الانتشار فيها ، وأن يتضمن شحنة من المعـاني [١٩] ، والدلالات ، ولسوء الحظ كانت مكاسب مجلس الاعمار تندرج في نظـام تنعدم فيه الامكانيتان الأخيرتان . فالوثائق غير متوفرة ، في الفترة التي أكتب فيها (ديسمبر ١٩٥٩) ، حتى يمكن التحدث عما يستطيع نقد من هذا النوع أن يحدثـه من انجازات في عراق اللواء قاسم .

من نظام الاصلاح الاصولي الى الطفرة نحو التقدم [٢٠]

وعندمـا ينظر الى الثورة العراقية ، من هــذه الزاوية ، تبدو مثل جميـع الثورات لا شيء الا محاولة عنيفة لاعادة المطابقة بـين الدلالات والمجتمع . وفي العالم الحالي ، يتضمن هذا الامر ، في الدرجة الأولى ، تحويلاً في

---

١٩) لاستزانزر هوبيه R. Strang - Hupé يعزو « درس» تموز ١٩٥٨ الى لامبالاة المجتمع العراقي أو الى شعور العداء الذي يكنه نحو الاساليب العلمية المضبوطة التي تقوم عليهـا التقنولوجيا الغربية (مقدمة لكتاب فهيم قبين : اعادة بناء العراق ، عام ١٩٥٨ ، (بالانجليزية) وانه لمن قبيل قلب الاشياء حقاً ، ان توجه الى أصحاب العلاقة تهمة عدم فهم « التقدم » التي تلقى عليهم ... انظر من جهة أخرى مقال السيد ن . كوينت N. Quint « فكرة التقدم في قرية عراقية » في مجلة « ذي ميدل ايست جورنال » عدد الخريف عام ١٩٥٨ ص ٣٦٩ وما يلي .

٢٠) هذا المقطع قد استوحى كثيراً من المناقشات التي جرت في الحلقه الدراسية التي انعقدت في الشعبة الرابعة من مدرسة الدراسات العليا ؛ حول هــذا الموضوع ، في ايار عام ١٩٥٩ ، بمشاركة ش بيتلهيم Ch . Béttelheim .

الابنية الاقتصادية الاساسية ، وبالفعل يتعلق مستقبل البلدان العربية بتحويل من هذا النوع . وكل تجارب التخطيط الانمائي في هذه البلدان تحمل خصائص مشتركة ، بالرغم من أنها قابلة لتغيرات مرهونة بالمعطيات المادية والمعنوية التي تختلف باختلاف الحقبة والبلد المعني . وليس من قبيل الصدف أن تلجأ مصر ، وهي أكثر البلدان العربية تقدماً ، على الصعيد الاقتصادي ، الى نوع من النظام « الاصلاحي » ، في هذا الميدان ، نظام أتاح لها أن تخلق صناعة ثقيلة ، تقريباً دون أن يكون لها أية من الوسائل الطبيعية اللازمة لهذه الصناعة ..

وهذا النظام الاصلاحي الاصولي – (Fondamentalisme) وأنا استعمل عن قصد هـذا التعبير الذي يصف الداعية للاصلاح « الأصولي » * – اذا كان يفترض اعادة نظر جذرية في المـاضي ، اي بتعبير آخر ، الاستمرار الحقيقي للماضي ، فهو يجر أيضاً ، وبصورة منافيـة للمنطق الظاهر ، الى اختيار التقدم السريع ، فرجال الاقتصاد يتناقشون حول الحسنات المقارنة للتطور التحويلي البطيء والطفرة المفاجئة ، وهذه الحسنات او تلك توضع في النهاية ، على محك معيار وعامل ضروريين : تبديل العقلية . فطالما هذا التبديل لا يتحقق، تسقط كل المنجزات في حـالة الموت والشلل ، ويتبخر فعل التراكم الحضاري . ولا شك ، انه اذا كان الكثير من السياسات الاستعمارية قد فشل ، ان لم يكن في استصلاح خيرات البلاد ، فعلى الأقل في دمج هذه العملية الاستصلاحية في حياة البلاد ، فلأن هذه السياسات لم تعرف كيف تحبك هذه العقدة اللولبية الخفية . واكثر انصار التقدم البطيء يلحون ، اذن على عـامل نفسي يرتكز على التحوير في سبيل المطابقة أو الاقتناع الاختياري ، فهم يعتقدون عن حق ان هـذا العامل وحده يستطيـع ان يشكل الضمانة للبـاقي . ولكنهم يفشلون دون ريب بسبب لجوئهم الى بسيكولوجية مرتكزة على الفرد ، في الاحاطـة بمجموع التأثيرات المتبادلة العميقة التي يلوحون بها . لأن هذه التأثيرات لا تختصر جميعها

بقضية استدامة المواقف العقلية . وعلى العكس فان هذا التقدم الذي يقتضيه ان يكون كاملاً ، تحت طائلة الا" يكون ، يعرض نفسه كنقطة التقاء تتجه اليها في المستقبل ، جميع التيارات في حياة كاملة . وهذا التقدم الذي يلزم ان يكون جذرياً ، بالضرورة ، بفرضه الانطلاق : على كل من هذه التيارات ، لا يوفق بينها الا من خلال امكانياته كمشروع . وعلى قدر ما يطلق زخم اندفاع نحو المستقبل ، هو يعاكس حتماً حركات استمرار الماضي . والمجهود الذي يتطلبه ووجوه المقاومة التي يعانيها – وكدت اقول التي يطالب بمعاناتها – تميز نفسياً مواقف من هذا النوع وتفترض نمطاً من العمل ، ونمطاً من المندفعين في تحقيق العمل ، جد محددين .

والامر كذلك فيما يتعلق بالتخطيط الانمائي في الشرق . فلكي يؤدي الى نتائج محسوسة ، أي تحت طائلة الفشل ، لا يلزمه فقط حل مشاكل عسيرة تتعلق بالتحويل والبحث عن تقنيات وفنيين . ولكن يلزمه ايضاً ان يكبح ، في الروح التقليدية لهذه الشعوب ، ما يقاوم مثل هذه الاهداف ، او على الاقل التوترات التي تنتج عنها . ومن هنا كان الاتجاه الاختيار نزعة كلية لا يمكننا ان نقسم بأنها اصبحت مؤمَّنة بوعي تام . اذ انها لا تتجلى حتى الآن الا في ميادين التجهيز الاقتصادي والاجتماعي وفي ميدان التربية بمعناها الواسع . انما هذه الميادين ، بالرغم من ضخامة اهميتها ، اصبحت تجتاحها ميادين تخاض فيها معركة اعادة نظر كلية للانسان وللبيئة . وتقاوم هذه الاعادة في النظر قوى اخرى ، هي هائلة ايضاً ، لا شيء يدل على ان هناك قدرة ، او حتى رغبة في تحديها . ولا شك ان المزيد أو النقص في هذه النزعة الراديكالية هو الذي يميّز الانظمة والاتجاهات والبلدان . وهنا يلتقي الحوار الداخلي في الشرق ، على الصعيد العقائدي مثلما على الصعيد الستراتيجي ، مع الحوار العالمي ، وهذا الأمر ، الكل

يعلمه أكثر من اللازم .

والاجنبي ، رغم اطلاعه العميق ، لا يفهم المشاكل الشرقية الا من الزاوية وبالقدر الذي تندرج فيه هذه المشاكل في الضراع الدائر للسيطرة على العالم الفسيح ، فهل نحن متأكدون من أن بعض الرؤساء للدول الشرقية ، لا يشعرون الشعور نفسه تجاه هذه المشاكل . والحال هو انه من قبيل مخادعة النفس محاولة تفسير الداخل بالخارج . وعلى العكس ، فعلى كل الدروب التي سلكتها في أبحاثي كانت الصفة النوعية او الخاصة الذاتية هي التي تستوقفني : تلك التي تميز الداخل ، وتلك التي تميز مواجهة الداخل مع الخارج . واذا كانت البلدان العربية تقف شيئاً فشيئاً في صف العالم الخارجي ، واذا استعارت من الآخرين نظريتها الاقتصادية والمنهج التربوي ، دون حاجة بنا للتحدث عن البقية ، فان الوجود الذي نظمت داخله كل هذه المكاسب هو خاص بها ومميز لها . أكيد هي لا تعترف بينها ونفسها دائماً ، بضرورة اجراء الاختيار الكامل والابداع الشخصي الذي يترتب عليها ، تحت طائلة الفشل ، وأكيد أن مذهبها الوليد المرتكز على تغليب العامل الاقتصادي يلزمه أن يأخذ في الحسبان وقائع مقاومة ، وقيماً راسخة الجذور ، وأخيراً عادات عالمية تدعي هذه البلدان القدرة على بلوغها . ولكنها لم تستطع حتى الآن أن ترسم عقيدة خاصة بها .

انما هي تعوض عن هذا النقص ، بصورة غريزية ، بمواقف جماعية : فالحماس الشعبي ، والشدة في عرض المطالب ، والالتفاف حول « الزعيم » * كل ذلك يقيم التوازن مع تفاهة الأوضاع . والضعف الحسي في التحليلات . وبذلك تتم اعادة التكوين كاملة لما لم يره الفهم والاكتناه ولم يعمله الفعل الا جزئياً . وبذلك أيضاً ، يتم الاهتداء ، من طرق دائرية لم تخطر ببال ، الى شيء من

الدقة المضبوطة . يبقى أن هذه الطريقة تتسم بطابع التلمس الغريزي أكثر مما هي تنبع من بحث ارادي ، وأن بالامكان نسف آثارها بفعل لا بعقلانية الوسائل أو عتق العناصر الموضوعة موضع العمل . وانه لخطر كبير . وهو ليس الا الضريبة على النجاحات التي لامراء فيها وهذه الازدواجية في القيمة تشكل ، عن حق ، أحد أخطر المواضيع المطروحة للتأمل أمام المؤرخ الذي يعنى بالشرق الحديث ، والمثيرة للقلق عند أبنائه ومواطنيه .

الفصل الثامن

الصعود نحو الأسس *

يحدث للعقل ، في محاولته ان يصوغ الواقع على صورته ومثاله ، وان يرسيه على المنطق والعدالة ، ان يلاقي المقاومة من حصى الاشياء . والكثير من هذه الاشياء ، اذ يتحدر من ماضٍ قد ولى ، يصبح مرفوضاً ومجرّحاً ، لهذا السبب وهناك اشياء أخرى تبقى ، على العكس ، صالحة ، لانها تشكل ، في نهاية المطاف ، مادة المبادرة العاقلة ، وموضوع المنافسة فيها في آن واحد . وهذه المغامرة التي يخوضها كل منشرع ، وكل ثوري ، لا يتفرد الشرق بها . ولكنه يعانيها بصورة دراماتيكية اكثر من اي منطقة اخرى ، لان صعوبات اكثر خطورة مما في المناطق الاخرى تظهر فيه وتنبثق من السياق الداخلي والخارجي فتسعى لشل الاصلاح . وكذلك لانه يعرف تباعداً أوسع بين الواقع والممكن بين المثال والمحسوس . ومن هنا كان العنف الموزع بين الحماس والريبة ، الذي تتسم به محاولات مندفعة نحو « الاساس » والتي تسمى احداها ، في كل مكان،

* نحن نستعمل عن قصد هذا التعبير الثنائي رغم التناقض الظاهر بين طرفيه.

الديموقراطية . [1]

وقد يثير لدى المتشرع العربي ما يشبه الشعور بالفضيحة ان يُشبّه سلوكهُ الأولي بسلوك الرسام الذي يصبغ الايقونات والذي يسعى لان يستنزل الواقع التافه من السماء . ففي اعلى السجل ، تطل شمس ، (وفي الاسفل) اشياء هذه الدنيا ، بالوانها الزاهية والحنونة ، تعبر عن الحياة المحسوسة امـا ذهب الشمس فيمجد الجوهر السماوي . «الافاضة» * و « التنزيل » * : هـذه الكلمات والكنايات ، التي شحنتها الصوفية العربية بالمعاني ، تعبر ايضاً عن نظام متراتب ، وعن منجز تسوده سلطة مهيمنه . ولكن يريـد المجهود ، المبـذول في خط سير ضروري ، ان يحدث (في القاعدة القائمة) تحته حركة صاعـدة ، وان يجد جواباً لمبادراته . وكلما تعمقت الديموقراطية في هـذه البلدان ، سعت لان تجعل من الاساس الموئل الاخير . انها تريد على عكس « التنزيل » * ان تصعد من الاساس .

هذا هو ، على كل حال ، الهدف الذي يعلنه الكثير من السياسات الشرقيه التي تدّعي الديموقراطيـة ، باخلاص يقلّ أو يكثر . وهي تفعل ذلك بقدر أكبر بسبب ان الاسلام باستعانته بفكرة الحلول ووجوب الوجود ، التي تأتي ، مع فكرة التسامي الكينوني ، ذيلاً له وتابعاً ، يقرّ ، على الأقل جزئيـاً ، بعلاقته بأمثال هـذه العقائد . والقيمة اللاهوتية « للشعب » * الذي تربطه وشائج خفية مـع قيمة « الزعيم » * تسمح بهذا الانتقال من الجو التقليدي الى اللحظة الآتية العابرة . وهناك مفاهيم أخرى مثل مفهوم « اجماع » * الائمة ، ومفهوم « الشورى » * توحي بالنظام البرلماني ،

---

١) هذا هو الموضوع الاساسي لمؤتمر الجمية اللبنانية للعلوم السياسية الذي انعقد في بيروت في نوفمبر عام ١٩٥٩ .

بينما مبدأ « الاجتهاد » * المستمر عند الشيعة خاصة ، يعلن في خضم التعلق بالقيم القديمة ، فضائل الثورة الدائمة . ومع ذلك فالذي أود ان أقف عنده ليست الصور السياسية الاجمالية للحاضر وانما الحركة الأساسية التي تحملها وتتجاوزها والتي تكشف ، بوقوفها بمنأى عن التفسيرات البالغة التأثر والالتصاق بالأحداث ، عن طراوة الاندفاع لدى هذه المجتمعات نحو تحقيق ذاتها في عالم اليوم .

وقد جرّب العراق ، في عام ١٩٥٨ ، الأخطار التي يمكن أن تنجم عن بذل مجهود جد محسوس في سبيل التنمية ، عندما لا يضطلع به المواطن بأي شكل من الأشكال . ولهذا السبب ، تطلق الرغبات في بناء المجتمع على النحو العصري ، وفي اعادة تنظيمه محاولات وسيطة من جانب الجماهير ، سواء كانت هذه الرغبات مجسّدة في رجل ، أو في طبقة . أو في هذا النشاط أو ذاك من النوع الذي يمثل ظاهرة التجدد الاجتماعي — التجهيز ، والتربية الخ ... — وكثير من المبادرات يمكن أن تفهم على هذا النحو . وبالطبع ، نحن لن نجد أكثرها فعالية في عمليات الاستفتاء الشعبي أو في اللعبة البرلمانية كما تتجلى في أشكالها الحاضرة ، وانه ليتحتم النزول الى أعماق اخرى ، والى أصالة تجربة جد مختلفة لرؤية ما يلعبُ ، في هذه المجتمعات ، التي هي نهبُ الاضطراب التشنجي ، الدور الذي كان يلعبه في القديم سلطان « الرئاسة » * ، مع كل تشابكات علاقاتها المحسوسة والشعبية . والبعض من هذه الاجراءات ، يبقى عتيقاً ، تشوهه خصائص موروثة من عصر الانحطاط . ويشهد البعض الآخر على تمثّل جد حاذق لمواقف ومبادىء مستعارة من العالم الصناعي . وانني سأرسم كيفما اتفق بعض الحركات ذات الدلالات الكافية ، بدلاً من الدخول في عمليات تمييز بالغة الدقة واللطافة قد تستدعي مادة للتحليل الأحادي الموضوع .

هناك بلدان مثل الجمهورية العربية المتحدة تطلب من الإلتفاف الشعبي الارتباط الأكثر وضوحاً بين التجديد والحقائق الأساسية . وهذا الارتباط يتضمن ، من أحد الجانبين الدفق الخطابي ومن الجانب الآخر الهتافات المدوية . فهو يتصل اذن ، على الأقل خارجياً ، بعبقرية كلامية راسخة الجذور وجد عريقة ، ولكنها لا تستطيع ان تقدم غير رمز للعمل الايجابي . فعليه يحرص القائمون على التنظيم على العمل في الحقل الاقتصادي وراء هذا الستار من الخطابة والحشود . وعلى توظيف المال (في العمل الصناعي) في المرتبة الاولى. لانهم يعتزمون زيادة الدخل [1] ، بالطريقة الأكثر أرثوذكسية (الأكثر سويّة)

والآن ، ماذا يعني تقدم من هذا النوع بالنسبة لبلدان بقيت ، في اقسام فسيحة منها ، في مرحلة اقتصادية دنيا ؟ فمنذ بضع سنوات قليلة ، في مصر كان سكان المدن ، الذين تبلغ نسبتهم نصف نسبة سكان الأرياف ، يستهلكون ، ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يستهلكه الأخيرون . وكان الغذاء يحتل حوالي ٥٠ بالمائة من ميزانية سكان المدن ، وأكثر من سبعين بالمائة من ميزانية الفلاحين (بقدر ما يمكن تصور مثل هذه الميزانية) . أما نفقات الملبس التي تبلغ٨بالمائة من ميزانية عائدات المدن ، فتهبط الى ادنى من ٢ بالمائة (أي شبه لا شيء) - بالنسبة لسكان الأرياف . والارتفاع في الدخل ، الذي تعلق عليه خطط التنمية الكثير من الآمال، في نظرة جد صائبة ، لا يحظى بالعطف الكبير من قبل دنيا القلب ، وهناك أيضاً زيادة امكانيات تشغيل اليد العاملة وفرص

---

١) انظر تمنيات جمال عبد الناصر ، بمناسبة معرض انتاج السلع ، في مجلة « المصور » عدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٨ ، والآفاق التي يستعرضها في خطابه بمناسبة ذكرى الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٩ .

الاستخدام : وكل مسؤول عن الشؤون المالية يفكر على الطريقة الغربية، مثله مثل كل مهتم بخطط التنمية يؤمن بالاشتراكية ، يضع نصب عينيه ، كهدف جد اساسي ، هذه الزيادة من فرص العمل « Jobs » * . أجل هذا اكيد . ولكن زيادة فرص الاستخدام في القطاع الصناعي يعني أيضاً اجتثاث سكان الارياف من أرضهم ، ولا شك أن تأثير الاجتثاث سوف يغلب في نفوسهم ، مدة طويلة ، على تأثير العثور على عمل . لذلك يقتضي البحث عن طرق أكثر طرافة لمطابقة العمل الاقتصادي على الشعور الشعبي بصورة اقرب .

في معرض القاهرة الأخير، كانت المنتجات المصنوعة في مصر (made in Egypt)* تشغل مساحة قدرها ١٢٦٫٠٠٠ (مائة وستة وعشرين الفاً) من الامتار المربعة وقد قضى الرئيس ثماني ساعات في زيارتها : وتلك ، أيضاً كانت مظاهرة ذات طابع كمي ! وكان عـــدد كبير من السلع يحمل الاشارة السحرية : منسوجات قطنية ، ألبسة جاهزة ، اصواف ، اغطية جميلة وسجاجيد زاهيـــة الالوان ، مفروشات ، وخاصة معدنية منتجات جلدية ، قساطل معدنية ، اواني خزفية ، ومعلبات غذائية ، وكذلك بطاريات كهربائيـــة ، واجهزة راديو ، وادوات بلاستيكية ، وورق ، وادوية الخ ...

وينكر احد الاقتصاديين [١] على هذا المعرض كون كل شيء قد كتب باللغة العربية : فكل الاعلانات ، تقريبـاً ، تستهدف ، اذن الاستعمال الداخلي فهو يرى في ذلك نقصاً من ناحيـــة الدعاية للخارج . ولكن علينا ان نتبين ، بالاحرى ، في هـــذه الظاهرة ، احد الملامح الجديدة بالاهتمام للتعاون بين عالم الشيء وعالم الدلالة . وقد ظل هذان العالمان ، زمناً طويلاً متنافسين في الشرق .

---

١) عادل ثابت في مجلة « ايكونوميكال الدبوليتيكال ريفيو اوف ايجيبت » « المجلة المصرية السياسية والاقتصادية » عدد يناير ١٩٥٩ ص ٣١ .

ومنذ انقضاء جيل كامل تجري المحاولة « لتبليد » (او اقلمة) الشيء الصناعي، اعني ليس فقط لاستخدامه ، وانما لانتاجه ، في مرحلة اخيرة .

انما افضل طريقة لجعل صعود « المنتجات » محسوساً ، هي في زيادةالاستهلاك فالبلدن الشرقية لم تبق بمنجاة عن النزاع بين الزبدة والمدافع . وهي تعرف فوق ذلك ، صعوبة اضافية بسبب ان الاستهلاك قـــد انشطر بين قطاع ذي اذواق اوربية،من جانب ، وهو قطاع البورجوازية العالية والاريستوقراطية ،وقطاع شعبي ، من جانب آخر .

وكان هذا الامر ، ولا يزال شديد التأثير على الحواس في اكثر هذه البلدان. فمنذ الصباح يعطي افطار رجل الشعب المقتصر على « الفول » * مشهداً يتناقض تناقضاً صارخاً مع افطار الطبقات التي تحتكر التوجيه والسلطان ، افطار من النوع « القاري » ، كونتيننتال بريكفست * (Continental Breakfast والانشطار نفسه يبـــدو في مواقف الشارع ، وفي ارتياد المقاهي والنوادي : انه انفصال بل انعزال ، أو يكاد ، بين العنصرين ، بين الطبقتين . ولكن هذه الظاهرة تتجه نحو التناقص ، والذين زاروا القاهرة مؤخراً استطاعوا أن يروا الى أي حد بدأ الكثير من هذه الاماكن العامـة بالانفتاح للشعب ، والخضوع للمد الديموقراطي وقد أخذت الجماهير الغفـيرة من المستهلكين الذكور ، تغزو شوارع سليمان باشا وعدلي ، عارضة اجـادها التي لا تحمل غير القمصان المجردة فلا تشرب الا القليل ، وترابط ساعات بطولها في لعب الورق أو النرد ، وهـذا المشهد الذي سبق شيوعه في دمشق وبغداد لا يسر الباحث عن الجمال الا قليلاً . ولكنه يفيد الباحث الاجتماعي ، اذ يمثل في نظره ، ارتقاء البورجوازيـــة

الصغيرة (٤) .

ارتقاء الطبقات

ها هي بالفعل ، ظواهر اخرى ،
« وسيطة » ، على افضل ما تكون
الوساطة . فهي تعكس التغيرات العميقة التي تحدث في الشرق منذ نصف قرن، في ميدان الطبقات الاجتماعية وحياة العلاقات فيما بينها .
وانا أميز ثلاث ظواهر رئيسية من بينها تنبع كلها من انحطاط الملاكات الخاصة بالمدن ، والتي يستحق كل منها دراسة اوسع من تلك التي نستطيع التكرس لها هنا .

وفي بداية القرن العشرين ، يبدو تضخم عدد الجمعيات واللجان ، التي هي على صلة بالقومية الاولى ، مبشراً بشكل جديد من الارتباط الاجتماعي من « التكتل »* . وصعود البورجوازية الصغيرة يعود ، على العكس ، الى تكاثر الموظفين في الدول الجديدة ، ومنذ ١٩٤٥ ، الى استبدال صاحب المنشأة الاجنبي استبدالاً اقتصادياً ، وهو لا يخلو من الترابط مع الثورة العسكرية ، على الأقل في مصر . وأخيراً فان التجمع النقابي يتقدم . فمحمد مندور يعتبر ابطال رواية نجيب محفوظ (٥) المثلثة الاجزاء من طراز البورجوازيين الصغار . فالأب هو تاجر متوسط الحال ، متشبع بالايمان وبمواقف الحياة التقليدية . والابناء الذين يتكونون في النصف الثاني من فترة ما بين الحربين ، يمثلون دون شك ، طرازاً مختلفاً . ولكنهم لا يزالون مشدودين الى عالم الأب ونظامه ، على الأقل بوشائج الثورة . انما هناك عمليات ارتقاء عديدة : فثمة ارتقاء الموظف الذي

---

٤) انظر المقالات الحية والنافذة التي نشرتها سيمون لاكوتير Simone Lacouture في صحيفة Paris - Normandie الصادرة عن مدينة روان Rouen ، بين ٢٨ يناير ١٩٥٩ و ٥ فبراير ١٩٥٩

٥) « قضية الادب الجديد » *

ينتدبه ، احياناً ، النظام الجديد القائم على التوجيه الشديد ، لمهام مدير ادارة كبير ، وارتقاء الضابط (٦) الذي هو اكثر الاحيان من أصل ريفي ، والذي يجعله تعليم اكثر عمقاً واستقلال مادي ، وذهنية اكثر عقلانية ، في حالة استعداد للتفكير الراديكالي ، وارتقاء العامل ، رغم ان هذا الارتقاء لا يزال مكبوتاً قليلاً او كثيراً . كل هذه الوجوه للارتقاء تفتح آفاقاً جديدة تماماً . وهي ،الى حد ما ، تعكس حركة الهدم - واعادة البناء ، التي تحاول ، بنسفها الاطار القديم لحياة المدينة مثلما تنسف الخلية الريفية ، ان تعيد تأليف الكل ، بصورة غريزية ، في شكل وحدات وطنية ، وهي تعبر عن حركة الصيد - والجاذبية التي تعمل في آن واحد على بث روح التمرد في الوطن المسترجع من براثن كل تبعية خارجية ، ولكنها تفتح ، بهذا العمل ، القطاعات الأكثر انغلاقاً فيه لتأثيرات العالم الفسيح .

فلثلاثين سنة خلت ، كان الكثير من اهل الحوانيت والمشاغل الحرفية (المحترفات) يتوزعون ،في الكثير من هذه البلدان ، الى طوائف او فئات مهنية منفصلة (Corporations) (٧). وقد أبدل هذا النمط من الناس الحرفيين بنمط العامل ، وبصورة اكثر شيوعاً ايضاً ، بنمط شغيل المصنع . وقد أسهم في إحداث هذا الابدال الهدم التدريجي للتقنيات اليدوية ، وتراجعها امام التقدم الآلي وغزو المنتجات المستوردة . وشغيل المصنع بانقطاع الصلة بينه وثقافة المدينة

---

٦) مجيد خضوري : ضابط الجيش ... (بالانجليزية) في مجموعة « القوى الاجتماعية في الشرق الاوسط » الطبعة الثانية . عن دارفيش ص - ١٦٢ وما يلي . وهي دراسة حديثة لمورو بيرجر morro - Berger

٧) حلل لويس ماسينيون ، في نصوص متنوعة ، تمتد على طول حياته الفكرية ، في عملية ، اتذهب عمقاً ، التنظيم الاسلامي للعمل . ولن نستشهد الا بمقاله في مجلة « الدفاتر الدولية لعلم الاجتماع Cahiers internationaux de Sociologie المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٥٣ ، ص ٣٤ وما يلي ، بعنوان « تكوين العمل في دمشق عام ١٩٢٧ » .

لا يندمج مع اشباهه إلا من خلال مجموعات قائمة على وحدة الاقليم او القرية التي تحدروا منها ، إلا اذا ارتفع ، في مرحلة تاليـــة ، الى شكل ثوري ، الى الشكل النقابي . وفي الخطوط الكبرى ، تتكرر الظاهرة نفسها في كل مكان في العالم العربي ، مع التنوعات التي يمكن ان تعزى الى الشروط المحلية . وقد استطاع العامل الطائفي ، مثلاً ، ان يتدخل ويؤثر على حركات التضامن المهني . الى حد انه في بلد مثل لبنان لا يزال فيه هذا العامل بالغ النشاط ، يبدو ان إطار التجمع او الانعزال المهني نفسه لا يزال مفقوداً .

ومع الاحتلال الاجنبي تولد وجوه أخرى للتضامن ، تؤدي الى تجمع ابناء المدن ، بصرف النظر عن منشأهم ، ضد السلطة . ومن نواحي عديدة ، كان الزعماء البورجوازيون يقومون ، في هذه المرحلة الاولى ، بالتعبـــير عن الضيق الذي لم يكن مقتصراً على المجال السياسي وانما ايضاً يتناول المجال الاقتصـــادي والاجتماعي . والنظام التقليدي للمدينة كان يظل قائماً ، بفضل هـذه الظاهرة ، او يتجند ضد الاجنبي ، بينما كان تطور لا يقهر يلغمه من داخل : فاشتراك ابناء الشعب ذوي الحياة المتواضعة في المدن ، في التجمعات والحشود ، والاضرابات ، والقذف بالحجارة ، وفي عمليات اغلاق الحوانيت ، وتظاهرات الشوارع ، إصبح عنصراً اساسياً من الحياة العامة . وفي دمشق كما في القاهرة ، كانت اندفاعات الحماسة الاكثر اخلاصاً تتأجج اكثر ما يكون في هذه الطبقات . ونتائج هـذا التطور لم يكن بوسعها ان تظهر ، في شكل مطالب الفقراء ، وفي بعض الحالات ، في شكل صراع طبقي ، إلا في البيئات التي تتميز بفوارق اجتماعيـــة كبيرة ، وإلا بعد ان تنقضي مرحلة أولى من التحرر الوطني . فلم يكن بمقدور الحركة النقابية ، إذن ، ان تهرب من تأثير الحركات البورجوازية التي حاولت طويلاً ان تلجم حيويتها الدينامية وتستغل امكانياتهـا ، الا على النفس الطويل ، وبمساعدة عمليات تطور متنوعة .

ففي لبنان (٨) رسمت الطريق منذ عام ١٩١٣ ، بواسطة نقابة عمال المطابع. وهي احدى اقدم النقابات في الشرق الاوسط . وقد دعمت اضرابات مظفرة قامت بها عام ١٩٢٦ حركة نقابية بلغ منها أنها اصدرت صحيفة خاصة بها اسمها « اليقظة »* ولكن الحكومة كبحت بعنف جماح هذه الحركة . « وان الانفتاح العقائدي المبكر لدى بعض قادة هذه الحركة واندفاع الحزب الشيوعي لتكوين منظمات عمالية لم ينجحا في بناء حركة نقابية لبنانية قبل عام ١٩٣٩ » : ومع ذلك فقد ولد اتحاد للنقابات وبدأ يطالب بقوة بتنظيم للعمل . ومن هنا كانت محاولة الاضراب العام سنة ١٩٤٦ ، وعدة حملات تهييجية من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٨ . ولكن مقاومة الادارة ، ورجال الاعمال ، وانقسام العمال ، وفي كثير من الاحيان ، جمودهم قد أدى الى انحطاط الحركة . واذا كان الاتحاد ، « لا يستطيع ، اليوم ، الادعاء بانه يمثل طبقة عمالية وحركة هو يحلم في تحقيق وحدتها ، فانه يعتمد وباستطاعته ان يعتمد على قوى هجومية ومواقع لا سبيل لزعزعتها » وقد أنمى الاتحاد جدته العقائدية . وان فرص النجاح المتوفرة لديه هي الفرص نفسها المتوفرة للاشتراكية ، في الشرق الاوسط ، لا اكثر ولا أقل . وهذه القصة القصيرة تظهر ما تستطيع ان تكون عليه جوانب العظمة والتعاسة في الحركة النقابية في بلد عربي يتمتع باقتصاد مزدهر ، ويكاد يكون متحرراً من الأمية ، ولكن ازدهاره بالذات ، وتقاليده التجارية ، رغم ملاءمتها للحرية ، لا يقدمان افضل الميادين للمطالب العمالية .

صحيح ان لبنان لا يعرف حتى الآن غير حركة تصنيع متواضعة وان التجمعات العمالية سوف تشهد ، في المستقبل ، مولد الحركات الحاسمة على أعنف وجه ، في العراق ، وفي امارات الخليج الفارسي ، وفي العربية السعودية

---

٨) كمال بحصلي : « اسهام في دراسة اوضاع الطبقة العاملة في لبنان » باريس عام ١٩٥٦ ، م، شادر « العمل الاجتماعي » في مجموعة متنوعات « mélanges » الصادرة عن جامعة القديس يوسف عام ١٩٥٦ . وانظر ايضاً بدوي زكي في كتابه : « مشاكل العمل والمنظمات العمالية في مصر » ، الاسكندرية ١٩٤٨

حول المجموعات الصناعية البترولية الضخمة ، رغم ان الظروف المحلية ليست ، في الوقت الحاضر ، رحيمة بهذه التجمعات ، كما نعلم كلنا . وكذلك ، ليس بالوسع استخراج الأمثولة من مصر الحاضرة ، رغم ضمانة الاقدمية والعدد ، ورغم نمو الحركة النقابية فيها ، بفضل حركة التصنيع النامية . فهذه الحركة النقابية لا تزال في مرحلة هيمنة الدولة [9] في هذا البلد . ومع ذلك فان الجماهير تتدفق . ووفقاً لاحصاء جد حديث لليد العاملة ، يبدو ان بين الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٦٠ سنة ، في هذا البلد يوجد : ٢١ بالمائة عمال صناعيون ، و ٤٥ بالمائة عمال زراعيون و ٢٠ بالمائة في التجارة والنقليات والنشاطات المختلفة و ١٤ بالمائة دون مهن . وفي هذه الحشود الكبيرة ما هو ، يا ترى ، عدد النقابيين ، وعدد المناضلين الذين يمكن عدّهم ؟

ان التقلبات التي تلاحظ ، في هذا المجال ، في فرنسا ، مثلاً ، والتي تمدد احياناً وتقلص احياناً أخرى ، وفقاً لنسب تتغير بدورها ، نسبة المسجلين ، والمشتركين ، والعاملين الناشطين تظهر بوفرة كبيرة اذا اقتضت الحاجة العلاقات التي تربط الحركة النقابية بعوامل تاريخية اخرى : معارك التحرير الوطني ، مهابة الزعيم ، حيوية الاحزاب ، الخ .. ففي بلاد مثل السودان ، ترتبط المرحلة الاولى من الحركة النقابية بكاملها بالمطالب القومية ، وفي مصر مارست اندفاعات الاختيار الماركسي المتقطعة ، والمثيرة للانتباه والدهشة احياناً ، على الرغم من كل شيء ، أقول مارست ، ولا شك ، عمليات ترابط ، على صعيد النشاط العمالي . وعلى العكس ، تستهدف حركة القمع احياناً ، وفي الدرجة الاولى ، المناضلين العماليين الذين يتقاسمون هذا الامتياز مع رجال الفكر

٩) ان احدث دراسة حول هذه الحركة هي بحث م . ت . اوسدلي M. T. Ausdley بعنوان « قضايا العمل والاجتماع في مصر » لمنشور في مجلة « ميدل ايسترن أفيرز » (الأعمال في الشرق الاوسط) ، العدد رقم ١ ، اوكسفورد ١٩٥٩ ، ص ٩٥ وما يلي . انظر ايضاً ف . ج . توميش (F. J. Tomiche) « الحركة النقابية في مصر الحاضرة » مجلة « الازمنة الحديثة » عدد ١٦١ يوليو ١٩٥٩ ص ١٠٧ - ١٢٣

والمثقفين ، عماد طبقة الانتليجنسيا . ومع ذلك ، فان بحثنا الحاضر سوف يهمل هذه الظروف المؤلمة ليعنى بالملامح الثابتة الأكثر اتصافاً بالرزانة والصفاء . والتي هي ، فوق ذلك ، مشتركة بين جميع الدول الشرقية .

والقِدَم النسبي للتنظيمات الانتاجية في هذه البلدان ينشط دور العلاقات الانسانيـــة بين اصحاب العمل والمستخدمين ، ولعبـــة الحدس الشخصي le Jeu de l'Intuitus personae على حساب الوعي الطبقي . فان أقلية عمالية ، تقدر بعشرين بالمائة ، تعرف ، وحدها ، القراءة والكتابة . وان فيض العرض لليد العاملة ، وامتداد البطالة والتشغيل الناقص يغل سلاح المطالب العمالية في كثير من الاحيان . ويضاف الى ذلك ، في هـذه الأيام ، ضرورات النمو القاهرة . فقد قرر المشرّع في الجمهورية العربيـــة المتحدة ، مؤخراً ، ان يضحي بالحق في الاضراب على مذبح هذه الضرورات [10] صحيح ان قانون العمل الذي نشر مؤخراً فيها (قانون رقم ٩١ الصادر في ١٩٥٩) يوسع ، بصورة محسوسة ، حماية العامل والضمانات الاجتماعية . ولكن همه الرئيسي لا ينفك ، كما يبدو ، ان يكون تحصين الاقتصاد ، بصورة وقائية ، ضد أخطار توقف العمـل الناتج عن مطالب جماعية او عن تحرك اليد العامـــلة ، مما يحدث زيادة في المسؤوليات التحكيمية للدولة ، التي لا ترى فيها المعارضة غير نوع من التحكم الاعتباطي .

فقصة الحركة النقابية في الشرق الادنى تبرز ، اذن ، تقدماً لا يمكن نكرانه . ولكنه غير متعادل ، ويختلف حسب البلدان . فاتحاد القوى العمالية السودانية يمكن ان يعطى كمثل على الحركة النقابية الاكثر تقدماً ، على الاقل في الفترة التي كان المرحوم الدكتور فوزي يقوم بتحليلها [11] وان مؤرخ هذه الحركة

---

١٠) مجلة « الاقتصاد والمال في سوريا والبلدان العربية » عدد ايار ١٩٥٩ ص ٣٨

١١) سعد الدين فوزي : « الحركة العمالية فيالسودان » (بالانجليزية) اكسفورد ١٩٥٧ انظر ايضاً لنفس المؤلف « توزيع اليد العاملة في السودان » في مجموعة « الاوراق الاقتصادية في الشرق الاوسط » ١٩٥٨ ص ٢٢ وما يلي .

كان يذهب الى حد الخروج بالنتيجة التي تقضي بضرورة اشراك الحركة النقابية مع عملية وضع المخططات الاقتصادية ولكن التطور يتميز ايضاً بصعوبات خاصة ، ومن وقت لآخر ، بما يمكن ان يسمى « التراجع التحسبي » المرتكز على عناصر الوضع الاقتصادي . ولهذا السبب ، وبالرغم من الاهمية الفائقة للنمط الاجتماعي هذا ، الذي قد يشكل ارتقـــاؤه المنتظر ، رغم انه يلجم اكثر من اللازم في اكثر الاحيان ، المثل النموذجي لنمو يذهب من القاعدة ، فانني سأكرس تحليلاً اكثر تفصيلاً للكشف عن قوة كبرى اخرى : الطبقة الفلاحية .

النظام التعاوني في مصر ليست الحركة التعاونيـة شيئاً جديداً في مصر [١٢] . فمنـــذ ١٩٠٧ ، قام مصلح من النوع الذي عرفته هذه البلاد من جيل الى آخر يدعو للحركة التعاونية حتى انه سمي « رائد الحركة التعاونية » انه عمر لطفي . لقد أسس عدة جمعيات تعاونية على غرار جماعات رافيسين Raffeisein وقد تفنن زعماء مثل محمد فريد ومثل سعد زغلول في التحايل لاقرار الوثيقة الاولى ، ضـد القوى المقاومة او المجهولة . وقد كانت ذات طابع نظري ، الامر الذي يثـير الغرابة . هذا صحيح . وقد اقتضى الامر الانتظار حتى عام ١٩٢٣ حيث صدر المرسوم رقم ٢٧ الذي أرسى قواعد الحركة التعاونية في مصر . وقد تطورت الحركة ، منذ ذاك ولكن هذا التطور كان في اتجاه الكمّية اكثر منه في اتجاه الفعالية حتى بلغت الحركة ارقاماً تبدو ، لأول وهلة ، ضخمة . ففي عام ١٩٢٨ ، كان يوجد ١٦١ تعاونية زراعية ، وفي سنة ١٩٤٥ ، الف وستمائة واحـــدى واربعين . وقد كانت تضم حينذاك ٧٧٦٠٠٠ عضواً ، ولو ضممنا اليها ايضـاً التعاونيات الاستهلاكية البالغ عددها ٣٦١ لأن المجهود كان يتناول في وقت واحد

---

١٢) انظر تاريخ الحركة في « مجلة التعاون » * عدد حزيران ١٩٥٤ ص ٣١ وما يلي .

الانتاج والاستهلاك . وقد أسس مصرف يدعى المصرف الزراعي والتعاوني ، في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨ .

وكان الفلاح بحاجة ماسة اليه ! فالاقتصاد كان يشكو من العدد المفرط للوسطاء . وبما ان حياته كانت ، الى حد كبير ، مرتكزة على زراعة القطن فان عدداً كبيراً من المهن قد تكاثر في الحيز الذي يفصل الزراعة عن التسويق . وما أطول الطريق التي تمتد بين حقل القطن والاسكندرية ! فعلى طولها يسرح المضاربون والمغامرون . انها مشكلة دائمة التكرر والأهمية الآنية ... والدولة تشتري ، اليوم ، القطن في مجموعات حدها الادنى ٢٥٠ قنطاراً . وهي كمية كبيرة لا قِبل للفلاح الصغير بها . فهو لا يملك اية وسيلة للتمويل ويضطر للالتجاء للمرابي المحلي الا اذا استطاع ان يستنجد بتعاونية الاصلاح الزراعي التي سأتحدث عنها فيما بعد . اما فيما يتعلق بالفلاح المتوسط الحال ، فان الوسطاء يستنزفون دمه . فبين المنتج والمستهلك ، او بالأحرى المصدّر ، تنتصب عدة فئات من التجار . فثمة التاجر الذي يسمى « الزهّار » * وهو الذي يشتري القطن وهو لا يزال في حالة الإزهار ، وهي عملية ربا في اكثر الاحيان ، وثمة « الجلاّب » * الذي يشتري كميات صغيرة ليعمل منها اقساماً كبيرة « موضبة » . ولكنه ليس غير مضارب يعكس ، على نطاق العزبة او القرية ، مع تضخيم بالارباح ، حركات بورصة الاسكندرية او القاهرة . اما « الحلاّج » ، وهو الضحية والجلاد في آن واحد ، فينقل الى القاعدة العذابات التي تقاسيها وتتجرعها على ايدي كبار التجار ، والشركات الكبرى ، وبفعل هذه الطريقة يسير الجهاز العام القائم على تركيز الثروات والذي يعيث فساداً في مصر كما في كل مكان آخر .

والنظام التعاوني كان يدّعي محاربة كل هذه الآفات [١٣]. فهل كان ينجح في

---

١٣) لقد استعيرت الوثائق الحاليـة لهذا المقطع من تحقيقات نشرت في الصحافة المصرية وخاصة من تحقيق لعدلي برسوم في جريدة « المساء » عدد ٩ اوكتوبر ١٩٥٨ و ٢٣ اوكتوبر ٥٨ ، وكذلك لعلي الشالقاني ، في الجريدة نفسها عدد ٩ اوكتوبر ١٩٥٨ و ٢٥ اوكتوبر ١٩٥٨

تحقيق هذه الرغبة ؟ عندما أقدموا ، في مؤتمر القاهرة للتعاونيات عام ١٩٥٥ ، على وضع دراسة لجلاء الأمر حول جدوى كل الجهود التعاونية ،برزت تجاوزات مذهلة ، وظاهرات فشل ذريع ، اعترف بها التقرير العام ، بكل صراحـــة . فقد كان النظام التعاوني يشكو من أنانيـــة وجهاء واعيان القرى ، ومن عدم تجربة رجال الادارة ، ومن تجاوزات بنك التسليف الزراعي ، فان هذا الاخير كان يقوم ، بصورة تدل على التناقض ، ولكنها تتمشى مع الاسلوب التقليدي، بالتفاهم مع الاعيان المحليين ، فيغدق عليهم نعم سلفه وقروضه ، مقابل قيامهم باعمال السمسرة له . ومن هنا ، اذن ، كانت الضرورة لاعادة البنـــاء كاملاً ، ابتداء من القاعدة . ولهذا السبب تخضع تعاونيـات « الاصلاح الزراعي »* التي تضم الفلاحين الذين احتلوا الاراضي الموزعة ، لمبادىء جديدة ، منذ اعلان الثورة

فضد نفوذ الاعيان ، تقرر انه لا يحق الدخول في تجمع تعاوني إلا للملاكين الذين لا تتجاوز املاكهم الخمسة أفدنة . ولكـــن ، لسوء الحظ ، يتحول الفلاح ذو الثلاثة افدنة ، سريعاً ، الى مستغل صغير . ففي احـــدى النشرات الاولى المكرسة للاصلاح الزراعي يلاحـــظ المرحوم حسن ابو السعود أنه ، في عام ١٩٥٥ ، كان مليونان من الفلاحين يملكون أقل من فدان واحـد ، اذ لا يزيد معدل المساحة التي يملكها واحدهم على ٣٠ بالمائة من الفدان . اما الذين يملكون من فدان واحد الى خمسة أفدنة فان عددهم لا يتجاوز ٦٧٨٠٠٠ ، ولكن معدل المساحة المتملكة بدأ يقفز الى ٢١٤٤ فدان . فتركيز الملكية بدأ يلعب ابتداء من القاعدة . وقد بدأ ترسب الطبقات يرتسم بين طبقتين من صغـار المنتجين : المنتج الذي يبقى في المرحلة التحت اقتصادية (او الاقتصادية الدنيـــا) والمنتج الذي يرتقي الى المرحلة الاقتصادية والذي شرع في عمليات الاحتكار . ومن جهة اخرى ، فان الدولة ، في سبيل مكافحة عدم التجربة لدى المنتفعين بخدمـــات

التعاونيات ، تقدم بسخاء ، المدربين والخبراء : وانه لجهد مشكور ، ولكنه يشكل غزواً من قبل الروتين البيروقراطي ! ولتلافي المساويء التي كانت تنتج عن تصرف بنك التسليف الزراعي ، تقرر وضع القروض بتصرف الفلاحين ، ويجري منحها بواسطة مديرية التعاون ، واللجنة العليا للاصلاح الزراعي : وعند ذاك بدأت تجاوزات نظام المركزية في الادارة ، تهدد بكل اخطارها .

وكما في كل عمل ابداعي انساني ، تتشابك الحسنات والسيئات والامكانات والاخطار . ويمكننا القول ، في معرض الثناء على الاصلاح ، وعلى الكتب التي تغذيها ، مثل الكتاب الذي أخرجه مؤخراً سيد مرعي ، وعلى الريبورتاجات الخبيثة احياناً التي يدفع اليها ، ان شعوراً بالمحسوس الارضي ، هو ولا شك شعور متحدر بالوراثة البعيدة ، يحصنها احياناً ضد الكلام بالكنايات والألغاز ، ضد اللاواقعية .

ففي خريف ١٩٥٨ انعقدت اجتماعات « للمديريات* » « والمراكز »* في سبيل وضع موازنة للمجهود التعاوني . فما هو ، مثلاً ، ما حدث في سنبلاوين ، في الدقهلية . ان خمس « وحدات مجمعة » *تعمل فيها : وهي هيئات للاعانة والارشاد الريفيين ، اطلقت فكرتها ، منذ عام ١٩٥٣ ، في عمل تجديدي بالغ قام به الدكتور عباس عمّار . وهذه الوحدات تتكاثر شيئاً فشيئاً في هذه الايام . وهذه الوحدات تضم خبراء او بالأحرى مدربين ، وشعبة للتسليف وشعبة لتربية الحيوان الخ .. وفوق ذلك شعبة لتربية النحل والاقتصاد المنزلي . وقد أسست تعاونية لاستثمار الاسماك التي تصطاد في بحيرة المنزلة . وهناك رغبة في توسيع الضمان الزراعي الى خمس « مراكز »* منذ عام ١٩٥٩ وقد اتخذ اجتماع الفلاحين ثلاثة قرارات تمني : اولها يتعرض للثورة العراقية ، والثاني لقضية الجزائر . والثالث فقط (وطريقة الترتيب في صياغة القرارات تعكس الترتيب في الاهمية) تتسرب من خلاله اصوات شكاوى الفلاحين المرة . انه الانقلاب المميز في الهموم المباشرة ...

وفي شبين الكوم ، في المنوفية يقدم الوزير نفسه عرضاً عامـــاً لعمليات الاصلاح الزراعي . فهو يقول انه يمكن ، في الوقت الحاضر ، احصاء ٣٣٣٠٠٠ (ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين الف) فدان وزعت على مـــائة وعشرين الف عائلة . وهذا العدد قليل ، بالنسبة لعدد السكان الضخم في مصر . ولكن الأرقام غير الصافية تستطيع ، عن حق ، ان تذهل . فان عمليات التعاونيات الزراعية قد تجاوزت الخمسة ملايين من الجنيهات المصرية (أي ما يعادل قرابة الستة مليارات من الفرنكات الفرنسية) ويظهر أنه قد تحقق ربح يعادل مليـــون وربع من الجنيهات . وعمليـــات التسويق التي اضطلعت بها التعاونيات تجاوزت الثلاثمائة الف « قنطار »* من القطن . وهذه الاعمال تناهض ، بالطبع ، نشاط الوسطاء والمرابين .فالعملية لا تخلو ، اذن ، من قيمـة وتغطي مداراً واسعاً من التجارب ، هذا اذا اعتبرنا انها مرفقة بجهود مكملة عديدة ، في ميدان السكن ، وتوزيع الحيوانات الخ ...

أكيد ، ان التجربة القائمة والمحزنة ، في هذا الحقل ، في جميع البلدان ، تفرض ان يُنظر للامر عن قرب اكبر ، اذا امكن ، مما تتيحه التقارير الادارية. وهذا الذي حققه الكثيرون من الصحفيين . فقد ذهبوا ليعاينوا محلياً ، مجرى الامور في قريتين : الزعفران و « أدا » . وفي الزعفران تضم التعاونيـــة ٥٢٣ عضواً . وقد تلقوا بذاراً بقيمة تزيد عن ١٣٠٠٠ (ثلاثة عشر الفاً) من الجنيهات. وهذا البذار (يحمل ، في مصر ، إسمـاً غريباً « التقاوى »* او « التقاوي »* . وتلقى اعضاء التعاونية كذلك اسمدة بقيمة ٢٧٥٠ جنيهاً . اما في « أدا » فان ما يقارب المائة من اعضاء التعاونية تلقوا بذاراً بقيمـــة ٢٠٠٠ جنيهاً وأسمدة بقيمة ٤٥٠٠ جنيهاً . وفي القريتين يوجـــد مخزن تعاوني ، يستطيع الفلاح ان يشتري منه ، مبدئياً كل ما يلائمه . ومن جهـــة اخرى تعطى له الابقار الحلوب

بالتقسيط لأجل . وعلى هذا ارتفع عدد افراد القطيع ، في احدى القريتين ، من ٣٥٤ رأس بقر عام ١٩٥٥ الى ١٤٩٥ بقرة حلوب عام ١٩٥٨ . اما قفا الصورة؟ فيظهر ان الانضمام للتعاونيـة اجباري لكل الذين رُكزوا في الارض : اذن ، منذ البداية ، لا مبادرة شخصية ولا عفوية . ونظام التوجيـه المشدد يتجلى في كل لحظة ، في شكل تخطيط زراعي، وتسويق ، ومحاولات للمكننة ، وتسليف. وفي القريتين يبدو مجلس الادارة للصحفي الذي لا يخشى ان يقولها بصراحـــة ، مجرداً من كل سلطة حقيقية ، انه يعتبر ان « المندوب »* أي المفوض الاداري ؛ هو الذي يتمتع بكل السلطـــات . الا اذا كانت هذه السلطات بيد المجلس المركزي للتعاونيات ، وهذا الامر ليس افضل في شيء .

هذه الانتقادات لا تبعث ابداً على الدهشة . فالتجديد الاقتصـــادي . او جدة هذه المحاولة الاقتصادية ، في هذه المرحلة وفي هذه البلاد ، يتدخـل بصورة كلية ، مجهزاً بسلطة الجسم الاجتماعي ومثقلاً باعبائه . وقبل ان ينتقل الى مرحلة المواقف الفردية ، يقتضي ان يبرز ويرتسم جهاز كامل من الافعال وردود الافعال المضطربة في حركة مد وجزر . وهذه الحركة ستكون خصبة بقدر مـا تترك للنقد الايجابي مجراه الحر . فالفلاح ينكر على المخزن التعاوني كونه يغص بالسلع الجميلة ولكن الجميلة الى حد - والتي لا تعطى الا مقابل دفع نقدي - انه يفضل اللجوء الى البقّال ، هذا القارض الصغير الذي يعيش في القرية ، والذي يقدم للفلاح نعمة البيع بالدين . ويتمنى الفـلاح ان يشتري كيسين من الاسمدة عن كل فدان من الارض التي يستثمرها ولكنهم لا يعطونه الا كيساً واحداً ، فيتحتم عليه ان يشتري الكيس الآخر من السوق السوداء . وقد طلب الفلاحـــون بذاراً من « البرسيم »* والفول : ولكن عبثـاً . والدولة تشتري منهم القمح بسعر ٤٠٠ قرش صاغ « للأردب »* . ولكنها تعود فتبيعهم اياه ، في شكل بذار ، بسعر ٤٥٠ قرشاً . وفي مصر ، كما في البلدان الأخرى ، وفي النظام التعاوني كما

في التجارة ، يخلق التعامل بالحبوب تجاوزات مقلقة . والفـــلاح لا يتهم مجلس الادارة بهذه الاشياء فقط .

ففي قرية اخرى ، شبشير العيسى ، يشكو الفلاح من كون توزيع الاراضي، الذي يقتضي ان يقتصر على فقراء القرية ، قـد أدى الى تمركز غرباء (وكلمة غرباء تعني هنا ، اهل القرية المجاورة) . وخاصـة هو يشكو من اضطراره لان يدفع اقساطاً من ثمن شراء الارض اكثر مما كان يدفـــع للبيك بشكل أجار الارض : اكثر من ١٠٢ جنيه مصري ثمناً لفدانين وثلاثه قراريط . والفلاح لم يعد يدرك هذا الامر او يتظاهر بأنه لا يفقه من الامر شيئاً . فهو عبثاً يجهـد لان يكون فلاحاً متنبهاً وحريصاً . انه يغرق (او ربما يلتجىء الى الغرق) في نوع من خضم المفاهيم وخاصـة الارقام . وهذه الارقام هي اعداؤه بالوراثة . فقد ظل أبداً عرضة للنهب (او الجز) من قريب ، حتى اعتقـــد ، او يتظاهر بالاعتقاد انه لا يزال ضحية هذه العملية . ونحن نعرف ذلك ...

ولكن عواطف اخرى ، ومبادرات اخرى ، تدخل الآن في اللعبـة . فان اعضاء التعاونيات في احدى هــــذه القرى يقررون في مجلسهم بان يمتنعوا عن الاستخدام بصفة عمال موسميين ، رغم اغراء الربح ، طالما هم لم ينجزوا الاعمال التي يقتضيها موسم القطن في مؤسستهم الخاصة . والحال ان هـــذه الاعمال هم يستوفون عليها اجوراً منخفضة نسبياً ، بيـــنما كان بامكانهم ان يستفيدوا من المضاربة الموسمية في المواضع الاخرى : اذ ان للبائس ، هو ايضاً ،حظوظه . وهنا يتجلى ، في وضح النهار ، استعداد نفسي ، ليس تعاونياً فقـط ، وانما جماعي ، ربما أو مشاعي ، عامي Communal . ان شيئاً ما يولد ، عـبر الشكوك ، والاخطاء ، والتجاوزات .

التكون العسير للعاميات (Communes)

هل سيكون هذا الشيء الكومونة (أو العامية)* . فمن كل زوايا العالم العربي من البصرة الى فاس المغربية، يرتفع المطلب ذاته : ان تمنح المبادرة للقواعد في المجتمع. ولكن كيف تفهم هذه القواعد؟ ان أنواعاً غنية بالعبر تظهر تحت اجماع التقرير . فكل من هذه البلدان ، عندما يقوم بثورته ، يقرر القيام « بأصلاح زراعي » . وان كتابات عديدة شرعت تطرز حول هذا الموضوع . ان الاصلاح الزراعي ، هو « ثعبان البحر » ، ان صح لي القول ، في كل التفكير السياسي والاجتماعي السائد في الشرق منذ جيل . ألا يدخل في نطاق هذه الشهوة للامساك بواقع الأرض ، المحتدمة في نفوس أناس خرجوا منها بقوة الأشياء ، وسواء هم انتموا الى الطبقات الارستقراطية أو البورجوازية القديمة والمثقفة ، أو الى الطبقات الجديدة التي أدى ارتقاؤها الى سدة الحكم لانفصالها عن الحقائق الاساسية هل هو الضيق حيال هذه الحقائق ؟ صحيح انها تبدو باعثة للمشاغل، ولكنها، أيضاً ، على شيء من الاثارة للروائح الكريهة ، أو ان جاز لنا أن نقول كل شيء ، هي لا تخلو من التلوث انها على كل حال ، معادية لثقافة المدن التي استفادت من تحالفها مع الحركة الوطنية في مرحلة التحرر . .

فها هي مثلاً ، طبقة من رواد الدورات التدريبية التي أقبلت عام ١٩٥٣ ، في بداية حملة التثقيف الشعبي انطلاقاً من القاعدة ،في مصر (١٤) ، لقد أقبلوا من

---

*) اننا نستخدم هنا ، للتعبير عن المفرد « الكومونة » La Commune كلمة «العامية» التي نستعيرها من الاسم الذي اطلق على حركات ثورية قام بها الفلاحون في لبنان في القرن التاسع عشر : عامية انطلياس وعامية لحفد المترجم

١٤) جاك بيرك الكوميدي والفلاحون ،« الاوراق التونسية » Cahiers de Tunisie عام ١٩٥٨ ص ٥٠

جميع انحاء العالم العربي ، أي بأكثريتهم من أعماق الريف والقبائل . وها هي شهادة أحدهم « وأنا أضع ملاحظاتي بين هلالين » .

« العمل في القرية» : لقد أثار هذا التعبير ، بين رفاقنا ، كل أنواع المناقشات والمشاورات الطويلة . انهـا كلمات مخيفة ومشحونة بالسحر الخفي ! فالبعض منا لم يشاهدوا في حياتهم قرية البتة ، « هـل من المعقول ان يستطيع عراقي خارج من الوسط القبلي أن يتبادل أحاديث من هذا النوع مع رفاقه المصريين الذين يكشف مظهرهم الجسدي نفسه عن نسبهم القروي » ؟ انهم يتصورونه في ملامح وحش مفترس « لنتركه يعطي المبالغة حصتها ... » وكان كل واحد يتساءل بقلق : ما الذي يمكن عمله في قريـة ؟ (انهم يعرفون ذلك اكثر من اللازم ، لان طفولتهم قد اندمجت وجبلت في حياة القرية » ، وخاصة ، هل سوف نعرف كيف نضع موضع التطبيق ما تعلمناه اثناء الدروس ؟ « وهم على حق ، لان مواد التعليم في هذا الجزء من العالم ، كما في المواضع الأخرى ، تظل احياناً نظرية أكثر منها تطبيقية » والذين كانوا يتفوقون في المناقشة لم يكونوا الاكثر طمأنينة ، اذ ان ثمة دائماً احتباساً أمـام المجهول يستولي عليك عند اجراء «الاتصالات الاولى » . (« الاحتباس أمام المجهول » حيال قرية مصرية ، هذه القرى التي كان حضورها يعصر النفس ويحيط بنا من كل جـانب ويسد كل الأفق حولنا !) . وذات يوم ها هم مجتمعون في قاعة الدرس . وقـد اختار الاساتذة النقاط التي ستتناولهـا التجربة . هذه القرى ، كان من الضروري تسميتها ، عند ذاك بوشر بكتابة اسمائها على اللوح ، وبشيء من الخجل ، وقامت الصعوبة الاولى : « فقد صرح الدكتور × لنا ان المركز قد اختار لنـا أربع قرى : وبدأ بكتابة اسمائها على اللوح . ديبركي . فكانت قهقهة ضحك من قبل رواد الدورة الذين كانو يسمعون ، لاول مرة ، بهذا الاسم ذي الرنة الغريبة

(لماذا ؟) . ثم فيشا : وكانت نــوبة ضحك أخرى : ومن كل مكان ، كان الحضور يرددون بسخرية : فيشا ! فيشا ! ثم رسم اسم قلطا الكبرى : وكانت موجة ضحكات جديدة واصوات تساؤل . ثم بلغ الضحك اوجه عندمـا سميت القرية الرابعة ، « مناوهلة » : وكانت نوبة اقوى ما يكون » .

انها مواقف لا تخلو من التناقضات . غرابـة القرية : والشعور بالانفلات من حقيقتها الارضية ، التي يتحدرون منها مباشرة ، رغم كل شيء .

ان الدكتور كامل حسين ، مؤلف « المدينة الجائرة » ، قد ولد في قرية جد قريبة من « مناوهلة » هذه التي كان اسمهـا يحمل صاحبنا العراقي على الضحك . وهو نفسه يعترف بالصدع الغريب الذي انفتح في ذاته ، مجتثاً الأصول الارضية في شخصيته ، وهو يروي انه رأى ذات يوم ، وهو جالس امـــام باب بيته ، احد جيرانه يمرُّ راكضاً في اتجاه المحطة : وكان القطار على وشك الاقـلاع . فأهمل الـكاتب في رده تحية العابر ، ان يدعوه للدخول الى مسكنه . فمـا كان من هذا الأخير الا أن حفظ له مدة طويلة هذه البادرة غير اللائقة . فان مفهومه « للادب » كان يختلف عن مفهوم اهل المدن ، وكان ينادي بالفضيحة اذا أخذ جاره بعين الاعتبار صفارة الانذار التي يطلقها القطار .

وفي مصر لم تكن ايحاءات الحياة الفلاحية تنجح ابـــداً في امتلاك طريقة تعبيرها الذاتية : وبينما تطردها ثقافة حياة المـــدن من فوق ، يغزوها النمط البدوي من تحت . ومهـــما كان بوسع المثل الاعلى البدوي ان يبعد عن تقاليد فلاحية بالغة الرسوخ والتأصل ، فان تيار القوميه العربية قـــد انتقل به من الصحراء الى القرية . فهو يسيطر بصورة خاصة على « الصعيد » * حيث تسللت مظاهر التراتب الاجتماعي القائم على سلطة الاب ، ونظام الأخذ بالثأر ، وغرور

الانسان الذي يمتطي صهوة الجواد ، بصورة غريبة ، وخطرة، وقربت الى هذه الذهنيات الفلاحية . صحيح انه بالمقابل بمجرد سلطان الريف الملازم للذهن حتى اثارة الوسوسة، وعجيجه الخاص بأصوات الكائنات الخفية التي تزخر في جوه ، بمجرد (اقول) هذان المظهران في الريف كل تجمع عمراني في مصر ، قسماً من طابع المدينة الذي يحمله . فالمدينة السكنيـة تكدس تجهيزات ضخمة نسبياً : ثلاثين الفاً وحتى خمسين الفاً من السكان . ومع ذلك فهي تظل بعيدة عن ان تؤكد ذاتيتها . وهنا يظهر تناقض حاد مع حياة المدن الجلية التي تغلب على التجمعـات العمرانيـة في سوريا وفلسطين . فنابلس تفرض نفسها كمدينة . اما منوف فلا ، وهذه الحقيقة التي ترين بثقلها على النفس ، كأنهـا من الطمي ، كانت تجد تقليدياً ، احد مساربها باتجاه الازهر ، فالجامع الكبير كان يفتـح ، امام ابن الريف المتعلم ، ميدان العلم العالي . وبالمقابل ظل هذا المسجد طويلاً ، حلقة لدراسة الشعر العامي (الزجل) . فهذا « الادب الشعبي » * الذي يجد في عمليات الارشاد الحديثة منطقاً وحظوة خصبة . كان احد وسائل التعبير المـلاذ (او الملاجىء) في حياة الجثث الى صمت الجوع او الزاوية . وبالاضافـة الى ذلك ، اهتدي الفلاح الى طرق عديدة للتطور بفضل امتداد المدرسة الابتدائيـة وحياة الوظيفة الصغيرة ، ومناصب الجيش ؛ والبوليس الخ ... ولهذا السبب ، عندمـا اندلعت الثورة المصرية . اصدرت بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٥٢ مرسوماً حول الاصلاح الزراعي (١٥) . ذلك لانه المرة الاولى في التاريخ ، يعود الحكم في مصر ، كاملاً ، الى الفلاحين .

---

١٥) عرض رسمي بقلم سيد مرعي ، كثير الوضوح وغني بالمراجع : « الاصلاح الزراعي في مصر » (Agrair Reform in Egypt) القاهرة ١٩٥٧

وفي العراق أيضاً ، كان انصار الاصلاح ينحنون ، منذ زمن طويـــل ، على حياة القرية . وبالنسبة للبعض منهم تظل القرية غير مفهومة تقريباً من قبل الذي يتطلع اليها من الخارج [١٦] . وخاصة من قبل الموظف الاداري . ولهذا السبب اتخذت تدابير لا حصر لها ، لدرجة ان التنظيم العراقي الذي نص عليه المرسوم الملكي رقم ٧٠ والصادر عام ١٩٥٦ ، حول انشاء قرى جديدة ، تقتصر فقط ، كما يقولون ، « على الحبر والورق » .

فقد كان يحدث ، بعد ان يتم تشييد البيوت ، ان تظل غـــير حائزة على رضى وقبول الفلاح ، لدرجة انه كان يفضل البقاء في كوخه (القر"*) قرب المسكن النموذجي . وهـــذا الدرس قد تلقاه ، الاصلاحيون ، ليس فقط في العراق ، وانما ايضاً في شمال افريقيا خـاصة ، وفي كل موضع آخر . فالدولة تفهم بصعوبة حياة القرية . لذلك هي تتخذ قرارات تنظيمية مضحكة . واحد هذه القرارات ، مثـلاً ، تقضي بتنظيف المجموعـــة السكنية . وهو ينص على الضرورة المشددة القاضية بتخليص الشوارع من « روث الحيوان » * والظـاهر ان الذي اصدر هذا القرار لم يلاحظ أبـــداً ان الوقود الوحيد ، في العراق اكثر الاحيان ، وفي مصر ، هو روث الحيوانات الذي يقوم النساء بجبله وتجفيفه . ولم يسع المولف الا ان يشعر بحزن الى حادثة رآها مؤخراً في مدينة صغيرة على الفرات . فان فتاة بارعة الجمال قد مرّت وهي تحمل على رأسها سلة مليئة بالروث ولو كانت هـــذه الفتاة في مكان آخر ، وفي ظروف اخرى ، لوجد المرء متعة في مغازلتها ، لروعة جمالها . اما هنا . فان شظف العيش في البيئة ، جعل منها عاجنة براز .

---

١٦) محمود نديم اسماعيل « اصلاح القرى في العراق » * بغداد ١٩٥٩ ص ٦٠ وما يلي وخاصة ص ٧٨ ومـــا يلي . وعبد الرزاق الهلالي في كتاب « نظرات في اصلاح الريف » بغداد ١٩٥٤ .

وحسب المؤلف نفسه، يعود السبب في هذه العمليات الفاشلة الى انهم لم يفقهوا ، إلا نادراً ، الحيوية الداخلية للقرية وهم لم يفهموها لانها ترتكز على النظام العشائري » * . وهو يستعمل كلمة « عشائري » لافتقاره الى مفرد آخر فهو يخلط بين الفلاح والبدوي ، كما يُنتظر فعلاً . ولكنه يحدس عن صواب ، وجود نواة للمبادرة الاجتماعية والسياسية . وكل تشريع يتجاهل هذه المبادرة ، يظل لغواً . والمؤلف هو تقريباً الوحيد في بلده ، وفي عصره بمرحلته التي يتحدث عنها ، الذي لاحظ ذلك . فهو قد تحرر من النظرة الذاهبة نزولاً التي تميز المصلح (الذي يعمل أو يفكر في إطار) النظام الشديد المركزية .

وهذا الرجل الذي يشير الى ثورة البرزاني الطويلة الامد ، في شمالي العراق: يعرف ماذا يعني القول : انه يعرف ماذا يكلف الحكومات المركزية عدم شعورها ، قبل فوات الاوان .

لا يزال من المتعذر تقدير الآثار البسيكولوجية والاجتماعية للاصلاح الزراعي الذي عرفته بدورها سوريا ، البلد المنتج للحبوب . وانني أجد قانون العقود الزراعية مليئاً بالدروس والعبر، لانه اقل بهرجة وبروزاً وإثارة للمناقشات الآتية ، وهو نص صدر فقط في تموز ١٩٥٨ : وفي المقدمة ، يضع الوزير هدفاً مؤجلاً هو الاشتراكية التعاونية التي ستؤدي الى تحرير القروي من رواسب الماضي . وبالنسبة للكثيرين من الشرقيين ، كلمة « الريف » تعني الاقطاعية . فان تاريخهم العقاري قد ساده بالفعل ، التوسع في ضريبة أميرية ، هي « الميرة» * وكان النظام يفترض ان الارض هي ملك للطائفة الاسلامية « الأمة »* وفي الواقع ، انه كان يعطي تفسيراً دقيقاً لكل أنواع الاحتكار الذي كانت تفرضه السلطة المركزية أو المحلية . وكان الأسياد قد جمعوا مساحات وأمداء شاسعة

يقطنها فلاحوهم ، وقد امتلكوها وسيطروا عليهـا حتى السنين الأخيرة ، اذ أنه اقتضى الأمر قيام ثورات زراعية حديثة مثل ثورتي العراق وسوريا لكي تبدأ المحاولة لتصفية هذا البناء الاجتماعي .

ويضيف النص المذكور ان العقود الزراعية لم تكن ترتكز ، حتى الآن ، على أي حق . وانا أسلم دون مشقة بأنها لم تكن ترتكز ، على القانون .ولكن هل يمكن الاعتقاد ان العادات الريفية نفسها قد ضاعت وتبـددت ؟ على كل حال ، فان واضع المقدمة يعتبرها عرضة للتغيرات المستمرة . ان كل ماآخذه على العادات الريفية بالحري هو النمط الواحد والجمود ، ولا شك ان اعتباطيـة المالكين كانت تتحكم فيها ، دون منازع . وان رد فعل سليم يقود المشرع الى أن يعطي النصيب الضخم الذي يعود للعادات التي تسير حياة أهـل الريف ، في جميـع بلدان العالم ، تقديراً بما هو أدنى مما يستحق . ومهما كان الامر ؛ فـان القانون الجديد يحدث تقدماً ملموساً . فهو يمنع العقود الابدية : وذلك ليقطـع الطريق على العمليات البديلة لعملية القنانة (أو الرق) ، وفي النهاية ، ترد اشارة الى واجبـات الفلاح التي يقتضي أن تعادل حقوقـــه وهنا تعود للظهور النزعة المركزية المتسلطة . ولنلاحظ ، لدى تصفحنا هذا القانون ، ذي النوايا الديموقراطية رغم كل شيء ، أنه يمنع على الفـلاح حق الاضراب ، ويمنع على المؤسسات النقابية حق تشجيعه على الاضراب . وبالطبع ، فهو يمنع على المالك حق اغلاق مؤسسته او وقف العمل كرد على تهديد العمال بالاضراب . انمـا في نهاية المطاف ، تكاد الواجبات تعـــادل الحقوق ، كما يبدو ، الامر الذي له مبرراته في الواقع ، والذي لا يستطيـع اي تشريع ان يلغيه بسرعة .

ومع ذلك فان اتجاه السودان الافريقي ، على تجرده من الطابع الزنجي ، يحدث مع القومية العربية ، مزيجاً طريفاً ذا مساوقـة « سيمفونيـة » ، وهـذا

التعبير لست انا الذي اخترعته ، وانما وزير سوداني ، هو محمد أحمد محجوب [١٨] مؤلف احد الابحاث الاكثر اثارة للأهتمام في سرد حياة الجيل [١٩] . وقد تحدث آخرون من الشرق ، عن الاحسان نحو الفلاح ، وعن حقوق الفلاح وكذلك عن واجباته . ولكن بقيت كلمة « العامية » (الكومونة) مفقودة . انما تقع بصورة غريبة ، في هذا الكتاب السوداني على اصرح نداء لما يعرفه التاريخ الغربي على شكل ثورة عامية . وينهي محجوب بقوله : « ان الثورة العامية (وقد اجرى تحقيقاً حول ما تعنيه هذه الكلمة ليس فقط في انجلترا ، ولكن ايضاً في فرنسا والمانيا) : انها « الطريق الوحيدة » لمساعدة هذا البلد على تكوين امة ولتحقيق آماله الاجتماعية » . خط سير قومي ، وخط سير اجتماعي. والكل مترابط بوساطة زخم اندفاع قادم من الاعماق .

انحطاط الجماهير القروية واعادة تكونها

ومثل هذه المناداة بالايمان بالعامية تظل نادرة لانها تصطدم بصعوبات كبيرة . وان نمط التجمع القروي في الشرق يستعصي ليس فقط على التدخل الأجنبي ، وانما أيضاً على القابلية للاقتراب من الافهام . وقد حصلنا على الاعتراف بهذا الامر . ففي مفهوم « القرية » ذاته تتفاعل — بصورة تدل على التناقض الظاهر في نظرنا — القيم المنسحقة التي تتعلق بها طبقة الفلاحين والمثل العليا المنهارة التي كان البدو يؤمنون بها . وبالنسبة للكثيرين من الداعين للاصلاح في الشرق ، تتضمن كلمة « قروي » معنى « بدوي » ايضاً . وربما كان على الوردي ، في تحليله لنفسية الشعب العراقي الوحيد بين أقرانه الذي يفصل في هذه الكلمة المبهمة بين الفرح الجشع الذي يميز البدوي والصبر المهان من زمن طويل الذي يتحلى به الفلاح .

---

١٨) « الحكومة المحلية »*، الخرطوم ، ١٩٤٥

١٩) موت « دنيا »*، نشر بالتعاون مع عبد الحليم محمد .

وعلينا ألا ننسى أيضاً أن كل هذه الحكومات قد وضعت سياسات لتحضير البدو ، بصورة تتفاوت في فعاليتها . وعبد العزيز آل سعود نفسه ، الذي كنا لا نرى فيه ، في نظرتنا الرومانسية ، غير مالك الصحراء، قـد ركز عمله على « مدن القوافل » وعلى الواحات . وهذا البدوي المزعوم كان يصب جهوده على خلق مناطق مرويّة . ولكن هذه الازدواجية في المعنى (الالتباس) تمدنا بالدروس . وهي ترجع الى الماضي البعيد لأن مفكراً مثل ابن خلدون كان يدرج تحت تسمية البدو الواحدة ، قبائـل بني هلال البدوية ، وسكان جبال الأطلس العالية ، العريقين في توطنهم الحضري !

ومهما كان الامر ، فـان مصيراً مشتركاً ينعقد من جديد بين النمطين الانسانيين ، في الفترة الحاضرة . فالفلاح والراعي منكوبان بالمصائب نفسها ويقعان فريسة المصائد نفسها . وواحدهما والآخر يجدان جذورهما مع أرضهما تجتث شيئاً فشيئاً . والتجمعات العمالية الكبرى ، والمدن التي تضطرب بالعجيج تمتص دون توقف أو ملل كل ما يدور حواليها من هذه الانسانية القديمة ، المتحدرة مباشرة من عهد التوراة والتي تعيش وتتكاثر بصورة مدهشة كالطفيليات وعدم الاستقرار يمتد اليوم الى الجماهير القروية التي تتدفق ، بعشرات الآلاف على ضواحي المدن الغارقة في البؤس . والبدوي الذي تناوله التدجين والتأنيس في الظهران يستطيع ان يعقد اليدين مع الفلاح المنهزم في « صرائف » * بغداد وفي ضواحي القاهرة .

وحتى في البلد الذي بقي فيه الاستقلال الذاتي للقرية على اشده ، وحيث لا يزال يرسي أبنية هي في الحقيقـة أبنية دولة ، في لبنان مثلاً ، حيث الضيعة الجبلية تقيم التوازن السياسي مع مدينة الساحل. انا الاحظ التيارات نفسها للانفلات والهرب خارج النمط القروي . وهنا تعاني الحيويـة التي كانت تتصف

بها حياة العامية من جاذبية المهن في المدن . وفي الوقت ذاته من الانفراج المفرط على الكوزموبوليتة (أي من الحياة المنفتحة على العـالم كله والكون بأسره) ومن الاواصر الطائفية التي تربط بين العناصر المتناثرة بين القرى المختلفة والتي تقيم الحواجز والتنافس بين الاحياء داخل التجمع العمراني الواحد . أكيد أن المهاجرين يبذلون جهوداً رائعة في سبيل الابقاء ، بوساطة رؤوس الاموال التي يوظفونها على الرمز القروي ؛ الذي كان في المـــاضي شجرة التوت ، والذي اصبح اليوم شجرة التفـــاح ، وفي كل آن شجرة الأرز . ولكن الكثير من التطورات يهدد هذا الوفاء للقرية .

وفي بعض الحالات أيضاً ، اسهم تاريخ التحرر في الخفض من سمعة أهل الريف فبالرغم من مشاركتهم في حركة سعد زغلول ، ورغم قيامهم بثورات عاتية ؛ مثل ثورة جبل الدروز ، أيام الانتداب الفرنسي على سورية ، نجحت الحركة القومية في المدن في بلورة الجانب الاكبر من قوى المقاومة . ولا يدهش أحـداً أن تنعم هذه الحركة باستقلال انتزع بثمن باهظ ، على الاقل في مرحلة أولى . وهذا ما يفسر ان الطبقة الفلاحية بخلفيتها البدوية ، تبدو بالنسبة للكثيرين من الشرقيين كطبقة في حالة بدائية وفي حالة انحطاط ، في الوقت نفسه ، وناقـلة لقيم جد قيمة وكذلك لشرور مهددة ، على كل حال هي تبدو عرضة لتناثر اخلاقي واجتماعي . ومع ذلك ، ففي المرحلة التالية التي بـــدأت تلجها بلدان أخرى ، والتي ستتأخر في مواضع أخرى تبدو دلائل تحمل على الامل بـــأن أوساط الفلاحين ستستعيد ــ ومعها الكثير من الحقائق الأخرى ــ نصيباً كبيراً من الحياة القومية . الا اذا كانت حركة التصنيع قد انقصت قبل ذلك الحين ، عدد الافراد العاملين فيها تمشياً مع ظاهرة داوجة ومشتركة بـين كل البلدان . فهي

ستعرف ، اذ ذاك على الصعيد الكمي ، تدنياً من النطاق نفسه الذي يقوم عليه التدني الذي فرضته عليها ، على صعيد الصلاح النمطى تسويات الفترة السابقة .

لذلك نحن نحيي الجهود التي تبرز للضوء هنا وهناك وخاصته جهود « التربية الاساسية » [٢٠] . وليس ذلك بسبب النتائج الملموسة التي بدأت تسجلها في دجيلة (العراق) وبخت الرضا (السودان) وسرس الليان الخ ... ولكن خاصة بسبب التوجيه السليم الذي بدأت تفرضه على شبيبة مثالية . ومن هنا أيضاً كان الاهتمام بمحاولات مثل محاولة « الوحدات المجمعة » في مصر [٢١] . وانه لمفهوم كثير الدلالة ! انه يرتكز على امساك حكيم بالطابع الاجمالي .ولكنه يهمل التقسيم « الطبيعي » الى خلايا عند القاعدة . اذ أنه لتناقض ظاهر في الشرق — ومنتظر في الحقيقة — أن تسبق الحقيقة الوطنية الحقيقة البلدية ، العامية ، خلافاً لما نعهده في التاريخ الاوربي . فلقد سبق لنا أن لاقينا الكثير من هذه التناقضات والانعطافات العكسية .

وكل جهد من هذا القبيل يثير في الشرق صعوبات ضخمة ، ونحن نحمد للكثير من هذه البلدان سعيها لان تنفق ، على قدر هذه الصعوبات ، طاقات تختلف حسب الفترات والانظمة والطبقات . ولئن كان ضخماً أننا نجد اصلب المحاولات لخلق الحقيقة البلدية أو العامية في المناطق النائية من العالم العربي ، في

---

٢٠) ادب اصبح غزيراً ويشتمل على مجلة يصدرها مركز سرس الليان (مصر) ومجلة اخرى يصدرها مركز بخت الروضة (او بخت الرضا) في السودان . انظر ايضاً علي فؤاد احمد في كتاب « النهوض بالمجتمع المحلي » — القاهرة — ١٩٥٧

٢١) عباس عمار ، محاضرة تجديدية ، عام ١٩٥٣ ، تنظيم القرية المصرية (في منشورات)

السودان ، يمكن القول أن هذه الطرافة تذهب نحو التناقص كلما اقتربنا من المواطن القديمة للمدينة الشرقية : من القاهرة ، القلعة العريقة لنظام الدولة الشديد المركزية ، ومن دمشق ، هذه الطغراء المطبوعة على وجه الصحراء . وبالفعل فان الثقافة العربية كانت تقوم « بتصعيد » الحقائق الاساسية لكي ترفعها الى مرتبة الايمان التي هي أيضاً مرتبة الاناقة ، والشهامة، والمروءة . وهذا التراتب ينعكس وينقلب ، اليوم . فليس يترتب على الاصلاح ان يقوم بتصعيد الحقائق الجافية ، الخام بقدر ما يترتب عليه ان يذهب نحوها ، واذا شئنا الاحسن ، ان يستوحي منها ، أن يُقبل منها . فالاسلام ، والحال هذه ، يحول النبرة في الطابع الارستقراطي والمتسامي الذي كان بوسع نظامه أن ان يستبقيه ، لينقلها الى قيم أخرى من قيمه ، ملائمة لاتاحة الديموقراطية . ولكن تحويلاً من هذا النوع يميز بالنتائج الخطيرة . انا لا أتكلم حتى عن التبدلات الضرورية التي يقتضي كل اعادة بناء محبة للعدالة والمنطق ان تفرضها على الاوضاع الفعلية . وازاء أخطار العنف والتسوية التي تفرض ذاتها على الاصلاح الاجتماعي ، في البلدان العربية مثلما في البلدان الأخرى ، يضاف نزاع حول المثل العليا . وكل مجتمع ، وربما هذا المجتمع أكثر من غيره ، مجبر اليوم على أن يختار بين قيم متنافسة وأحياناً تطرد بعضها البعض (٢٢) وعلى هذا المجتمع أن يعتبر نفسه سعيداً لو استطاع أن يقف عند اعتداءات مدرة للربح القليل أو الكثير ، ضد البعض من قيمة . أو ان يتحاشى مثل هذه التضحيات بصورة ثابتة .

---

٢٢) تنتزع التصفية المؤثرة لقيم الماضي صرخات رائعة من ريشة ميشيليه متناثرة هنا وهناك في كتابه « تاريخ الثورة » انظر خاصة طبعة ١٨٤٧ الجزء الاول ص ٢٢٠

هذه هي الصعوبات التي يلاقيها الشرق الادنى ، مثلما تلاقيها المناطق الاخرى ولكن ربما اكثر من المناطق الأخرى ، في بحثه « عن جذور السماء » .

واذ نصل الى هـــذه النقطة من بحثنا ، لنلاحظ مرة أخرى ان الجانب الاقتصادي ، عندما تجري أقل محاولة لتعميقه ، يكشف عن علاقات لا يستطيع تحليل خارجي مجرد ان يستشرفها . ولئن الححت رغم ذلك، كل هذا الالحاح على جوانب من علم الاجتماع الاقتصادي ، فـذلك لانني أولا كنت اترك نفسي منقاداً بمقولات معاكسة (انتيتاز) مألوفة للشرق على قدر ما نألفهـا نحن ، حول مثالية عربية مزعومة يعسر عليها أن تقوم بتسويات مع المادية المزعومـة للعصر الحديث [1] : هذا هو الذي كان من المهم ان يدقق فيه وأن يوّضح . (وعليّ ان أضيف انني رغم انسياقي مع هـــذه المقولات المعاكسة ، لم أكن مخدوعاً بها . وفوق ذلك فان الجانب الاقتصادي كان يعطي للتحليل المرتكز الاسهل وتقريباً علامات تجريبية حول تطور الحوار بين الانسان الشرقي وطبيعة يستعيد غزوها واسترجاعهـــا من الآخرين ، شيئا فشيئا ، مثلما يتطور في داخله .

---

١) هل ثمة حاجة لان اقول ان كلمتي « المثالية » و « المـــادية » تستعملان هنا بالمعنى الساذج ، وليس استناداً الى نظام فلسفي ؟

ولكن تطوراً مماثلاً يزج بظاهرات اكثر لطافة [٢] : تغير في العلاقات بين الجنسين ، بين فئات ذات طرق مختلفة في التعبير وفي الدلالة ، وعلى العموم . تحرك جماعي وفردي في الذكاء . وفي الحساسية وفي الارادة .

هذا هو ما تحاول الفصول اللاحقة ان تلتقطه وتنقله .

---

٢) بين المحاولات الحديثة ، يلزمنا أن نذكر دراسة دانيال ليرنر Daniel Lerner لتقيس كلا او بعضاً من هذه الظواهر بواسطة معيار كمي ، يسمي « معيار التعاطف مع الخارج » « Empathy » ، كلمة (انجليزية) يمكن ترجمتها بالانفتاح على الخارج » او بالشعور بالمشاركة مع الخارج » ، عنوان الدراسة : « زوال المجتمع التقليدي » ١٩٥٨ انظر خاصة ص ٤٣ وما يلي (عرض النظرية) ، واننا نرى دراسة ويلفريد كانتويل سميث Wilfred Cantwel Smith بعنوان « الاسلام في العصر الحديث » عن دار المكتبة الاميركية الجديدة ، ١٩٥٩ ص ٩٧ الى ١٦٤ اكثر عمقاً وان كانت اقرب للاسلوب التقليدي .

الفصل التاسع

توسّط المرأة

ليس من مجتمع يتأكد فيــه وينطبق عليه ، اكثر من المجتمع الاسلامي ، قول الفيلسوف القبطي رينه حبشي حول المرأة « الجوهر الذي لم يمسه سوء والوجود المحطم » . على الاقل في التطبيق التقليدي الذي كان يعدها للأمومة وللذة الذكر . الامر الذي لا يمضي تماماً دون تعويض . فالشهوانية الشرقية تزخر بغنى لم ينته الغرب بعد من الانفعال ازاءه . صحيح ان الاهتمام المتطرف قد اخلى المكان عندنا ، ليفسحه للمخاوف التي يوحيها تزايد في عددالسكان دائم الركض . ولا شيء يمثل على تغير العالم ، افضل من هذه المخاوف المالثوسية التي تعقب المخاوف التي كانت على العكس ، توحيها لصاحب العمل ، لثلاثين سنة خلت ؛ احتمالات النقص في اليد العاملة . وموضوع العجز في الاستخدام يحل في احاديثنا ، محل موضوع لا يقل عنه اهميـــة فاصلة ، وهو موضوع الهجرة من الارياف والقرية . والغرب ، تقنع بقناع الرسول الصالح . وقام يقايض بين الحسرات الرعائية والتخوفات العلمية التي يبديها الاحصائي وقد توصل حتى الى إشراك صاحب العلاقة بهذه التخوفات ؛ فأحذت هذا الأخير موجة فزع من

انخفاض مهدّد في نسبة الدخل الفردي .

والعربي الذي يخضع هكذا لنظرات القرين لا يرى دائماً أن رد فعله ضد التبعية كان اولاً القيام بقفزة عنصرية جديدة . وان خصب نسائه ، واخلاقه الجنسية والعائلية قد اسهمت في تحريره : بفضل ضغط الجماهير المتزايدة الى ما لا نهاية له . وفي الوقت ذاته بفضل الشبيبة التي ترى دون انقطاع معدل العمر يتدنى وتؤكد قوة اندفاع الصيرورة ، وتستعجل تصفية الماضي .

واسهام الزوجة في الحصول على التحرر الوطني هو القفا السياسي لظواهر اكثر لطافة . نود ان نحاول اكتشافها . فاستتبع ذلك ان مصيرها في الفترة ذاتها يتغير مثلما يتغير مصير الرجل . بفعل التبدل والانقلاب اللذين طرآ على ما كان يحركه حتى الآن . وبعد ان تم تجاوز عتبة الإستقلال اصبح التزايد في عدد السكان يبدو شيئاً مثل العاهة فالتابع القديم يريد ان يرتفع الى المستويات العليا التي يقوم فيها بالتنافس والتبادل : تبادل السلع ، والتقنيات والافكار . انه يبغي أن يبتعد عن مستوى التكاثر المخيف العتيق . وبصورة موازية ، تطورت المرأة من حالة الام والزوجة حتى أدركت مرحلة تطالب فيها بلعب دور فردي .

وما يسمى بالحركة النسائية في الشرق ليس اذن ، غير شكل من اشكال تعميق العلاقات بين المجتمع من جانب ، والطبيعة والتاريخ من جانب آخر .

الرجولة على الرغم من وقائع تقنع اكثر فأكثر بحدوث التطور ، لا تزال هناك وقائع متحدرة من عالم جد عتيق ، في الكثير من المواضع في العالم العربي : سجن المرأة (فيما يسمى بالخباء أو الخدر) ، حمل الحجاب ، وختن الصبيان ، وعادات السحر والشعوذة ، « كالزار » والطلاق المتكرر ، الذي هو اكثر ضرراً من تعدد الزوجات ،

والمساومة حول الدوطة أو ما يحمله الزوجان (وخاصة من ممتلكاتهما العقارية) لدى زواجهما . وهناك أدواء اخرى ايضاً ، لا يمكن وصفها بأنها استثنائية او ترسبية ، تصيب المجتمع بقوة متفاوتة . ولكنه ينكرهـا ويشجبها بعنف . وهذه الادواء تنحسر وتتراجع كلما انتشر التعليم وارتفع مستوى المعيشة . وضعفها ، بل وقوتها ايضاً يكمنان في انها ترتبط بماض كاد ينهزم في كل مكان على صعيد المبدأ ، ولكنه يقاوم اكثر الاحيان في الوقائع . وبالطبع يقتضي الذهاب الى المناطق النائية البعيدة المزار . لتقصي الملامح التي تبعث على الاسى لدى الوطنيين الواعين بقدر ما تثير فضول العلماء المختصين بالسلالات والقبائل .

وقد قام باحث عراقي بالتنقيب عن هذه الملامح [٢] . ففي منطقة « الاهواز » (وهي مستنقعات شط العرب) لا يزال الكثير من العـادات يعكس عهود البربرية القديمة : ومن ذلك تبادل الخطيبات . الذي شجبه الاسلام بعنف بالغ تحت اسم « الشغار »*. واعطاء النساء بمثابة دية القتيل . وهناك عادة أخرى ترجع الى تراث مشترك من الانظمة يمكن تتبعه الى ما قبل الاسلام . وهذه العـادة قد تجاوزت العالم البدوي لانها تشكل احدى الصفات الارستقراطيـة في عالم المدينة ذاته . تلك هي عادة الزواج « التفضيلي » الذي يؤهل « ابن العم » * اكثر من الآخرين للحصول على يد ابنة عمـه . وهذا المظهر من مظاهر تفضيل النسب المتحدر من الذكور يبرز في منطقة الأهواز بقوة الى حد أن قيمة المهر تتدنى بنسبة درجة القرابة التي يكون عليها طالب الزواج ، وان للعم حق الفيتو (النهوة) * عند زواج ابنة الأخ ، وأن بوسعه انزال العقاب ، في حـال تجاوز ارادته [٣] وبالطبـع ان بيئة مثل البيئة الدمشقية تجهل هـذه المبالغات التي

---

٢) شاكر مصطفى سليم : التشيبايش (الكبايك ؟) بغداد ١٩٥٦ ، ص ٩٧ وما يلي

*« لاشغار في الاسلام » والشغار هو ان يزوج الواحد اخته على ان يزوجه الاخر اخته ولا مهر الا ذاك (المترجم)

٣) عباس العزاوي « عشائر العراق » الجزء الاول ص ١٤٤ وما يلي .

تشكل في نظر الأخلاقية الاسلامية ، مخالفة للشرع لا يمكن الدفاع عنهـا . ولكن العائلات الكبرى في المـدن تعطي أيضاً الافضلية للزواج بين أبناء العمومة وبناتها (٤) . ولكنها تعطيها ليس بطريق نظام أساسي وانما بطريق العُرْف والمودة . انه الشرق العربي بأجمعه الذي يؤكد في هـذا المجال ، تفرداً طريفاً خليقاً بأن يلهب حماس الباحث المختص بعلم السلالات ، وهو يؤكد ذلك بصورة مضادة للمغرب (ومهما كانت أسباب مثل هذا التضاد) .

وبالفعل ،فان الزواج مع « ابنة العم » لا يوسع الحلقة العائلية ولا يعقد دورة تبادلية ، فعلاقات القربى تبقى نظاماً مغلقاً . وبقدر مـا يكتفي العرب بالبقاءعندهذا الحد، هم يبتعدون عن قواعد المصاهرة (أوالقربى بين الانسباء أو قرابـة الارحام) المنتشرة انتشاراً أدى الى اعتبار مبدأهم في الزواج من الغرباء نوعاً من الاضافة الابتدائية للمجتمع على الطبيعة . وهذه الظاهرة الغريبة ليست خاصة بهم ، على كل حال ، ويمكننا أن نتبين فيها شيئاً مشتركاً كان قائماً بالنسبة لاقليم ثقافي واحد ونجد فيها احد الشواهد على وجوده . فكان للعرب الفضل في حفظ هذه الشهادة أحسن حفظ ونقلها بصورة غير مباشرة (٥) ومثلما في ميدان اللغة ، هم ، بهـذا الشكل ينقلون الينا التراث القديم جداً « لسامية » يمكن صياغتها هكذا: يضطلع الجانب الاجتماعي بالجانب«الطبيعي» تقريباً الى الحد الذي ينحل فيه (ويندمج معه) . وفي الواقع فـان الفئة البدوية ، كما غناهـا الشاعر الجاهلي والتي لا يزال بالامـكان ملاحظتهـا اليوم في حالتها شبه الصافية ؛ تمثل على نوع من الشعور المفرط بشخصيته لدى

---

٤) تقليد تزداد كل يومالثغرات التي تخرقه .

٥) نحن مدينون كثيراً في هذا المقطع ، للافكار التي تبودلت بمناسبة حلقة دراسية حول انظمة القرابة عند العرب ، مع كل من ليفي شتراوس ، الذي تتضمن مؤلفاته اشارات مقتضبة ، ولكنها موحية الى انظمة الشرق القديم .

البناء الاجتماعي . وفيما هي عرضة، في كل لحظة ، لأخطار قربى الدم الشديدة، أو لأخطار الحرمان والجفاف ، هي تحمي نفسها ، في صورة رد فعل معقول ، بهذا الالتصاق بالطبيعة ، وهذا العمل على تـأهيل الشيء المباشر ، الذي رأيت الايماءات عنه على كل مستويات حضارة وحتى في آخر تطوراتها الحديثة .

وهكذا ، فان الشهوانية العربية ترتبط بالطبيعة ارتباطاً صميمياً لحد انهـا تنقل عنها أقل الرعشات .وان فرحهاهو عيدُ المَحْلِ واليبْس والنضوب ، انه الارتواء بعد العطش . فالانسان يحيل عُرْيه الى غنى ، ورقة حاله الى عظمة . والتخمة ونهب الملذات لا يخرجانه من حلقة كبريائه التي تعزله داخـل تمجيده لمحتده ونسبه ، مثلما يجدُ شعرُه أقدم الجذور للكلمات [٦] .

فالحرمان والتصميد يمنحان عاطفة البدوي عنفاً يتصف بالفوران والانفثاء المفاجئين . ولكن ما كانت تتحلى به هذه العاطفة من امتياز جمالي (استطيقي) جعل من هذا العنف اسلوباً باهراً وثابتاً . وعلى هذا النحو ، فرض عمق أثر الصحراء مثله الاعلى على المدن المزدهرة . وقد باركت الثقافة الاسلامية ذلك، الى حد ما ، ولكن بعد ان زودته بالضمانات الروحية ، وبعد أن وضعت حوله القيود والتحديدات التي تقتضيها ضرورات الشرعية .

ولنذعنْ لهذه الانطباعات ، طالما ان تحليلاً ذاهبـــاً نحو الأعماق ، على طريقة علم السلالات والعروق لم يكشف عن أشياء تتبدّى للملاحظـة ، وعن أخرى لا يدركها الا الحدس ، دون ان يكون بالوسع ، حتى الآن ، إعطـاء تفسير علمي لها . ولكنني اعتقد انه ليس إيغالا بالغـــاً في المماحكات الفقهية ان نحاول اظهار كيف يستطيع نظام القرابة والنسب في هذه المجتمعات ، نظام يمكن تتبعه بوساطة إمارات بالغة الوضوح ، ان يعين على فهم التصرفات العامة

---

٦) وهنا ايضاً تمثيل على القيم الاجتماعية لفقه اللغة العربية ، وللغة ذاتها « كنموذج »

ووجوه السلوك التقليدي ، في هذه المجتمعات . واذا كانت العروس المفضلة ، بالنسبة للعديد من العرب ، لا تزال ابنة العم ، اي الذات الأخرى للعريس ، فلأن الذكر لا يزال يطلب من الزواج تأكيد ذاته اكثر مما يطلب التبادل (٧) ويمكن ان يقال ، في هذا المعنى . ان الاسلام هو دار الرجولة الدائمة (٨)

وبالطبع ، ينكر على هذه الصيغة افراطها في الطابع الاحادي الطرف . فكل مجتمع يسعى لاقامة توازن لذاته بوساطة نظم او اندفاعات متعاكسة . ومن جوانب كثيرة ، يرتبط الشعر العربي بالذي يتوازن مع اخلاقية الانعزال بالتجواب والمغـــامرة التي تحمل امرىء القيس (الشاعر الضليل) المضيّع الملك ، الى بيزنطة ، اكثر مما يرتبط بهـــذه الاخلاقية . والاسلام يرتفع ضد أبطال الحياة البدوية الثلاثة : الامير ، والشاعر ، والرئي ، وضد عالم المشاعر الذي كانوا يمثلونه أو يمثلون عليـــه . وفي حياته الخاصة ، يشعر النبي (صلعم) متألماً ، بعدم كفاية الزواج من المرأة القريبة ، لأن المرأة الوحيدة التي تعطيـه ولداً هي بالذات المرأة الابعد اليه بالدين والعرق : مـاريا القبطية . وفي المدن التي يُشيّد نمطها بشكل منافس من وجوه عديـــدة للحياة البدوية ؛ تتضمن اخلاقية العائلات الكبيرة التي تحتجز ابنة العم للاعراس الاحق ، مبالغات في البذخ كانت تثير استنكار أهل التقوى .

لكنها نظام القرابة والنسب ، والسلوك الذي كان يوحي بـه ؛ والوجوه

---

٧) ابو المرأة « زوجها » *« دليل المفردات العربية »الوارد في « دائرة المعارف» لفؤاد البستاني .

٨) ولو قيض لنيتشه ان يبعث ، لحيا عند البدوي ، هـــذه الاخلاقية الارستقراطية التي « تولد من التأكيد الظافر للذات » وهذه النزعة الهجومية المرتكزة على ادراك الشخص المتباين وحتى التمتع برآه . وعند العرب الاقدمين كانت تتصل بهذه النزعات علوم مثل علم الانساب ، والفراسة ، والسلاح ، والاسماء .

المتأنقة أو المتشامخة التي كان يلقي بظلالها على الشاشة الخلفية للحياة الحضرية ، كان أيضاً القفا للنظام التجاري « المركنتيلي » . فالانسان العامي كان يجد الاغراءات لتزويج ابنته من الرجل الذي يقدم أفضل عرض ، في المواقف التي يراعي فيها رجل الخاصة والصفوة ، من السراة قواعد دقيقة تفرضها أصول المصاهرة ،ويفضل نبل المحتد والنسب على الغنى . والتيار القومي الذي كان يسود فيما بين الحربين في دمشق وحمص وحماه ، مثلاً ، كان يرجع الى حد ما ، الى ثورة الشرف الارستقراطي على الاذعان للامر الواقع.وكان يجند الجماهير بتحريك عوامل المهابة والكبرياء التي لا تزال من بعض الوجوه ، تجد رواجاً لدى بعض الزبائن من الشعب. فهو يستبدل ، في تحقيق هذه المهام،القوى الدينيه التقليدية التي يتهمها بالقبول بالتسويات قبل ان يأتي من هو اكثر منه ثورية فيرميه بمثل هذه التهمة . وعلى هذا النحو تتصادم في بيئة معينة الاساليب ، فيغلب أحدهما او ينهزم ، وفقاً لتقلبات التاريخ .

امهات وبنات ولنلجأ للخيال لنستعيد صورة ما كان يمكن ان تكون عليه حياة المرأة في القصور الارستقراطية، قبل الحرب العالمية الأولى، بقليل. فالزوجةلم تكن شخصاً ،حتى ولا مولدة ، بقدر ما كانت وحشاً تنصب عليه الاوصاف والتحريمات . وهناك نادرة مشهورة تبين الى أي حد كان الجانب الاجتماعي يغلب عندها على الجانب العاطفي الذاتي : انها قصة الدعوى التي أقامها ضد عائلة امرأته الشيخ علي يوسف مدير صحيفة « المؤيد » : فان الزواج من عائلة غير كفء او من أصل وضيع كان يبرر إذ ذاك ، فسخ عقد الزواج [٩] . أكيد ان المرأة تستطيع ان تكون

---

٩) احمد بهاء الدين ،« ايام لها تاريخ » ١٩٥٥ ص ٤٣ وما يلي .

متداداً للطبيعة ، بفضل اللذة التي كانت تمنحها ايام صباهـــا ، والاولاد الذين تنجبهم ، والطعام الذي تعدُّه وبالجمال الذي تتحلى به ان كانت جميلة ، وبقدرتها الدينية او السحرية . فهي تتنفس حيوية بدائية خبأ عنا العهدُ الاستعماري بعض السيء فضائل استقرارها ، ودون شك ، رزانتها .ولكن وجوهاً هائلة من وجوه التحريم والتقديس حددت قدرتها على ممارسة نفسها . فهي تعزلها عن العالم وعن المجتمع وهي تحقق فيهـــا بصورة متناقضة ،نوعاًمن فردية التخلي عن الذات في خضم الاجماع داخل المدينة . فالحجاب ، ودار الحريم والاخلاقيةتنفي الى عالم الانقطاع هذا الكائن المحاط بالقوى الخفية المرعبة والذي يطلب منه تأمين استمرار النوع .

وبالطبع تتدفق الحياة الاسلامية في المدينة كما في موجات دائرية ، انطلاقاً من المنزل حيث تجثم قوة الرجل.ولكن حول المرأة تضرب انانية الرجل ، والافكار المسبّقة ،وخبث الجيران ، حجاباً وتقيم منطقة من الفراغ والبطلان . وهذه الملهمة للحركة ، بالمعنى القوي لهذه الكلمة ، في وضعها هذا المنقطع عن العالم الخارجي ، لا تجد حتى في ثقافة اولادها وتهذيبهم الوسيلة لتعيد لصالحها تتابع الكائنات والأشياء المتصل . وحياتها تهوي من جيل الى جيل الى النقطة الموات ، الى الشلل . وفي ترابط عادل مـع الجمود الاجتماعي ، الذي يغلب على العصر ، هي تجعل من نفسها مستودعاً لحفظ ماض أبقي بشراسة في منجى عن « الصفات المكتسبة » وعن مغانم ومكتسبات تجربة الرجال . وهكذا مرّ عليها العهد الاستعماري مثلما مرت العهود الأخرى دون ان يزحزحهـــا من موضعها .

لقد جعلت رواية نجيب محفوظ المثلثة[10] مألوفة لنا حياة الطبقة البورجوازية الصغيرة في القاهرة ، فيما بين الحربين . فالأم ، متجسد الاتضاع السني ، تحترق في الانتظار وفي الخدمة . وسلطة الأب التي لا تنازع ، تعزلها في نـــوع من الحياة السرية . ويخرج الولد باكراً من دار الحريم ليذهب الى المدرسة الدينية ، ثم يدخل تقريباً دفعة واحدة الى مجتمع الرجال . ومن هناك تبـــدأ التمزقات وكل شرور الصبا وادوائه التي ينكب علماء البسيكولوجيا على دراستها في عصرنا الحاضر . وقسم كبير من الاضطرابات العقلية ، المميزة لطفرة متسارعـــة ، يعود هنا الى عمليات حرمان عند الطفولة ، والى نقص من الاساس ، في الحنان مرده دون شك إبعاد المرأة ونفيها من حياة الرجال . فأية هوة لا تنفتح بـين الاجيال ، في مثل هذه الاحوال ! بل ويمكن القول أيضاً ، أية هوة لا تنفتـح بين الام وابنتها ، أكثر مما تنفتح بين الأب وابنه !

في مسرحية صدرت سنة ١٩٥٢ ، يضع يوسف العاني[11] (وليس يوسف العالي كماورد في النص الأصلي- في غلطة مطبعية ولا شك -المترجم) سكرتير اللجنة الفنية للمسرح العراقي ، يضع العقليتين وجهـــاً لوجه في حالة صراع . وعنوان المسرحية الهزلية : « حرمل وحبة سودا » . والعائـــلة البغدادية التي ترفع قصتها الى المسرح تبدو وقد تفجرت من داخل . فالام الجاهـــلة تؤمن بالسحر ، وهي تلجأ اليه في كل اللحظات العسيرة . اما البنت سعاد فقـــد تخرجت من مدرسة ثانوية ، وتكسب عيشها من العمل في أحـــد البنوك .

---

١٠) كشف الاب جوميه le P. Jomier عنها للجمهور الفرنسي في مجلة M.I.D.E.O. عدد ٤ عام ١٩٥٧

١١) الذي ابرز الدكتور صلاح خالص ، بحق عن اهميته

والأب ، وهو موظف سابق مخيب الآمال . والابن فخري وهو خريج دار المعلمين ، ينتظر مثل الكثيرين من المتخرجين ، مركزاً في احدى الدوائر الحكومية . نحن في العشية . الام تبخر الغرفة وتتمتم بعض الادعية . وتقبل البنت ، وتظهر دهشتها لذلك فتقول لها الأم : « لقد ذهبت هذا اليوم لرؤية الملا . فاعطاني « هرملا » * (١٢) وفلفلا . ويكفيني أن أحرقهما بعد ان أمزجهما ؛ حتى يجد فخري وظيفة »

سعاد تتمنى من كل قلبها تعيين أخيها . لكننا هذا الاخير يحمل اعتبارات صارمة من أخلاقية جديدة . فقد ترك المحل التجاري الذي يديره أحد أصدقاء ابيه : التاجر رزوقي الذي جاء يكلم الوالد . ويثور العجوزان لرؤية الولد دون وظيفة ودون همة في السعي للحصول على وظيفة بالوسائل الملائمة . وكل انواع الملامح تجعل الجيلين في تضاد : فالام ترى ابنتها وهي غارقة في قراءة كتاب : « ولكن ما الذي تجدينه في هذا الكتاب ؟ – انني أجد العالم . – وكيف يمكن للعالم ان ينحصر في مجلد بمثل هذا الصغر .

وفخري يتعاون مع بعض الصحف . والعمل في صحافة يفرج فيها عن النفس ، يعوض عن الكثير من اسباب السخط عند هذه الطبقة من المثقفين . وقد كتب مقالاً تخاطفته ايدي الشبيبة ، وهو يقول فيه : «ان للفتاة وللشاب الوزن نفسه في المجتمع» ويسأل الوالد ، وفي صوته ضحكات عالية : « لو وضعتنا ، انا ووالدتك في ميزان واحد ، من منا الذي يمكن ان يزن اكثر ؟ » انها ، ولا شك ، اشارة الى ألعاب مسرحية والى الشكل الجسدي للممثلين : واخيراً يفضل فخري المسكين العمل

---

١٢) نبات يسمي باللاتينية Peganon Harmaia وله فضائل طبية وسحرية وينبت في كل مناطق السهوب من الاطلسي الى دجلة .

في شباك للتذاكر في احدى صالات السينما بدلا من العودة الى دكان صديق العائلة ، التاجر البغدادي ، الذي يملك كل حيل التجارة في المدن ، واذ يصبح في السينما ، يدخل فخري ، ان صح القول الى نوع من البناء الفوقي الكامل ، والى احدى المهن الفكرية التي تلعب دوراً كبيراً في بلاده .

ولا نعرف كيف ينتهي كل ذلك . والذي يهم هو التضاد بين الام والبنت ، بين الاب والابن . تضاد ينعكس حتى في لغتهم ، الى درجة ان الوالدين العجوزين يتكلمان على الطريقة البغدادية ، بينما يمزج الاولاد هذا الكلام بكلمات وتعابير من العربية الفصحى [١٣]. فالعربيـــة « الحديثة » تنتشر في حديثهم ، كما في جريدة فخري ، لغة أخرى ، عالم آخر .

وبالرغم من ان اللوحة تبدو على شيء من الارتباط بالماضي ، وان مشاكل من هذا النوع لا توجد الا في البيئات الاجتماعيـــة المماثلة في القاهرة ، ودمشق وبيروت ، فلا يمكن القسم بان هذه المشاكل ، المتهاوية من صعيد النظم الاساسية او التعبير ، لم تأو الى عادات متفاوتة في طابعها اللاواعي ، ومميزة لأساليب في الكينونة تتعارض فيها البنت دائماً عن امها . والكاتبة اللبنانيـــة الناشئة ليلى البعلبكي ترثي لأمها وتكرهها [١٤] وهي تلاحظ ، برعب ، هذا التخلي عن ذاتها الذي يحدث برضاهـا ، والذي لا يعرف من انواع الثـورة إلا ثورة الاحشاء . « ان ضحكة امي ، ضحكة الحيوان الذي يذبح ...» ، لا شيء حتى الآن ، في الأدب ، ذهب الى حدود أبعد في الفظاظة . « انا احيا »* هـذا هو عنوان كتابها .

وفي الشرق ، ان يحيا المرء ، شيء يدخل في باب الافكار الجديدة .

---

١٣) ملاحظة لألبر نادر ؛ الذي انا مدين له بالوثائق المتعلقة بهذا المقطع .

١٤) « انا احيا » ، بيروت ١٩٥٨ ، انظر المقطع الذي ترجمه ف.مونتيه V. Monteil جريدة « الاوريان » عدد ١٧ ايار ١٩٥٨

النهضة النسائية في العراق

ففي العراق(١٥) ، تأتي المرأة من أبعد ما يكون البعد ، ان صح القول . « فالنهضة » لم تصب العراق بقدر ما أصابت سوريا ومصر . والعراق لم ينعم ، مثلما نعمت مصر ، بالتقاليد التربوية التي بدأت بالطهطاوي . حتى مجدد من الباشوات ، مثل مدحت باشا ، يفكر بتربية الرجال فقط . وعلينا ان ننتظر أحد خلفائه ، نامر باشا ، لنرى تأسيس اول مدرسة للبنات في بغداد . ذلك ان « مجدداً » * قد ارتفع حينذاك من صفوف الجماهير . وانه لوجه فريد وجه جميل الزهاوي : واحد من كبار المجددين الذين عرفهم الاسلام في العصور الاخيرة ، بسبب عظمته وسلوكه الباعث على الشعور بالفضيحة (عند الرجعيين)

ولد جميل الزهاوي في عام ١٨٦٣ : فكان تقريباً ابن الجيل الواحد مع قاسم أمين . هو ينتمي الى عائلة دين وتقوى . وبصفته ابنا لمفتي ، انقضى عهد طفولته وصباه في جو من مجالس العلماء ، « والمحافل »* ، والاعياد والولائم . وقد لمع نجمه في هذه المحافل بذاكرته العجيبة وبقدرته على ارتجال الشعر . فارسل الى برلمان عبد الحميد (مجلس المبعوثان) حيث قام بدور أحد الرسل الأول للعروبة . ومن اسطمبول توجه الى مصر ، حيث اتصل ببيئة متدلهة بالروح الحديثة ومتطبعة بالطابع الغربي .

فنتج عن ذلك انه ، لدى عودته الى العراق ، أخذ يساند لدى نامر باشا الاقتراح القاضي بانشاء مدرسة للبنات . ولكن نامر باشا ، ككل اداري عثماني ، فضل التريث . وكتب للباب العالي بالأمر . فوافق هذا الاخير . ورغم ورود جواب بالقبول وحسب الاصول ، فان الحاكم يعقد اجتماعاً دعا اليه الاعيان والوجهاء لاثارة القضية . فطالب اصحاب العمائم ، المشائخ الذين كانوا ممثلين في الاجتماع بان ترفع اسوار المدرسة عالياً جداً حتى لا يستطيع الجيران ان يباغتوا

---

١٥) خضر العباسي « تحرير المرأة العراقية » ص ١٨ وما يلي .

البنات في خطراتهم داخل الحوش . عند ذاك يلقي جميل الزهاوي بكلمته : « ولكن ليس من بناء يستطيع ان يرضيكم : غير منارة سوق الغزال » (فمن تلك المنارة نثر رماد المتصوف الحلاج) . وانتهى الحوار بالضحكات . ولكن ، بالفعل ، اختير لبناء المدرسة بيت عالي الاسوار ، لا تنفتح فيه الا نوافذ ضيقة وجد قليلة . ودون ضحك، وهذا الحادث قد وقع عام ١٨٩٩ هذه هي الانطلاقة الاولى لتعليم البنات في هذه البلاد . وقد اثارت المبادرة روح المنافسة بين الطوائف : فتأسست على التتابع مدرسة مسيحية ثم اسرائيلية ، ثم بروتستانية . كل ذلك تم قبل حرب ١٩١٤ ففي ذلك الحين كان العراق يعد ست او سبع مدارس للبنات : في بغداد والموصل والبصرة .

ولسوء الحظ يرسل الشاعر المجدد الى احدى صحف القاهرة مقالاً حول تحرير المرأة (١٦) . فيدوس بقدميه في هذا المقال تقريباً كل الاشياء المتوارثة : مبادرة الأب في تزويج بنته ، لبس الحجاب الذي يتمسك به الكثيرون من مدّعي التقوى . وعندما يرجع المقال الى بغداد ، مع كل المهل التي يأخذها البريد ، وكانت ضخمة اذ ذاك ، ينادي الاتباعيون انصار التقاليد بالويل والثبور لهذه الاقوال التي يعتبرونها فضيحة كبيرة . وفي اجتماع حاشد عقدوه لهذه الغاية ، يطالبون الباشا باقالة جميل الزهاوي ، الذي كان ، في تلك الاثناء ، قد عين استاذاً للقانون . وتثير القضية نقاشاً ترجّعت اصداؤه على صفحات كل صحف ذلك الوقت ومن بينها صحيفتنا « مجلة العالم الاسلامي » .

وبالطبع ، تلاقي افكار الزهاوي ، في القاهرة ، تأييد انصار التجديد ، وخاصة جماعة المقتطف ، وعلى رأسهم شبلي الشميل وصروف ، ومدير « الهلال » جرجي زيدان ، وعلية القوم ، مثل الشاعر الأنيق ولي الدين يكن . ولكن بين خصومه تقف ، بصورة غريبة بعض النساء ومنهن « باحثة البادية » ، ابنة

---

١٦) حول قضية الحجاب انظر « مجلة العالم الاسلامي » الصادرة في فرنسا الجزء الثاني عشر ١٩١٠ ص ٤٦٣ وما يلي

حفني ناصف باشا . فهي تتخـذ ، في المناسبة ، موقفا متحفظاً . فالوقت لم يحن بعد ، في الشرق ، للانتفاضات النسائية الكبيرة .

ويخسر الزهاوي منبره التدريسي ، بعد ان تخلى عنه اصدقاؤه وخصومـه . وهو لا ينعم بطمأنينة نسبية الا بفضل علاقاته العائلية التي يحترمها الباشا التركي. وفي نهاية المطاف ، هو يغادر بغداد التي ألبتها عليه اشعاره الهجائية . ولكن في لبنان يجد لبنان كثير التقبل لأفكاره . فجوليا طعمـه ، زوجة رئيس البلدية ، (بدر) دمشقية ، تنادي بتأييد الحركة النسائية . فهي تدير مجلة اسمها « المرأة الجديدة » [١٧] ويستقبل الزهاوي كما يستقبل الفاتحون المظفرون ، في لبنـان . ولكنه يستقبل ، في القاهرة ، بحفاوة اكبر ايضاً .

هكذا تطورت حركة تحرير المرأة في العراق . وهي تتخـذ لوناً ادبيـا وشعرياً عميقـاً ، الأمر الذي لا يدهش ابداً . وفي نوع من انعكاس السير الذي نوهت بعدة أمثلة عليه ، تطال الحركة اولاً هذه المناطق العليا في الروح والمجتمع الشرقيين التي تُقبل فيهـا الافكار الجديدة او تُحارب بأشد ما تملكه العبقرية المحلية ، في ذلك الوقت : بالكلمـة . وليس من تشويه يحدثه التضخيم اللفظي إلا ويؤدي الى انعكاس الانتقال التاريخي للحساسية ، هنا وهنـاك ، في تطور الموضوع .

وهكذا كان الحال فيما يتعلق بموضوع الأم . فهو يعكس اللحظة التي يكتشف الشخص فيها ذاته مرتبطة بالكائن باستمرار المرأة الحي وليس فقط بالاعلان المتعالي للنسب . والصوفيون قد أحسوا ، هم ايضـاً ، بعمق رابطـة الرحم ، الارتباط بالأم . فالصوفية من جانب ، والروح العصرية من جانب آخر : انهما ارهاصان ، متوازيان الى حد ما ، للروح الواحدة .

---

١٧) محمد جميل بيهم : « فتاة الشرق » ص ١٣٢ وما يلي .

ويصرخ الزهاوي : اين امي ؟ أعيدوا الي أمي . انا لا اريد شيئاً بديلا لها . انا أحيا بعيداً عنها ، فتبدو الحياة لي ثقيلة بائسة . انا بحاجـــة لحب امي . ايها الناس ، اشفقوا عليّ !

فامي هي التي فتحت عينيّ ، ووجهها تجلى لي بكل جماله . أعيدوا لي أمي. لا تخونوني بهذا الكذب . وليكن الصبر معاذي !

فان كان هذا حقاً ، فاذهبوا بي الى قبرها ، بمثابة اكليل على ضريحها . وان صح ان امي ترضى ، اجعلوني اكليلا ، وتاجاً على قبرها ! » (١٨)

وينتقل الالهام من الام (١٩) الى مواضيع نسائية اخرى : موضوع الحبيبة ، والزوجة .وأغلبية الكتاب يناضلون في سبيل تحرير المرأة ولكن بعضهم يعترف ببعض الكره للمرأة . وهكـــذا يقر شاعر معاصر ، الناصري ، بانه يكره المرأة : ولا شك بسبب خيبة أمله لديها : « حيل المرأة ، هذه المرأة التي تبـدو كالزوبعة ، كاعصار يبتلع الفكر ... والتي هي قريبة جداً من الشيطان » والتي هي مخادعة وعاقّة . ايتها المرأة ، يا هبوب العاصفة في البحار « تقبل لابتـــلاع الفكر ! » هذا النفور من المرأة يرتكز على موضوع لم يطرقه الفكرُ الاسلامي التقليدي إلا قليلا ، موضوع حواء والخطيئة الاولى : هذه هي علامة تاريخية من اهم المواضيع . والمؤلف العراقي الذي استعير منه هذه الفقرة في الشهادة على مـا

---

١٨) احمد فياض المفرجي « المرأة في الشعر العراقي الحديث » ص ٣٠ . والزهاوي الذي كان ، في اعوام ٣٠ يثير البهجة لدى قراء « السياسة الاسبوعية » لصاحبها محمد حسين هيكل، يبدو اليوم بعيداً عن اذواق القراء الشباب ، مخلياً المكان لمعروف الرصافي . انه يبدو نسخة عن سولي برودوم في الشرق.

١٩) (قد تكون حافلة بالمتعة) محاولة درس دور الام ، دراسة مقارنة ، في الكثير من السيَر العربية المعاصرة والمذكرات . مثلا مذكرات كرد علي . انظر مذكراته : الجزء الاول ١٩٤٨ ص ١٤ و ٣٦ وما يلي . وانظر ايضاً ، فيما يتعلق بدور النساء تصريحات منصور فهمي في مجلة الهلال الجزء الثامن والثلاثون ص ٦٢٩ .

أوردت ، يبدي غضبه . فهو يستشهد ، بزهو ، لتأييد قضية النساء ، شخصيات مثل مدام كوري وجان دارك وجميلة بو حيرد [٢٠] ، اللواتي جمعهن هكذا في الجملة الواحدة ، في نوع من محاولة التوفيق بين الافكار المتنافرة . وهو يستنكر ايضاً مواقف عدو آخر للمرأة ، حسين ماروديني ، وهـو وجودي فظيع من بغداد . ولكن ، باستثناء هـذه الاصوات النشاز ، كل المؤلفين يتواطأون على تأييد تقدم المرأة .

وبمبادرة من الزهاوي تأسست أولى الرابطات النسائية . فقد أسست اخته أسما ، وقد ظلت عانساً – وهو امر نادر ، في تلك الايام ، لدى العائلات العريقة – « جمعية النهضة النسائية »* عام ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين ، اخذ تاريخ الشرق يرجع اصداء هذه المؤتمرات التي اخذت تتتابع بوتيرة متسارعة . مؤتمر عاليه عام ١٩٢٩ ، ثم مؤتمر ١٩٣٠ في دمشق . ثم مؤتمر ١٩٣٢ في بغداد واخيراً المؤتمر النسائي الكبير في القاهرة عام ١٩٤٤ ، الذي يشق الطريق لعهد جديد [٢١]

الحركة النسائية في مصر

وفي مصر ، يعود الاتجاه الجديد بعيداً في الماضي [٢٢] . وقد أثار مرات عديدة المناقشات الكلامية . مثلاً المناقشة التي اثارها ، عام ١٩٠٨ ، كتاب قاسم امين . فهذا الرائد للحركة التحريرية قد رأى في جملة «ارضيه مجدداً في الحقل الاقتصادي مثل طلعت حرب وعلى العكس كانت هدى شعراوي، الحليفة والمعاصرة لحزب الوفد الاول . وتتجلى الحركة في تكاثر الجمعيات

٢٠) المفرجي ص ٥٠ وما يلي و ٧٦ وما يلي .

٢١) خضر العباسي ، السابق ذكره ص ٦٤

٢٢) درية شفيق : « المرأة المصرية ». بحث هو تاريخ ، ومطالعة اتهامية ، ومجموعات احصائية - القاهرة ١٩٥٥ . وقبله بحث احمد بدوي : « المرأة المصرية بين الطهطاوي وقاسم امين » مجلة « المجالس » ١٩٥٧ ص ١١٣ وما يلي .

والعصبات تكاثراً مخيفا : انها الطفرة المفاجئة في الشعور الاجتماعي ، التي تعود بدورها الى تفجر الاطارات القديمة ، ظاهرات بدأ الناس في تحريكها ، منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى . وتهتم « المرأة الجديدة » بالتثقيف المنزلي ، بهذا « التدبير المنزلي » * الذي يدخل اليوم في كل برامج التربية الاساسية . وتعنى رابطة اخرى بزيارة المرضى ، واخرى تعنى بالصحة العامة ، وأخرى ايضاً ، وهي « جمعية الهلال الاحمر » قد لعبت دوراً خيراً في مقاومة الشكل المتوجع من داء الملاريا في الصعيد . ورابطة « بنت النيل » الكبيرة ، التي أسستها درّية شفيق قد أثارت الكثير من الكلام حولها .

ففي ١٩ فبراير ١٩٥١ قام فريق متحمس من النساء اللواتي تجمعن في احدى قاعات الاجتماعات ، بالتوجه الى البرلمان والوصول اليه بغتة . وقد دخل النساء مبنى البرلمان ، متحديات الحراس ، والموظفين ومواجهات خطر تلقي الرصاص ، الذي كان من شأنه ان يثير ولا شك ازمة سياسية . وفي سبتمبر ١٩٥١ ، نظمت فرق النساء المتجندات : تلك كانت الفترة التي كانت تهز فيها مصرَ حركةٌ عنيفة لتحرير القنال . وقد خرج عشرة آلاف متظاهرة ، عام ١٩٥١ ، بالذات ، في جنازة مصريين وقعوا في المعركة ضد الانجليز . ولكن تجب ملاحظة ان جمعية دينية تدعى جمعية « شباب محمد » ترفض المشاركة في الاحتفال لانه يضم افراد الجنس اللطيف هذا على الأقل ما تقوله درية شفيق (٢٣) .

وفي ٢٢ يناير ١٩٥٢ تجمع على باب بنك باركليس جمهور من الفتيات ؛ وكلهن من الطبقة العالية ، مصقولات الاظافر عند أرقى المانيكوريست ، ومصففات الشعر ويُحسنَّ بأغلبيتهن اللغة الفرنسية التي تتكلمها الراهبات الطيبات . فيقمن بلطف ولكن بحزم بمنع الموظفين من الدخول ، وهذه هي طريقة خاصة لمقاطعة

---

٢٣) درية شفيق : المصدر الذي سبق ذكره ص ٢٢٣

المؤسسات الاجنبية في مصر . ويساندهن الجمهور ،رغم ابدائه ملاحظات لاذعة . ولكن الامور تفسد بعض الشيء عندما يطالب الاتحاد بحق المرأة في الانتخاب ، مستنداً الى نصوص الدستور . وبالفعل ، فان الدستور كان يمنح حق الانتخاب للمصريين ، علي العموم ، دون ان يوضح ان هذا الحق محصور بالرجال . وتقدم الاتحاد بشكوى الى مجلس الدولة . وكانت مناورات تدخل فيهـــا ، على ما يبدو ، الملك نفسه . وينفجر آخر حادث عام ١٩٥٤ عندمـــا اجتمعت تلك السيدات ، في نقابة الصحفيـــين (مبالغة في التخفي ؟) ويبدأن اضراباً عن الطعام . وترّجع الصحافة أصداء هذه الحوادث . ودون تخابث ، هي تقرب بين الاضراب وعمليات الريجيم لمحاربة السمنة التي عممتها الاساليب الاميركية في البورجوازية العالية . ومهما كان الامر ، فان العلاج اظهر انه ناجع لأن المرأة المصرية تملك الآن حق الانتخاب . وهي ، على كل حـــال ، لا تبالغ في ممارسة هذا الحق .

ولكن لا يزال ، هناك ، الكثير من المراحل التي يقتضي اجتيازها . وتفضح درية شفيق ، التي استعير منها هذه الوقائع ، رواسب من الماضي لا يشكل تعدد الزوجات أخطرهـــا (ثلاثة بالمائة في مصر ، حسب الاحصاءات) . فالمظهر الأشد خطورة هو عمليـة الطلاق الشائعة . وبالنسبة لعدد عمليات الزواج ، في السنين الاخيرة ، يبلغ عـدد حالات تسريح النساء الثلث تقريباً . وبالموازاة ، تعد حالات الزواج بعد الطلاق ، عند الرجال والنساء اكثر من نصف العـدد الاجمالي . وهـــذا اللااستقرار العائلي يستدعي تدابير تشريعية كفيلة بتثبيط عمليات الطلاق . والكثيرون من المشترعين المسلمين قد دخلوا في هـذا السبيل ، رغم استنكار الاوساط الدينية . ولكن اصلاح العادات الاخلاقية لا يزال امامه الكثير مما يجب عمله ، على الرغم من انه ، في مصر وسوريا ، ولبنان تعمل النساء كطبيبات مهندسات ، ودبلوماسيات واساتذة وان عراق الزهـاوي ، بمناسبة

الذكرى الاولى للثورة ، رأى تنصيب امرأة كوزيرة للبلديات (١٤ تموز ١٩٥٩) .

ثورة القلب والجسد وهذه القضايا ، المتحولة الى توجيعاتها البسيكولوجية الاكثر حلاوة ،

كانت يوماً موضوع نقاش اشتركت فيه اربع فتيات كان بحار حالم يقودهن في نزهة بزورقه على مياه دجلة [٢٤]. وتعلن احداهن ان الروح فوق الجسد . فتصرخ رفيقتها : « وهل لا تزالين تؤمنين بالروح وبالمعجزات ! ألم تتعبي من هذا الضرب من الاوهام ؟ » وتقص ثالثة حكايات عن الاشباح ، ولكن تختم حديثها بلطف قائلة انه يلزم تحدي « الخرافات » . فالخرافات والتقاليد قد عصرت شبابهن . ألم يبق لديهن كثير من هذه الخرافات . انهن يلاحظن ان اسماءهن الاربعة تبتدىء بالحرف « ش » مما ينبىء بالشؤم . ويلزمهن نقاش حاد لطرد هذا الانطباع السيء . ما اعسر اقتلاع هذا الماضي ! انك تريدين ان نقتلع من ذواتنا اسرار قلوبنا ! وهذا الصباح أحسست بعيني تطرف . وقد قامت أمي بتأويل ذلك على انه نذير شؤم . ولكنني اريد تصديقها ! » هذه المعتقدات ، اخذت الروح العصرية الطاغية في السياق الاجتماعي الراهن تتبرأ منها شيئاً فشيئاً وتعيد وأدها في حميمية « الكتمان » . وهذه المعتقدات ولت لتلاقي في تلك الاعماق اشياء اخرى تم وأدها ايضاً : الاحقاد التي خلفها القهر والامتهان الطويلان ، ولكن ربما ايضاً الحنين الى الايمان . فهل تقدر طرق التحقيق الاميركية القائمة على توجيه الاسئلة وأخذ الاحاديث ، والمقابلات ، ان تنبش هذه الاشياء المطمورة في داخل النفوس ؟ يا للأسف ! اننا نحس انه يلزم ، للحصول على مثل هذه النتيجة ، ان نستخدم عمليات التحليل النفسي الملحة . فالتحقيق [٢٥] الذي تم في بغداد ، عام ١٩٥٧ ، بين الفتيان والفتيات اليافعين

---

٢٤) ناجية حمدة : « أربع نساء » ـ بغداد .

٢٥) ابراهيم عبدالله ماحي : « مشكلة المرأة في البلاد العربية » بغداد ١٩٥٧

واليافعات ، من تلامذة السنة الرابعة الثانوية او طلبة السنة الجامعية الثانية ؛ لا يستطيع ،اذن ان يعطي إلا بعض مناظر خارجية . فكما يورده الاستاذ ابراهيم عبدالله ماحي ، يبدو انه قد اهمل بالذات الامر الجوهري : الدور الذي تعتزم هذه الشبيبة ان تضطلع به والذي يوحي اليها دائماً على وجه التقريب ان تتخذ امام المحقق مواقف وعظ او ان تعلن عن عقائد مشوهة بوقوفها في الوسط . ومهما كان الامر ، فان عملاً من هذا النوع يعين بصورة مجدية على تمييز النقاط التي تمس فيها المرأة حركة الدخول في الحياة العصرية ، في بلاد مثل العراق ، وفي وقتنا الحاضر .

وقبل كل شيء ، في ميدان تأثيث المنزل . فان الاثر الظاهر للتطور ، يبدو في تزويد المنزل الشرقي بأشياء معدة لإشاعة الراحة والرفاهية : البراد الذي يشيع الديموقراطية في شكل صودا ، و « البوظة » المصنوعة في البيت والتي كانت في القديم ، تسبب تكاليف باهظة . بسبب تجليدها بالثلج ، « والشعريات » (السياج المعدني المشبك على النوافذ) المضادة للبعوض ، التي ربما تبعد عن الفتاة بمعونة مادة الـ د . د . ت ، حادث « الحبة الحلبية » الذي كان في الماضي ، داء عاماً وشاملاً . وان يعود بامكان شعراء بغداد ان يتغنوا بالخدود المتأكلة . وهذا الامر سوف يضيّع على الرغبة لونها المحلي ... انه لشيء نافع اذن ، ولا يجادل فيه احد : ولكن ايضاً مموه ومخادع وانه لتمويه من الدرجة الثانية ، ان صح القول ، ان الامر لا يتعلق إلا بما يحمله ، من مكاسب غير مباشرة، تيارُ المَتهر بالطابع العصري ، تيار يتلقاه الذكور او يُفرض عليهم اكثر مما يمارسونه .

واكثر عمقاً ، وأكثر التزاماً تبدو المواقف في الحقل التربوي . فان ٩٥ بالمائة من هذه الفتيات يطالبن بالتعليم والتثقف . ويجرؤ المحقق حتى على معالجة الظاهرة الدينية . فهو يلحظ عدم انسجام غريب . فان ممارسة الطقوس الدينية، ان في الديانة المسيحية او في الديانة الاسلامية ، هي وقف على الذكور اكثر مما

هي من شغل النساء . ٢٥ ٪ من البنات ، و ٤٠ ٪ من الفتيان . وقد نقول : ها هي الاشياء تبدأ بالانقلاب . بلطف كاف . ويفسر المؤلف هذه الظاهرة بقوله ان الممارسة الدينية تتخذ ، في المرحلة التي يجتازها الشرق ، صفة التحدي : انها جزء من النضال السياسي . انها تعطي قيماً المقاومة . وعلى هذا القدر ، ينطمس الطابع الميتافيزيقي الخاص . ويعترف صاحبنا العراقي ، بكثير من المداورة في القول بحدوث وهن تدريجي وربما بحدوث شيء من شأنه ان يثير ايضاً قلقاً اكبر في نفس المؤمن : ألا وهو كون هذا الوهن والإضعاف لا يثيران نزاعاً بين الجيل الجديد والجيل القديم . فبين الابن والاب ، حتى ولو كان هذا الاخير متمسكاً بالتقوى ، خلاف حول كثير من الاشياء : الاقتصاد ، وطرق الكلام ، والسياسة الخ .. ولكن ليس من خلاف حول الدين او حتى حول مراعاة الطقوس والشعائر [٢٦]. ولا شك ان هذه المراعاة تعرف نوعاً من الارتخاء ، وان المناقشات نفسها التي كانت تغذيها لثلاثين سنة خلت أخذت تبدو بالية وتخف كثيراً . وهكذا فان ٧٠ بالمائة من الفتيات المسلمات و ٥٠ بالمئة من الفتيات المسيحيات يشجبن الرقص . وفي هذا ما يثير الدهشة ، بالنظر الى تكاثر عدد اماكن الرقص وتنوعها في المدن الشرقية . ولكن ردود فعل الحشمة تتأجج ، في هذه الحالة ، بتضاعفها مع ردود فعل الكرامة القومية التي تستهجن ارتياد اماكن الرقص وترى فيها شكلاً متطرفاً من التقليد للحياة الغربية وربما ايضاً مظهراً طبقياً .

والملاحظة الأهم ، في هذا التحقيق ، هي ، دون شك ، تلك التي تسجل ان ٥٠ بالمائة من هؤلاء الفتيات ، بعكس الطالبات الاميركيات اللواتي استشارهن المحقق نفسه ، لا بشأن الاقرار بصفة الفتيات فيهن . فيقول ابراهيم عبدالله استتباعاً لهذه الملاحظة العميقة ، « ان المجتمع الشرقي هو مجتمع رجال» . وهؤلاء المراهقات لا يتمردن بعد على هذا المجتمع ، حتى على الصعيد المثالي .

---

٢٦) المصدر نفسه ص ٢٩

ومن هنا كان العديد من المشاعر بالحرمان ، وعـــدم الرضى التي يلزمنا الذهاب للبحث عن الاعترافات بها في ما تكشفه لنا منها كتابات الادب الروائي وهي ايضاً من ثمرات العصر الحديث ، لاننا لا نستطيـع الاعتماد على التحقيقات المتصفة بالنفاذ ، فهي منعدمة .

وتشتمل آخر روايات هيكل (المتوفى عام ١٩٥٦) . على تاريـــخ حياة امرأة . « هكذا خُلقتْ » . فالبطلة المترددة تتعذب امام صعوبات البيئة التي لا تنتهي . فهي تقول : « انا غارقة في الحيرة التي هي في آن واحد أحد الاسباب في المرارة التي تسللت الى حياتي والوحشة التي تفصل بيني والرجال » ، انـــه لموقف مرتبط بعلم الجمال وبفن الغوص في اعماق الذات [٢٧] وفي الجيل السابق اقدمت مي زياده ، احدى الرائدات في التربيـــة العاطفية في الشرق العربي ؛ على التراسل مع الشاعر جـــبران [٢٨] . ولا شك ان فيض العواطف المتحذلقة المتدفق في هذه الرسائل يضايق بهذا الجانب الذي يشبه « بريد الهوى والقلب » الذي شرع الشرق نفسه في التحول عنه . ولكن هذه الحذلقة لا يسعها ان تقلل قيمة المبادرة . فان موضوع الصداقة الحنونة هذا يبعث عند جبران موضوع الام . ويروي الشاعر انه بعد ان تجاوز العشرين من عمره ، سمع امـــه تقول له : « كان مقدراً لك ان تدخل الدير . ولو لم اخترك ، لبقيت مـلاكاً — ولكنني لا ازال ملاكاً — اين هما جناحاك ، اذن ؟ — هاهما . » وقالهـا الفتى وهو يمد يديه الى كتفيه : وتجيبه امه : « ولكنهما متكسران » وهذه الكلمة تعطي الشاعر عنوان روايته الاولى « الاجنحة المتكسرة » * وفي هذه الروايـة يتلاقى ، في عملية بوح يتسم بطابع رومانسي مريض ، حنان جبران الكئيب

---

٢٧) ف مونتيه ، V. Monteil جريدة الاوريان عدد ٣ كانون الثاني ١٩٥٨ .

٢٨) جميل جبر : « مي وجبران » بيروت ص ٢٦

نحو الام التي غيبها الموت ، وحنين الى الوضع الملائكي ، والتحريض الفكري الذي ادى الى تحقيق مجموعة آثار ادبية تعتبر احدى شواهق التجديد في الدنيا العربية المعاصرة . فنحن نرى النصيب الذى تحتله النساء في هذه الآثار . وهن نساء من طراز متجدد بصورة بالغة بالنسبة لطراز النساء اللواتي ألهمن الشعر الشرقي القديم ، او حتى بالنسبة للطبقات البورجوازية الكبيرة التي أعطت ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، في بيروت ودمشق ، وحلب كما في القاهرة ، النموذج النسائي « لنهضة » المرأة .

وما القول في انماط نسائية احدث ، في الانماط التي نصطدم بها في جامعات القاهرة والاسكندرية ، او تلك التي تنازع بأشعارها (مثل اشعار نازك الملائكة في بغداد مثلاً) اشعار نزار قباني سعفة الشهرة بانفتاحها على التيار العصري التهجمي ؟ في الجزء الثالث من ثلاثية نجيب محفوظ التي ذكرناها نجد فتاة ، تمشي مع صديقها في احدى الحدائق العامة ، معطية صورة تتناقض في كل من ملامحها ، مع صورة المراة الحالمة والمضحى بها التي كانت شائعة في اعوام ١٩٢٠ . « وكان ماء الحوض يبدو كالزمرد السائل . وكانت نسمة بليلة من نسمات يونيو تهب لطيفة حيية . وطائر التم كان يسبح مادا منقاره لتلقف بعض الفتات . وتشعر بأنك سعيد . ولكن صديقتك المرهقة كانت تبدو ألذ من الطبيعة (٢٩) » وبالطبع انها لذيذة . ولكنها ايضاً متدفقة بالمواعظ . ها نحن امام شيء جديد ! ففي كل مرة يروي لها الشاب لواعج حبه ، هي تجيبه باعلان مواقف عقائدية . فالحبيبة لا تكف عن الاشارة الى المبادىء : «وعندما احدثها عن الحب ، تحدثني عن الاشتراكية » . انها لا تغفر للشاب انتماءه لتلك

٢٩) ف . مونتيه : جريدة الاوريان ، عدد ١٧ كانون الثاني ١٩٥٨ .

العائلة التي نعلم ان الاب كان يمثل فيها دور السيد المرعب ، وتاجر الاحياء القديمة ، الغارق حتى اذنيه في الجو المحافظ المتهافت على الملـذات . ولكن هذا الاب قد ابتلعه الماضي مثلما ابتلع امرأته الطيبة . والنمط الذي يتأكد اليوم ، ويفرض وجوده هو نمط هـــذه الفتاة والفتى . ولكم تبدو مشاكلها هجوميـــة حتى على ريشة كاتب معتدل هو نسخة قاهرية للكاتب بول بورجيه .

ولكي نعثر على التعبير الحي عن هذا النمط ، علينا البحث ليس في الرواية والقصة القصيرة ، اللتين تنزعان دائماً نحو التنميق ولا في مراسلات قـــارئات يعرضن ذاتهن من اول صفحة في المجلة الى آخرها ، وانما في الحوادث والوقائــع المختلفة ، وفي محاضر الدعاوى القضائيـة ، أو أيضاً في هـذه المقابـلات والريبورتاجات التي جعلت الصحافة المصرية منها اختصاصاً والتي ينكشف فيها، بفجاجة ، الكثير من الاشياء . فان احدى الممثلات الشهيرات تحمل الرجـــال مسؤولين عن الامراض العصبية ، عند النساء ، التي ترجع في نظرها ، الى عـدم ارتواء رغباتهن . ووجوه التضاد الاكثر اثارة للانفعال تتفجر (٣٠)

وها هي اولى المهندسات من النساء : انها تسهم في أعمال التخطيط المدني في كورنيش القاهرة . وأخرى مجازة بالفلسفة ، تفتح وكالة للزواج . ولكن ، في الوقت ذاته ، يكشف محاورة كلامية عن استمرار عـــادة ختن الفتيات ، على الاقل في الاوساط الريفية ، ويدافع اشخاص يتصفون بالعلم ، عن العادة ، التي تجري بالطبـع لمصلحة الجماعة النسائية . وتحتج فتاة على المضايقة الشهريـة (التى ترافق الميعاد ؟) فتنتظر من العلم ان يحررها منها . انه لمظهر تعالم لا يخلو من

٣٠) ريبورتاج في الصحافة المصرية .

الشطط . ولكنه مظهر تمرد حافل بالدلالات أيضاً .

وبالوسع متابعة هذه العملية الى ما لا نهاية له ، بجمع آلاف الملاحظات ، التي تبدو منها ثورة عميقة تعصف بالروح وبالجسد .

المرأة العربية والتاريخ

تعمل المرأة العربية باجرائها تحويلاً في ذاتها ، على تحويل شريك عمرها ؛ في الوقت الذي تتحول فيه مواقفهما المتبادلة بالنسبة للخارج وبالنسبة للمتعالي . فليلى البعلبكي ، « كوليت » الشيعية (كذا) الصغيرة لا تقتصر على شهادة فردية مغيظة ، أكيد انها تطالب بالحقيقة النابعة « من اغوار نفوسنا » * ولكن ايضاً « من حاجات بلادنا » * [٣١] . فهي تلتزم بالنسبة لقضية الله ، وبالنسبة لقضية البلاد وبالنسبة للانسانية . ولا يمكن الشك في اخلاص هذا الالتزام ، وفي سخائه . ولان تبلغ المرأة ، في آن واحد ، الى تمجيد الفردية والى الشعور بالمسؤولية الوطنية والمدنية ، فذلك لا يدهش احداً . ولا ان تبلغ هذه الدرجة بعد سير استنفد نصف قرن من تطورها .

وهل يلزمنا ان نتحدث عن تتابع الانماط ؟ فالتطور لم يمس حتى الآن المناطق النائية او الطبقات الدنيا من الانسانية الشرقية الا بصورة غير مباشرة ومتأخرة ، ولكن لا مراء في حقيقة حدوثه ، على الرغم من عدم التناسب في تجليه ، وهي قد ألقت الضوء بالتتابع على ملامح تغير وجه شخص ما وحتى تغيّر معنى هذا الشخص . ومنذ جيلين تبدو المرأة المتجسّد لسير الزمن في العالم العربي .

وبالامكان تقدير ما كان لبَوْح « ميّ » العاطفي من اضفاء الجدّة على وضعها الشخصي والاجتماعي وعلى دورها . ولا شك ان الامر لم يكن يتعلق ، في

---

٣١) محاضرة القيت في الندوة اللبنانية ، عام ١٩٥٩ : « نحن بلا اقنعة »*

ذلك الحين ، الا بمبادرة منعزلة : ولكن فترة ما بين الحربين هي التي عرفت انتشار الاساليب الجديدة في الاحساس وفي التعبير وقد زودت المرأة « بنماذج » عاطفية تغذّت بها وغذّتها هي بخلجات نفسها ، بفضل النمو المتلازم للاذاعة والموسيقى العربية ، في الوقت الذي كانتا تحملان فيه ، الى قلب المنازل المحرّمة ، انفعالات شديدة النفاذ بالغة التطواف وتمثل على عملية الانضاج العاطفي هذه مغنيات اصبحن الآن نسياً منسيّاً مثل المغنية المغناج سوسن التي بادلها المازني رسائل عذرية وتتردد الممثلة بين آيات الاعجاب التي كان يغدقها عليها طلاب متزلفون ، وكلهم من اعيان المدينة ، ومن « الافندية » الكرماء ، ونداء الدّير وفنانة اخرى هي اسمهان ، تدشن ، في نهـــاية تلك الفترة ، مصيراً معقداً لم ينقصه زيادة في اثارة الفضول ، حتى عنصر الجاسوسية الروائي . اذ ان البلدان الشرقية كانت في فترة ما بين الحربين ، تضطرب في نزاع حاد مـع السلطـات الانجلو فرنسية . فكان ان ظهر التاريخ ، بمجموعه الكامل ؛ في قلب دور الحريم ، ترافقه الموسيقى التعبيرية ، وفردية ذات رنات مديدة .

انها الفترة التي تمتد اليها جذور الشباب من حياة المؤلفين المشهورين في ايامنا الحاضره والفنانين المعروفين مثل ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب . فترة قدانقضت اليوم ، لان تطور المرأة ، الذي ادخل التسارع في وتـيرته التحرر الوطني ، وتقدم التعليم قد تجاوزها ولا يزال يذهب الى ابعد . واليوم تتفجر هذه الرعشة في القلب والحواس وبموازاتها يتفجّر تبدل وظيفي .وان مشاكل الحد من تزايد السكان تشغل أذهان الحكومات ، وبدأت « مراقبة الولادة » Birth Control تنتشر في الطبقة الموسرة . يضاف الى ذلك تبدّل في الوضع الاقتصادي للمرأة، بالقدر المتنامي الذي تلج فيه المرأة الحياة المهنية ، وتحوّل في أشكال المجتمع ، يؤدي الى التقلص التدريجي في أحجام الجماعات . فأبناء العائـــلات الكبيرة يهجرون مساكنهم العائلية في الأحياء القديمة ، التي اصبحت تقسم الى عــــدة

مساكن ذات غرفة أو غرفتين ، فهم يفضلون بعد الآن السكن ، في الأحياء الجديدة ، في شقة لم تعد « الدار » الخاضعة لسلطة الأب او الجد ، وانما أصبحت عش الزوجية ، والزوجان ينشطان لتدبر شؤونها ولمواجهة مصاعب حياة تفرض عليهما فيها الحاجات المتزايدة أبداً أن يدفعا غالياً ثمن الرفاهية على الطريقة الغربية . والشاب الأعزب والفتاة العانس ، أصبحا يشكلان نمطين يتكاثران شيئاً فشيئاً . وهذان النمطان كانا في الماضي غير معروفين ، ولا يزالان حتى اليوم أمراً مناقضاً للمنطق . وكذلك بدأ نمط الأم (المهيمنة ، المتسلطة على البيت) يختفي كمثل أعلى ، وثمة هبوط في الاقبال على الراقصات – المغنيات ، وازورار عن رقصات البطن التي كن يجتذبن بها ، واستنكار يزداد كل يوم قسوة للبغاء . ولا يزال بعض المراهقين يتذرعون الارصفة بصورة خطرة . ولكن البوليس يسهر . والمحافظون على الاخلاق يستهجنون من اختلاط الجنسين على البلاجات ، هذا الاختلاط الذي يوحي به ، على العكس ، علماء النفس (٣٢) وموضة الخط المربع المنحرف (الترابيز) تثير مناقشة كلامية لا يترفع عن الخوض فيها فقهاء الازهر . وبينما هي تبدو ضرباً من الفضيحة في نظرهم ، وموضع احتقار الشعب الذي تعرف فيها الى شكل كيس القطن « شوال القطن » * ، كان هذا الزي للفساتين ، بالنسبة لأنيقات القاهرة ، طيلة عدة شهور ، رمزاً لتحررهن (٣٣) !

اذ ان المرأة أخذت تنتزع ، بعنف كل يوم أشد حقها في الوجود كشخص وكمواطنة ، وبتحقيقها ذلك ، استعادت عمليات الاستمرار الطبيعية والاجتماعيّة

---

٣٢) الذين يتكاثر عددهم بصورة متوازية . انظر تيري بروترو Terry Prothro و ل ميليكيان L . Melikian : « البسيكولوجيا في الشرق الاوسط العربي » النشرة البسيكولوجية Psychological Bulletin الجزء ٥٢ العدد ٤ تموز ١٩٥٥

٣٣) ريبورتاج في الصحافة المصرية ، في يوليو ١٩٥٨

التي كانت النظم القديمة تبعدها عنها . وثورتها مع طابعهـــا الذاتي من وجوه عديدة تندرج في ثورة الرجل . وهـــذا الأخير كان يبيح لنفسه ، في النظام التقليدي ، الامتياز باقامة العلاقات ليس فقط مع المجتمع الذي يحيط به ، وانما ايضاً مـع الطبيعة ذاتهـا . فكان الجانب المـذكر يحجب الجانب الأنثوي ، ويغتصب حقه ، من وجوه عديدة . وقد وصفت كلمة رهيبة هذا الوضع بقولها : « كانت المرأة في المنزل الزوجي ، الضيفة الغريبـة الأولى » [٣٤] . لقد كانت ، بصفتها مصدر الحياة ، مستنفدة ومنبوذة في آن واحد . وفي الاوضاع الحاضرة، لم تعد الحال كذلك ، فالمرأة في الوقت نفسه الـذي ترمم فيـه شخصيتها تعيد اتصالا دائم الطراوة مع المد الابدي للأشخاص والاشياء وقد أعادها التاريـخ الى الاستمرار ، والرجل يطلب منها وساطات جديدة وضرورية .

---

٣٤) ل . ماسينيون . مقدمة لاعادة مؤلف ف مونتيه : « النشرة السنوية للعالم الاسلامي» ١٩٥٥ ص ١٤ .

الفصل العاشر

مغامرات الكلمة

الكلمة العربية تتلاءم مع ارض الناس اكثر مما تنتمي اليها وتدخل في ملكيتها . وتتميز مادتها دائماً تقريباً ، عن لغة الحياة . فالعلامات اليومية التي تمنحها تهمل الحياة اليومية ، فهذه العلامات تحلق فوق الارض ، وتظل وفية لتحديدها الذي يتضمن النزول [1] الى الارض ، بدلاً من الانبثاق منها على الاقل ، هذا هو المبدأ ولكنه ايضاً حالة تمكن ملاحظتها تاريخياً في كل الدنيا الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط ، لمائة سنة خلت ، قبل « النهضة » البيروتية والتغيرات التي طرأت ، منذ ذلك الحين ، لا تزيد غير الكشف عن هذه الظاهرة بصورة اوضح .

كيف سمت « اللغة » « الفصحى » ، الامينة للقرآن الكريم ، الذي يشكل نموذجها الأعلى غير المخلوق ، لان تتحول من سبيل لهبوط الوحي وللاتصال مع الله جل وعلا ، الى اداة لتبادل الشؤون الدنيوية ، ووسيله للثقافة ، والانباء والتعبير ، وما هو المدى الذي نجحت فيه ببلوغ هذه الغاية : ان بحثاً من هذا النوع يقوم بالذات في صلب دراستي .

---

١) انظر كلمة « التنزيل » (في المعاجم اللغوية) بمعنى هبوط الوحي .

« اللغة » (الفصحى) ليست اللغة الام لاي أحد [٢] . انهـــا تكتسب بمعاشرة النصوص الكبرى ، وخاصة بأرفـــع هذه النصوص ، القرآن الكريم . وتقليدياً ، يندمج هذا الكتاب المقدّس مع كل تمرس بحرفـــة انسانية . وفي دار الاسلام لم تكن جماعة ، بالغاً ما بلغ فقرها ، ولا من دسكرة ، بالغاً مـا بلغ جدبها ، الا وكان يبقي على استمرار الكتابة والترتيل فيها متعلم أو عـــدةُ متعلمين ، مهما كان من ضآلة مظهرهم أو من قلة علمهم . وهـــذا الامر يتيح لنا اليوم ، أن نؤكد في ضرب من ادارة الظهر للزمن الحاضر ، ولكن باحساس حقيقي ، ان التعليم الابتـــدائي كان يزدهر في البلدان العربيـــة قبل الاستعمار . وكان الأمر يتعلق بامتلاك الطفولة للمطلق أكثر منه تعليماً . فالناس يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، ولا يوجهون لفهمه غـير نـوع من الاحتقار المتعالي ففضيلة كلماتـه تقوم في الشكل وفي النغم ، أكثر مما تقوم في أيّـة من عمليات التطابق مع الوقائع اليومية . وهذا الامر لا يزيد هذه الكلمات الارسوخـاً في الاذهان والخواطر . فالكتاب المـنزل ، الذي يحمل صفة مجموعـة الحكم ، والمواعظ والقصص . يشكل بالنسبة للرجل البالـغ ، وعلى الدوام ، الحكم الذي تطرح على محكه التجربة الدنيوية ، والينبوع الذي تُستقى منه كل معرفـة . وهذا الينبوع يحتفظ بنداوته على قدر قربـه من طفولة صاحبنـا ، ومن طفولة العِرْق ، ومن جنات عدن .

وبعد هذا يسعنا أن نفهم لماذا تعطي اللغة الكبرى ، التي ظلت مكتومة في مستودعها الطفولي والالهي ، رمزاً اجتماعياً هائل الفعالية والعمق . والانحطاط المعنوي ، والتشتت السياسي ، والتدهور الاقتصادي للعـالم الاسلامي في القرن

---

٢) هي ، ربما عكس ذلك ، لان الذي لا يحسن الكتابة والقراءة يدعى في هذا المجتمع « الامي » * أي « المنسوب للام » اذا شئنا .

التاسع عشر ، ذلك يجعل من هذه اللغة الرمز الوحيد لهذه الشعوب . وبالفعل فان صعودهم من جديد على طريق الانبعاث قد بدأ بالبعث اللغوي ، وبفضل محاولة اعتداء أولى ، والحق يقال؛ اذ ان المسيحيين هم الذين يتخذون وجه الرواد [٣] ، بصورة تبدو مناقضة للمنطق الظاهر . ففي افواههم وتحت اقلامهم تفقد « اللغة » * من بداية اللعبة النصيب الديني من قدرتها الرمزية . وهي تكسب الحاحاً مقابلاً ، وبالقدر نفسه على الجانب الاجتماعي وحتى الوطني : فتريد لذاتها ان تكون عربية [٤] اكثر منها اسلامية . وكان ذلك يحتوي البذور لشتى التطورات اللاحقة .

وثمة ملمح آخر هو ان التجديد ظل بعيداً عن التحدر من مؤثرات كان بوسعنا ان نسميها طبيعية . فهو يعود الى مربين ورجال أدب ليس لنشاطهم في ذلك الحين . ولم يكن بالامكان ان يكون له ـ أي ارتباط مباشر مع الحياة الراهنة لبلادهم . ولا شك ان هناك ترابطاً زمنياً على الاقل ، بين نمو بيروت كمدينة وكمركز تجاري ، خاصة منذ شق برزخ السويس ، ونموها كمركز

---

٣) واذا لم ننوه الا بالمصادر العربية ، فلنذكر الابحاث الكلاسيكية التي كتبها الاب شيخو : « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ١٩٢٦ ص ٣ وما يلي . وحول الوضع العام في حوالي سنة ١٨٨٠ انظر ص ٦٤ وما يلي انظر ايضاً تاريخاً ثميناً لينابيع الصحافة ، هو ايضاً تاريخ للنهضة ، الفه الطرزي « تاريخ الصحافة العربية » جزءان – بيروت ١٩١٣ وسير الشخصيات الادبية بقلم يوسف أسعد داغر «مصادر الدراسة العربية» الجزء الثاني بيروت ١٩٥٦ عند الاسماء الواردة .

٤) لقد اوضح انطوان غطاس كرم ، في اطروحته التي لم تنشر بعد ، بصورة دقيقة ، دور الترجمات العربية للتوراة في الهام جبران ، بدلا من الالهام القرآني .

ثقافي ولكن هذا الترابط لا يمكن تحليله وتفسيره بأي شيء واضح [٥]

وهناك أكثر من ذلك . فالانطلاقة الادبية – ونجد هنا ثالث الملامح – مدينة كثيراً ، ومنذ البداية ، للتأثير الغربي . فـان عملية اخصاب وتلقيح تتحقق على اللغة القديمة التي تستعير من اللغة الفرنسية المواضيع الفكرية والاساليب اللغوية التي لا نملك حتى الآن أية دراسة منظمة عن تفاصيلها . فكيف يمكن الفصل بين ذكرى بطرس البستاني وذكرى صديقه كورنيليوس فان ديك Van Dyck أو تجاهل دور الاب بيلو Le P. Belot في المطبعة الكاثوليكية ؟ واكثر المتعلمين يقومون بصورة جد طريفة ، ولكنها أحياناً ناجحة ، بالتوفيق بين الكوزموبوليتية وشعور التأصل الراسخ في الموطن المحلي الصغير . ومن هنا كان ازدواج (في الهوية) يذهب الى حد تغيير المذهب وحتى الى تغيير الدين [٦] . وسوف يتجلى هذا الازدواج ابتداء من عمليات التنكيل

---

٥) ان اعوام ١٨٩٠ التي تأخذ فيها بيروت انطلاقتها النهائية ، المرتبطة بانشاء المرفأ وبمد الخط الحديدي الذي يصلها بدمشق وبتوظيفات رؤوس الاموال الاوروبية هي بالضبط اعوام الانحدار الثقافي . فتتناثر « النهضة » ، منذ ذلك الحين ، الى خارج لبنان . واللاانتظام في هذه التدخلات المتعاكسة بين السباق الاجتماعي والانطلاق الثقافي في الشرق ، من شأنه ان يطرح امام « تاريخنا الادبي » الكلاسيكي مشاكل بالقدر نفسه ، يجد العالم الاجتماعي فيها معالم لبحثه ... شرط ان يصار الى الكشف المنظم عن عمليات الترابط هذه ، أو عن فقدانها.

٦) وأشهر قضية تغيير الدين كانت قضية الاخوين الشدياق ، فمات أحدهما بعد أن ادانتـه طائفته كمارق من الدين ، والثاني (احمد فارس) ، اصبح مسلماً . والمعلم بطرس غير الكنيسة التي ينتمي اليهـا . وابراهيم سركيس ، كذلك يعتنق البروتستانتية ، وميشال مشاقة ينكر انتماءه للروم الارثوذكس الخ ... ويحفل الشرق بحالات من هذا النوع ، يصير فيها انتقال في هذا الاتجاه او ذاك . ولكن اقترابنا التاريخي والبسيكولوجي ليس من الدقة بحيث يسمح لنا بتعميق دراسة هذه الحالات ، أو بتفسيرها .

التي قام بها السلطان عبد الحميد ، في الهجرة . وقـــد أعادت الطبقة المثقفة (الانتلجنسيا) البيروتية ، حينذاك ، بناء مركز ثقافي في القاهرة . ولكننا نجد ممثلين لها في كل مكان : في باريس ولندن وسان بطرسبرج ، وكاجلياري ، وتونس ، وطنجة ، والقسطنطينية وحتى في زنجبار .

والتعبير الادبي يفيد ، شكلاً ومحتوى من هـذا الانفتاح المتعاظم . والحق يقال ، علينا ألا نطلب من مجلة « الجنان » لا الطلاقـــة اللفظية ، ولا النبرة العاطفية التي عودتنا المجلات العربية الحاضرة على الغلو فيها . فالهامها كان لا يزال يستقي من القديم . واخبارها المحلية كانت فقيرة ، وكانت « جملتها السياسية » * ملجومة ومبناها كان لا يزال في حالة التمتمة ، فهنا مديح بأحد مشائخ آل الخازن ، وهناك قصيدة لعبد الهادي الرفاعي يشكر فيها علماء بـيروت ، على الحفاوة التي لاقوا بها كتابه عن أحد أجداده الأفاضل ، ومقالات نثرية مسجوعة بصورة مملة ، وقصيدة لأمـــين الجميل الذي وضع شعراً مختارات من الابحاث القضائية ، وأخيراً هناك مدائح مقلقة في ناصيف اليازجي تشيد بذاكرتـــه وبراعته في البلاغة اللفظية [٧] .

وقد كان عملاً أكثر اتساماً بالروح التجديدية ، ماقام به المعلم بطرس البستاني باصداره دائرة المعارف ، ومـــا يتضمنه من اتصال واعٍ مع العالم ، وكذلك تجربة لويس صابونجي المتدفقة كالسيل العرم ، فالأول يخترع واقعاً ظل طويلاً خافياً على الأفهام ويحاول أن يهب لأخوته الشيء وفي الوقت ذاتـه الكلمة التي تحتويه ، وكثير من نبذاته حافظت على قيمتها ، وبالاختصار ، لزمنا الانتظـار حتى يومنا هذا لنرى سعياً لمتابعة هذا المجهود ذي الطابع العملي واللفظي ، في الوقت الواحد .

---

٧) « الجنان » الجزء الذي صدر عام ١٨٨٥

أما الشخص الثاني ، فهو رحالة ، ومحاضر اجتماعي ، ومخترع فنون وحرف. وهو يفاخر بأنه « كاتب شعبي وليس لاعب ألفاظ » الامر الذي لم يكن يُسمح بمثله في وقته وفي أمته . ولبناني آخر ، هو أحمد فارس الشدياق ، أسهم كثيراً في هـذه العملية بالتمرس الانسيكلوبيدي ، فقد كان غير مستقر ، دائم التمرد الثوري ، متحذلقاً ، وأحياناً إباحياً ،وكان لاذع السخرية ، ذا لسان قارص وقدرة تدميرية . ولكنه كان يتمتع بفضول رائع . إنه يشبه الى حد بعيد ، رجال نهضتنا [٨] . وهناك ايضاً شبه بين هؤلاء والمفكر ابراهيم اليازجي ، على الرغم من أنه كان من مزاج يختلف تماماً عن مزاج الشدياق . فهذا الكاتب كان عالم لغة ، ومولعاً بالتحصيل العلمي ، وضارب عود وصائغ مجوهرات وساعاتياً ورساماً وخطاطاً ومنجماً ، وعاملاً في صب المعادن ، ومخترعاً لأحرف المطبعة . هذا الابن للالهة يجرؤ ، سنة ١٨٧١ ، على مقارعة الشدياق المخيف ، وهـو يترجم التوراة ويوجه للمغتصب التركي قصائد وطنيـة ، ويشترك في تحرير مجلة « الطبيب » التي تهتم بصورة غريبة بالنسبة الينا بعلم النحو قدر اهتمامها بالعلوم الطبيعية ، وفي سنة ١٨٨٢ ، يهرب من حملة الارهاب الحميدية ويلتجىء الى مصر التي كانت حينذاك ترفع المشعل . فيقوم الى حد ما ، بتأمين الاتصال بـين « النهضة » * الأولى والفريق الذي نجده بعد ذلك في القاهرة عام ١٩١٠ [٩] .

هؤلاء الرجال الكاملون يدهشون بحرارة اندفاعهم للفهم وللتمثل والهضم وبتسجيلهم في اللغة مكاسب الحياة العصرية ، هم يسهرون بحرص على هـذه المكاسب ويحدّون في فضح الاسلوب الصحفي في اللغة . فهل كانوا ينشدون المستحيل ؟ على كل حال ، لقد أحسوا بضرورة التغيير ولكن أيضاًبأخطاره

---

٨) انظر في جملة آخرين شفيق جبري في مقالته « السخرية عند الشدياق» في«مجلة المجمع»* الجزء الرابع والثلاثون١٩٥٩ ص ٢٠٩ وما يلي .

٩) انظر النبذة الحية التي يكرسها له فؤاد البستاني في مجموعة « الروائع »

وبصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، في نظرنا ، لم يكن العمل الروائي ميداناً يحسنون التحرك داخله ، فهـذا الفن الروائي سوف ينمو ويتطور في مصر ، بفضل نجدة الترجمات ، وسوف تقوم صحف مثل الهلال « والرواية »بتعميمه، حتى يومنا هـذا ، بنجاح لا يكف عن التزايد . فهؤلاء المفكرون كانوا مستقيمين ، وبالغي الدقة . والتطور الاول « للغة » الفصحى المهيبة قد تحقق بفضل الاحتكاك المباشر بين خفاياها والمكاسب المادية التي حملها الغريب . وقد كان منطقياً ان يحصل ذلك . فالاختلاج العاطفي لم يسعه أن يجد ترجمته الا في وقت متأخر ، مع جبران وشعراء المهجر . وحتى في وقتنا الحاضر ، يبدو للمصلحين العرب ان من اللازم ان يكون للاتجاه نحو العلوم المضبوطة الغلبة على التعبير اللغوي ، مثلما يلزم ان تكون الأولية للفعل بدل الحلم .

ولكن هذا الحلم ، بقدر ما يعبر عن نزعة للالتفات نحو حياة داخلية ، لا يزال هو نفسه أكثر فعالية وأشد حسماً ، من الوجهة الاجتماعية ، من التقدم التقني . أو بالأحرى ان هذا الأخير لا يصلح الا في إطار من النزعة للالتفات نحو الحياة الداخلية . فمنذ المعلم بطرس ، أمتد الصراع بين النموذج الاعلى والحياة العصرية ، بصورة كبيرة جـداً . ولم يحدث ذلك بوساطة التكيُّف المعجمي فقط . فـالعرب يطلبون من الكلمة ليس فقط أن تستوعب أفكاراً جديدة وأشياء جديدة ، وانما أن تعبر عنهم، عن انفسهم ، في أشواقهم وعذاب انبعاثهم .

اكتشاف الطبيعة [١٠]

الطيب السراج ، من أمدرمان ، هو صاعقةمن القول؛ وهو في مظهره الغريب، المتعالي ، وفي نظرته التي تومض فيها الصواعق ، يستطيع أن يسرد لك الآلاف من ابيات الشعر وان يعلق على عشرات الآلاف من الكلمات . وبالنسبة لهذا الدون كيشوت اللغوي، تمحى الانسانية أمام الاسلام ، ويمحى الاسلام أمام العروبة ، والعروبة امام علم المعاجم . وقد كان يروي لي العديد من الاشعار التي تصف الصحراء ، أو الحيوانات ، وخاصة صورة اسد في شعر حرملة بن المنذر . وقد كان فخوراً بذلك . ولكنني أبديت رأيي في الأمر ملاحظاً أن الحدّة في دقة التعبير في هذه القصيدة تتضاد مع محتواها الشعوري الذي يبدو تقليدياً ، متواضعاً عليه ، ففي رأيي أن هذا الشيء بالذات المتواضع عليه في هذا الشعر القديم ، يفيض جمالاً لأنه يحدث نوعاً من ارسال العلامات الحافلة بالايحاء بمواضيع مألوفة للجماعة ، الامر الذي هو كلاسيكية نموذجية ، ولكن هل من التجديف أن نقولها : لا في الأدب العربي [١١] ، ولا في عهد الكلاسيكية الاصيلة عندنا ، لاتنكشف الطبيعة حقاً بالنبش العميق عنها . فالحاجة ذاتها الى اعادة خلق هذه الطبيعة في الكلمة ، اذ تفترض على السواء توفر أدوات الوصف من جهة ، ويقظة حساسية جديدة من جهة ثانية ، تفترض تجديداً في العلاقات بين الفرد والمجتمع والعالم ، وعندنا ، لم يحدث هذا التجديد الا منذ روسو وبرنارد دوسان بيير .

---

١٠) هذا المقطع مدين كثيراً للافكار المتبادلة ، في ندوة انعقدت في شباط ١٩٥٩ ، مع ريجيس بلاشير Régis Blachère وابنياس ميرسون Ignace meyerscn . ولكن هل علي ان اقول أن آرائي لا تلزم غير نفسي ؟

١١) اناالاجهل ما يمكن لمثل هذا التأكيد، المتسرع ، ان يثير من تناقضات ، فابن الرومي، والبحتري وكثيرون غيرهم يستطيعون ان يقدموا شهوداً ضد هذا التأكيد . ولكن لنتفق على الكلمات : فهناك عالم بكامله يفصل بين « طبيعة » لافولتين وطبيعة روسو ،

لنتصفح كتاب جميل صليبا حول « الاتجاهات الثقافية في سوريا » . انــه يكرس ، بالضبط ، فصلاً للاحساس بالطبيعة . رهو يقدم فيه عدة أمثلة خاصة شعرية . مثلا صوراً للغوطة . ويبدو له ، كما يبدو لنا ، أن الطبيعــة ، في نهاية المطاف ، لا يحس بها هؤلاء الشعراء وبالاحرى ، هــؤلاء الناثرون الا كاطار يعرضون فيـه ويلصقون عليـه انفعالاتهم الانانية [١٢] . وهل يختلف الامر بالنسبة للاشعار التي أوحى بها النيل [١٣] في شتى العصوّر ؟ أما المهجر ، فعلى العكس ، قد حمل احساساً جديداً واغاني جديدة . فكان العربي يبدأ حقاً بالتعبير عن الطبيعة ، حالمـا يحدث النفي التفتيت في اطـاره والزلزلة في حساسيته . فجبران يتوحد مع الارض ، في هلع ووجل مقدس ولكنه يعلم ان تلك الارض قد فقدها. وهذه هي اللحظة التي تتفجر فيها الكلية القديمة في الكثير من الاذهان العربية ، لتخلي المكان امام النشاطات المقسّمة في العصر الحديث . تأمّلٌ مجرد ، وفنٌ متخصص ، وفكر عملي يسود الحقل الصناعي . وهكذا يغني فوزي المعلوف وايليا ابو ماضي عواطف وصوراً تقودهمـا على اجنحة الروح الوجدانية القديمة الى مثل المسافات البعيدة التي تقود أجسادهما اليها الهجرة من بكفيا أو من زحلة . وقبلهما رفع الريحاني صرخته :

« أيتها الام الطبيعة ، لقد أقبلت اجدد فيك آمال الحياة وأفراحها ، وفي قلبي اليوم قليل من قلب جاري . وفي قلب الغابات خفقات تنطلق مني . وثمة شيء من قلبي في عقل الفلاح ، وشيء من عقل الفلاح في الصميم من قلبي . وما يراه من الارض ، ومن ضياء الكون ، أنا اراه في انحناءات الخطوط بالوردة أو في براعم الياسمين . واوراق التوت تحدثني عن الاسرار الالهية المكنونـة . وفي

---

١٢) لقد أبدى الشاعر التونسي رأياً مماثلا .

١٣) محمد عوض « نهر النيل في الادب » « المجلة » : نوفمبر ١٩٥٧ ص ٣ وما يلي

عبير اشجار البطم ، وتحت قناطر السنديان ، انا أشيد هيكلاً للايمان (١٤)

ولكنْ هذه الاندفاعات تنبع من قلبٍ فقد طمأنينة الايمان الذي كان للجدود . ففي أوربا سبقت عمليات البوح والكشف عن سرائر الذات التي تميز المدرسة الرومانسية المتفتة الى الطبيعة ، اقول إنهـــا سبقت تحوُّل المجتمع والتقنيات ، على الرغم من انها تشترك مع هذا التحول في الانبثاق من الزلزلة نفسها ، « فالنهضة » « الاولى التي كانت معاصرة للعهد الفيكتوري تجتاحهـا زلزلة من هذا النمط . ولكنها لم تخلقها . فهي تتلقاها من الخارج . وهـذا الامر يحدث في النفوس الشرقية التواءات مؤلمة .

اعادة الاعتبار للفن الشعبي

لقد اضاع العرب وقتاً طويلاً — مدى جيلين على الاقل بعد « النهضة » — قبل ان يلتفتوا لكنوزهم الخاصة بهم.

ولم يسبق قبل اليوم ان ابدى الناس ، مثلما تبدي طبقة بكاملها من الاهتمام بالفنون الشعبية وبالشعر العامي . وهذا الاهتمام يحس بنفسه ويريد لنفسه ان يكون ثورياً (١٥) فبالفعل كان الفولكلور محتقراً تقليدياً لأنه يهرب ، في الوقت نفسه من الثقافة الكلاسيكية ، ومن النماذج الاجنبية .

وبدر نشأت ، وهو أحد الصحفيين الاكثر التفاتاً لاعادة الاعتبار للفولكلور

---

١٤) « هتاف الاودية » . وقد كتبت القصيدة عام ١٩١٠ ، في الفريكة ، قرية صغيرة تابعة لبلدة بيت شباب .

١٥) ان الجهد الاغنى بالدلالات . في مصر هو جهد احمد رشدي صالح في كتابـــه : « الادب الشعبي » ، وقد شكلت الحكومة المصرية مجلساً للفنون الشعبية ومكتباً كاملا لهـــذه الفنون يعمل تحت ادارة يحيى حقي . انظر بحث الدكتور حسين مؤنس« الفولكلور » في مجلة « المجلة » المصرية (مع دليل خاص) عدد نوفمبر ١٩٥٨ ص ٩٣ وما يلي .

ليس بعيداً عن اعلان هذا الامر ، وعلى عكس الموسيقي والتصوير الحديثين ، اللذين غزتهما الى حد بعيـــد مبادرة الغرب ، واللذين يزخران بتعقيدات حياة المدن الجديـــدة ، يظل الفولكلور القروي متصلاً بالحياة الابدية . فالطبيعة تشيـع فيه بحرية ، فالفولكلور هو الثقافة السفلى l'Infraculture أو الثقافـــة الاساسية ، ولكن لا يمكن تصور الفولكلور دون تصور اللغة العامية مرتبطة به . ومعلوم أن اللغة العاميـــة كانت حتى الان موضع ازدراء وكبت ، ومن جهة أخرى يتضمن مفهوم الفولكلور موقفـــاً يتجاوز حدود « الادب » وأسلوب المدينة وحتى الدين ويعني اقامة مبادىء ومواقف ؛ ونظـــام اخلاقي تقريباً تتنافى مع النظام الاخلاقي والمبادىء والمواقف السائدة في المدينة .

ومهما كان الامر ، فان الفولكلور يبلغ اليوم حد الموضة [١٦] ومؤخراً ، ذهب مندوبان من مصلحة الفنون الشعبية الى بور سعيد لتسجيل اغان شعبية . ولكن بالضبط لم يعودوا يغنون في بور سعيد. وفي هذه الظاهرة نرى الى أي حد تتداخل الفنون الشعبية في حياة الجماعات . فالعائلتان اللتان ينتمي اليهما المغنيان الرئيسيان ، يفصل بينهـــما نزاع ، فاضطر الموظفان للجوء الى حيلة . لقد لبسا البدلة العسكرية ، وتقدما على التناوب من العائلتين ، زاعمين أنهما جاءا من قبل « المدير » أو من قبل سلطة أعلى ، وان هــــذا الموظف الكبير يطالبهما (اي العائلتين) باسم الشعب ، وباسم الأمة ، بأن تقيما الصلح بينهما على كل حال ، فقد توصلا الى التوفيق بين الجماعتين. عند ذاك يقيمان عيداً كبيراً ، وصدف ان أحد الضابطين المزعومين كان مولعاً بالغناء ، وأنه انفق مـا يقارب المائتين او أو الثلاثمائة جنيه ثمناً لآلة تسجيل كان مجهزاً بها !

وكان الموسم ، على ما يبدو ، جد خـيِّر . فهو ينبع من أرض لا تنضب .

---

١٦) التحقيقات العديدة في الصحف .

ولكن المجهود الذي يبذل لحصده يرفض الكثير من المواضعات الاجتماعيـــة ، فالظهور الفجائي للفنون الشعبية يزيح العديد من الاوامر بالتحريم . ومن هنـا كان طابعه الهدّام . فهو يعيد الاعتبار لقيم كانت حتى الآن مشبوهـة أو على الاقل مضيّقاً عليها ، وفوران الفولكلور ليس فوران الفرْد بقدر ما هو فوران الطبقات المحتقرة ، ضد وجاهة الأدب البلاغي ، وجمود التقاليد الاجتماعية . وفي هذا ما يفسر ان مبادرات من هـذا النوع في مصر بدرت اكثر الاحيان من الاشتراكيين ، وفي مواضع أخرى في لبنان مثلاً ، يأتي الشعر العامي من الجبل ، الماروني او الشيعي ، الذي يفرض وجوده ويتجلى على هذا الشكل ، ضد مدن الساحل (١٧) . وبالرغم من أن هذا الفن يبلغ هنا ، اكتمال صياغـــة مدهشاً ، ويغذي عدة مجلات ويلهم كتاباً كباراً (مثل رشيد نخله) ، فالتقدم الادبي لا يلجم فيه المعنى الثوري . والفولكلور يلعب في لبنان ، ومنذ زمن طويـل ، دوراً سياسياً ، انه يتحرك في مجال التاريخ ، فالأحزاب ، في خلافاتها تتحاور بلغة « القرادي » * واثناء الحرب الاخـــيرة ، كان اليساريون يحتفلون « بالقرادي » بتقدم الجيش السوفياتي ، والحركة النقابية نفسها تلجأ (للزجل) وكل هذا يلتصق بالجبل ، لان بيروت تبقى على جـــانب كبير من العقم من هذه الناحية . فالسنيون مغرمون بنظم الشعر الفصيح . وهم لا يستطيعون أن يعدوا ، في باب الشعر العامي ، غير الزعني ، صاحب الاغنيات الشهيرة . وحتى هـذا الأخـير يستعمل خاصة ، وربما من قبيل الازدراء ، اللغة العاميـة المصرية . (كذا)

ويمكننا ان نقول الشيء نفسه تقريبا ، عن العراق ، وعن أغانيه ومواويله

---

١٧) انظر اطروحة جبور عبد النور : « دراسة حول الشعر العـــامي في لبنان » ١٩٥٧ وخاصة ص ٦٠ وما يلي . وهذا المقطع مدين له كثيراً .

« العبوديّة » (١٨) وعن شعرائه الشعبيين مثل الحاج زاير الذي سبق لي الحديث عنـــه . وعلي ان اذكر ، في السياق نفسه شاعراً غنى في الطرف الآخر من العالم العربي ، في السودان ، هو الشيـخ حردللو (١٩) ، الذي غنى امجاد قبيلته الشكرية ، وافراح الحب ومباهج الصيد والقنص .

خلف المسرح واذا كانت الحركة التي قادت الى بعث الفولكلور تفترض زعزعة الكثير من أوضاع التراتب ، الجمالي والاجتماعي ، في سبيل اعادة اطلاق حقيقةٍ شعرية مستقـلة عن كلاسيكية الفصحى ، الامر الذي هو في الواقع ، بالنسبة لهـذه الشعوب طريقة جديدة للعناية بنفسهـا وبكلمة اصح للقبول والرضى بنفسها ، فـان الجهود الذي يبذل لخلق مسرح لا يكون مجرد لعب لفظي يتلهى بـه الادباء ، يثير صعوبات أشدّ . اذ ان المسرح العربي هو خلق من العـــدم ، فالمترجمون الكبار للأغريق ، في القديم ؛ في تصارعهم مع نص « فن الشعر » مثلاً ، قـــد اختاروا كلمة « هجاء » لنقل كلمة « كوميديا » ، وترجموا كلمة « تراجيديا » بكلمة « مديح » والمعلقون الذين نشر مؤخراً ترجمة لهم عبد الرحمن بدوي ، كانوا يرتكبون الخطأ نفسه ، وابن رشد نفسه أجهد نفسه كثيراً في سبيل دعم

١٨) انظر المقال الرائع الذي نشرته نازك الملائكة في مجلة الآداب ، عدد آب ١٩٥٧ ص ١١ وما يلي بعنوان « الشخص الآخر في الاغاني العراقية »

١٩) مبارك ابراهيم ، وعبد المجيد عابدين : « الحردللو ، شاعر البطانة » الخرطوم ، ١٩٥٧ .

هذه الالتباسات في معاني الكلمات بالشواهد الكثيرة [٢٠]

وعلينا أن نصل الى أواسط القرن التاسع عشر لنجد في الشرق محاولات مسرحية حقاً. وهنا لا يسعني ان أعفي نفسي من الاشارة الى رائدين مجددين، في هذا الباب: احدهما لبناني والآخر سوري، وأولهما في الزمن هو: مارون النقاش، وقد كان ينتمي الى عائلة من أصل ألباني كان لها نصيب كبير في البناء العمراني لمدينة بيروت. وقد أخرج مارون سنة ١٨٤٨، تمثيل مسرحية «البخيل» التي كانت والحق يقال، مستوحاة كثيراً من موليير لا منقولة. وتظل لغتها خليطاً تلتقي فيه اللغة التركية واللهجة العامية اللبنانية واللهجة المصرية!

أما محاولات القباني، السوري، فتذهب أبعد في طريق الفن ولكن صاحبنا يصطدم في محاولاته، بمعارضة المحافظين، فقد نظموا مواكب تهتف ضده وتقرع أذنيه، في شوارع دمشق، وينتهون بفرض منعه من التمثيل مما اضطره للنزوح الى مصر، وعلينا أن نقفز فترة طويلة من الزمن لنصل الى محاولات شوقي التي هي، والحق يقال، أدبية صرف.

وهذا الشاعر، الذي سموه «امير الشعراء»، والذي يطلق عليه جانب من النشء الجديد، بخبث، بدلا من ذلك، لقب «شاعر الامراء»، كان يقيم حينذاك في فرنسا، حيث كان كثير الاعجاب بتجربتنا المسرحية. ومنذ نهاية القرن الماضي، هو يضع المشاريع لمسرحيات لن ينشرها الا بعد ١٩٢٧. وكلها كانت فصيحة رفيعة الاسلوب، ما عدا واحدة، هي «الست هدى» التي كانت معدّة للاوساط الشعبية في القاهرة.

ولنقفز، مرة أخرى، مدى جيل. فان مسرحية «الست هدى» تمثل في

---

٢٠) محمد مندور «المسرح الحديث» مجلة «المجلة» المصرية – القاهرة، يوليو ١٩٥٨ ص ١٦٢ وما يلي.

الكويت ، تحت اشراف رئيس الفرقة ، أحمد حروش . وقد أضطر لان يعتمر عمامة ضخمة ولان يغطي ممثلاته بحجاب يجللهن حتى العنق ، لان بيئة الكويت هـــذه اكثر تشدداً في قضية التمثيل المسرحي منها بقضية العائدات البترولية . ومهما يكن من أمر ، فأن المسرحية كما رأينا ، لم يطل أمدها . اذ ان ما فرضت نفسها به طويلًا هو الاتجاه نحو الاوبيريت المضحكة التي هي شيء هو بين المسرحية الهزلية والاغنية . وهذا النوع الفني قد عرف نمواً هائـلًا في القاهرة بين ١٩٢٠ ــ ١٩٢٥ . فللوصول الى المسرح الحقيقي ، اقتضى الأمر ان يتم ، بطريقة ما ، الالتحام بين التقاليد المقبولة من الجماهير الشعبية ، والانماط الادبية الراقية . وليس بالوسع القول أن هـــذا المجهود قد حقق حتى الان نجاحاً كاملًا ، باستثناء بعض المحاولات الموفقة .

ومع ذلك فأية حماسة بذلت في هذا المجال ! فمصر قد أنشأت فرقة قومية لا تساوي اكثر ولا أقل من الفرق الاخرى . وهي قد أسست معهداً عاليـاً للدراسات المسرحية ، وفي سنة ١٩٤٨ ، مسرحاً شعبياً كان ينعم عام ١٩٥٧ بميزانية تبلغ حوالي الخمسين مليوناً (من الفرنكات القديمة) . وافلتت الاقلام الناقدة من عقالها . فتلاحظ ان ٩٥ بالمائة من الاعتمادات تبتلعها الرواتب والاكراميات ، بينما لا تشكل النفقات الخاصة بالتمثيل اكثر من ٥ بالمائـة ، وهي تلاحظ أيضاً ، فيما يتعلق بالمواضيـع المطروقة ، انه ليس بالوسع ان يُعدّ بين سبعة وثلاثين مسرحية تم تمثيلها ، أكثر من ثمانية مقبولة ، وكلها تدور بالتناوب حول ثلاثة مواضيـع : موضوع الاخذ بالثأر ، وهو موضوع بدوي مثالي ، وموضوع تحايل النساء ومكرهن ، وموضوع النشء الجديد وما يلاقيه من مشاكسات وعنت لكبت رغباته وحاجاته ، وليس من مسرحية تخرج عن الدروب المطروقة ، فلـماذا عدم التعرض لمواضيـع السـاعـة للعمل الوطني مثـلًا ؟

وبالامكان الاعتراض على هذا القول أنه ، منذ زمن طويل ، في أوربا الأقل ، لا يخلقون مسرحاً طيباً بالعواطف الطيبة ! ومهما كان الأمر ، فان هناك ازدهاراً لاجدال فيه، وابداعات متنوعة ! وكل شيء يسهم في التثقيف لخلق« الحس المسرحي »الشعبي الاراجوز(او الدمى المتحركة) ،والأوبيريت– الساخر وتكييف المسرحيات الكلاسيكية أو المترجمة لجعلها مقبولة من ذوق الجمهور . وحالياً يعمل اكثر من مائة ممثل في المحاولة (٢١)

وبين الافراد الذين يحتلون واجهة المسرح،والذين كانت محاولاتهم وشخصيتهم ذاتها ، بدت غير معقولة بالنسبة للجيل السابق ، لنذكر علي باكثير . فهو قد ولد في اندونيسيا ، من ام ماليزية ، وأب من حضرموت عـــاد به الى مسقط راسه حيث تلقى العلم على يدي شيخ محافظ . ثم يتابع دراسته في الحجاز ،ويصل الى القاهرة عام ١٩٣٣ . ويبدو انه اكتسب في الجامعة ؛ صبغة شكسبيرية قوية فيكتب عدداً كبيراً من المسرحيات التاريخية والخرافيـة ، والوجدانيـــة والسياسية ، والتي يبدو ان الجانب الكمي يغلب فيها على الجانب الكيفي .

وتبدو المحاولات الاخيرة التي كان مسرح الازبكية اطاراً لهـــا ، اغنى بالدلالات ، وهي عبارة عن مظاهر جد شعبية ، يغطي فيهــا صوت الممثلين ، احياناً كثيرة ، بالطقطقة التي يحدثها تقشير البزورات الجافــة . واثناء قضية السويس ، كانوا يصفقون فيها لكل انواع التمثيليات الوطنية ، حول دنشواي وحول المقاومة ضد بونـابرت ، وحول مواضيــع أكثر آنيّــة ، مثلما يمكن تخمينه . وقد اعطى يوسف ادريس : « جمهوريـة فرحات » وملكة القطن . وتجد واقعية القصصي الشاب ، بالطبع ، في الفن المسرحي ، تعبيراً أصبح بصورة راهنة ، غنياً بالوعود للمستقبل (٢٢)

---

٢١) حسب تحقيقات الصحف

٢٢) محمد مندور ، « قضايا » * ص ١٤٥

وتنتمي مسرحيات اخرى ، اكثر الى المنجم الادبي الذي دشنه احمد شوقي. وهي تنفتح على محاورات ذات سيرة انسانية اكثر رحابة . ومثل قطع رينان « الدراما » ، هي تريد لنفسها ان تناولها القراءة اكثر مما يتناولها التمثيل . وهذه هي حال اكثر مسرحيات توفيق الحكيم . وهي جاءت تثير خلافاً لا يخلو من مغزى بين طالب شاب واللجنة المؤلفة للنظر في اطروحته . فعندما ينتقد توفيق الحكيم الكسل والتواكل باسم القضاء والقدر ، يجيبه الفتى ان ما يقتضي لومه وتحميله المسؤولية هو البطالة . وعندما يقترح اندفاعاً نحو حياة اكثر مثالية ، يرد الفتى عليه قائلاً ان الشرق الحديث يحتاج الى العمل اكثر مما يحتاج الى الروحانية .ويلاحظ محمد مندور ، الذي كان عضواً في اللجنة الفاحصة ، ان « التوق الى حياة افضل قد غزا شباننا بقوة لا تقهر . وانهم يبحثون ، من الطرق « الارادية »* ، (والتطوع) عن فن يستطيع ارضاء جوعهم واضاءة الامل بالمستقبل ، في ابصارهم (٢٣).»

ويقوم مقال ضخم ، سبق لنا الاشارة اليه ، بقلم محمود امين العالم ، (وهو احد المخططين المنظرين البارزين لهذا الاتجاه) بالرد على توفيق الحكيم وعلى تأرجح افكاره في « رحلة الى الغد » ، ويمدح التقنية والآلة القادرتين وحدهما ، في نهاية المطاف ، على اعادة بناء انسان كامل .

وفي نظرنا ، لا تنحصر الاهمية التاريخية للمعارك التي تثيرها آثار توفيق الحكيم ، ككل الآثار الكبيرة ، في هذه النزاعات بين الاجيال والمدارس المتنافسة . ففي ملحق لمسرحية عنوانها « الصفقة » هو يعرض نظريته حول لغة المسرح . وفي هذا البحث ما هو كثير الاهمية بالنسبة لدراستنا . اذ ان المسرح العربي قد استوقفنا خاصة بصفته انتصاراً (خارجاً عن الدين) على الكلمة .

---

٢٣) المصدر السابق نفسه ص١٣٣ وما يلي

المسرحي ، لانها لم تكن تستطيع التسليم له بلغة تلائمه . وبالفعل فان كلمة مسرح تعني وجود جمهور وكلمة جمهور تفترض وجود لغة مفهومة من الجميع . وفي اوربا ، في القرن السادس عشر ، ينضب فن المسرح الرفيع المدبج باللغة اللاتينية ليخلي المكان امام مسرح شعبي سوف يصبح شيئاً فشيئاً مسرح كورنيه Corneille وراسين Racine . وثمة المشكلة ذاتها في الشرق . ولكن حلها أصعب ، بالنظر الى المسافة الضخمة التي تفصل اللغة الفصحى عن اللغة العامية . لذلك يقترح توفيق الحكيم استعمال « لغة ثالثة »* (٢٤). وهي تشكل نوعاً من التسوية فتكون قابلة لأن تقرأ وتلفظ على التوالي ، باللغة العامية ، كما يفهمها البوابون (الفراشون) في القاهرة ، وكذلك باللغة المقبولة من حيث قواعد الصرف والنحو : أية براعة بهلوانية ! انما النقاد ، وهم قوم سريعو التهيج ،يصرون على الكيد لتوفيق الحكيم ، ولا يغفرون له صيغته الموفقة . فينكر احدهم على اللغة الثالثة سهولتها : فهذا الاسبرانتو الجديد لن يستطيع ان يفرض نفسه افضل مما فرض الاول . وناقد ثان يتهمه بتحدي التطور الراهن ، فيقول :ومعلوم ان كل اللغات تولد بالتطور التاريخي وليس باختراع اعتباطي . ولا شك ان هناك تعاوناً بين المبادرة المتجهة للفصحي والواقع الجماعي . ولكن لغتك الثالثة تضعف،اكثر من اللازم النصيب العائد للجانب الشعبي. ويقول ناقد ثالث اخيراً ، ان اللغة لا تشتمل فقط على كلمات تحمل كل منها معنى خاصاً بها، عندما يؤخذ على حدة ، ولكن ايضاً على عمليات تداعي، وعلى كنايات وتلميحات مجازية ، وايماءات واستعارات تختزنها الالفاظ . وعمليات الاختزان هذه ، يغذيها الماضي وحده . ووحده ، هو يبث فيها قيماً روحية وجمالية . انك لن تنتج الا مسخاً اصطناعياً لا يشتمل إلا على الهيكل العظمي . ان لغتك الثالثة

---

٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ وما يلي

لن تكون لا أدبية حقاً ، ولا محكية حقاً .

ويمكن توجيه الانتقادات للكثير من المحاولات الموازية ، بصورة غريبة ، لهذه المحاولة ، في الشرق : لمحاولة انيس فريحه [٢٥] ، مثلاً ، فهو ايضاً يقترح تعميم لغة تستطيع ان تكون لغة الناس المتوسطين ، وتقف على منتصف الطريق بين الفصحى والعامية . ومحاولة اخرى قام بها عبد العزيز الاهواني [٢٦] ، وهو احد خصوم الفصحى الأشد جرأة . وفي الوقت ذاته احد الدارسين المصريين الاطول باعاً ، والأكثر رسوخاً في التبحر العلمي . وكثير من المحاولات الاخرى ايضاً تثير الفضيحة ، من وقت لآخر ، وفي الأعم ، يعترف انصار الفصحى بالرابطة المناقضة للمنطق الظاهر التي تجعل من تاريخ العرب الحديث ، في الوقت نفسه ، النتيجة والمناسبة والسبب لبعث « العربية »* . وهم يلمحون ايضاً الاصعدة الخلقية الدينية التي تضمنها ، طالما ان القرآن باق ، كالنموذج الاعلى للكلام الرفيع ، وهم ، اخيراً ، يفضحون ، عن حق ، ولكن دون مغالاة ، مساوىء تقليد الغرب الذي يدفع نحو الازدواجية والالتباس في اللغة ، ان لم يكن نحو محو الشخصية . وبهذا القدر ، هم لا يستطيعون تجاهل العلمانية المتزايدة المفاهيم الاكثر اتساماً بالسحر والمهابة ، مفهوم الوطن ، ومفهوم الامة مثلاً . ومن جانب آخر ، هم يظهرون حماسة كبيرة لتعريب كل ما امكن من مجموعات المفردات والابحاث الكامنة في العلم الاجنبي . فموقفهم لا يعيبه اذن التقصير [٢٧]. ولكن ينقصه حتى الآن لوحة شاملة عن تفسير تاريخي يلقي الضوء على ضرورات هي احياناً متنافسة .

وعلى عاتق اللغة القى الجانب الرئيسي من مهام التعبير والتحريض التي يفرضها

---

٢٥) انيس فريحه : نحو عربية متيسرة .

٢٦) مجلة « الآداب » ، نيسان ١٩٥٦ ، ص ٢٠ وما يلي .

٢٧) الامر الذي لا يسع المرء ان يتحاشى التفكير فيه لدى دراسات صدرت مؤخراً ، مثل دراسات امين الخولي وامين نخله الخ ..

مجتمع ، في حالة الصيرورة ، على نفسه او التي تُفرض عليه .

اما الانواع الاخرى فتبقى دون هذه الرسالة الجبارة . فالفنون التشكيلية ، في الشرق كما في المناطق الاخرى ، تتطلب تحقيقاً جسدياً ، لانها تدخل في المتحف الخيالي دون ان تخرج من عالم الاشياء فتقدمها قد تأثر ، عند العرب ، بالتأخيرات المادية . وهو مرتهن بالتأثيرات الخارجية اكثر مما ينبغي حتى لا يبقى سطحياً من عدة وجوه . وعلى العكس ، فان الموسيقى تغرق في حالة من الحميمية تجعل منها ، في هذه الايام ، في الشرق العربي ، نوعاً من الباكيات النادبات على التحول الاجتماعي ، كما سنرى في فصل لاحق . وفي احدى الحالتين مثلما في الاخرى ، يلزم مبلّغ الاداء والدلالة والتقنيات الكفيلة بتحسينها أن يتعلم الكثير من الغرب ، الامر الذي يهدد امكانية ادراك الروح العصرية مع المحافظة على الاصالة .

اما الكلمة ، بمراجعها فوق الحسية ، وبقيمها المشاعة بين افراد الجماعة بأوسع معانيها ، وبمعينها الذي لا ينضب من المفردات وبمرونتها التعبيرية ، فقد كانت ، على العكس ، قادرة على الاضطلاع بهذه المهام كاملة . وقد سبق لمنطق علم النحو الصارم ، المتشدد ، الذي ترتكز عليه ، والذي يتميز بتشبعه بالعقلانية ، ان وضعها في حالة استعداد لنضالات العصر الحديث ، والدنيا الجديدة . وفيما كانت مسلحة ، في الماضي ، بكل القدرات على البيان والتبيين ، هي لم تكن ، بالمقابل ، تتجرد من الطاقات الغنائية والنغمية . والمعارك الاستقلالية لم تزد هذه القدرات والطاقات إلا نمواً . فكان ان اضحت اللغة العربية مهيأة لمواجهة كل الظروف : تنافس الثقافات العالمية ، لطاقات المساومة السياسية او الحركة الملهبة للحماسة في المعارضة السياسية . لقد اصبحت اللغة العربية الوجدان الخطابي للشرق .

التخاطب الجماعي

ولكن لاجل ذلك ، لزمها ان تجدد ليس فقط الاسلوب ، ولكن

الاداة ، وليس فقط المعدات ولكن الذهن والفكر ، وقد تكوّنت بفضل الصحافة ، والاذاعة ، والاتصالات المستمرة التكرار بين عرب ذوي لهجات مختلفة ، هذه اللغة العربية التي تسمى العربية « الحديثة » والتي أود تسميتها العربية الوسطى ، اي وسيطة بين الشعوب، ووسيطة بين الادب والحياة. وهذه الوساطة تتضمن خطر فشلها ، وهذه القدرة تتطلب ضريبتها . والرأي العام لم يقبل ، دون مقاومة ، تغييرات جذرية الى هذا الحد . وهو ، بهذا الموقف ، يبدو كثير الجحود لانه ، في سبيل خدمته ، تحولت الكلمة الى كلام ، الى لغة تخاطب . ولكنه كان حصيفاً جداً كذلك لانه يُحدث ، على هذا الشكل ، انقلاباً في الوظائف والقيم ، لم يسع مجموعة الاهلين الا ان تشك ، بصورة غريزية ، بقدرتها على ان تظل بمنجى عنه .

وتتدخل الصحافة العربية في هذا الحوار الدقيق بين الفعالية والاصالة ، الذي يُختصر به كل تاريخ العرب المعاصر . وقد كنت أشير اعلاه ، الى الهوة الآخاذة التي تفصل ، في تطوراتها الاولى ، بين العمل المعجمي والعمل الروائي ، بين الإعلام (الإنباء) والتعبير . وحتى اليوم ، تعني الصحيفة اليومية العربية اكثر مما لا يجد ، بشؤون العالم الفسيح اكثر مما تعنى بالاخبار الداخلية . وعدم التناسب هذا يتفجر حتى على سطح المجالات المخصصة للواحد او الآخر من مصادر الانباء [٢٨]. ولكن في هذه العناية الحافلة بالاهواء ، كما لو بفكرة ثابتة ، التي تركزها على الآخرين ، تكمن الملامح الكبرى لتوجيه هذه الصحافة نحو الداخل ، وربما تكمن الضمانة لانضباط سيرها الوظيفي . والدور

---

٢٨) الامر يتعلق هنا بالصحف اليوميـة فقط . اما فيما يتعلق بالمجلات الاسبوعية اللواتي تستعير دراستنا الكثير من بعضها ، فالنسبة تنعكس . فالكثير من هذه المجلات كان نوعاً من الغرائب التاريخية والاجتماعية التي تهتم قبل كل شيء بالاخبار المحلية . وهذا الاتجاه يتجلى في مجلات دار الهلال التي تصدر في مصر منذ ١٩٢٥ ، فلماذا هذا الاختلاف في التوجيه المرتبط بالاختلاف في الوتيرة ؟ هذا هو موضوع دراسة في المستقبل

الرئيسي الذي لعبته منذ نصف قرن او منذ ثلاثة ارباع القرن ، والذي تلعبه بقوة متزايدة ، مع الايام ، يقوم على محاولتها امتلاك العالم وتفسيره للعرب. وبهذه الطريقة هي تضطلع ، لاجلهم ، وعلى طريقتهم ، بمهمة الإعلام هذه التي كانت تقنية الغرب المتعسفة ، وحدها ، تستطيع ان تقترحها على العرب ، مندمجة في نزعة انسانية من طراز جديد (٢٩).

ولهذا السبب ، يجري الاتصال ، في الوقت الحاضر ، بواسطة الصحيفة والميكروفون اكثر مما يجري بواسطة الادب ومفهوم إجماع « الامة »* القديم يمكن التعرف عليه ، اليوم ، في الاعلان ، والتصريح ، والخطاب ، والمقالة ، اكثر مما في القصيدة او الرواية. ومع الوظيفة ، ترتبط الأبهة ومهابة النفوذ بالصحافة والراديو. فهما يثيران الشعور بانهما المنافسان للقيم والوسائل القديمة. وعندما بدأت الوسائل العصرية للانباء تعم ، فكانت مرحلة المطبعة ؛ ثم مرحلة الصحيفة ثم مرحلة الميكروفون ، اظهر الكثيرون من المحافظين نفورهم من فكرة التسليم بقدرة هذه الوسائل على نقل النصوص المقدسة ، واذاعتها ، فهم كانوا يتصرفون هكذا ليس خوفاً من ظهور الجديد فحسب ، ولكن ايضاً انسياقاً مع غريزة لا تخطىء تتحسس حدوث نوع من انتهاك شيء مقدس. فاللغة ، وعملية تأجيج الحماسة في المجموعة الانسانية التي تدبرها والتي تساندها ، قد بدأتا ، بالفعل بتغيير وظيفتهما ومعناهما. فعلى الاقل كان لهؤلاء الرجعيين فضل اشتمام هذه التغييرات.

واليوم قد بعد الزمن عن الفترة التي كان بالوسع ان ترتفع فيها مناقشات

---

٢٩) لعبت الصحافة العربية هذا الدور الضخم القائم على تأمين الموازنة ، ان صح القول ، والذي يقترحه ج. سيموندون J. Simondon على وظيفة الاعلام ، بصفتها مرممة الجانب الانساني بعد التمزقات والانحرافات التي يحدثها التوسع الآلي « حول طريقة وجود الاشياء التقنية » ١٩٥٨ ص ١١٩ وما يلي.

من هذا النوع دون خطر وقوعها في جو من السخف او البشاعة . وقد بعُد الزمن ايضاً عن الوقت الذي كان فيه العلم المتعالي ، والذي كان يضن بالكلمات فلا يوصلها إلا بالتقتير ، يعلق على النصوص المقدسة بجمل شحيحة ، ولا يتجاوز في خطبة الجمعة ، حدود المواعظ الضيقة ، والمكتوبة مرة في العمر ، ولكل المناسبات . فالخطيب السياسي والصحفي ، يستطيعان ، افضل من الكاتب ، بما يملكانه من فيض مدهش من الكلمات ، ومن قدرة هائلة على التضخيم ، ان يحركا كل ما تبقى عند الشعب من قابلية للاجماع . وكل زعيم كبير يعرف كيف يهز روح التكافل والتضامن عند « الامة »(٣٠). ويخفي سلطانه شيئاً من مهابة الامامة. لهذا هو يشارك ، من بعض الوجوه ، في ازدواجية الحرمات المقدسة . وسيد الكلمة ، هذا أيستطيع ان يغدو خيراً طوراً ، وبلية طوراً آخر .

وفي الحالة الثانية ، تتحول الهتافات والتصفيق الى لعنات . والمعلق الصحفي يشارك هو ايضاً في هذه الازدواجية ولكن بصورة أدنى ، ولصق الجماهير ، ان صح القول . فهو رائع بالنسبة للبعض وبالنسبة للآخرين شيطان رجيم . فسحر افتتاحيته الجارف ، ولذعة تعليقاته الماكرة يبدوان بالنسبة لأهل الضفة الاخرى ، ضرباً من المكيافيلية والديماغوجيا . وكم من هؤلاء الصحفيين لا يستحقون لقب « التائه » * الذي اطلقه احدهم على نفسه ، بكل معاني هذه الكلمة . فهذا الافراط في تلقي آيات التكريم او التشتيم لا يعني ان الصحفي الشرقي يملك ؛ حتماً ، من العيوب او المواهب اكثر مما يملك زميله الغربي . انما هو يعكس ما يتعلق من قيم بارزة على ممارسة اهل مجتمعه للغة التخاطب . وهو ينعم بكل حسنات هذا الموقف مثلما يتحمل كل أذاه . ولهذا السبب تتصف اكثر الاحيان ،المحاورات بين رجال المنابر ، وحتى بين اصحاب الاقلام الصحفية ، في الشرق في الوقت الحاضر ، بالحرارة والحدة اللتين تتصف بهما الحروب الدينية ، انها معارك الدلالات ، وحمّلتها ، خدماً كانوا او منتفعين .

---

٣٠) رينان ، تاريخ اللغات السامية

وهذه الازدواجية الالتباسية ، وهذه الحرارة ، وهذه التحريات الملقاة في البداية على استعمال وسائل جديدة لانها تضاعف قدرة الكلمة وطاقاتها ، على نطاق الجماهير وبأصدائها تظهر سلطانها الفذ . واذا كان علماء دين ، قد داخلتهم الخشية ، دون ان يقروا بذلك ، من ان ينبعث من الراديو نوع من السحر المضاد لسحر الدين الاسلامي ، فلأن اطلاق الانفعال الكامل ، الانفعال الجماعي كان يحتفظ دائماً ، في نظرهم ، بنصيب من الصفة الدينية . ولهذا السبب ، لا تزال اجراءات التعرف ، والعثور من جديد ، وتلك التي تخلق نوعاً من التوافق السيمفوني بين كل الاجزاء المؤلفة ، اقوى كثيراً ، واكثر تضييقاً ، في مجتمعات من هذا النوع ، مما هي في مجتمعنا . وهكذا نجد التفسير لكون « الحشمة » * تحتفظ ، في هذه المجتمعات ، بهذا القدر من القيم . أكيد ان الاقوال حول البعث والتجديد تضمر ، في هذه المجتمعات ، قدرة غريبة على اذكاء لهب الحماسة وعلى التأليف وجمع الصفوف . ولكن هي نفسها عليها ان ترضي احتراماً انسانياً يلائم النفاق الاخلاقي . وكالاتباعية لحرفية النصوص ، « والتقاليد » * عند المصلحين الدينيين ، يقيم الاحترام لعمليات تواطؤ وكتمان ساذجة عراقيل ابداً متجددة في وجه الجرأة السياسية . والمثقفون العرب يعلمون ذلك جيداً .

الواقعية والرمزية

ولا تزال ضرورات استفتائية تشوب نمو التجديد . وهذا هو الحال في الفنون مثلما في الاقتصاد ، وفي اللغة كما في الاخلاق . ذلك ان التمرس العملي لا يطابق دائماً دلالة المعنى . ففي مجال القول ، ينتهي ما يتعلق بالتبادل النفعي ، والذي تكبر الضرورة اليه ، في الحين الذي تبرز شرعيته ، بمقدار ما تستعيد هذه المجتمعات حياة زمنية في العالم الحديث ، ينتهي بان يتجاوزه ، ويغلب عليه وأحياناً يعاكسه ما يتعلق بالاشارات الدينية اولاً ، والاجتماعية من ثم ، التي يتطلبها أهل المجتمع ليتعرفوا على ذاتهم . ومن

هنا كان نزاع بين الإعلام والتعبير والدلالة يمكننا تتبع نتائجه في تطور الاسلوب العربي وفي التقسيم الوظيفي الذي يحدث شيئاً فشيئاً بين الانواع الفكرية . ومن هنا ايضاً يتأتى ان الادب الحديث ، بقدرته على التعبير عن خلجات الفعالية جديدة ، وحتى بتسلحه بتقنيات تعبيرية اكثر لطافة ودقة ، بفضل نماذجه الاجنبية ، يلقى قبولاً من القراء أقل بكثير من الادب القديم الذي كان يعبر بصورة أقل ، ويحفل اكثر بالدلالات .

وفي الشعر خاصة ، ظلت النخبة مثلما ظلت عامة القراء وفية « للمنارات » الكبيرة ، رغم ان تطور المجتمع والعواطف يكذبها (ينكرها) بصورة اعمق يوماً بعد يوم . فطه حسين ينكر على الواقعيين الشبان دوسهم لقواعد « اللغة »* كما ينكر العقاد على الرمزيين قطعهم الروابط مع عبقرية اللغة . وفي الوقت ذاته ، تعم وتتسع ، بواسطة الاذاعات ، والصحافة ، والتعليم ، هذه اللغة العربية الوسطى ، التي لا تزال فصيحة ببنائها النحوي والصرفي ، وبالفعالية في مفرداتها . ولكنها تبعد شيئاً فشيئاً عن الفصحى بذهنيتها . لانها فقدت هذه المقامات المتناغمة داخل الفن الديني التي كانت تجعل منها صوت عالم كلي . لانها تبتعد عن الرسالة التوحيدية ، وهذا هو ، بالفعل ، المعنى الذي كان يعطيه الصوفيون للفظة « القرآن » بعكس لفظة « الفرقان » .

أكيد ان اللغة العربية لا تزال تحتفظ بهذه القدرات ، ونحن هنا نردد ما قلناه سابقاً، بمقدار ما تبقى امينة للنموذج الأعلى الموحى به . ولكن تبدلاً هائلاً قد تحقق داخلها . والوحدة التي تبشر بها لم تعد غيبية ، ميتافيزيقية . فهي تستشهد شيئاً فشيئاً بالتمرس الانسيكلوبيدي في العالم وبنضالات الانسان في هذا العصر .

لا شيء يمثل على هذا التطور افضل من مجهودين ادبيين معاصرين ، يحمل كل منهما ثقلاً احصائياً واهمية جمالية ومعنى" سياسياً يختلف عما يحمله الآخر ،

ولكنهما ظلا على جانبي الخط الواحد .

فالمدرسة الواقعيـــة قد اعطت ، في السنوات الاخيرة ، في مصر ، روايتي الشرقاوي القويتـين ، وقصص يوسف ادريس ، الذي سبق لي ذكره ، وقصص احمد رشدي صالح ، واضـع نظرية الفولكلور . وسوف أؤكد الآن على كاتب عمالي أصيل ، هو محمد صدقي . فهو قد ولد في دمنهور ، من عائلة فقيرة . وقد طرد من المدرسة الابتدائية ، لانه لا يستطيـع ان يدفع رسوم دراسته . فيتابع الحضور ، مدة من الزمن ، في معهـد ديني ، كان يتركه كل بعد ظهر ليكسب عيشه بقوة يديه . وها هو ، اثناء الحرب ، عامل زراعي وطيلة سنين ، هـو يقوم بري الحقول ، وبنقل الزبل (أوروث الحيوانات) وبمطاردة دودة القطن. ثم يتصل بكل المهن : النجارة ، والنسيج ، ولحم المعادن ، وصنـــع القناديل المعدنية ، ومع ذلك ، فهو يناضل كنقابي .

واخيراً هو يشعر بالحاجة للتعبير عن حياة يغزوها الجانب الشجي من عصرنا : قسوة العمل ، والآمال المرتكزة على النضال ، وهـذه اللفحات من العذوبة التي تأخذ بتلابيب نفسك احياناً بفعل الصداقة الانسانية او بتأثير الجمال النسائي . هذا هو الجو الذي تؤكده مجموعتـــان قصصيتان : « الانفار » * « والأيدي الخشنة » ويروي عامل عجوز متاعبه لجاره في الاوتوبيس : فان ابنه ، الموظف الصغير ، يخجل من مهنة والده . وعامل في احد المصانع التعدينية يضطر ، كي يدفع لابنته ثمن فستان جميل على طراز « كلوش » (أي بشكل الجرس المقلوب) وقد انتقلت اللفظة الفرنسية الى العربيـــة ، يضطر لأن يلعب بقدّومه وهو يطرق انبوبا معدنياً ، بعنف يفوق الحد اللازم ، فيصاب بتمزق في أحـــد عضلاته ويبقى مقعداً منذ ذلك الحين : وانه لدرس عميق بالنسبة للرفاق . ويعود طالب من المدينة الى الريف ، فتضمه امه الى جسدها الذي تغطيه ملاءة سوداء، فيشم رائحة امه الفلاحة . ثم تدفع اليه بطبلة واطئة تضع عليها طبق الملوخيـــة

وارغفة الخبز المستديرة . ولكن لماذا تبدو هذه الأرغفة بألوان مختلفة ؟ وفوق هذا فأين والده ؟ فلا يجيبه غير صمت محيّر . وبدأ المثقف الفتى يحدس الحقيقة الرهيبة . فلقد عاد الوالد اخيراً . وألقى على الارض بكيس حقير أخرج منه الارغفة التي ذهب يستجديهـا . ويتصور الابن ، وهو يشرق بالنحيب ، يدي والده الخشنتين يدي الفلاح الأمينتين ، وهما ممدودتان في طلب الخبز .

هذه الصور المزلزلة لا تتلاءم بالطبع مع اسلوب الفصحى ولا مع مفرداتها. ففي كل جنبات الحوار ، تتسلل اللغة العامية . ويجد الكتّاب الذين بلغوا الشهرة في هذه الظاهرة الاسباب لتقريع هؤلاء الناشئين . وبصورة غريبـة ، يستهل كتاب « في الثقافة المصرية » وهو مجموعة . صدرت عام ١٩٥٥ في مقدمته ، بنقد لطه حسين الذي يتنكر على المدرسة الفتية أخطاءها النحوية وينتهي بمقال لمحمود امين العالِم ، هو نداء حرب بقدر ما هو مرافعة دفاعية .والمدرسة الواقعية المصرية تنبذ كل فن تجرّده الانانية من الهموم الاجتماعية . وهذا الموقف جاء كرد فعل ضد كل ما سبقها ، وانسياقاً مع تيار التأثر خاصة بدروس زولا وموباسان وتشيكوف . وقد حدث شيء غريب جداً : فان الحس بالراهن ، والضغط الالزامي من قبل الاشياء ــ قوة جاذبية المطرقة (٣١) ، وبؤس الفلاح، وحنين الحرفي ــ يغزوان البرج العاجي الذي سجنت الكاتب فيه التقاليد الأدبية وسلطان الفصحى وسحرها . « لقد اختلط الجوهر بالشيء » وبالطبع ، هـذا النوع من الانتهاك للحرمات يشكل عملاً ثورياً . فهو يدعو الى مواقف تشبه مواقف تحطيم الاصنام ، هؤلاء المؤلفين الشبان الذين هم ايضاً مناضلون سياسيون

---

٣١) وهنا يبدأ بالتدخل ، لاول مرة دون شك ، في التعبير الأدبي العربي هذا النوع من العواطف والانفعالات الذي يصنفه ج . باشلاز J . Bachelard في كتابه « الارض واحلام الارادة » .

اكثر الاحيان ، واحيانا هم لا يتجاوزون الثلاثين من عمرهم . ومنهم مثل رجاء النقاش « الذي عاش كما نعيش جميعنا ، موزعاً بين القرية والمدينة ، بين الثقافة والطبيعة ، بين الحلم والتجربة ، بين الاندفاع والعمل » . وطبعاً هو يختار الطرف الثاني من هذه المقولات المتعاكسة (الانتيتاز) : ولو اختار العكس لكان عجبنا اكثر ، بالنظر الى عمره ، وبلاده ، وزمنه .

واختيار « الرمزيين » هو ، مع ذلك ، شيء آخر تماماً . ولكنه يتحدر من رد فعل من قوة مماثلة ، ضد النظم الشعري والشعر القصصي الذي كان رائجاً لدى الجيل السابق [٣٢]. وقد ظهرت ، في مصر ، المدرسة الشعرية التي دعيت باسم مدرسة « ابوللو » ، على اسم المجلة الرئيسية التي كانت تنطق باسمها . وقد جاءت هذه المدرسة تحاول ان تحل محل شعر « الندوات » والصالونات الادبية ، الذي كان يطغى حوالي اعوام ١٩٢٠ ، والذي كانت تغلب عليه البلاغية ، والمدائح واشعار المناسبات . وقد مجدت مدرسة « ابو للو » الذاتية العاطفية المستوحاة من « الوجدان » * والتي يدينها اليوم الواقعيون بسبب ابتعادها عن الواقع ، مثلما ينكرهـا جماليو الطليعة الجديدة بسبب قلة عمقها وسطحيتها . وهؤلاء الشعراء المشبعون في اكثريتهم بالثقافة العلمية ، وبالثقافة الفرنسية العميقة ، قد اتجهوا نحو سيمياء الكلمة التي تلتقي فيها ، حسب الحالات ، رسالة بودلير مع رسالة ريمبو والسرياليين ، او ايضاً نهج مالارمه مع افكار فاليري . وليس هنا مجال اظهار الى أي حد ، يبتعد هذا الفن ، تحت ريشة شاعر مثل نزار قباني ، عن التقاليد الكلاسيكية . فهو ينبذ الاوزان والقوافي ، وينقل موضع النبرة من الاصل المألوف الى اللامألوف ومن الرعشة المطبوعة على الجذور الدائمة

---

٣٢) انظر سرداً تاريخياً لهذه الحركة ، جديراً بالعناية في كتاب محمد مندور « قضايا جديدة » ص ٧٨ وما يلي .

للغة ، الى انعطافات جديدة في النغم وفي المعنى . ولكن التحدي يتأكد بصورة جذرية ايضاً عندما يخفي- احترام الاوزان ، وغنى المفردات اللغوية ، وسلامة الاداء اللغوي - تغيراً كاملاً في العلاقات بين الدالّ والمدلول : وهذا هو الحال ، في الواقع ، مع الرمزيين .

ويحدد جميل صليبا ، تحديد الفيلسوف ، الرمزية على انها تحويل للقيم المحسوسة الى قيم مجردة وبالعكس . ولكن أليس هذا ، بالاحرى ، تحديد الاستعارة ؟ فان كان الامر كذلك ، يكون هـــذا النوع الادبي غير جديد في الاسلام . ولكن لا نذهبن للبحث في أشعار ابن سينا عن الروح ، ولا في قصـــائد ابن العربي [٣٣] ولا في قصـــائد الشعراء السوريين من الجيل السابق ، مثل عمر ابو ريشة ، ولا في « ديوان »* الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان ، عن النماذج الرمزية . فبالمعنى الحقيقي للكلمة ، يجب الانتظار حتى حدود عام ١٩٣٥ لنرى ارتسام الاتجاه الرمزي [٣٤]. وحتى في ذلك الوقت ، تظل متناثرة ، ومقصـــورة على شعراء وفنانين يتحركون في الندوات والصـالونات ، امثل بشر فارس وسعيد عقل . وهما مثقفان متضلعان بالآداب الغربية .على قدر تضلعهما بدقائق الفصحى . ويقول احدهما [٣٥] : « الرمزية هي اكتشاف ما يقوم وراء الحس ، والكشف عن المرصود ، وتسجيل ومضات الخاطر ، واحتقار الحادث اليومي » . امـــا سعيد عقل فيضع ، في « البحث الفلسفي عن الشعر » الذي يقـدم به لمسرحيته « قدموس » النثر في مواجهة الشعر ، ويجعلهما متضادين مثل تضـــاد الوعي واللاوعي » « فالوعي. هو نثر اللاوعي »* وفي محاضرة اعطاها في الندوة اللبنانية ،

---

٣٣) جميل صليبا : المصدر الذي سبق ذكره ص ٢٢٧ وما يلي .

٣٤) انطوان كرم « الرمزية » بيروت ١٩٥٩ ، خاصة ص ١١٨ وما يلي و ص ١٥٤ و ١٨٣

٣٥) بشر فارس ، خاصة مسرحيته : « مفرق الطريق » ،

هو يحاول ان يلقي جسراً بين لذة اللحظة ، « ان كل لحظة هي عروستنا ، هي امرأتنا » ، والتاريخ [٣٦]. والأمر الذي لا يخلو من مغزى ومن غرابة ، هو ان هذا الساحر الكامل في الآداب العربية ، هذا المفكر والاديب المتبحر الضليع ، هذا الرائد لثورة الجمال ، يوصي باستعمال اللغة العامية . وبالرغم من أنه يذهب ، بدعوته هذه ، الى نقيض ما يذهب اليه عالم موثوق في فقه اللغة ، مثل بشر فارس ، فهو يتحالف معه في مؤامرة واحدة .

وينضم اليهما في هذه المحاولة التونسي مسعدي الذي يعبّر بلغة راقية ، في مسرحيته « السد » ، التي نتبين فيها ملامح «ابسن» ، عن رسالة الروح العصرية الثورية التي لا يزال الشرق يتردد في التعرف على ذاته فيها [٣٧]

المقدس واللامقدس في اللغة

والمؤامرة التي تواطأ فيها هؤلاء المؤلفون هي في مطالبتهم اللغة ، ان تحمل قيمة الرمز ، بصورة صريحة ، بينما هي كانت رمزية من نفسها ، منذ نشأتها حيث كانت مرتبطة بالحق الالهي حتى ايامنا هذه حيث تلعب دور التأليف الاجتماعي .

أكيد انها تجرد شيئاً فشيئاً حالة الشيوع الاصلية التي كان كلام الله يتوحد فيها مع مصير الانسان ومع سلوكه المألوف . وقد شرعت في وصف الطبيعة ، بالنثر وبالشعر ، بالقدر نفسه الذي بدأت تنفصل فيه عنها ، متبعة بذلك الطريق الذي اتخذته الآداب الغربية في العصر الصناعي ، وهي توسع دورها ، كمحرضة

---

٣٦) سعيد عقل .

٣٧) رغم ان طه حسين قد حيا القيمة الكامنة في هذا الاثر ، وبصفته مغربياً ، تأثر محمد مسعدي بهزات جذرية اكثر ، اصابت عبقرية أرض ذات قوى هي اكثر تأججاً بالحياة . واذا لا اذكر هنا آثاره إلا لانها واحدة من مجموعة الآثار النادرة التي تندرج في نطاق رمزية عربية حقيقية ، وهي ، مع ذلك تعكس، طرقاً ومناهج تختلف عن تلك التي احللها في هذا الكتاب .

ومكيفة ، هذا الدور الذي جعلها تتلقى في مجموعة مفرداتها ، وفي جماليتهـا ، وفي ذهنها مزيداً كل يوم متنامياً من التأثيرات الاجنبيـة . وفي الوقت ذاته ، عرضت نفسها كأداة لاحداث التأثير على الخارج وللعمل ضد الخارج ، وكوسيلة اصنع التاريخ الاسلامي او لاعادة صنعه . وقد سلحتهـا الصحافة والاذاعات ، وأدب محاورات بكامله ، بسلطات الفصاحة المخيفة الفعاليه في المعركة السياسية . ولم يتم ذلك ، دون ان تشترك بواسطة اللغة قدرة نغمية قديمة وسحر كامن في تراث ماض كبير ، وان تظل مشتركة في مبارزات اصبحت شيئاً فشيئاً بعيدة عن القضايا الدينية . ولكن هذه المبارزات تتطلب تطابقاً مضبوطاً بين الكلمة والشيء ، اللذين اصبحا منذ الآن ، منفصلين عن بعضهما .

ونرى العرب يقومون ، في آن واحد ، باستنكار « البلاغية اللفظية » وبمحاولة اغناء معاجمهم بضم المغانم التقنية ، في نظرهم ، التي حملها الغرب اليهم. والتحالف المميز لهذه النزاعات التي كانت تقوم بين سلطان الكلمة والفعـل الراهن ، هو بدوره موضع اعادة لظر واستنكار . فنحو اللغات العامية ونحو الآداب الشعبية تتجه انواع تتجرد شيئاً فشيئاً من خجلها وخفرها . فالرواية ، والمسرح يحملان ثورة في وظيفة الادب ، هي ذاتها ، طبعاً ، مرتبطة بثورة في النفوس ، اكثر مما يحملان تجديداً في الانواع الادبية القديمة . وان محاولات حقيقية للبحث عن اساليب جديدة تخرج للضوء وهي ، بالرغم من اعلان ذاتهـا قريبة من كلاسيكية الفصحى، تبتعد عن اتجاه الفصحى الحقيقي اذ ان كل محاولات سيمياء اللفظة ، ذات الالهام الرمزي ، او الشكلي الصرف لا تشكل غير واقعية مولعة باللغة العامية واعتداء على القيم المتلقاة .

واللغة تضطلع شيئاً فشيئاً بدور الإعلام والتبادل العملي . انها تريد ان تقصر نفسها على تقديم آيات واشارات يكفل حيادها ملاءمتها المضبوطة وتوافقهـا الحقيقي مع الشيء الراهن والاضطلاع بهذا الدور التطويري ، كما يضطلع به

الاشتراكيون المصريون بتبجح كبير ، او القيام بعمل مضاد عكس هذا التطور ، بمحاولة تزويد اللغة الكلامية بامكانيات وقوى ايحائية جديدة ، مثلما يعمل الرمزيون ـ يتضمنان ، في الحالين ، اعترافاً بان لغة الكلام معدة لان تفقد هذه الامكانيات ، وبذلك تندرج هاتان المحاولتان الادبيتان مع توسع الصحافة ، والابحاث التقنولوجية ، وحملات الترجمة ، بين العلامات ، التي هي عوامل ونتائج في آن واحد ، لعلمنة متزايدة .

ومع ذلك ، يلزم وقت طويل لكي يصبح تطور من هـذا النوع ناجزاً ، ويلزم ، هنا ، التمييز بين الاقاليم الجغرافية والبسيكولوجية ، بين الافراد والجماعات ، مثلما حرصنا على تمييزها في كل جنبات هذا الكتاب . فكل الشرق يضطرب في حرب استعادة سياسية وفي جهـد للتجهيز المادي والفكري ، وفي ارادة للتكيف طبّيعة للغرب ومعادية له ، في آن واحد . وهذا الامر لا يسعه ان يتحقق دون احداث تباينات بين شعوب متفاوتة التطور ، وفي داخل الشعب ذاته ، بين طبقات اجتماعية ، وبين اشخاص . وحتى بين حالات نفسية مختلفة عند الفرد ذاته . وان امكانية ادراك وتيرة عامة تزداد صعوبة ، بصرف النظر عن هذه التنوعات والتباينات ، بقدر مـا تتعقد الحركة وتتضاعف بردّات غريبة ، وبحركات مقابلة عجيبة .

فالشرق ، ولغتـه ، ينتقلان ، في الفترة المعاصرة ، من الطابع المقدس الى الجو التاريخي : ولا شك في تطور من هذا النوع . ولكن بعد ان سار الشرق شوطاً كافياً على طريق الانعتاق ، أعني على طريق تحقيق وتأكيد الذات ضـد الخارج ، بواسطة الخارج ، وفي نطاق الخارج ، هو يشعر بالحاجـة ليعيد بناء نفسه من الداخل . انه بدأ يخشى ان يكون قد اضاع اصالته ، في محاولتـه الافلات من استرقاق الذات . وهو يطلب ، من اللغة ايضاً ان تعيد وصـل الاستمرار مع ذاته ، مثلما عهد اليها بالدور الاول في التكيف مـع الآخرين .

ولهذا السبب يسبق القول ، في التاريخ الحاضر للعرب ، كل اشكال التعبير الاخرى وكل فئات السلوك . وهذا السبق يخلق وضعاً مناقضاً للمنطق الظاهر . فاللغة تعتزم البقاء وفية لرسالتها القديمة ، في الوقت ذاته الذي تضطلع فيه بجهد جبار لادخال الروح العصرية . وبمقدار ما تدرك هذه الغاية ، تبقى هذه المجتمعات في دائرة لم يقتحمها بعد نمو الغزو الاجتماعي المندفع من المركز وازدياد الموضوعية في النقد .

وهكذا بدأ العرب بانتهاك حرمة رموزهم . ولكنهم يحمون عملية الانتهاك هذه وراء رموز جديدة . ومن هذه الرموز تبقى اللغة أزخرها بالحياة . انهم يطلبون من لغتهم ان تكون سيطرة على العالم وأداة لسحر نفوسهم ، أي ان تكون في الوقت الواحد تمرساً عملياً وهرباً من الواقع العملي .

الفصل الحادي عشر

زخرف عربي ، وموسيقى وولع بالتاريخ

كانت واجهات الخرطوم ، في هذا الصيف تحمل صوراً ناطقة تمثل : ثوراً ومجرفة تدل على هذا أو ذاك من المرشحين للانتخابات : وهكذا كانت الرمزية تشارك في اللعبة البرلمانية . وبعيداً عن هذا الحاضر السياسي كانت أكداس من الحجارة تعلوها عيدان من القصب وخرق ملونة ، تقوم بمثابة « بيانات » * ، تعطي الاشارات بالتجلي الالهي ، بعيد الظهور . وعلى الجانب الآخر من النيل ، حلّت قبة المهدي ، المطلية بلون رصاصي مريع ، في تاريخ قريب ، محل القبة التي دمرها كيتشنر . فالفاتح (البريطاني) كان بالطبع يدير ، لصالحه لعبة مظاهر التفاوت التقنية التي كان ينعم بها بالنسبة للدراويش . ومع ذلك فهو كان يستخدم أيضاً السلاح البسيكولوجي ، وكان يسعى لان يحدد لنفسه موضع الصعيد الديني السحري الذي كان الخصم يتحرك في نطاقه . ونزولا عند نصيحة أحد السودانيين الخائنين لقومهم ، على ما يبدو ، قام بنسف الضريح بالمدافع ، فاستولى على أهالي أم درمان نوع من الذعر المقدس الذي لا يزال يذكره الشيوخ . ومنذ ذلك الحين ، حولت الساحة المربعة الفسيحة التي تحيط به الى ملعب . فكانوا

يلعبون في الموضع ذاته الذي كان المهدي الكبير يجمع حوله ، تحت سقيفة خفيفة من أوراق الشجر جماهير المصلين والتابعين . ولكن جاذبيـــة خاصة لا تزال تتحصل بهذا الموضع الذي لعبت فيه الأقدار ، لقد تدهورت العمليات الرياضية فيه . وهم يفكرون اليوم باقامة مقام فيه .

وفي هذا الجو ، البالغ الافريقية ، من العنف والايمان يتابع مثقفٌ كبير ، وجامع مخطوطات نادرة ، هو الدكتور تيجاني [1]تجاربـــه. فهو يعلق ، عن صواب أهمية كبيرة على هذه الطرق العلاجية القائمة على عادات الرقص والغناء ، والتي تسمي « الزار» في كل وادي النيل .وهو يرى فيها نوعاً بربرياً من الدراما النفسية . والنزاعات بين العبادات التقليدية والعبادة السنية « الارثوذكسية » ، بين الاتجاه الوطني السوداني والقوى الاجنبية تمنع الحالات التي يعالجها مراجـع تاريخية محددة . وهو يفتش عن مراجع أخرى أكثر نمطية ، في تجربـة الأحلام وحتى في الاستعارات والامثال القرآنية . وقد سبق لابن سيرين ، لسبعة قرون خلت ، ان أظهر الروابط الغريبـــة بين الاحلام والرؤى ، والدين وحكمة الشرق القديمة [2] .

وللدكتور تيجاني الفضل في أنه حاول مواجهة هذه الدراسة القديمـة مـع المعطيات الحديثة لعلم العلاج (الاقراباذين) ومحاولته هي ، ولا شك ، واحـدة من الاكثر تقدماً ونفاذاً، وفي الوقت ذاتـــه ، من الاكثر اندماجاً والتحاماً في

---

١) الدكتور ماحي التيجاني ، مؤلف: « مقدمة في تاريخ الطب العربي » الخرطوم ١٩٥٩ انظر خاصة بحثه ؛ « أعمـــال الصحة العقلية في السودان » في مجلة الصحة العقلية العالمية، World mental Health الجزء التاسع عدد ١ شباط ١٩٥٧ .

٢) ابن سيرين : « تعبير الرؤيا الصغير » الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٦ . وهو أثر منحول ولا شك .

العالم العربي ، حيث تؤدي تحولات البيئة الاجتماعية ، بصورة كلاسيكية ، الى إحداث موكب من الامراض العصبية والنفسية . ومن هنا كان تعدد العبادات ، ولسوء الحظ أيضاً ، لكثرة المتاجر للمعالجة العقلية : مائة وخمسون في القاهرة وحدها [٣] .

وفي هذا ما يفسر ، في حالة السودان ، أن هذه التخوم لعبقرية الرؤيا ، ذات التناقضات المحرقة ، تعطي بوضوح أكثر من أي مكان آخر تمثيلاً على حالات التطابق ، وفي الوقت ذاته حالات التنافر التي تسود عالم العمل ، وعالم الايمان وعالم الجمال ، وتجربة الاحلام ، وحالات المرض والالهام ذاته لا تفيد الا بتقديمها اشارات اضافية وبمد جسور بين الفئة والأخرى . وعمليات الترابط ، هذه بالرغم من أنها أقل افصاحاً ، تلتقي على صعيد « الاوضاع العادية » . ومع ذلك يقتضينا بالنسبة لكل بيئة ، ولكل ظاهرة نعالجها ، أن نحدد ، باقصى ما يمكن من الدقة ، الى أي مستوى ، وفي أي اتجاه ، ومع أية قوة تذهب هذه الارتباطات .

والتطور المتقابل للغة والمجتمعات العربية قد حمل الينا ، حول هذا الموضوع ، اشارات مقنعة ، وسأدرس الآن كيف ، وبأية طريقة تتصرف بالنسبة لبعضها البعض ، وبالنسبة للتاريخ أداتان أخريان للتعبير وللدلالة : الفن التشكيلي والفن الموسيقي وأنا سأدرسهما في الشرق الحديث الذي يميد اليوم بالرجمة البسيكولوجية ، ولكن أيضاً بالتقدم المادي .

---

٣) مع تقدم مترابط للدراسات البسيكولوجية ، وانا أفكر بالدكتور عبد العزيز القوصي ، ويوسف مراد . وزيور ، وهوروس ويصا واصف ، وعبد المنعم المليجي الخ .. انظر الفهرست المفيد الذي وضعه ا . تيري بروثرو E. Terry Prothro وليتون ميليكيان في بحثهما «السيكولوجيا في الشرق الاوسط العربي» في النشرة البسيكولوجية Psychological Bulletin المجلد الثاني والخمسون ص ٤ تموز ١٩٥٥ ،

كان عصر النهضة الاوربية يحب الرموز الى حد جمعها وتصنيفهـــا في فهارس [٤] ولكنه كان يبحث عن المراجع لها وعن نهايتها في الجسد الانساني . وهكذا يبدو هذا العصر كمأدبة هائـــلة من الرؤوس الانسانية . وكل شيء يغدو فيه وجهاً . أو بالأحرى ، يغدو الجسد فيه ، بكليّته هيكلا ، ففيه ،وبه ولاجله يسعى عصر النهضة لأن يجد الحلّ لمخاوف يحركها منذ أمد ؛ الاندفاع نحو العلوم المضبوطة والاكتشاف العلمي للكون . ولنتذكر لوحـــة دورر Dürer «الكآبة السوداء » La Melancholia

ويقابل هـذه المعـــارض الهائـلة للصور ، يبدو الاسلام انعدامـاً للوجـه المرسوم ، وبحيرة من ضياء أسود : أو من اللـون الاخضر ، اذ ان الاخضر هو لون « الخضر » ، هذا النبي المتوسط ، الذي وصفه ل . ماسنيون « بالخضرة » والذي يطوف عبر التاريخ ، ولكن دون التاريـــخ ، بين الانسان والاله ، الفن الغربي ينافس الواقع . لقد أصبح نصف الهي ، وهو ربمـا يتحدر من المحـاولة للاشتفاء أو لارواء الغليل » « Assouvissance » كما يريـد مالرو Malraux ، ولكنه يتوق أيضاً الى اعـادة صنع العالم . وهـذا الصنع الجديـد للعالم ، وخاصة للكائنات ، هو ما لا يريده الاسلام . وبذلك تنشب المعركة العقائدية الابدية والقديمة التي تجعل جميع مفكري الاسلام يهبون ضد تصوير الوجوه . هل للفنان الحق في التشخيص والتمثيل ، والتصوير ، وخاصة هـل له

---

٤) انظر مثلا الانسانيـــة والرمزية Umanesimo et Symbolismo في محاضر مؤتمر البندقية « ١٩٥٥ » وهيلين لوكلير Héléne Leclerc في بحثها « من الترمة الافلاطونية الى إعياد عهد النهضة » في « مجلة تاريخ المسرح » نيسان ـ حزيران ١٩٥٩

الحق في تشخيص وتصوير الجسد الانساني ؟ هذا هو ما نشبت حوله معركة « التصوير » *

ولنسأل اللفظة . الجذر هنا غني . وهو أغنى بكثير حتى من الكلمات التي تتحدر منها باللغة الفرنسية أو الانجليزية لفظتان مثل «Represantation» و « Image » اذ ان لفظة « صوّر » (٥) * تعني أكثر بكثير . ولفظة «المصور»* هي من أسماء الله عز وجل . فكيف ، والحالة هذه ، يمكن حمل اسم « مصور » عندما يكون الكائن انساناً ؟ وحسب المفردات نفسها ؛ لو رجعنا الى أصول المعاني ، ان مجرد طرح قضية « التصوير » يشكل نوعاً من الكفر . فهذه القدرة ، أو هذا الفن لا يستطيعان ، اصلاً وحسب تعريفهما اللغوي ، ان يكونا من اختصاص الانسان .

ومع ذلك فاننا نعثر ، على طول التاريخ الفني في الاسلام ، على الكثير من التشخيصات التي تمثل بعضها كائنات حية . وهكذا انا اذكر إناءً موجوداً في متحف بغداد ، ويشبه بصورة غريبة آنية مدينة بومبي ، وعليه نقوش تمثل حيوانات خرافية وفتيات تحمل القرابين ؛ وزخارف تمثل فواكه مؤسلبة ، واباريق عليها عصافير . عثر عليها في الكوفة (من القرن الثالث عشر والرابع عشر) وتماثيل صغيرة تمثل راقصات وجواري ، حملت من مدينة واسط. صحيح ان هذه الآثار تبقى قليلة السماكة : وهو الشيء البارز الذي سبق له ان لفت نظري في مصنوعات من الفن الشعبي : من القصدير في القاهرة ، ومن العاج في الخرطوم والتفاوت بين هذا التشخيص ذي الجانب المرتبط بالسرد القصصي ، والتماثيل الجبارة التي توجد في متحف بلاد ما بين النهرين القائم في بغداد نفسها،

---

٥) لسان العرب : انظر اللفظة المعنية .

من شأنه أن يذهل المتفرج . ومـــا يمكن العثور عليه في الفن الاسلامي من التسجيلات للكائنات الحية يبقى قليلاً ، وكأنه مضيّق عليه عند الزوايا : انـه يبدو تصويراً نابعاً من ضمير غير مطمئن (٦)

وقد أعجبت بمنظر باب من البرونز من عهد المماليك ، معروض في المتحف الاسلامي بالقاهرة . ففيه نقوش منحنية عربية الخطوط ، انها تبدو لاعيننا مجرد اعمال زخرفية . ولكن من يتطلع اليها عن قرب وبامعان يرى ان هذه الخطوط ، على غرار الرسوم — الالغاز : قـــد افسحت في الفراغ الذي خلّفته المجال لطيوف حيوانات : حمام ، وسباع ، وطواويس ، وغزلان . لقد اختبأ الحيوان وراء شهادة الخط . تماماً على عكس الفن الغوطي الذي يريد ان يدل على الجانب الروحي بواسطة التصوير للواقع . أكيد انه لو شئنا الارتقاء الى مـا هو أبعد وأقدم لرأينا أن التناقضات تنطمس بين شرق يبقى استمراراً للقـديم (الانسجة القبطية مثلاً) وغرب لا يزال هو نفسه بعيداً ، الى حد مـــا عن التشخيص . وعلماء الآثار المصريون يعزون صنع الخزف السيراميك الى العصر الفاطمي (٧) . وهم يكتشفون فيه الكثير من الامثلة على التصوير . صحيح انـه يبدو ان نوعاً من التراجع قد حدث في العصور التي تلت ، بفعل كرّة المذهب المتزمت ، فنحن نحس اذن نمواً ذا سيرٍ واسع التعاريج ، بـــدلا من استمرار الرفض في خط مستقيم .

وكذلك يلزم أخذ النوع الفني بعين الاعتبار . فهذه مخطوطة « عجـائب

---

٦) وبالطبع يمكن تقديم الكثير من مجموعات الوقائع لدحض هذا الرأي . فالغرب قد استورد من الاسلام فن تشخيص الحيوانات والناس على النسيج . انظر قطعة اللباس التي تعود الى القرن الثاني عشر والتي تسمى : مسوح القديس توما بيكيت » والتي نقلها مقال د . س . رايس D. S. Rice في مجلة Illustrated London News عام ١٩٥٩

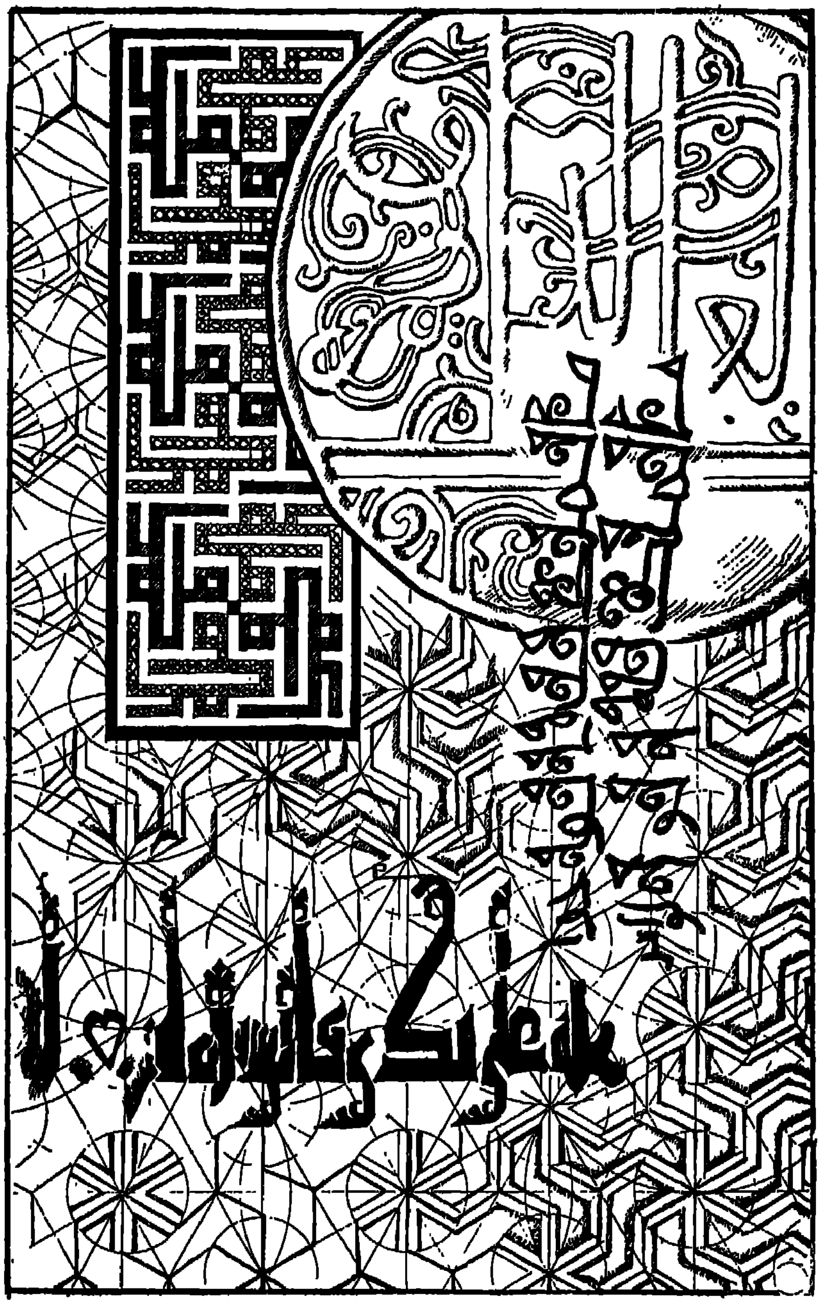
٧) عبد الرؤوف علي يوسف « المجلة » سبتمبر ١٩٥٨

المخلوقات » للقزويني [٨] لا تخشى من توشية حواشيها بطيوف انسانية . ومن الطبيعي جداً ان يكون الحظ بالعثور على هذا التشخيص الواقعي اكبر في هـذا النمط من الكتب : كتب الطب ، والطب البيطري ، والحيوان ، والنبـات ، والفروسية . وفي هذه المجالات التقنية كان الغرب اكثر الاحيان مديناً للشرق . ويبدو أن تأثيرات متبادلة قد لعبت في الاتجاهين . او هل يا ترى هي بالحري ، مبادلات حقيقية ؟ وهـذه المبادلات ألم تكن تتسلسل في نهـاية المطاف ، من خطوط سير مشتركة ؟ مثلاً ، بأمكاننا أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك من صلة بين هـذا الموقف العقائدي الذي وقفــه الأسلام ، في رفضه الصورة ، وعملية تحطيم الأيقونات التي اتبعت في بيزنطة والتي دامت اكثر من قرن [٩] صحيح ان الطرق ، بعد ذلك ، بدت مفترقة ، فنشاهد في اوربا غزواً بطيئاً وخفياً من قبل تصوير الـكائنات الحية . وتندرج الحياة شيئاً فشيئاً في الأيقونات الروسية مثلما تندرج في رسوم مدرسة سيينا l'Ecole de Sienne

---

٨) صلاح الدين المنجد، المجلة مارس ١٩٥٧

٩٠) من عام ٧٣٠ الى عام ٨٤٣ أنظر في الصفحة المقابلة من الخط الكوفي الى الفن التجريدي: في اعلى الى اليمين خزفيات عراقية سورية



رسم بريشة ل . بيرك L . Berqne

في سلسلة « وثائق عن الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي في دمشق الجزء الاول – باريس ١٩٣٢ .

في أعلى إلى اليسار : فسيفساء ، مرمر وصدف ، من ضريح ابن قلاوون نقلاً عن فييت وهوتكور Wiet et Hautecour

« مساجد القاهرة – الجزء الثاني صور اللوحة الى اليمين في الوسط الى اليمين : « خطوط ورسوم على الورق » فيينا – مجموعة الارشيدوق رينر ، نقلاً عن ادولف جروهمان Adolphe grohman في بحثه « Floriated Coufic » في مجلة «Arts Orientalis» ١٩٥٧ المجلد الثاني ص ٢١٤ اللوحة ٦

في اسفل : نقلاً عن اودلف جروهمان (في المقال ذاته) : « قطعة تطريزية صنعت للخليفة المطيع لله » موجودة في المتحف الاسلامي بالقاهرة .

نسيج القرار : نقلاً عن الافريز المستطيل لشباك مدرسة بيبرس الأول عن فييت وهوتكور « مساجد القاهرة » – الجزء الثاني صور اللوحة٥٣.

وشيئاً فشيئاً يتجاوز الغرب ويقاوم مذهب الجمود الشكلي . ولكن ، بصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، ألم يشجع في هذه النزعة بفضل بعض الملامح في الفن الاسلامي ؟ هـذا الذي كنت أتساءل عنه ، في معرض حديث أقيم في المكتبة الوطنية أمام كتاب صدر في مقاطعة اللانجيدوك في القرن الحادي عشر والذي تعزى زخارفه المغصّنة والمفرعة الى تيجان كنيسة سان فيتال – دي – رافين (١٠) ولكن هذه الرعشة المذهبّة التي تذكر ، بمساعدة

---

١٠) هذا الذي يسمونه « مدرج الي Le graduel d'Albi انظر ايضاً المواضيع التي اخترعها بلتروسيتيس Baltrusaitis في كتابه « عهد العصور الوسطى العجيب » : ١٩٥٥ ص ٧٥ الى ١٥٠ .

الالوان ، بالقيشاني الاندلسي ، جعلتني أتساءل اذا لم يكن ثمة تأثير الزخارف العربية بكل بساطة ؟ ولنذكر بأية دقة ، وضعت رسوم لوجوه الشرقيين في كتاب « الساعات الفنية لدوق دي بيري » من أواخر القرن الرابع عشر ، فهل كان هـــذا الاهتمام من قبيل حب الاشياء الغريبة فحسب : الا يغطي أيضاً تأثيراً صار تلقيه من الشرق ؟

في الواقع ، لا يسع الجدل أن ينتهي بنتيجة الا عندما يكف عن ان يعزو صوراً منعزلة في سياق كبير أو غارقة في هوة الزمن . ومن جهة أخرى ، يلزمنا أن نكون واثقين من أن هذا التصوير الشرقي لا يكشف عن أثر بعض المسيحيين من الاقليات (في دار الاسلام) . نحن لا نعلم شيئاً عن هذا الامر ، ومع ذلك فان بشر فارس قد اكتشف شيئاً مؤثراً : صور قضاة مسلمين [11] . وهو قـــد عثر حتى على صورة للنبي ، (يا للفظاعة !) وكذلك على نص لابي علي الفارسي يؤكد فيه أن تصوير الله (عز وجل) ، وحـده هو المحرم ولكن ليس تصوير الناس ، حتى أقدسهم واكرمهم عند ربه . ويحلو لبشر فارس اذن ، أن يعقب على ذلك بافتراض قيام حقبة من التسامح الفني . ولكن الاتباعية المتزمتة عادت فقضت على هذا الجو من التسامح ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح الزخرف العربي والتوشية الشكلين المفضلين .

والزخرف العربي يجمع التنميق والموعظة . والطبيعة لا تبقي فيه على الحياة

---

١١) بشر فارس : « الفلسفة والقضاء كما صورهما العرب » في « دراسات شتى لتكريم ماسينيون » « Melanges Massignon » دمشق ١٩٥٧ ص ١٠٩ . انظر أيضاً من المؤلف نفسه «الفن المقدس عند احد المسلمين الاوائـــل » القاهرة ١٩٣٥ ، وفي نظر بريون Brion يشكل الفن الاسلامي الفن التجريدي الامثل . مجلة « ديوجين » العدد ٢٤ ، اوكتوبر – الى ديسمبر ١٩٥٨ . انظر دراسة شاكر حسن سعيد عن كالدينسكي في مجلة « الاداب » بيروت تشرين الثاني ١٩٥٨ .

الا مصفاة الى ما لا نهاية له : ربما في هـــذه الانحناءة الشبيهة بانحناءة الاملود ، وربما في هذا الاتـلاع الذي نحدس فيه اتلاعـة نبتة الافسنتا (شوك الجمل) . ولكن الخط الكوفي يفرض على عاجني الملاط وناقشيه هندسة اكثر دقـــة وأمانة ومصاريع الجص والخشب،ورقائق النحاس الجميلة وصفحات المخطوطات تغني وتمجد ألعاب الخطوط حيث يقيم الجمال في بهاء النصوص المقدسة الفريـد ، فالتصوير المرافق يتوحد مع النص المكتوب ، والنص المكتوب يتوحد مـــع الحقيقة . » كل شيء يجري كمـــا لو كان الاسلام ، والاسلام العربي ، وفي الاسلام العربي الاسلام السني خاصة ،يعلن عن مثل اعلى من السمو المجرد ، خال من الصنمية ، وحيث يقتضى ان تكون الاشكال الاجتماعيـــة ، والاشكال الجمالية لا شيء غير جمل مجازية موجزة تنم عن الاسم الذي لا سبيل للافصاح عنه » ، (١٢)

الشعور الموسيقي التقليدي

يقول المعجم [١٣] « طرب » * تعود الى « خرب » * اي حرك وزعزع و « طرب » : حرك صوته مثل « هجّا » * احدث تكراراً في حركة الحلق ملائمة لاحداث السحر والترتيل . ونحس الامكانيات « الصوفية » لمثل هـذا الجذر (او هذه المادة اللغوية)

وفي مادة « لحن » * ، نستلذ ايضاً طعم الالتباس وازدواجية المعنى المميزين لهذا المفهوم ، فاذا استطاع فعل « طرب » * ان يثير الكآبة أو الفرح ، فـان

١٢) ل . ماسينيون : « عشتار » باريس ١٩٥٨ رقم واحد ،
١٣) لسان العرب : انظر في مادة المفردات المعنية .

« لحن » يستطيــع ان يكون في آن واحد حسن الترتيل والغناء ، او الخطأ في النحو. وقد كرس معجم مثل لسان العرب عدة صفحات للتمييز بين هــــذه المعـاني . وحسب الطريقة في نطق الحرف الصوتي : « لحَن » او « لحْن » ، يوحي المفرد معاني متعاكسة : فالمصدر يوحي مثلاً بمعنى خطأ في البلاغة او النحو ، ولكنه يستطيــع ايضاً ان يعني « اللغـــة » ، اي بالمعنى الذي ورد عندما جاء ان القرآن انزل بلغة قريش » ، وبالاختصار هناك التباس لا يستطيــع اللغوي ان يخرج من مأزقه بسهولة ، بواسطة فقه اللغة وحدها ، فلنستنجد بعلم العروق والسلالات الذي جعلنا نألف وندرك المفهوم الفني لازدواجية المعنى . « لحْن » * هو لغة التخاطب الثانية ، مثلما « الرمز » * هو أيضاً لغة تخاطب ثانية ، قابـلة إذن ، لان تحملك نحو الخطـأ او الصواب . وقـد يكون غناء تستطيبه الحساسية الشرقية: وقد يكون ايضاً خطأ في النحو او التركيب اللغوي يمزق اذن الرجل المثقف ... » (١٤)

ونداءات الموسيقى الشرقية لا تقتصر بالطبع ، على حاسية حتى ولو كانت بدائية وعميقة ، انهـــا لا تحسن النزول الى درجة مماثلة من الاستبطان (من الحياة الباطنية) دون احداث تأثيرات معقدة ، في الوقت ذاتــــه ، تأثيرات تذهب من الـــدرك البيولوجي الى الصعيد الروحي . ففي بعض المدن ، كانــوا يعالجون المصابين بالامراض العقليــة بسماع بعض المعزوفات الخاصة ، وكانت المدارس الصوفية تختار ايقاعاتها . فكان انسجام نغمي لطيف ودقيق يوحـد

---

١٤) هذا واحد من ضروب « الاداء » في اللغة العربية : ولكن هذا الضرب يلقى تفسيره مثل الكثيرين غيره ، ان لم يكن كلها : فيكون غناء ، ولحناً ما يقوم ، في القول ، «بالاداء» و « الدلالة » ولا يقوم « بالانباء »

بين القول والغناء . وقد وصف ل . ماسينيون ذلك ، بسطور لن يمر عليها النسيان ، الدلالة الموسيقية والدلالة اللغوية تنطلقان من الابنية نفسها [١٥] فاللغة تفترض الجذر الثلاثي الاحرف الذي تمهره اضافة الاحرف الصوتية بالتنغيم الوظيفي ، والموسيقى تعتمد على الايقاع الذي يضرب على الدف او المزهر ، والذي تأتي « الانغام » * والمدات فتلونه : وهي اكبر عدداً واكثر تنوعاً من انغامنا ومداتنا . وكل منها يتضمن قيمة عاطفية محددة . وهنا نفهم ان اذن القلب تسمع في هذه او تلك من الاغنيات اصواتاً فكرية »* وكان سيد درويش يقول : « وان تنغيماتها كانت تترجم « باهتزازات » * يتجاوب معها القلب كما تتجاوب الأبرة مع المغناطيس » [١٦] . ان العاطفة الدينية تستطيع اذن ان تقع احياناً في منافسة مع الانفعال اللاديني .

ومن هنا أيضاً المناقشات التي انكرت على امواج الاذاعة الحق في نقل القرآن وذلك في بداية نمو الاذاعة ، فبين القراءات التقليدية والترتيل الجديد أحس المتفقهون والعلماء المتمسكون بالاصول (الارثوذكسيون) بمسارب عدوى زنديقة ، وقد قلت أن ثمة تنافساً بين وسائل التعبير ، ولكن أيضاً تنافساً بين أنظمة الدلالات وطرق ادائها تنافساً جد مميز لتلك الحقبة . واحدى هذه المناقشات قد أثارت في الوقت ذاته المشرق والمغرب [١٧] فعلى اثر صدور عددمن مجلة شرقية مكرس « لتلحين القرآن » * كتب علماء جامعة الزيتونة التونسية الى الشيخ حسن مأمون ، مفتي الديار المصرية ، ليطرحوا عليه القضية .

---

١٥) ل . ماسينيون (الاحرف الصوتية السامية والدلالة الموسيقية) في السيكلوبيديا الموسيقى عن دار باسكيل للنشر – باريس ١٩٥٨ ، ص ٧٧ وما يلي .

١٦) ريبورتاج في مجلة « اخر ساعة» ١١ ديسمبر ١٩٥٧ .

١٧) الصحافة المصرية

فأجاب معلناً « تحريم التلحين » . وكانت ضجة كما لو شاعت فضيحة ! فقـام البعض بإيراد الحجج المأخوذة من « الحـديث » لشجب التلحين ، وقـام آخرون يثبتون الرأي المضاد بأسانيد علمية مماثلة ...

وقد ذهب النقاش بعيداً . وكل ما يهمنا منه هنا ، هو أنـه اظهر الى أي حد تطلق الهزة الموسيقية « الطرب » * أو اللحن » * ، في هذه المجتمعات من انفعالات وتمس من ردود فعل عفوية !

وقد أجرت صحيفة « البلاد » البغدادية مؤخراً ، حديثاً مـع موسيقي سوري ، وقد بدأ هذا الاخير حياته بالعمل في دكان في أسواق دمشق انتهى به الى الافلاس ، ثم طوف من دمشق الى القدس فالقاهرة ، ومن القاهرة الى بيروت ، مجرباً مهناً شتى ، منها مهنة المهرج والمغـني والمدرس ، وقـد كان مختصاً بالآلة الموسيقية التي تسمى « القانون » * وهي الآلة المفضلة لدى اهالي الشمال السوري وخاصة في مدينة حلب . ويبدو انهم كانوا في القديم أيام الاعراس والاعياد ، يجمعون بطاريات عازفة قد تتألف من ستين قانوناً تعزف كلها بصورة موحدة في دائرة ضخمة من الهواة المنتشين . وقد تغيرت الاشياء كثيراً منـذ انتصار الاذاعة التي لا يشكل صاحبنا العازف على القانون ، الا مساعداً متواضعاً فيها ، ويسألونه من اين يستقي الهامه ؟ فيجيب : « ان الموسيقي لا يستطيع تحديد مدة الهامه أياً كان نوعه ، فالالهام ليس محدوداً ، او محصوراً في الزمن . فهو يأتي عندما يشاء » وهكذا دخل صاحبنا في جوقة فيحس بنفسه وقد أخذها الحـال فينفصل عن الجوقة ، ويأخذ بالغناء مدة ساعة او ساعتين ، ويبدو ان بهـذه الطريقة استطاع الكوكب محمد عبد الوهاب ، الذي كان يعمل في احدى الجوقات

بطنطا منذ عشرين او خمس وعشرين سنة قد بـدأ يلمع نجمه : فقد بدأ بارتجـال الغناء ، والترنيم على هذه الصورة التي تذهل الفني ولكنهـا كانت السبب في شهرة المغني ، على كل حال ، فان هذا الالهام لا يتضمن محتوى قابلاً للتعبير. ويسألون السوري ان كان استوحى من الحب ، فيجيب بكثـير من الحكمة : « أنا انسان متزوج ، فأنا استقي الهامي من الموسيقى ذاتهـا ومن الموسيقى وحدها . قد يستطيع الشبان ان ينساقوا مع الهام الحب . أما أنا فلا . » اذ في حقيقة الامر ، هو يخضع لتقنية آلته العازفة وحدها : انـه يؤلف الموسيقى الصرفة ، الموسيقى البحتة . هـذا الضارب على القـانون ، الآلة التي يقولون انها تضطلع في الجوقة العربية بالدور الذي يؤديه البيانو ، عندنا ، هو موسيقي خالص . فالنغم يلهمه قبل اي شيء آخر ، ان فنه داخلي ، انه انسجام جمالي وهو يقف دون المجالات الذهنيـة او يكف لدى الاتصال المباشر مـع العالم الخارجي . كل شيء يجري كـما لو كان يحتمي بباطنه . وهكذا تبـدو الموسيقى الشرقية كما لو كانت نوعاً من « الكتمان » . * (١٨)

الحوار بين الشرق والغرب أيضاً

ومعلوم ، انها لم تعد وخدهـا على المسرح . فكثير من الهـواة العرب المثقفين على الطريقة الغربية يظهرون لها الكثير من الاحتقار . وجاذبيـة موزار على المثقفين ، والجاز على الشبيبة تقلص حدود سلطانها الملكي القديم .

---

١٨) « اللجوء للسر » ، «الدفع الحميم » ، المميز للاسلام الشيعي ، ولكن أيضاً لكل نظام مماثل ، في ظروف مماثلة .

ومن هنا كانت مناقشات جديدة ترجعت أصداؤها في عـــدد اخير من مجلة « المجلة » [١٩] . فالدكتور فؤاد زكريا يظهر يأسه من الموسيقى الشرقيـة التي يعتبرها ادنى من الموسيقى الغربيـة على صعيد التأليف ، والعزف ، والاداء والسماع في الوقت نفسه . وهو كاتب متمرس بتحليل الاعمال الموسيقية . وقد نشر هو نفسه مؤلفاً حول « التعبير الموسيقي » * . وهو لا يجد مشقة في اظهار ما تستطيعه مقارنة بين الالهام الغربي والالهام الشرقي من ابراز عـدم التساوي بينهما « نحن بحاجة الى جيل جديد من الموسيقيين » . وهو في يأس من الحاضر ومن الغريب ، ان هذا هو الموقف الذي يقفه احياناً كثيرة العديـد من العرب وعلى صعيد الاداء ، هو يذهب الى ابعد بكثير أيضاً : « كيف تجرؤ على تفسير الاغنية الغربية (ولنلاحظ ، فضلاً عن ذلك ، انه يرتكب شيئاً من الخلط بـين الاغنية والموسيقى نفسها ، وان هذا الخلط يكشف عن حالة ذهنية بكاملهـا) كيف تجرؤ على الخلط بين هذه الاغنيات ، وهـذا الصراخ ؟ اذ ان القسم الاكبر من هذه الاصوات الغربية ليس الا صراخاً (بالنسبة اليك) وعلى صعيد «الكلام» * نفسه هو يقول : « ان أصواتكم تذهب الى أمداء أقصر مـما تذهب اليه الاصوات المثقفة في الغرب . انها في غالبيتها اصوات ميكروفونية » (كلمة مولدة يخترعها ليقذف بها دون شك عبد الوهاب الذي توجه اليه منـذ سنوات تهمة الضعف المتزايد في الاداء الصوتي) . « وفي الحقيقة ان ما نحتاج اليه هو العلم ، والعلم دائماً » . فبعد التشاؤم عند المنطلق ، ها نحن نصل في نهاية الشوط ، الى الدعوة للعلم .

---

١٩) « مستقبل الموسيقى في مصر » * المجلة يونيو ١٩٥٧ ، ص ١٠٢ .

وجواب محمد فتحي يستند الى الشيء الذي كنا ننتظره، أعني الى الماهية النوعية العميقة الخاصة بالموسيقى الشرقية. « كيف تريد من موسيقانا ألا توافق اذواقنا وحاجاتنا ؟ وهذا صحيح لدرجة اننا نحب سماع الموسيقى الغربية البحتة اكثر مما نحب سماع هذه المحاولات الشرقية الرديئة للتكييف مع الالهام الغربي»، وهو، هنا، ربما يكون على صواب. ولكن حيث يجد صعوبة في الرد هو عندما يصل الى قضية الاداء: ضعف الادوات وقلة تنوعها، وأصوات لا تلقى التمرين ولم تذهب الى حدود قدرتها، كما يجري في الغرب، بصورة اجبارية. ولنسجل هذا التعريف باللغة الموسيقية. فهي، حسب المؤلف، ترتبط بثلاثة اشياء، بثلاثة اعضاء: الأذن، العقل، والقلب. الاذن لأننا عرضة للتأثر « بحلاوة » * الغناء. فهذا التأثر هو حدٌ لبصرنا « والعقل » * الذي يكمن فيه الاحساس بالفصاحة، بحسن البيان الذي يرتكز عليه مجد مثل مجد ام كلثوم مثلاً. ومعلوم ان هذه الفصاحة، قد حطمت الموسيقى الغربية رقبتها منذ زمن طويل، وقبل الزمن الذي قام فيه الشعر بتحرير نفسه منها. واخيراً القلب: انه يحس « بروح » * الغناء، وما سكبه الفنان فيه من عاطفة رقيقة ومن انفعال لطيف دقيق». وبالاختصار، فان ما يعيب التعريف هو، على ما يبدو، هذا الامر. فالسيد فتحي على صواب، بكل تأكيد، عندما يعتبر، في مهاجمته لتيار تقليد الغرب، ان من واجب الموسيقى، قبل كل شيء ان تنبع من الشخصية. ولكنه لا يقوم، لنقص في المعلومات دون شك، بعمليات التمييز التي يقوم بها خصمه، والتي تذهب بعيداً. وهو على حق في التأكيد على ضرورة محتوى او « مدلول » شرقي، ولكنه لا يرى، او لا يحب ان يرى رداءة « الدال » او او المؤدي، الذي هو، دون ريب، اقل ثقافة وأضأل سلاحاً مما اعتادت تقاليد تقنية هائلة، في الغرب، ان تزود به (أمثاله). ففي المادة الموسيقية، كما في كل شيء آخر، يتميز الغرب عن الشرق بالقدرة على الافادة من كل ما

هو تقني ، ومتقدم ، ومتراكم .

ويمكن ان يطرح السؤال حول موافقة « المدلول » او المحتوى التقليـــدي لحاجات الشرق الحالية . اذ ان هذا هو في الواقع ، صميم النقاش . وما كان للمجادلة ان تكون على هذه الدرجة من الحدة والحرارة ، لو لم يكن الكثيرون من العرب يتبرأون من موسيقاهم ذاتها وينكرون قيمتها كوسيلة للتعبير ، بينما هم لم يحسوا ابداً ، مثلما يحسون اليوم ، بضرورتها الوظيفية .

ففي الكويت على إثر التدهور في صناعة مصائد (اللؤلؤ) التي حولها غزو الثروة البترولية الى نوع من حطام الماضي ، هبط عدد الغطاسين من ٣٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠ . ولكن هذا التدهور قد أدى ، بالمقابل ، على ما يبـدو ، الى ازدهار هائل في الاغاني [٢٠]. صحيح ان الامر يتعلق ، هنـــاك ، بمستوى فني ، وبيئة اجتماعية بعيدة عن بيئة الناس المتقدمين . فالانتقال يتم مباشرة ، فيهـــا ، من ايقاعات العمل ، مثلما يجري في حالة الفلاح ، او من اللوعة على هذه الايقاعات ، الى الابتكار النغمي . ولكن تطورات فنٍ مرتبط بحياة المدينة ، وبالعشيات في الجنائن والبساتين على ضفاف بردى ، مثلاً ، او بتجمعات السامعـــين الذين يميدون معاً بالنشوة تحت مكبرات الصوت . اقول ان تطورات فنٍ مثل هذا هي بالضرورة ، اكثر لطافة وتعقيداً .

واننا نفتقد ، لدراسات بسيكولوجية معمقة بما فيه الكفاية ، تستطيـع ان تسلّ من عقدة التشابكات في نفس السامع ، مثلمـا في نفس الملحن والعازف او المغني ، النصيب العائد لمصادر العواطف والخلجات المختلفة . ومع ذلك ها هي احـدى الملاحظات التسجيلية .

---

٢٠) حسب صديقي بشر فارس ، والدكتور حسين فوزي قد تلقى انطباعاً مماثلاً .



حركة صبغ الموسيقى العربية بالطابع الغربي ، كما يراها رسام مجلة « الفكاهة » — القاهرة . عام ١٩٣٠

يضع الكاتب العمالي محمد صدقي ، على ضوء المسرح ، في احـــدى قصصه القصيرة ، احــــد ابطاله من ذوي الايدي الخشنة ، فهذا الميكانيكي الشاب ، المتحدر من الطبقة الفقيرة في القاهرة ، هو من اولئك الذين يظلون « ملتصقين بأرض الواقع الذي يعيشون فيـه » ، انهم يظلون مغروسين في التربة المصرية : انها ذكرى الاصول الفلاحية التي سيمضي وقت طويل قبل ان تتحرر الطبقة العمالية ذاتها من أسرها . ولكن صاحبنا الشاب يطمح لأن يصبح موسيقياً . فيسرع نحو الجامعة الشعبية، في شارع القصر العيني، بعد انتهاء عمله اليومي. وها هو يجلس في صف السولفاج ، ولكنه لا يزال يلبس ثوب عمله الأزرق . وقد وصل متأخراً . فينتهره دون هوادة ، المعلم الجالس وقد غرقت عنقه بين كتفيه ، وبان عليه الازدراء ، انه نموذج لهذه الفترة من التطور . فهو يرى ان هـذا الكادح الذي يكسب عيشه بيديه يشكل نشازاً بين المثقفين . وفي اليوم التالي ، حـين يصل العامل متأخراً مرة اخرى ، يقف المعلم الصارم عن رسم صور غريبة على اللوح : صور احرف النوطة : دو ، ريه ، مي ... وكل شيء يلقى تفسيره في لغة عامية متبجحة ، ثم يهب في وجه القادم « ماذا تعمل في الحياة ؟ ». – سيدي ، انا اعمل في لحم المعادن . وكانت موجـــة ضحك عامة . وأرخى نصف المتعلم شفته السفلى باحتقار . ولكن كان في الصف طالبة تقوم بالدفاع عن بطلنـــا : فيخرجان سوية . وهو يجـد في التحالف مع هـذه الفتاة ، النابعة من الشعب ، مثله ، وعداً بالمهادنة . والرجـــاء في قيام موسيقى ليست موسيقى المعلم ، البورجوازي الصغير ، ولكن موسيقى تعبر عن روح الغناء وفي الشعب الذي اقام المصالحة بينه وبين نفسه .

وعلى الطرف الآخر من السلم الاجتماعي ، ها هو الدكتور حسين فوزي . فهـذا الطبيب ، الباحث في علم المحيطات ، سندباد العصر الحديث [٢٢] يذهب ،

٢٢) هذا هو عنوان كتبه : سندباد الغرب والسندباد العصري .

عن معرفة وقصد ، ابعد بكثير مما يذهب اليـه ، غريزياً ، ميكانيكي القاهرة . فهذا الاخير كان بحدس ، في الموسيقى الغربية ، مغزى ثوريا يجهله الاستاذ عبد الوهاب . اما الاستاذ الكبير فيرى فيها المادة لانسانية كونية . وهو ينكر على الموسيقى التقليدية في بلاده « عجزها الكامل عن « التعبير » وخاصة عدم اهليتها للبناء . ويتفنن كتابه الصغير عن الموسيقى السمفونية في الدفاع عن هذه النظرة ضد الاعتراضات والآراء المسبقة . وكثير من الشرقيين الذين يهتزون طرباً امام موسيقاهم الخاصة يعزون ، بالفعـــل ، للموسيقى الغربية ، التي تحيرهم ، قدرة تعبيرية مجردة . انهم يجعلون منها فناً تصويرياً فحسب . فيظهر الدكتور فوزي ، دون عناء ، ان السيمفونية ترتفع الى ما هو ابعد من التصوير البسيط ، حتى ولو كان تصويراً لحالات النفس ، وانها تفيض من كل الجوانب ، بصفتها نداءً نفسياً . وتتجاوز الاغنيـــة الشرقية التي ليست غير « دغدغة للشعور » *[23] . وفي الاساس ، لا يطلب الناس من هذه الموسيقى غير شيء واحد ، الزلزلة العاطفية ، التي هي بدورها مزدوجة القيمة . هذا « الطرب » الذي يدفع بك الى الفرح او الى الدموع .

ومنذ ١٩٥٨ ، اخذت اذاعة القاهرة ، تقوم بتجربة ، جديرة بالعنـــاية في نظري ، على موجتها الثانية . فهي تعطي برنامجاً من الموسيقى الكلاسيكية . وفي الوقت ذاته سألت المستمعين عن ردود الفعل عندهم ، بواسطة اسئلة موضوعة مسبقاً ، وفي يدي التحقيق الصحفي الدقيق جداً الذي أجرته جريدة « القاهرة » حول هذا الموضـــوع . فكل « المثقفين » تقريباً يحبذون هذا المجهود ، وآخرون ، على العكس ، يحتجون باسم التقاليد الوطنية . فهم يعتبرون هـــذه الموسيقى غريبة ، وغير متفقة مع الذوق الشرقي . اما يوسف مراد ، وهو عالم نفسي محترف ، فيدرك ما يكمن من عمق واهمية في التجربة . « اننا بحاجة كبرى الى ثقافة عالمية ، ثقافة تخرجنا من داخل نفوسنا . ان علينا ان ندرس وان نهضم

٢٣) دكتور حسين فوزي. « الموسيقى السيمفونية » . ص ١٧

تراث كل الامم وكل اللغات » . اذ ان احدى التهم القاسية التي وجهها جانب من الرأي العام الى هذا النوع من المجهودات ، هو انعدام الطابع المصري فيه ، وانصرافه الى الكوزموبوليتية . وفي بعض اللحظات ، يصبح لزاماً ان تملأ الهواجس نفوس مدراء البرنامج ويضطرون لان ينتبهوا لمثل هذه الانتقادات التي تستطيع ان تصبح خطرة .

وردود فعل الشبان هي اكثر حدارة بالعناية ايضاً من ردود فعل المتعلمين الكبار . وها هي بعض آراء طالبات الكليات ، فتجيب احداهن التي كان يفترض فيها اطلاعها على الموسيقى الغربية : «وانا لا استمع الى برنامجكم ، لانني لا أحب غير الاغاني ، فانا لا اطلب من الراديو غير الاغاني ، وهذا ما يطلبه الشعب ، بخلاف الطبقة المثقفة » . وانه لتمييز خبيث بين اذواق النخبة واذواق العامة . وكل فنان ، او كل رائد او كل مصلح في الشرق ، عليه ان يدخل في حسابه ، باستمرار ، هذا النوع من الاخطار . ومستمع آخر يقول : « أقلوا من الموسيقى الكلاسيكية » . وثالث يقول : « انكم لا تعطون حظوظاً كافية لموسيقانا الوطنية » . ومع ذلك ، فان رابعاً يطالب على العكس ، بمزيد من الموسيقى الغربية . وهو يدخل فيها خاصة الموسيقى الروسية التي اصبحت موضة رائجة ، على الأقل فيما يتعلق بأساسها الفولكلوري . اما يحيى حقي ، مدير مصلحة الفنون الشعبية ، فقد كان انطباعه اكثر تحفظاً . فهو شخص لا مجال للطعن في معرفته ، وان كان ، في الوقت نفسه ، غني الثقافة . بالطبع هو لا يجد في شوبان او موزار هذه الضمانات للون المحلي الصحيح التي يهفو اليها قلب مؤلف « قنديل ام هاشم » * ، عن حق ، ولكن هل يستطيع ان ينتظرها من عبد الوهاب ؟

الواقع هو ان إلهاماً ذا طابع وطني يستطيع ان يبحث ، عند جانب الفنون الشعبية ، عن المواضيع والانغام ذات الحيوية الغنية التي تستطيع هذه الفنون

ان تقدمها اليه . وفي مصر خاصة ، يعيش الفلاح في جو زاخر بالاغاني ، بينما هو مشدود الى الارض باوتاره الخفيـــة . ففي « حرانية » حيث يستحث رمسيس ويصا واصف الهامّ يافعين ويافعات قاموا ، داخل منزل ذي قبـــاب من طراز قبطي ، بعملية تمييز صور النباتات والحيوانات في سجادة جدارية ذات ألوان زاهية ، اخذوا يكتشفونها شيئاً فشيئاً ، دون سابق تصـور ودون استعمال الاقلام ، ، سُمعت الاغاني تنطلق من حناجرهم ، دون عناء او دهشة . فان اتصالاً غامضاً ، مبهماً كان يربطهم بهذا الصنيـع الذي يبعث من العدم هـــذه التصاوير القديمة التي تمثل العرق والمنظر الطبيعي ، البالغ الصفاء ، والانسحاق..

واليوم يحاول مجلس الفنون الشعبية ، في القاهرة ، جهده ان يستغل هذه الينابيع الابدية التي يبحث فيها ، منذ الآن فصاعداً ، المؤلفون والملحنون ، من انصـار التفكير الغربي ، عن الهام واع . ولكن ليس في نيتنا ان ندرس هذه العمليات الحيمة من الترابط وما تستطيـع ان تسمح بالرجاء به من تطورات في المستقبل .

ولنرجع الى تحقيق الدكتور فوزي . فان محاولته تصطدم بردود فعل اكبر مما كان منتظراً . فان جامعياً كبيراً يعترف : « الموسيقى التي تعطينا اياهـــا تتجاوز مداركي : انها أعلى من مستواي الثقافي ، بينما تعليقاتك هي ، بدورها ، أدنى من هذا المستوى ! » ، واننا نحدس الابتسامة التي ترتسم على شفتي الرجـل المثقف . فهي تعبر تعبيراً جليـاً عن الاغراءات ، وفي الوقت ذاتـه عن مشاعر النفور التي توحي بهـا الموسيقى الغربية ، وفقـاً لخط فاصل لا يمكن التنبؤ به . ذلك انها تصطدم ليس فقط بتقاليد قديمة ،وبذوق أصيل ، وانما ايضاً بضرورات لا تستطيـع ان تستجيب اليها إلا عندما تبلغ مستوى اعمق من الاندماج مـع حاجات هذه الشعوب ومع روحيتها [٢٤]

---

٢٤) مقاطع من مطبوعات سلمت ، بتلطف من قبل وزير الثقافة في مصر .

، المواحل الكبرى للموسيقى المصرية

كل هذا لا يعني ان الحساسية الشرقية لم تتطور ، ولا تزال تتطور منذ جيل ، ففي اوائل القرن العشرين ،

كانت هذه الحساسية تعرف نوعين كبيرين من الموسيقى : من جهة « الموال » بجذوره الشعبية ، والوفي لالهام الفلاح ، الغزلي والحكمي ، السياسي والهجائي، ومن جهة اخرى ما كان يسمى « بالدور » وهو نوع من الفن الارستقراطي النموذجي . فقد كان « التخت » يجتمع في منزل البيك. وكانت لازمة «مذهب»* تعود في فترات منتظمة وبصورة جد رتيبة ، بالنسبة لذوقنا ، على الرغم من انها جذابة جداً ، وساحرة بالنسبة للهواة ؛ ان لها شيئاً من السحر الذي يستطيبه الاتباعيون التقليديون ، في المغرب ، لدى سماعهم الرسائل الاخيرة الباقية من الموسيقى الاندلسية . فالدور يستقي قوته من تكرر رجوعه اللامتناهي. « دولاب »* وبصورة ذات دلالة ، هو « طرب »* خالص ، أعني انه يخلط في الفرح والحزن مثلاً ازدواجياً ،ملتبساً . وهناك من يدهش ، اليوم ، لأن يكون قد اظهر مثل تلك اللامبالاة تجاه الموضوع او الحكاية ، او الحادثة . ذلك ان سحره كان يفعل على مستوى يقوم دون مستوى الادراك : على مستوى هو مستوى المواقف « الشرقية » في تلك الايام ، الباعثة على دهشة الناس في عصرنا ، والمعبرة عن شهوانية قلقة ومتخمة في الآن الواحد .

وقد تناولت هذه الأوركسترا القديمة ، « التخت »* تبدلات جبارة . واكثر هذه التبدلات وضوحاً أتى للتخت من شكل مصري خاص ، انتصر حوالي ۱۹۲۰ وبلغ ذروته في عام ۱۹۲٥ : انه شكل المسرح المصري ، المرتكز على التواشيح والهجاء . فقد ظهرت ، في القاهرة عام ۱۹۲٥ حوالي العشر فرق بقيت كلها شهيرة : فرقة رمسيس حيث بدأ يوسف وهبي الذائع الصيت وروز اليوسف التي تركت اسمها على مجلة كانت ، في ذلك الحين ، في جانب المعارضة ،

وفرقة سلامه حجازي المتخصصة في الاوبريت والتي سيعمل فيهـــا الناشيء عبد الوهاب ، وفرقة جورج ابيض ، تلميذ ممثلنا سيلفين Sylvain ، والذي كان يُعتبر ، ويعتبر نفسه ، كبديل محلي لفرقة الكوميدي فرانسيز ، حتى الاشهر الاخيرة (التي توفي فيها) وفرقة الاخوين عكاشة التي بدأ فيها حياته الفنيـــة الرائد الكبير سيد درويش ، وفرقة نجيب الريحاني الخ .

وبين الماضي والحاضر ، في عوام ١٩٢٠ ، يتتابع عدة اسماء في حلقة متصلة ، مثلاً كامل جلحي الذي ظل ، في القسم الاول من حياته الفنية ، يهتم بهذه الاغنيات القديمة التي يكثر فيها الترداد والتكرار ، والتي لا نهاية لوصلاتها الرتيبة . اما في الشطر الثاني من حياته ، فقد ألف ألحاناً شعبية . ولنذكر ايضاً (بعد ان نقفز الكثيرين) سعود حسني ، وابراهيم فوزي ، الخ .

وعندما يروي الشرق كلمة قالها سيد درويش ، يخيل الينا اننا نستمع الى كلمات مروية عن موليير : وبالفعل فان درويش ينسب نفسه الى الهـام شعبي ، الى اختيار جماعي ، وهو يستخلص الالهام من الطبيعة ضد الفن . فقد كان يستمع الى عمال كانوا عائدين من عملهم ، وهم يغنون ؛ ويصرخ متسائلاً : « وما نحن الى جانبهم ؟ ان الطبيعة هي فوق الفن » . وعند وفاة سيد درويش ، عام ١٩٢٣ ، كتب العقاد عنه هـــذه الكلمات الغريبة : « كان سيد درويش يطلق ألحانه في شكل قطع مسرحية ، وقصائد ، او طقاطيق قصيرة ، وكانت اصداؤها تدوي في كل انحاء البلاد ، فكان الناس يتمتمون بها في ألعابهم . وكانت المغنيات ترفع حناجرهن بها في الاعياد العائلية ، وكانت الشبيبة تعيدها في الأزقة والاسواق . و« مصر السامعة »* اصبحت مثل اوركسترا واسعة هائلة الأبعاد ، كان يديرها من مقعده » .

فلماذا قبلت هذه الثورة ؟ « انه هو الذي أدخل الحياة والبساطة في التأليف الموسيقي والغناء . بينما كان الفن ، قبله ، مثل المظاهر الاخرى من الحياة الثقافية ،

منسحقاً تحت طابعه « التقليدي »* الفظيع ، والمعادي للحياة . هــذا العبقري الملهم أتى ليقيم الاتصال بين الكلمات ومعانيهـا ، بين الإشعار والحالات النفسية » (٢٦)

ومع سيد درويش ، يخرج الشرق من التسلية المجردة ، ايلج الى موسيقى معبرة ، معبرة عن بعض حالات النفس ، ليس فقط عند الفرد ، وانما ايضاً عند مجتمع . ومن هنا كانت اهمية هذه البادرة . ان سيد درويش قد أطلق الموسيقى الشرقية في سياق التاريخ . انه يجعلهـا تعبر ليس عن نوع من التلذذ والتلمظ ، ولكن عن مسيرة . وعلى هذا ، فهو « الواقعي »* الاول . وبصفته هذه ، هو يعطي للحقبة الحاضرة رائدها الذي شق الطريق امامهـا . وفي سنة ١٩٢٢ ، ركّب بنفسه ، وبمعونة أحـد الحرفيين ، آلة بيانو تستطيع ان تعطي ارباع النغمة التي يتميز بها السّلم الموسيقي الشرقي عن سّلم موسيقانا . وهو ينشر ايضاً كتاباً لتعليم الموسيقى . وقد نشرته جريدة « النيل » بصورة متسلسلة . وتعتبر محاولته لاصلاح التقنية الموسيقية ، التي لا أستطيع ان ادخل في تفاصيلها ، تعتبر على جانب كبير من الجرأة . فهو يحمل منطقاً ، وحركة في تتابع الفقرات واللازمات الموسيقية ، ويقيم المفاصل في النغم الذى كان يجري في الماضي باستمرار لانهائي .

وقد تتابع ، بعد سيد درويش الكثير من الموسيقيين ، سأختار فقط واحداً منهم ، سبق ذكره : « الاستاذ »* محمد عبد الوهاب الذائع الصيت . انه ابن لأحد المؤذنين . فهو يتصل اذن بالجذور الدينيـة للموسيقى : لقد كان والده مؤذناً لمسجد سيدي الشعراني : وهذا الامر يذهب بنا بعيداً في التاريخ وفي الصوفية الاسلامية . وها هو يدخل الى الازهر : فقد كان والده يريد ان يجعـل منه

---

٢٦) محمود العقاد : « البلاغة » ٢٧ ايلول ١٩٢٧

عالماً بالشرع . وبعد ذلك يوضع عند خياط لتعلم المهنة . فيفشل في هذه المهمة . فيضطر لأن يهرب من العالم الخارجي ليلوذ الى عالمه الخاص ، الذي هو الموسيقى. فيدخل فيها ثورة الآلات العازفة . انه يحمل اليها رنات الاوركسترا الاوربية ، ويكفيها لتتوافق مع شكل معين من الغناء الشرقي . ويؤكد النوع الجديد كامل ازدهاره حوالي عام ١٩٢٧ ، أي في الفترة التي يتناول فيها بنفسه اوبرا انطونيو وكليوباطرة (من مسرحية مصرع كليوبطرة) التي تركها سيد درويش غير مكتملة . وفي ذلك الوقت ، يجد عبد الوهاب من يحميه ويشجعه في شخص احمد شوقي ، البيك الارستقراطي النموذجي ، ذي الثقافة الفرنسية ، والقصائد الموضوعة وفقاً للعمود التقليدي للشعر . فهو الذي ساعد عبد الوهاب في بدايته العسيرة ودافع عنه اثناء مجادلات حامية ، وفي المناقشات الصحفية التي لم ترحمه دائماً والتي ليست اليوم اكثر رأفة به . وفي الواقع ، نجح عبد الوهاب في ان يؤمن البقاء لنفسه ، ولكنه يتعرض للنقد اكثر فاكثر مع الايام . لقد خلفته امرأة في مكانته من العطف الشعبي ، وهي فنانة ذات شهرة اعرض وأضخم ، هي ام كلثوم ، التي هي ظاهرة اجتماعية حقيقية .

وأم كلثوم (٢٧) ، كجميع الابطال ، تبدا بصورة متواضعة : عائلة فقيرة ، وجسم ناحل ، ولكن منذ طفولتها هي لتنبه كما يجب أن نترقب ، قريتها الى موهبتها الفنية بالوعود ، فهي تلفت الانتباه اليها ، « في المركز » ثم بالتدريج ، في المقاطعة ، بفضل صوت يصبح شيئاً فشيئاً لا مردّ لسلطانه الطاغي بما فيه من شكاة زاخرة بالتمزق في السلم الحاد ، ومن هديل في السلم

---

٢٧) انظر ،في هذه المجلات ، مذكرات خاصة ، دراسة لم تنشر للدكتور مصطفى شقة : « ام كلثوم كظاهرة اجتماعية » . وقد يكون من الطريف ان تقارن ام كلثوم الدائرة في النطاق الكلاسيكي والمغنية اللبنانية الفائقة العذوبة – فيروز المتجهة نحو احياء الفولكلور.

الوسط ، وهـــذا النوع من « النحّة » * من التأوهات الجريحة ، والرعشات المكلومة في الصوت عندما يصل الى اللحظة المؤثرة . وقـد اعطتها الدراسات القرآنية الجدية التمرس باللغة النبيلة ، بالفصحى . ومع ذلك،ها هي قدأصبحت فنانة محترفة . فتذهب من عيد عائلي (فرح) الى عيدعائلي ، ودائمـــاً في زي الصبيان . وفي سنة ١٩٢٤ ، تـــتركز في القاهرة . وفي عام ١٩٣٤ تظهر في الراديو . وبانتظار ذلك كان الشرق قد اكتشف أميركا . أعني استخدام الاذاعة التي دشنتها سوسن عـــام ١٩٣٢ . وشيئاً فشيئاً،اصبحت أم كلثوم الوحش المقدس الذي تزحف الجموع اليه . فتغني ليالي بكاملها مقابل أتعاب تقارب الألفين أو الثلاثة آلاف جنيه ، ولا تسجل اسطوانة بأقل من ألف جنيه.ولكنهـــا تظل وفية « للحشمة » . انها رمز خلقي في الوقت نفسه الذي هي فيه فنانـــة تحدث الجلبة حول نفسها.وعندما انتقلت الى السينما،أصرت على ان يُنص(في العقد) على انه لا يجوز تقبيلها على شفتيها. ان اقصى ما يمكن أن تسمح به هو ان تعطي يـــدها للتقبيل . فكل شيء اذن ينسجم عندها : الصوت الذي لا ينضب ولا يغيض ، واستعمال « اللغـــة » * الفصحى والفضيلة والحشمة ! ويكتمل التآلف (السانتيز) أيضاً عندما تعلن بعد ذهاب فاروق ، انها حفيدة حقيقية للرسول: انها « شريفة » * . انها تجمع ، حينذاك في نظر الجماهـير الشرقية كل مـــا تستطيـــع الآية النسائية ان تملكه من قدرة على الاثـارة للحماسة ، وكل مـــا يملكه المجتمع من اكتمال .

وليالي « أم كلثوم » ، التي يُعلن عنها مسبقاً بوقت طويل تحشد التشكيلة الكاملة من الطبقات والافراد، من الاستاذ الجامعي الى الفلاح.والبعض يستأجر أجهزة راديو في السوق السوداء للاصغاء اليها . والذي لا يملك التيار الكهربائي

يسرق سلكاً ليحول به تيار جاره اللحام . اما الوجيه فيوزع الدعوات بالجملة محاولاً ان يقني على طريقته مهابة الطريق الواسعة . والزوجات اللواتي تأكلهن الغيرة يذهبن للنوم عند جاراتهن . والصبيات يُطلن في ذلك اليوم وقت قيلولتهن، حتى يستطعن اطالة السهر . وبعض الهواة الذين يستمعون لام كلثوم منذ عشرين او ثلاثين سنة قد اكتسبوا بفضل ذلك سمعتهم، كقوم مهووسين ومستنيرين : وهكذا فأن ملاكاً معروفاً في مصر العليا لا يعرف كيف يمنع نفسه ، في اللحظات التي يتأوج فيها الانفعال العاطفي في صوت ام كلثوم من اطلاق الزغاريد المدوية .

اتجاهات موسيقية جديدة

ولكن الاشياء تمضي في سيرها المعتاد . فالفنانة الكبيرة بدأت هي نفسها ايضاً ، بأن يولي عهدها ، ولنتصفح مدرسة النقد الفنية النازعة الى اليسار فرجاء النقاش [٢٨] ليس على اي شيء من الطراوة بالنسبة لام كلثوم . انه ينكر عليها انها طلقت قضية بلادها ، وانها لم تعد تعبر عنها الا بصورة مصطنعة ، وانها اصبحت محترفة جشعة لا تبتغي غير الكسب .

لقد وقعت عام ١٩٥٥ ، مشادة كبيرة حول تأخر الموسيقى... المصرية وهم يقولون « تخلف » * الموسيقى المصرية — فالتقدميون يفضحون هذا التخلف في الموسيقى ، كما يفضحونه في التقنية ، والسياسة الخ ... وكل منهم ينحني على الموضوع ، ويهز رأسه مقترحاً وصفات علاجية . اما النقاش فيقضي بأنه لا

٢٨) رجاء النقاش « في ازمة الثقافة المصرية » بيروت ص ٧٦

وصفة علاجية تنفع رغم ان الشعب مريض . فهذا المرض ، هـــذا المعضل ، ينحصر في ان الشعب المصري ، والشعب الشرقي على العموم لا يعيش في حالة من التجلي الموسيقي ، لان هذا الشعب يتألم . وليس بالوسع اصلاح نقصه الفني النسبي الا بحمله على التقدم في كل الميادين .

والفنانون بدورهم ، يطرحون على انفسهم المشاكل نفسها ، هل يلزم اختيار الالهام الغربي ام الالهـــام الشرقي ؟ ويعودون دائماً الى المحاورة بـــين مستمعي الدكتور فوزي : ومعلوم ان اغلبية الموسيقيين يميلون نحو الاتجاه الغربي ، وعلى راسهم عبد الوهاب نفسه . اكيد ، ان هذا الطابع الغربي لا يزال يبدو لنا منحلاً فيما يشبه الافيون أو الشراب المقطر . ومن جانب آخر تنحاز ام كلثوم الى الجانب المعادي للتيار الاوربي وخاصة لتقليد الاتجاه الاوربي : « انا لا اهتز ابداً لسماع الاوبرا او الاوبيريت الغربية وما يلزمنا هو ان نرسي موسيقانا على اساس من تراث جدودنا ، وان نحضر اصواتاً جديدة ، اصواتاً ملائمة لتطور لاحق مقبل ، وان نقتصر على آلات العزف الشرقية ». انها اشارة الى محاولات عبد الوهاب فيما يتعلق باستعمال الآلات (الغربية) . ولكنها تبدو وجهاً يزداد كل يوم ايغالاً في عزلته . وتعكس الصحافة عمليات استجواب تبدو اكثر الحاحاً يوماً بعد يوم ، فلنصغ الى هذا الفتى الاسكندري ، الذي يصيب كبد المشكلة : « الموسيقى الشرقية ليست الا دعوة للاسترخـاء ، ونداء الشهوانية الجنسية المنحطة . أما الموسيقى الغربية فتروي ، وتصور ، وتمثل وترجع الى حركات فكرية ، والى مدارس ثقافية » . هذا الشاب قـــد عضه الفضول الارتكاسي (المندفع بعيداً عن المركز) ، ان صح القول. وانا اغضي

عن النقد العنيف الذي يثيره حالياً في اوساط المثقفين ، فن تقليدي جعل منه السائح الاجنبي فناً شرقياً نموذجياً ، أعني الرقص الذي يسمى الرقص العربي ، على صفحات الاعلانات ، او رقصة البطن ، ان كان لنا ان نسمي الاشياء باسمائها . فهذا النوع من الرقص يثير استهجاناً كل يوم متزايداً من جانب « المثقفين » * وحتى فنان مثل محمود الشريف رفع الصوت ، مؤخراً في مناظرة بينه ومحمد عبد الوهاب ، احتجاجاً على هذا الاسلوب العربي المزيف ، وهذا النوع الشرقي المشبوه ، الذي يعتبر مضراً على قدر الضرر الناتج من تقليدالغرب وفي نظره ، هذا الاسلوب ليس في الواقع غير بقايا التراث التركي الفارسي ، وليس عودة الى الاصول الحقيقية. والحقيقة في البلاد العربية ، هم يبدأون بالبحث عنها في عملية سليمة للانقاذ ، في الفولكلور ، اي في الهامات الرجل العامل . وان مراسلين يذهبون اليوم لتسجيل الاغاني الشعبية ، وحتى هذه الدقات الايقاعية على الطبول التي يطلقها صيادو الأسماك على البحيرات لمطاردة السمك : ويبدو أن هناك ايقاعاً خاصاً لكل نوع من الاسماك . وهنا أيضاً ، تدهشنا مصر ذات الزجاجيات التركية والتخاريم المصنوعة على الطرازالايطالي عندما تنحي بيديها هذه الاشياء المستعارة التي حملتها اليها القرون والاجيال ، وتذهلنا بما تدعنا نتبينه من أغوار تراث لا نهاية لقدمه ورسوخه في الماضي السحيق . « والزار » * نفسه يغري هذه الوجوه من الفضول . وربما يكون في هذه التراتيل نوع من الشفاء للنفوس، كان أفلاطون يعرفه جيداً وتطمح السيمفونية الى استعادة سلطانه الغريب .

لقد بدأ المثقفون المصريون بتأطير كل هذا التطور في الخطوطالرئيسية للملامح التاريخية التي يقدمها التسلسل الزمني لعملية الانعتاق . ويميز فتحي

غانم [٢٩] مثلاً ، مرحلة أولى من تاريـــخ الموسيقى التقليدية : تلك مرحلة « الدور » و « الموال » . انهـــا تتفق مع حياة الأعيان وأبناء الذوات الذين كانوا يبحثون عن الملذات الرفيعة . وتبتدىء مرحلة ثانيـــة مع ظهور الطبقة البورجوازية الصغيرة : فكان طـــه حسين في الادب ، ومختار في النحت ، ويوسف وهبي في المسرح ، وام كلثوم في الفن ، وكلهـــم يملكون في نظره الخاصة المشتركة ، وهي أنهم ابتعدوا عن المجتمع القروي وقاتلوا على جبهتين في آن واحد : ضد التقاليد القديمة وضد جمالية أبناء الذوات . انهم يشكلون نوعاً من القوة الثالثة في الفن . ولكن ثوريتهم تنحلُّ وتبهت مع نجاحهم . فالاحتراف والدعاية يغزوان كل شيء ، كما يسيطر الانسياق مع الطابـع الشكلي . ولم يعد مجال التفاخر ، الحسبُ والنسبُ وانمـا امتلاك سيارة ضخمة والحصول على اشتراك في نادي الجزيرة . وهكذا عاد عبد الوهاب ، بفرديته الانانية ، وفريد الاطرش بتفاهته كمراهق مسن ، القهقري بالنسبة لسيد درويش .

وفي كل مكان آخر تطورت الموسيقى ، هكذا يقول هؤلاء النقاد الذين يسترسلون في تشاؤمية مميزة : اما عندنا ، فقد بقيت الموسيقى مكانها ، انهـــم الفاشلون ، والطلاب المرفوضون من معهـــد الموسيقى عندنا الذين يعتبرون افضل الملحنين : مثلاً ابراهيم حجاج ، انور مرسي ، وعطيه شرارة . يلزم ، اذن ، ان يكون النظام رديئاً . اننا لا نستقي كفاية من الأغاني الشعبيـــة ، من أغاني الفلاحين ، وأغاني العمال الحرفيين . أن من الضروري احياء الفولكلور عندنا ،

....

٢٩) فتحي غانم (وليس غالم ، كما ورد في النص الاصلي المترجم) : سلسلة مقالات في مجلة « صباح الخير » اوكتوبر ١٩٥٧ .

بفضل تقنية مكيفة من الغرب » : أنه اعادة بناء الذات بوسائل مستوحاة من الاخرين . ولنعترف بفضل هؤلاء النقاد . وحتى لو اظهروا بعض الجور والقسوة بالنسبة للذوق الوطني ، وحتى لو ذهبوا أحياناً الى حد تشويه الشيء المتميز بالطابع الخاص ، فان لهم فضل طرح المشكلة واثارة الحوار . ونتيجة الحوار مرهونة بحركة قد تنبع من الاعماق ، فان حركة فولكلور تنشأ بوصفات أجنبية غربية لن تخدم غير الدعاية . ولكن اصالة يبحث عنها ، حتى في اقصى جذورها ، وتبنى وفقاً للابداع الموسيقي العظيم ، تستطيع أن تعمل الكثير في سبيل ترقية الفن في هذه الشعوب وفي سبيل ترقية هذه الشعوب بواسطة الفن .

في ١٩ يناير ١٩٥٩ ، قدم مسرح الاوبرا في القاهرة ، وهو شهير بتقاليده في فن المغناة le Bel Canto ، سيمفونية لمؤلف موسيقي شاب يؤلف على الطريقة الغربية : انه ابو بكر خيرت ، وقد يكون في سيرة حياته ما هو جدير بالاهتمام ، فقد بدأ يدرس الطريقة التقليدية ، على يد استاذ هو موسيقار تركي ثم يذهب الى مدرسة العمار . وفي باريس هو يحرز جوائز في فن العمار (فن الريازة) ويبتدىء في التمرس بالتأليف الموسيقي وتكوين الاركسترا وينتج هذه السيمفونية الفولكلورية : المؤلف ٢١ Opus 21 الذي يسعى فيه لاستبعاد ثقل التقاليد ، على ان يعيد ، بناء حقيقة بلاده ومجتمعه ، بالاستعانة بموارد وبامكانيات نظام الاوركسترا الغربية : « ان طابعه الشرقي مرسوم بوضوح : فهو في بعض اللحظات يوحي برقصة القضبان الفلاحية الشهيرة : « التحطيب » * وهناك حركة أخرى تستعير من فولكلور الاسكندريه « رقصة المناديل » التي تدخل في رقصات الاعراس ، ثم وصف لجريان النيل . وبعد نغمات طويلة على الآلات الوترية تشير الى صعود النهر ، تحيي الالات النحاسية الوصول الى

السودان » . وان نشيداً عسكري الطابـــع والنبرة يومي، ولا شك من قبل المؤلف ، وفي نفوس السامعين ، الى الامكانيـات المقبلة التي يعد بهـا السد العالي [٣٠] .

المحاولات والتقصيات التشكيلية

قد يكون من العبث البحث عن سير متواز تماماً بـــين تطور الفن الموسيقي في الشرق وتطور الفنون التشكيلية . انمـا يشعر التحرك العصري ، هنا أيضاً ، بضروراته ومقتضياته . وربما بصورة جذريـــة أكثر مما في الميدان الموسيقي : اذ ان التقنيات ، ومصادر الالهام ، والاهداف المنشودة ، وفئات الجمهور التي تتوجه اليها هذه الفنون ، تتحدر بصورة كاملة تقريباً ، هذه المرة ، من الاتجاه الغربي .فالمصور والنحات العربيان يلزمهما الكثير من اللطافـــة والدهاء للاقناع بانتمائهما للماضي. أكيد انهما يستطيعان الذهــاب للبحث في فن المنمنمات وفي توشيـة الكتب وتنويرهـا عن السوابق البعيدة لتأنقهما في رسم الخطوط والالوان ، وفي المبدأ الاسلامي القاضي بحظر التصوير ، قد يجد ان الدعوة للتعبير التجريدي . ولكن المفاهيم التي أحاول ان استقصي عن العلاقات بينها تخضع في وقت واحد للتغير التاريخي ولعمليات اختيار دائمة . فالنشاطات الفنية تتأطر داخل مجموعات هي لا تشكل الا جزءاً من كلها . وهـذا الكل يتضمن مقتضيات الفعل مثلما يتضمن حاجات الشهوانية . فالكلاسيكية في التصوير ، او دروس المدرسة الباريسية ، التي تلقتها غالبية هؤلاء الفنانـين او تقصيات الـريالية والمـــدرسة التجريدية تحمل تشكلات من هذا النوع وعلم

---

٣٠) وبالامكان التحدث هنا عن محاولات الموسيقى اللبناني توفيق سكر بالحديث نفسه .



اطلالة على القاهرة القديمة ،من خلال فرجة في مأذنة بجامع طولون كليشه للسيدة



ب بيرك على كورنيش النيل بالقاهرة صورة فوتوغرافية لروجيه فيوليه

تفسير دائم التجدد ، وتقترح وسائل لم يسبق نشرها . ظاهرياً ، وليس بالوسع كذلك ، فهم اثرها دون الرجوع الى التغيير الذي يتناول ، في هذه البلدان ، بفعل الأبداع الصناعي ، الحوار بين الطبيعة والمجتمع .

ويندرج سير « واقعي » بالمعنى المبتذل للكلمة ؛ في حوار بسيط بين تعبير مطابق والممارسة العملية الاجتماعية ، وكلاهما مستوحيان من العقل المتعقلن ، « امالمدنيّة الآلية وأختهـــا » . والشيء في هذا الاصطلاح ، الشيء التقني مثل الشيء الجمالي ، يَستطيـع ان يحدد نفسه كصدام العقل مع عالم يفتته ومـع مجتمع يتباين ويتميز . ومعلوم ان العصر الحاضر يوحي الى البلدان العربية مثلما للبلدان الأخرى اندفاعاً هائلاً نحو التغير والتحول . فـالسدود فوق الانهر ، وارتفاع مداخن المصانع تشهدعلى تغيرات يسعى لترجمتها وخدمتها كل فن ذي تعبير مباشر والتزام جماعي . وعلى العكس ، فهناك اتجاهات اخرى تنبذ هذه القابلية للفهم والادراك . وهي تبحث عن مبادلات أكثر لطافة ودقة بـــين الشيء ـ الشيء الخارجي أو التحفة الفنية ـ وعالم الاعماق . أي العالم الباطني ، في نظر أنصار السرياليـــة ، ولكن يمكننا القول أيضاً انه عالم الشعر الصافي ، او عالم الفكرة ، اذ ان العالم الباطن والعالم المتسامي المتقابلـين بالنسبة للحياة العادية ، يقيمان فيما بينهما علاقـــات تراسل وتصادي ، وان التضاد الحقيقي الذي يضع عمليات الاختيار الفنية في مواجهة بعضها البعض ليس تضاداً بين العالم السفلي والعالم الفوقي. انه التضاد الذي يواجه ويناقض بين هذا البحث الاكتشافي المجرد عن الالتزام أو المنسلخ عن الالتزام وفن لا يعزف عن الاسهام العملي . انـه الفن ـ الوظيفة ، اذا شئنا (أكثرها هو فن تعبيري) او الفن ـ الدلالة.

وفي هذا الامر ، نجد التفسير لواقع ان الفن التشكيلي الشرقي ، على غرار الادب ، يتجدد في اتجاهين متنافسين . ففي مواجهة « الواقعية » * المصرية في القصة القصيرة والرواية تقف عمليات الاستقصاء اللازمنية التي تقوم بها الرمزية . وسوف تتركز عمليات التقصي التي يحاولها فنانون عرب في الرسم والنحت ، سوف تتركز هي أيضاً ، على هذه المسافة او تلك من الموقفين القصويين اللذين يشكلهما المذهب التجريدي والمذهب التعبيري (أو التصويري) ، تبعاً للازياء الرائجة في الفترة المعنية ، وللاستمداد الشخصي عند كل فنان .

لقد أسست في القاهرة ، عام ١٩٠٨ ، أكاديمية للفنون الجميلة ، بفضل معونة ورعاية الامير يوسف كمال . [٣١] ولذلك الجيل الذي أصبح قديماً ، كان ينتمي فنانون مثل محمود سعيد باشا الذي كرس الدكتور هنري القيم مؤلفاً موحياً له ويبدو محمود سعيد في جوهره امرءاً يترجم العالم ويعكسه ، ولكنه أيضاً يسعى لتحويله واحداث ما يشبه الطفرة عبره ، انه واقعي يحاول ان يتجاوز نفسه . ويكتب القيم : « الحدائق هي هنالك . وقد تعرضت زرقة السماء لكل انواع العنف وهدأة الضحى هي تعب ، واذا كان الرسام يرقد في غرفته بالطابق الاول (بالدور الاول) فان أحلامه تحمله الى المنظر القديم ، نساء واقفات ، وصدورهن مشرئبة في الريح يتلعن كبرياء واعتزازاً بكونهن مرضعات هذه الارض » [٣٢]

---

٣١) حول تاريخ هذه الحركة الفنية ، انظر ، الدكتور أرشو Dr Arschot « الرسامون والنحاتون في مصر المعاصرة » بروكسيل ١٩٥١ ، وايمي عازار : « النساء المصريات العاملات في الرسم » القاهرة ١٩٥٣ .

٣٢) هنري القيم : لوحة حول « محمود سعيد »

هؤلاء الفنانون الذين شقوا الطريق ، أو بالأحرى هـؤلاء الفنانون الذين وصلوا اليوم الى عمر النضج ؛ قـــد تبعهم آخرون ، وظهرت مدارس كثيرة ، دامت مدات متفاوتة في الطول . وفريق الفن المستقبلي ، الذي تأسس عـــام ١٩٣٩ ، بفضل مبادرة جورج حنين ، لم يبدُ عليه انـــه أحرز انتصارات على الصعيد التشكيلي . « لم يظهر لنا ان السريالية قد فتحت للفنانين المصريـين ، في ميدان الفن التشكيلي، الدرب الى آفاق جديدة . والفنانون الذين تركوا أنفسهم ينخدعون باغراءات هذه المدرسة ، لم ينضموا اليها بصورة سطحية ، فان في باطنهم عقداً دقيقة لا تستطيع السريالية ان تمتصها مثلما استطاعت في الغرب ، ووجدت لها الحلول » . ولكن هنا ، انا أسجل انكاري لهـــذا القول : ان للباطن الشرقي عقده الدقيقة . ولكن العــــالم المتسامي او دون العقلي ، الذي تستحضره السريالية عندنا له أيضاً عقده ! واذا كان الاختيار السريالي لا يبدو عليه حتى الآن ، انه اثار في الشرق نجاحات في الفن التشكيلي ، فـــان سبب ذلك لا يعود الى عجز في الالهام ، ولكن الى نقص في مرتكزه المـــادي . الصورة والنتوء . فالشرق لم يحقق حتى الآن ثورته حول حقوق الشيء ، ان جاز لنا القول . ففي الوقت الحاضر ، هو يهدف اليها بالاحرى بواسطة الانتاج الصناعي ، أكثر مما يهدف بواسطة الابداع الفني . انـه يهرع الى الجانب الذي يتطلبُ عجلة أكثر .

صحيح ان هذا التأخير ، هو يعوض عنه بواسطة امتياز ، انـه امتياز فن الزخرف العربي الذي عرف تيوفيل جوتييه الطيبُ ان يتبين فيه ملحقاً شرقياً للرومانسية ، ففن الزخرف المصنوع من الكلمات والخطوط ، أي من « المادة السماوية » لو كان للسماء مـــادة ، كان يقود بصورة جد طبيعية الى التقصيات التجريدية ، وهذه الاخيرة لا تنفي لعبة الألوان كما يقول الرسام العراقي جميل حمودي ، وهي لا تنفيها بصورة خاصة في نظر الشرقي الذي لم يُفرق أبـداً بين

الشكل واللحم . ويدعم حمودي رأيه بالمثل ، انه يعيد تكوين زخرف عربي ذي خطوط عريضة متواجهة ، وهو يسلوح بالمعنى الحرفي تحت متاهات من الخطوط وهوامش من الالوان : ولكن ذلك ليس الا ذريعة ونتيجة . فان دلالة الاثر تذهب الى ابعد . انه تجديد في نطاق الامانة [٣٣] . لان الشرق بتقاليده القائمة على فن الخط الجميل ،يستطيع ان يضع الفنانين بمنجى من المحاورات العسيرة التي تسيطر عندنا في تجربة تشكيلية بكاملها ، بين مادة مفرطة في طواعيتها للتشكل ، وعالم الدلالات .

وعلى نقيض جميل حمودي تقوم جهود القبطي رمسيس ويصا واصف [٣٤] ، الذي اشرت اليه في عدة مواضع ، فقد أسس في ضواحي القاهرة ، مشغلاً للنسيج حيث لا يستخدم غير أطفال ، وعبر هذا الفن العفوي ، هو يدعونا الى الطبيعة ، وهو لا يستخدم اي نموذج . واحيانا كثيرة تبدو كائنات حية فجأة

٣٣) يقتضي أيضاً عرض الخطوط العامة لتاريخ المدرسة العراقية : انظر جميل حمودي : مجلة « الفنون » « Arts » في ٢٨ نيسان ١٩٥٠ ، فقد عقب تأثير فناني المنمنمات الاتراك ، تأثير « عودة » الطلاب (المدرسة الباريسية ، التعليم الانجليزي ، وحتى المدرسة الانطباعية البولونية) وفيكتور حكيم ، في المجلة اللبنانية (لاريفودي ليبان) الصادرة بالفرنسية . بيروت – ٩ تشرين ثاني ١٩٥٧ يصف بصورة تلفت الانتباه بعضاً من هذه التطورات التي لا تنتصر فقط على الرسم وانما تتناول أيضاً النحت . ومعرض الفن العراقي في قصر الاونيسكو في بيروت (انظر جريدة « الاوريان » ٨ تشرين الثاني ١٩٥٧) قد اثار الاعجاب . بصورة خاصة ازاء تمثال الشرجوبة . من صنع الفنان خالد الرحال .

٣٤) معروضة في « تجديد » كراس مصور : « الكلية » الجزء التاسع والعشرون الرقم ٢ وفي مقال « حول الفن القبطي » ، في مجلة « L'art Sacré » سبتمبر ١٩٥٦ .
انظر الرسم على الصفحتين ٢٢٨ و ٢٢٩

تحت أنامل هؤلاء الاطفال ، والمعرض الذي فتح في السنة الماضية ، في زوريخ، والذي اشتمل على أجمل ما صنع من سجاجيد في هذا المشغل قد أظهر ، في ألوان ساذجة ، طواويس وطيور بط تغطس في الماء ، وديكاً وسط زهور والطيور حارسة الابقار ، وهدهداً وغراباً ، وطيوراً وسط شجيرات ، وكان اهم أثر يمثل جنة عدن ، فنرى حيوانات تضطرب داخل دغل يمكن حسبانه سابقــاً للأشجار وتتحلق حول بقعة قرمزية : جسد وَعلـَين ، والصبي القبطي اليافـع الذي نسج هذا المنظر غرق في النيل* بعد ذلك بقليل.

وفي نيسان ١٩٥٩ ، حول معرض الرسام « ندى »جمع فريق صغير من ابناء الانتلجنسيا الرفيعة بعضاً من وجهات النظر الاكثر إثارة حول الحوار القائم في الشرق الحديث ،وقد جمعت هذه الآراء في كراس : « المجهول أيضاً » .فلنصغ الى ندى يتحدث عن نفسه .

« ان فناً خالياً من السريالية ليس من الفن . انا اعني ان التعبير العفوي ، من اي نوع كان ، والى اي اتجـاه انتمى ، لا يستطيـع ان يتجرد من جوهر الفنان بصفته عملاً صادقاً وصريحاً . وهذه الرابطة مع الجوهر ، هي الى حد ما ،رابطة مع العقل الباطن .

« فهناك نوعان من التجريد ، أحدهما يستخدم أشكالاً مستقاة من حقيقتنا اليومية بينما يقدم النوع الآخر أشكالا لا توجد الا في الحساسية الداخلية للفنان ، التي تعطي شكلاً متحرراً ، وفي الحاضر ، أنا أرتبط بالاتجاه الأول ، ولكنني أتقبل الشكل الثاني ، رغم أنني أحس به غير قابل للتحقيق .

« والتجريد المطلق هو القمة التي يريد الفن التجريدي ادراكها عندمـــا

---

* انظر الرسم على الصفحتين ٣٤٤ و ٣٤٥

يتحرر من الأشكال المـادية ، الهندسية والأخرى ، فكل فن تشكيلي ينسخ الواقع اليومي يفشل على الصعيد الخيالي [٣٥] » .

ففي نظر ندى وبعض فنانين آخرين ، يستعيد الشرق على هذا الوجه ، إصالة عاكسها ، زمناً طويلاً ، تعلق بتقاليد بالية وتقليد سطحي للغرب .

الموسيقى والفعل

ولنتقبل منه هذه البشائر . ولكن ، علينا أن نقولها ، فهذه المحاورات لا تهم ، في الشرق غير نخبة لها من القيمة على قدر ما هي قليلة ، أما الظاهرة الكبيرة ، التي تثير كما رأينا ، المنازعات بين الجهابذة المتضلعين مثلما تثير عواطف الجماهير ، فهي ظاهرة تقدم موسيقي يريد لنفسه أن يكون هو ذاته مرتبطاً بالتاريخ . ولا شك في ان ارتباطاً من هـذا النوع يتحدى التفسيرات الموجزة ويتأكد في حوار بسيكولوجي أكثر مما يتأكد في تتابع المراحل الزمنية ، ولكن هذا لا يمنع ان تخرج منه تأثيرات وأسباب ايجابية .

فان صدمة المدينة الصناعية قد أحدثت في الشرق فيضاً من الأغاني ؛ وقـد تحولت الموسيقى من كونها تلذذاً شهوانياً ، فأصبحت تمرساً عاطفياً . فاكتسبت بهذا الفعل ، وبفضل الاذاعة خاصة مغزى جماعياً ضخماً ، وأكيد ان خطوتهـا

٣٥) مقتطفات من كاتالوج نشر بمناسبة هذه المظاهرة للانتلجنسيا المصرية الرفيعة التي كانت فيها لمبادرة جورج حنين الاثر الحاسم ، وبما انه قد يكون من الحافل بالدروس ان يقارن بين هذا المعرض ومعرض نظم في الوقت ذاته تقريباً في دمشق ، حـــول المعلم الحرفي ابو سليمان الخياط الذي حقق زخرفة البرلمان السوري والذي يعمل كوريث أمين للاسلوب التزييني في عهد الايوبيين ، وفي هذه اللحظة في دمشق ايضاً كان وزير الثقافة ينظم اول معرض للربيـع للرسم والنحت الذي كان يسيطر فيه الفن التصويري للواقع . وقد قابلت ابن ابـــو سليمان الذي يعمل وفقاً لاسلوب والده ذاته ، وذلك في القاعات الجديدة للمتحف الدمشقي . « تشرين الثاني ١٩٥٩ »

لدى الجماهير تغلب عادة على نوعيتها ، وان محاورات عديدة تدل على انها منذ الحرب العالمية الأخيرة ، وبصورة متزايدة ، تحمل قيمة كونها تعويضاً اكثر من كونها شهادة ، وبالنسبة للكثيرين من الشرقيين ، هي تبدو متأخرة الآن عن الانواع الاخرى عن الادب مثلاً ، وكثيرون ينكرون عليها تكرارهـا الكسول ، المتراخي ، وشهوانيتها السهلة ، وقد بدأ الاشتراكيون باتهامها بالبورجوازية او بالرجعية ، وهي اذ تشعر بالانبهار امام مجرى التاريخ ، وباعتزازها عن حق ، بمساهمتها في التطورات الداخلية التي حدثت عند جيل كامل من العرب ، تتعرض بدورها وفي حالتها الحاضرة ، لنفي التاريخ . ولقد ولدت بنموهـا الضرورة ، لاستبدالها هي ذاتها بأشكال اكثر ملاءمـة . ومطابقة ، ومع ذلك اذا كانت الموسيقى الغربية رغم انتصارات حقيقية لها قيمتها ، لم تحلّ مكانها حتى الان ، فذلك لانها لا تستجيب لنداء الارواح نفسه .

ان السلّم الموسيقي عندنا لا ينزل الى ادنى من نصف الصوت ، من نصف النغمة . ان السلم الصوتي يرتقي بواسطة درجات يعتبرهـــا الشرقي كثيرة الفجاجة ، وبهذه المجموعة من التضاريس ، يعضُّ هذا السلم على العـــالم . وان الاكتشافات الايقاعية التي قام بها موسيقيونا الكبار قد انتهت بأن جعلت من هذا السلم اداة خارقة للسيطرة ليس فقط على الحلم والرؤيا وانما ايضاً على الواقع ، بحيث يؤكد واحدهما الاخر ويثبت اهليته وقيمته ، فنتج عن ذلك انـه يبدو شيئاً خارجاً بالنسبة للشرقي . وهو يخيّب امله بمنطقه المضلع الزوايـــا وبنهمه للمحسوس ، اما موسيقاه هو ، فهي عاطفية كلها . ففي قلب « الطرب » * تسيطر الازدواجية الفرح او الأسى ، اثارة الحواس وحرمان اكثر حسية ايضاً : هذا الذي كان يحمله « الموال » * القديم ، والذي لا يزال يحمله رغم الغلو في الحكاية او في الانسياق العاطفي غناء ام كلثوم ، انها موسيقى ذات « لزوجة » خانقة ، إن جاز لي القول ، معطيا لهذه الكلمة معناها السارتري (نسبة الى جـــان بول

سارتر) فعليه ، انظر كيف تثير هذه الموسيقى انفعال هـــذا المستمع العربي الذي تخضعه كل ثقافته لمقولات « الحلال » * و « الحرام » * المتعاكسة لأنتيناز خير وشر متعاكسين ، ومتواجهين على طرفي نقيض .

اذ ان الانفعال الموسيقي يحرك بحق ارجاء في الكائن تتركها الاخلاقية في الظل ، وهكذا في مجال الجنسية الفسيح ، كل ما يتجاوز النزاع بين المشروع واللامشروع : هذا الجانب الواقع بين الضوء والعتمة من المتعة التي تبددهـــا تحديدات الكلام والاخلاق التقليدية ، ان موسيقى من هذا النوع تدغدغ عالما داخليا يزداد سرية بمقدار ما يلزم كلّ فرد ان يصونه من حدود الكلمات ، وفي الوقت ذاته من تصنيفات علماء الدين . وهؤلاء الاخيرون لا ينفون سلطان ندائها وجاذبيتها ؛ والدليل هو تصديهم لها . انهم يرهبونها بمقدار ما تثيره فيهم من انفعال ، اي بمقدار كبير ، انهم يبعدونها قـــدر طاقتهم الى خارج حقل الضمير الاخلاقي ، وبعملهم هذا هم يقيمون سياجاً بـــين الانسان الداخلي وامتداداته ، بين وجوده الحميم ونشاطه . فالموسيقى والكلمة يقومان امتداداً لبعضهما البعض ، ان صح لنا القول ، في الجـــانب والآخر من شريعتهما القاهرة .

وعلى هذا يسعى العربي لان يقبض على العالم بواسطة القول ، بينما هـــو يتلقى كينونته في أعمق أغوار غنائه ، واذا لم نشأ ان نحدث تحويراً في هـــذا الوضع المتوازي بالذهاب الى حد الغلو في رسمه ، لوجدنا في التطور المعـاصر للفصاحة السياسية من جـانب ، وللموسيقى العاطفية من جـانب آخر ، العمليتين الكبيرتين من ردود الفعل عند هذا الانسان ازاء تاريخه الجديد : احداهمـــا داخلية وثانيتهما خارجية . انما يثير هذا التاريخ حركة اعتراض على كل شيء

فبالنسبة للكلمة ، هو ينكر عليها عدم قدرتها على الفعل ، وبالنسبة للموسيقى هو ينكر عدم ملاءمتها للحاجات التي اصبحت ملموسة منذ الآن، وبالنسبة للاخلاقية هو ينكر مثاليتها ، ووراء المحاكمة تطرح للنظر والمناقشة الابنية الاجتماعية كلها . ومع هذه الابنية تطرح الملامة على ما كانت تحمله ، حتى الآن لهؤلاء القوم من حماية ومباهج .

الفصل الثاني عشر

قيمة الجانب السياسي

ان ما يثير انتباه الاجنبي عند العرب اليوم ، وما يحتل اكثر ما يكون من المكانة في اقوالهم وكتاباتهم ، هو عودتهم لأخذ مقعدهم في الحياة الدولية ، وهذه العودة التي لا تهم بحق العالم النفسي ، والمؤرخ مثلما تهم رجل السياسة ، تتسارع في هذه الايام ، فقد قطعت مسافة اقل بين انصاف المستعمرين قبل ١٩١٤ الى أصحاب المطالب القومية في اعوام ١٩٢٠ ، وبين هؤلاء وثوار ١٩٢٥ من المسافة التي قطعت بين الذين انعتقوا في ١٩٤٥ ومواطني ١٩٦٠ وبما سوف يقطع دون شك انطلاقاً من هؤلاء الاخيرين في السير نحو عرب المستقبل ، فعلى كل الجانب الجنوبي من البحر المتوسط ، يغطي استقلال يزداد جذرية شيئاً فشيئاً ، ولكنه اضحى اليوم شيئاً بناء ، بصورة واهنة ، واحيانا مستعداً للتعاون ، يغطي هذا الاستقلال منطقة تمتد من المغرب الى العراق باستثناء الجزائر وحدها ، منطقة كانت لثلث قرن خلا فقط تابعة او خاضعة (للاحتلال الاجنبي) . فعليه يصبح مناقضا للمنطق الظاهر ان تهمل في دراسة حول صيرورة

هذه المجتمعات الحركة السياسية التي تبشر بهـذه الصيرورة او تدعمها تبعا للحالات المختلفة ، . . . هذا اذا لم تعمل على احداث انعطاف فيها ، انما هذا الامر يثير امام التحليل مشاكل علمية ونظرية [1]

السياسة العربية والتقدم الاجتماعي

أولا ، نجد مشكلة الاحداث اليومية وصخبها ، وان ندرة الوثائق التي يمكن بلوغها وصعوبة أعطاء حكم هادىء واحتمالات مستقبل تبدو هنا أكثر من اي مكان آخر مرهونة بتعقل الناس أو بالاحرى ،

....

١) هذا الفصل قد دمج عدداً من المقاطع المأخوذة من دراستي المنشوره في « الانسيكلوبيديا الفرنسية » الجزء الحادي عشر، ١٩٥٧ ، تحت عنوان : « عالم العرب السياسي » وحيث يمكن الاهتداء الى عناصر من المراجع « التي حضرت بمونة ن . توميش N. Tomiche » استغنينا عن ذكرها في هذا الفصل الذي لا يحمل الا صفة التفسير. انما يقتضيني ان اذكر بين المنشورات الأخيرة التي استطاعت ان تحمل اليّ اما اطاراً اجمالياً ، واما وقائع او تخريجات ومقابلات موحية : الاجزاء الاخيرة من مجموعة Les Cahiers de l'orient Contemporain التي يحركها ن ، توميش . و و .لاكور W . Laqueur في مقالته : « الشيوعيـة والقومية في الشرق الاوسط » في مجلة « صحيفة التاريخ الحديث » « جورنال أوف مـودرن هيستوري » عدد سبتمبر ١٩٥٧ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، و ب . رونـدو P. Rondot في مؤلفه : الاسلام والمسلمون اليوم ، ومصير الشرق الادنى » . و ا . حوراني A . Horani ، في مقاله: الشرق الاوسط وازمة السويس عام ١٩٥٦ » في «ميدل ايست افيرز Middle East Affairs« اوكسفورد ١٩٥٨ ، ص ٩ وما يلي ، وقسطنطين زريق : « أي غد ؟ » بـيروت ١٩٥٨ ، وحسن صعب في كتابه : « الوعي العقائدي » بيروت ١٩٥٩ الذي يستعمل عن صواب ، التعبير الصيرورة العربية ص ٦٣ وما يـلي . ومحاضر موررو بيرجر في « ورلد بوليتيكس » تموز ١٩٥٨ ، تعليقاً على عدة اثار حديثة صدرت باللغة الانجليزية .

بلا تعقلهم وبعمليات التنافس الداخلية والخارجية ، وبأخطار العنف أو دقـــة المناورات ونعومتها ، كل ذلك يمنع في هذا الميدان امكانيات القاء تقديرات تظل عرضة لتكذيبات المستقبل . فالتاريخ ذو الوتـــيرات الرحبة والأوتار الطويلة ، هو الذي يهم وحده ، العالم الاجتماعي (٢) . فهو يوفق الى حد معـين بين التذبذب الفوضوي للاحداث ومنطق الأعماق . وان موضوعه العام الذي هو منذ نصف قرن ، وبصورة تتأكد كل يـــوم بقوة أكبر ، تحرير الشعوب المستعمرة ، يتطابق مع موضوع تحرير الانسان شرط ان ينظر اليه في مجموعة كبيرة وعلى مراحل طويلة ، مع موضوع تحرير الانسان بصفته مادة سياسية ، هذا أكيد ولكن أيضاً بصفته انساناً . وهذا هو السبب الذي يحملنا على ان نتعاون في ذلك . ولكن التوافق لا يتم دائماً في تفاصيل الازمان والاماكن.

فالحركة النقابية ، وتحرير المرأة ، رغم تلاقيهما مع حركة التحرير القومي ، تصطدمان احياناً بالحركة القومية . فان حزباً يرتكز محور نشاطه على المطالب الاجتماعية ، مثل الحزب الشيوعي ، يتبع ، منذ جيل ، خطوط سير تجعله طوراً في تحالف وطوراً في تضاد مع قادة النضال . والخلاف يذهب ، احياناً ، كما نعلم ، الى حد النزاع العلني . وبالمقابل ، اذا كان بالوسع ، في الفترة التي سبقت مباشرة ، توجيه التهمة للجمعيات الدينية ، وبصورة عامة للفوارق الدينية بتضامنها مع السلطات القائمة ، التي

---

٢) ف . بروديل F . Broudel في بحثه « التاريخ والعلوم الاجتماعية ، المدة الطويلة » في مجلة « حوليات Annales « S.E . C العام الثالث عشر ، رقم ٤ - اوكتوبر - ديسمبر ١٩٥٨ ص ٧٢٥ .

كانت تابعة ، حينذاك ، للاجنبي ،بصورة تتفاوت في شدة الصلة ،يجب الاعتراف ان الدين الاسلامي عند بورجوازيي المدن ، وتزمت الداعين للاصلاح الديني ، قد عرفا كيف ينحازان الى صفوف المعارضة . فقد انتهى الدين الاسلامي الى ان يرمز ، بواسطة اللغة ، الى ما « يتميز » به العرب ، أي الى « ما هم عليه » ، من وجوه كثيرة ، وفي وقت كانوا فيه معارضين خاصة للاستعمار الامبريالي ،ولكن على العكس ، في جيل ما بين الحربين ، كانت مواقف اللاايمان تعلن احياناً كثيرة انفصال النشء الجديد وقطيعته مع تبعيـة لم يعرف المؤمنون القدامى كيف يتفادونها .

وان على دراسة نمطية للمقاومة ان تحدد خصائص ردود الفعل الاولى عنـد الجهاز الاسلامي ازاء تمركز السلطات الاجنبية . ان هذه الردود قد توحدت، حينذاك ، وفي كل مكان تقريباً ، مع التيار المحافظ ، الديني والاجتماعي :بصورة الجهاد المقدس وعصيان القبائل، وتمرد أهل المدن وان عمليات الاسهام الحاسمة، المجلوبة والمتواضعة رغم ذلك ، التي قدمتها المرحـــلة الاولى من التبعية : الامن المدني ، والاصلاح الاداري ، واستصلاح الموارد ، وتوسع الثقافة الصناعيـــة واللغة الاوربية ، كل ذلك يصيب هذه الاشكال الأولية بصفة البقاء القليـــل الأمد ، فمنذ ذلك الحين ، من تمثل هذه العمليات الاسهامية المجلوبة ، والجديدة، الذي جرى بوعي لدى الانتليجنسيا ،وبصورة غير مباشرة عند الطبقات الاخرى، تولدت القيادات التي كان لها الدور الفعـال : زغلول ورفاقه الوفديون في مصر ، ورسل الكتلة في دمشق وحلب الخ .. والتعابير التي تتسمى بها واحدتان من اشهر هذه الحركات : الكتلة السورية والوفد المصري تدل على انه لم يكن الامر يتعلق ، في ذلك الحين ، إلا بتجمعات دون عقيـدة محددة . ان كل فترة القومية المناضلة تحمل قيمتها وتصلح بالضبط خاصة بهذا اللاوضوح .

ومع ذلك ، فان مقاومة من هذا النوع ، اذ تحمل ميسم النضال الذي تخوضه ، وحتى ميسم الانجذاب والنفور ، في آن واحد ، على كل حال ، ميسم المثل الذي يوحي به الآخرون . ان مقاومـــة من هذا النوع تخضع ، طبعاً ، لضرورات تكتيكها مثلما تخضع لأخطار القمع . وهي لا تبهر بالتحليل ، مثلها مثل القمع ،[٣] ومن هنا كان عدم الانتظام في ردود فعلها تجاه الظاهرة الاجتماعية الصافيـة التي تشكل في نظرنا ، الشيء الذي يهم ، ولكنه لا يظهر كذلك إلا بعد وقوعه . وعدم الانتظام هذا يستطيع الذهاب الى حد تغيير الآية الدالة . وبالرغم من ان الحرية واحدة فان وحدتها تظل احياناً كثيرة وقتاً طويلاً قبـــل ان تدرك الأفهام ، ووقتاً أطول قبل ان تتحقق . وفي اوربا ، يضعون اليوم ،وبصورة كلاسيكية ، الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية على نقيض الديموقراطيـــة السياسية . وعليه يجمع تيار القومية العربية الى الكثير من نواقص اخرى تتميز بها عادة حالات الطفولة ، عمليات تردد محيرة ازاء فئات لا يتبينها عن قرب كاف لانها تخرج عن نطاق الحدث الى مسافة بعيدة جداً .

ويمكن تفسير الكثير من هذه الملامح بالوتيرة المتعجلة والتي لا تنفك تتسارع في سير هذه القومية . والتبعية تعطي عنهـا تفسيراً اوضح بمقدار ما تفرض على التصرفات والسلوك ، حتى بعد تجاوز عتبة الاستقلال ، التردد او الغلو . أكيد ان عرب الشرق الادنى لم يعد يتحكم في بلدانهم « مندوبون سامون » أجانب ، ولكن هؤلاء العرب لا يزالون ، في اكثر الاحيـان ، يحدّدون ، في نظر بعض الاجانب ، وليس بين أقلهم شأناً ، على أنهم قطع الغيار البشرية لآبار البترول !

---

٣) التأخير المتعلق بتحليل العالم العربي ، تحليلاً اجتماعياً ، من الاشياء التي تلفت الانتبـــاه كذلك ، أية كانت اسبابه ، ولكن رد فعل خصب بدأ يتضح ، ويرتسم .



« جنات عدن » سجادة جدارية محترف رمسيس ويصا واصف.

وعلى الاقل كموضوع التنافس بين الشرق والغرب . وطالما الأمر هكذا ،يظل تاريخ العرب خارجاً عن محوره المركزي ، وشخصيتهم التي هي موضع تجاهل ، تبحث عن تأكيدها في نوع من الثأر الغيبي (الميتافيزيقي) اكثر مما في العمل الايجابي .ومن هنا كان بهاء ما يسمى بحركتهم القومية وتعاساتها ، هذه الحركة القومية التي تتضخم فيما بين الحربين وتبلغ ذروتها بعد الحرب الاخيرة وتقودهم ، من حالات رضى جرى تأجيلها الى حالات فشل مؤلمة ، ومن خيبات أمكن التغلب عليها الى انتصارات ناقصة ، تقودهم ، في نهاية المطاف الى الانعتاق السياسي شبه الكامل . ولكن هذه الحركة القومية مهددة بان تعجز عن تحمل مهام مسؤوليتها ، لفقدان التجديد في طرق عملها ، ولانعدام العمق في تحليلاتها .

ونرى بذلك كل ما يستطيع الموضوعان الكبيران اللذان يرتكز عليهما هذا البحث ان يحتفظا به من حتمية الحدوث الوشيك في خضم الاحداث الأكثر إثارة لهزة الانفعال . وقد حاولت ان اتابع في هذين الموضوعين ، وعلى مستويات عديدة ، حوار العرب بين الرمز والصيغة ، بين الكوني والتاريخ . ولكننا نرى ايضاً كم يؤثر تطور الاطار السياسي ، السطحي ومغذي الالتباسات على واقع الاعماق ويجدده. ومن هنا كان هذا القدر من اخطار أخطاء تهدد الدراسة كما تهدد الفعل : فكل شيء يوجد في الظاهرة العربية . فتميز الأقباط ليس أقل وضوحاً من تميز الاكراد ، انما وجه التعقيد في الموقف، هو ان الاقباط يوافقون على عملية تعميم تنسف كل الحواجز ، في بعض الاحيان . هذا الذي تعامت عنه سياستنا ايام الانتداب على المشرق . وان تقديراً سليماً ، وان كان مشبوهاً للتيار الوحدوي العربي قد أعطى دون شك السياسة البريطانية حتى ما بعد ١٩٤٥ تفوقاً على سياستنا . ولكن هذا التفوق قد استبعد بسبب نمو عوامل سبق

للسياسة البريطانية ان لعبت اوراقها ، « فالثورة في الصحراء » قد اثارت حمية الهاشميين ، ثم أرهقتهم عندما اصطدمت بثورات اخرى آتية من أعماق أبعد . فالزعماء تصيبهم الشيخوخة كما تصيب الافكار لأن المنطق يُفل ولأن الاوضاع تتغير

وفي هذه الاوضاع ، تهم ، وحدها ، ليس العناصر والتفاصيل ، وانما الكليات والاتجاهات . وحياة كل مجموعة تُصنع من عمليات قياس وموازنة داخلية ، ومن دورة لانهائية بين الكائنات والاشياء . وبما انها تستعصي على التوضيح العلمي ، فاننا ندرك انها تظل بعيدة عن فهم الرجل السياسي . او بالأحرى ، هذا الاخير ليس سياسياً الا بقدر ما يحس بها ، بالغريزة ، ويعبر عنها . ولهذا السبب طالب الشرق ، حتى اليوم ، زعماءه · بان يختصروا في شخصيتهم وان يحملوا في اعمالهم دلالات الحوار الذي يضمر الواقع الحي لهذا الشرق . وهذا الحوار هو الذي يهم ، ايضاً ، الدراسة الحالية .

التشكيلات الضيقة

ان كثيرا من المشاكل يتضح ،
وكثيراً من المعضلات الزائفة ينهار

حالما نلاحق هذا الواقع الاجتماعي في ألطف تصاميمه وأدقها ، تاركين صعيد المجموعات الكبيرة . فالعالم العربي يضم ، على أمدائه الشاسعة ، المتطورة بصورة متفاوتة ، مجموعة نماذج من أشكال ، وفي المجتمعات نفسها ، ولنقلها دون خوف ، ظاهرات ذات اعماق وأعمار مختلفة . وهو ، في اضطرابه بأحداث مزلزلة لم تؤثر على جميع ارجائه بالصرامة والشدة نفسها ، يكتشف ليس فقط سلالم واسعة من الانماط ، وانما احياناً كثيرة جميع مراحل تطور الانماط نفسها : فهو لا يبدو متحفاً فقط ، وانما مختبراً ايضاً .

بين الأشكال الموجزة من التعاون السياسي ، يعرف الشكل الذي تغذيه المهابات الشخصية ، هنا ،اتساعاً استثنائياً . اكيد ،ان ذلك لا يعني ان« شرعية » الزعيم خاصة بالبلاد الاسلامية بل على العكس ، في هذه البلدان ينحصر عمل سيد المنابر ، في قواعد ضيقة ، تمليها التقاليد . وان احترام القيم القديمة ، والتحديدات القديمة ، متقدم فيها بمقدار ما يريد المجتمع ذاته محافظاً على التقاليد . ولكن أية قاعدة ، وأي استقرار لا يمكن تصوره في الشرق إلا في داخل نوع من «توازن بين سوائل » حيث تعلّق ، هنا وهنـــاك ، قوة شخصية ونجاح مغامرة إبهام الأشياء لفترة من الزمن . وهذا الشيء الذي هو صحيح ايضاً على نطاق القبيلة ، هو احياناً صحيح على نطاق الامم . ومما لا شك فيه ان هـــذه العلاقات تعبر عن اوضاع ، وتعكس قوى ، بل ربما هي لا تستقي خطورتها إلا من هـــذا الامر . ولكن هذا لا يمنع أن ايحاءات هذه العلاقات ، او اغراءاتها تعرف في هذه البلدان اهمية لا تعرفها في البلدان الاخرى . واكثر الاحيان ليست السياسة فيها إلا نوعاً ممـا يسمى نعومة المداورات والمناورات في البلدان الاخرى . وهذا الامر هو صحيح لدرجة ان الاختصاصيين الاجانب يساقون باستمرار الى القيام بعملية تشويه خطرة .فهم لم يعودوا يرون أي شيء إلا من زاوية العلاقات الانسانية ، او كما كنا نقول ، من زاوية ، السياسة « المحلية » او سياسة اهـل البلاد الاصليين . فتصرف « الوجهـــاء » الذي تحملت فرنسا اللوم بسببه فيما لا يقدر ، وانتخاب اناس معينين مسبقاً ، الذي تحملت بريطانيا بسببه ما لا يقدر من الملامة ، يشكلان النواة والخميرة لسلوك العرب أنفسهم . وبالرغم من ان كل هذا يغرق في عتمة ورومانسية ، يتحتم عدم الذهاب الى بعيـد ، حتى في ايامنـا هذه ، لنجد الامثلة على طرق سميت « انسانية ، وبالغة الانسانية » ، لا يثبطها ،

التنبيط الكافي ، عدم ملاءمتها للزمن الحاضر (٤).

وفي مواجهة هذه الخاصة السائلة تقيم الأسرة الشرقية استقرار عاداتها. ويحشد العملاء جماهير ، احياناً بالغة القوة ، حول بطاركة او زعماء سياسيين او على الأقل حول سماسرة انتخابات . وقوة هذه التكتلات المرهونة بالاوضاع قد سيطرت زمناً طويلاً على الحياة البرلمانية في العراق . وفي الفترة الاخيرة ، قامت ، في سوريا ، حملة لفضحها . وفي لبنان ، ايقظت حوادث ١٩٥٨ ضراوة هذه القوة التي كانت خامدة . فقد تشابك أثرها مع تأثير الخصائص الذاتية لمختلف المناطق والأقضية ، ومع فعل المنافسات الطائفية . وفي مصر سجلت فترات عديدة تراجع (أو تقلص) هذه الوسائل القديمة للعمل ، فترات تخللتها نكسات شتى . فقد خلف « ابناء الذوات »* الحكام الاتراك والشركس . وابتداء من ١٩٢٣ ، فتح حزب الوفد المجال للخدمة أمام ابناء فلاحين ، ولكن اكثر الاحيان ، كان المسيطرون على مقاليد الحكم لا يزالون يخرجون من صفوف الابناء البارزين لطبقة اصحاب المهن الحرة ، والذين كان كل شيء يفصلهم عن الجماهير . وزمناً طويلاً بعد زغلول ، ظل زعيم مثل اسماعيل صدقي في الحكم مدة لا تقل عن مجموع الفترات التي قضتها في الحكم الوزارات الوفدية الاولى . ومعلوم ان هذا الزعيم قد استطاع ان يحكم فقط بفضل حنكته وأواصر النسب والتحالف التي تربطه بالطبقة الاريستقراطية . والديكتاتورية العسكرية قد قلبت هذه الاوضاع ، ورفعت الى الحكم أناساً من منشأ اكثر تواضعاً : انهم مصريون حقيقيون ، بلا مراء ، ومنبثقون من اوساط ريفية . ولكن هنا

---

٤) فهذه هي التهم التي توجه بالفعل ، الى كل الزعماء المخلوعين ، دون استثناء : الشيشكلي في سوريا ، والنحاس في مصر وخاصة نوري السعيد في العراق . ولكن دون التنويه بهذه المناقشات ، فان مما له دلالته هو ان فترة ما بعد الحرب الثانية قد شهدت نمو بل ونجاح التوسع البترولي او « الغزو » البريطاني ، انطلاقاً من عدن ، نجاحاً متناقضاً للمنطق الظاهر ، رغم عدم ملاءمة هذا التوسع مع ظروف الزمن الحاضر ، في الشرق الاوسط « انسانيون ، وانسانيون اكثر من اللازم ! » .

ايضاً لا يزال باقيـــاً بعض الشيء من النظام القديم المرتكز على سلطة كبير العشيرة ، وقد بقي مع تنظيم القيادات القروية ، الذي اصبح موضع جدل متزايد. والقرية المصرية لا تزال تحتفـــظ ، ليس فقط باحزابها المتناحرة ، وانما ايضاً بالهيئات الاساسية لهذه الاحزاب ، التي يعود أصلهـــا الى أزمان سحيقة : مثلاً « الدوار »* او منزل الشرف او البيت الكبير (المضافة او بيت الضيافة) وهو مركز حياة تختلط فيها معاني السماحة والكرم مع معاني الاستبداد والتعسف . أكيد ان هذه الابنية المتراتبة تسير نحو التدهور والانحطاط ، وان « العمدة »* المصري لا يحمل سمعة أفضل من سمعة « القايد »* الجزائري . ولكن أليس من المستحسن معارضة « العمدة » مواجهة .

والمدهش ليس في كون مثل هذه العوامل لا تزال تفعل فعلها (وفي أي بلد هي تخلو من الاثر) وانما في كونها تفعل في ظروف من التعقيد النسبي ومن التقدم الثقافي ، دون ان تتجرد من اسلوبها العشائري القديم . ففي سوريا ، مثلاً ، تعود سلطة حزب مثل « حزب الشعب » باكثريتها الى نفوذ عائلة الأتاسي الذي يهيمن على مدينـة حمص . ولكن ، على العكس يتقلص هـــذا الحزب امام الخصائص الذاتية المنافسة في مدينـــة حماه . ولبنان ، حين ينظر اليه من خارج يعرض حيـــاة سياسية نيّرة ومعقدة : وهي تجد احياناً مشقة في التغلب على مشاركة من نمط جد قديم : هي « الطائفية » التي يشجبها الجميع والتي لا يتخلى عنها إلا الأقلون . ويلزمنا القول اننا نرى تاريخ العائلات ، والتاريخ المحلي على العموم معروفين ، في لبنان أفضـل معرفة . ونحن لا نملك في الحقبة الحديثة ، وفي أي بلد عربي ، ربما باستثناء المغرب ، دراسات احادية الموضوع حول عائلة او منطقة صغيرة مثل الدراسات حول عائلتي الشدياق والمعلوف مثلاً . ولكن في أي موضع آخر نحن ، ايضاً ، لا نلاحظ حياة دستورية مرتبطة ، على مثـل هذا الوثوق ، ومثل هذا الانفتاح ، بالتوازن بين المذاهب الدينية وبين الفئات

العشائرية . وبالطبع ، هذا التوازن يحدث احياناً طقطقة (خلل فيه) . فنفوذ عائلات الاسياد المبسوط على هذا القضاء او ذاك وسلطان الطائفة على النفوس ، يقومان بتسويات فيما بينهما ويتألقان في أشكال عدوانية . وكلنا نعرف الحوادث الأليمة التي وقعت في إهدن ، في حزيران ١٩٥٧ . وقد اظهرت وقائع ، حدثت مؤخراً ، ما يمكن ان تكون النزاعات الطائفيـة قد احتفظت به من ضراوة في هذا البلد النير . ولكن الحس السليم انتهى بالتغلب ، وروح المهادنة والتنازلات المتبادلة التي كانت تميز الميثاق الوطني المعقود عام ١٩٤٣ عادت فتجـددت . ولكن ، بعـد ان عاد الهدوء ، أليس طريفاً ان نقرأ في مذكرات زعيم جد موهوب ، تمجيد المساندة التي أظهرها حزبه لعمله السياسي ، وفي الوقت ذاته ادانة قاسية للحزبية العمياء عند خصومه ؟ (٥)

صحيح ان هذه الوقائع ليست إلا مظاهر منعزلة ، تم تجاوزها وان المسؤولين يكذبونها دائماً . واكثر الاحيان ينحل النزاع وهو لم يكد يبين : وفي هـذه الظاهرة ما يدعو للثناء على النضج السياسي للبلد . ولكن ما يعطي هذه الملامح ميزتها ، وخاصة اهميتها بالنسبة لدراستنا ، هو استطاعتها الظهور في آن واحد مع تجلي مثل هذا النضج . وهـذه المظاهر من عدم الانسجام الداخلي ليست نادرة في البلدان العربية : فالطائفية في لبنان ، وبقاء الجماهير على ذهنيتها القديمة ، في مصر ، والنزعة للقتال عند القبائل في العراق مثلاً ، كل ذلك يشاهد متواجداً ومتشابكاً مع ظاهرات وخصائص أخرى تشهد هي؛ على الاندفاع نحو الضياء . وعلى تطور آخذ يرتكز على التجهيز ، وعلى تقدم النقد .

إذ ان هذا التباين أو التمايز الذي يغري كل الذين يفيدون منه : الاقطاعيين ، والديماجوجيين (اي الذين يتملقون الجماهير) ، والاجـانب – يسود ليس فقط العشيرة الريفية ، ولكن أيضاً احياء المدن ، فالحي أو المحلة يؤكد أحياناً استقلالا في

٥) كمال جنبلاط : حقيقة الثورة اللبنانية ص ٧٦

السلوك يكاد يكون تاماً ، ويسهم في ذلك نمط التخطيط العمراني ذاته : هذا الفن السكني الذي يكدس المساكن حول « دروب » معقدة ، لا سبيل للأجنبي أن يهتدي فيها ، وفي هذه المجموعات تولد بين الجيران ، روح عائلية يهمن فيها نفوذ بعض العائلات الكبيرة من جانب ، ومن جانب آخر نشاط الفتية الاشرار « قبضايات » * بيروت أو دمشق ، « وفتوة » * القاهرة .

لقد جعل الروائيون المصريون الحديثون هذا الجو مألوفاً لنا ، هذا الجو الذي يحمل آلامه ، ولكن يحمل مباهجه أيضا . فالى جانب القبضاي الذي يضع نفسه في الصفوف الامامية من كل مظاهرة سياسية ، ومن كل عملية جمع أموال لحساب هذه اللجنة او تلك ، ومن التجمعات التي يحييها هذا السياسي أو ذاك ، الى جانب هذا القبضاي ، قد نجد حسناء الحي ، آنسة « الدرب » * « فتاة الدرب » « التي يلقي غنجها ودلالها المرح على اللوحة القاتمة من الايام المتعاقبة ، ويستطيب الناس لذة القيل والقال ، والعلاقات مع الجيران والاعياد : دوّامة كاملة تؤدي الى حمل الشبان الذين تشد بهم قوى أخرى الى الشعور بتجاذبهم بين نفور هو اكثر الاحيان عاجز كليل ، وادمان عادات تمدّ شيئاً فشيئا سلطانها . وفي هذا الجو من حياة الحي أو المحلة يظهر من وقت لآخر المرشح للانتخابات فيقيم « سرادقا » * ويلقي خطاباً مدويا ، يظهر فيه حرصه على التوفيق بين القوى المختلفة التي تسيطر على هذه الحياة المغلقة ولكنه يكتفي بدغدغة هذه الحياة . وان تهييجا اكثر معرفة وذكاء يستطيع أن يطلق من هذه الحياة قوى أخطر وأرهب .

وهذا هو ما يطمح اليه الزعماء والاحزاب . ففي سوريا ، حافظت (الكتلة الوطنية) الهرمة زمنا طويلاً ، على شبابها بفضل العناية في اللفتة التي كانت توجهها الى « احياء » دمشق . وأحياناً كثيرة كانت تنظم اجتماعات في الاحياء ،

وكان ذلك مناسبة لخطب مشبعة بالتقاليد الدمشقية ، ومـــا من احد أحس بذلك أكثر من لطفي الحفار الذي جمع في « مذكراته الكثير من هـذه الخطب فهو يقول »: ان زيارة احياء المدينة كانت تنفحنا حياة جديـــدة . وكل واحد يوحي الينا بفكرة ، وكنا نقتلع هـذه الافكار من روح الحي : فنؤلف من اشتراكها مع أفكار اخرى تأتينا من الاحياء الاخرى فكرة واحدة هي فكرة المدينة ، فكرة قوية ومثالية » .

ويعود كاتب المذكرات احياناً كثيرة الى انجاز يعبر عن احدى الحاجات الاكثر قدماً في المدينة العربية : التموين بالمـــاء . فقد اتاحت له جهود عشر سنوات ان ينجح في جرّ مياه الفيجة الى دمشق دون ان يكون للرأسمال الاجنبي أي نصيب في المساهمة . وقد استوحى في هذا العمل من مجهودات مؤسسة بنك مصر . ولكن ما يهمنا هنا ، هو الرابطة العميقة والمؤثرة على مشاعر الجماهير التي تقوم بين هذه المنشأة ونظام المدينة ، اكثر مما يهمنا التيار القومي على الصعيد المالي . وانه ارتباط يرجع الى عهود سحيقة ! فان موالية رومانيـة من دمشق تمثل على احد وجهيها نبع الفيجة تقريباً بالاسم نفسه .



(عملة من دمشق مصكوكة باسم الامبراطورة اوتاسيل Otacile زوجة فيليب العربي (عام ٢٤٤ الى ٢٤٩ بعد المسيح) . موجودة في خزائن المجموعات العلمية الفرنسية . تمثيل اصطلاحي لمغارة تخرج منهـا مياه نهر صغير ، وداخل المغارة تستلقي جنية ماء حاملة في يدها اليسرى قرن البركة والوفرة في الغلال وفي يدها اليمنى سنبلة قمح رمز الخصب . والى يسار المغارة

يقوم مذبح للقرابين يدل وجوده على الطابع المقدس للمكان. وفوق المغارة او على منحدر الجبل، كما يحتمل يقوم بناء صغير يضم تمثالا لمارسياس وهو واقف ويمثله من جانبه الايسر. وتمثال مارسياس كان يرمز الى المستعمرات الرومانية التي حصلت دمشق على وضعيتها في عهد فيليب العربي. تعني الاحرف - دمشق عاصمة المستعمرة. وتحت المغارة كلمة «الينابيع» (نقلا عن هنري سيريج H. Seyrig الذي تلطف بتسليمي القطعة النقدية الاثرية وبتفسير رموزها)

لكنما التكتلات الحزبية وعمليات حشد الانصار كانت واصبحت بحق. عرضة للهجمات المتزايدة يوماً عن يوم. وقد بدأت تظهر - حتى بالنسبة لمستغليها المتظاهرين بالطيبة والشفقة، او بالقسوة - بمثابة قوى ترسبية معدة ليس للخدمة وانما لتتحريك في خدمة افكار اوسع. انها اللحظة التي تخضع فيه للتفتت: ولكن سير العملية في هذه الظاهرة سوف يدوم طويلا. وما من احد يستطيع ان يقول عنه انه انتهى حتى في اكثر البلدان تقدماً. ففي كل مكان ايضاً نرى ان عمليات الانتقال المعقدة من تكوين الى آخر هي التي تمنح الغنى في سلالم التدرج البسيكولوجي وعنصر المفاجأة في اللعبة السياسية في الارياف وخاصة في المدن. وهذه العمليات الانتقالية، التي يمكن للدرس ادراكها، والتي هي عزيزة على القلب وأثيرة اليه بصورة خاصة، وفوق ذلك ممتعة للعين، تشكل اللوحة الخلفية للسياسة، بلى وتجدد، راديكالية التطورات ولكن طنطنة الحدث اليومي: هذه بعض ملامح من الحياة العربية تعطيها في ايامنا هذه، خاصيتها القصوى.

وعلى كل من يحللها ان يأخذ بعين الاعتبار لوحات هي اكثر ما يكون

اتصافاً بطابع مألوف ، ومنذ ١٨٥٠ كان فلوبير [٦] يتأمل بأعجاب في دمشق ، « الافندية » * وهم يشغلون انفسهم حول اولى طاولات البليارد ، وبالفعل فان المقاهي قد لعبت دوراً كبيراً في بناء الامة العربية وتكوينهـــا ، منذ تلك الايام . وتشير مذكرات عبـــد الرحمـن الرافعي الى اهمية حياة المقـــاهي في مصر : فهناك بين طاولات النرد ، وتحت تـأثير المشروبـات المنبه ، تسيل الاحاديث التي تحمل المستقبل ، وتقرأ الصحف وتطلق التعليقات عـلى كل أحاديث القيل والقال . والانفصال بين الجنسين الذي كان لا يزال سائداً . يعزل الرجل عن المرأة لسهرات طويلة : وتلك كانت طريقة اخرى للافلات من الخلية الاصلية . وللانفصال عن « العصبية * القديمة» اذ أنه في المقهى يتلاقى أناس من كل اصل ومنشأ . وكل رابطـة فيه هي الاهـتمام الذي يحمل بصورة مشتركة بهـذه الفكرة او تلك . والتفضيل المشترك لهـذا الزعيم أو ذاك . ومن قبل كان احد ابناء الاسكندرية المغمورين الذي تقلب في عدة مهن وضيعة ، عبدالله النديم الذي اطلق عليه فيما بعد لقب « خطيب الثورة» * يجد اول جمهور للسامعين في قهوة المطرية على ساحة العتبة الخضراء بالقاهرة . وكان يلاقي فيها جمال الدين الافغاني كل مساء . وكما كانوا يقولون « كان هذا الاخير يوزع الدخان بيده اليمنى ، بينما كان يوزع الثورة باليداليسرى وكان عشرات من الاتباع يحيطون به . وبينهم ازهري طويل الباع سوف يصبح سعد زغلول . »

وكان لا بد من ان تخرج من هذه الاجتماعات شخصيات مدعوة لمستقبل على مثل هذا الاشراق . وهناك ايضاً مقاهٍ لا تضم غير الفاشلين الذين هزمتهم

....

٦) رحلة الى الشرق : طبعة بوده Budé باريس ١٩٤٨ الجزء الثاني ص ٢٤٥

الحياة . وتظهر مقـــاه أخرى ، أكثر تواضعا في القرى ، وهي ستسهم في النشاط الاول لحزب الوفد . ومن كل مكان تهب روح جديـدة من التجمع ، « روح الكتل » * . ويبدأ الناس بالانفضاض عن الابنيـــة القديمة ، ويشرع الانسان في هز روابط العشيرة ، والحزبية ، واواصر الطائفـــة المذهبية ، أو القرية ليرتبط مع اناس اخرين تحت رموز اخرى . رموز على اشد مـا يكون تنوعاً واحياناً كثيرة اتساماً بالطابع التجريدي ، بالرغم من مخاطبتهـا القلب بقوة : مبادىء كبيرة يضيف اليها اسم عربي جميل القه ويزيدها توهجاً ، [٧] وتزدهر « النوادي » * والكلمة قديمة « ندوة » * « ونادي»*.والشيء كذلك اذ انه في مدينة مكة ، ايام الرسول ،كانت تعمل« اندية » كانت تسيطر عليها العائلات القريشية الكبيرة وانما اليوم ، تتعلق القضية بأهداف جديدة تماماً ، وفي سوريا ، يشكل خصوم حركة تركيا الفتاة اندية في كل مكان . وتنتشر الرابطات العديدة لغايات التقوى ، او الاحسان وعمل الخير او الدفـــاع عن هذا المثل الأعلى او ذاك ، او من هذه الآية او تلك الدالة على الامة الباحثة (عن نفسها وعن العالم) .

والحلقة التي يلتقون فيهـــا لقتل الوقت ، بصورة بائسة في العاصمة هي على العكس في مدن المناطق احيانا ، امـــاكن لالتقاء اعضاء الجمعيات والرابطات المعدة لمستقبل هام . وهكذا تتكاثر عدة من التجمعات التي تعكس كل الحركات الرائجة اوعلى العكس، كل النزعات التي لا تزال تعمل في الخفاء . اذ ان الحلقات واللجان تحمل بين مزايا عديدة ، مزية انها تعطي السياسة شهادات براءة تختفي وراءها مثل اعمال البر والاحسان ، وعمليات التقى والنشاط الفني ، وابتداء من

---

٧) وفي ذلك أيضاً، لجوء الى الطابع المقدس.

١٩٢٧ ، اخذت تسجل في مصر ، حركةُ ازدياد متصاعدة في عدد المنظمات الدينية ، واهمها هي حركة الشبان المسلمين التي ستظهر بصورة لاحقة . وعلينا ايضاً ان نذكر نمو الحركة الماسونية التي لم تخلُ من احداث آثار ذات طابع سياسي في مصر ، وخاصة في لبنان . واخيراً فان من اللازم ان توضع هذه النزعة للنشاط الاجتماعي في سياقها الواسع : سياق الانتقال من مفهوم للعالم الى مفهوم اخر .

وبالطبع كل هذه الطاقة ملزمة احيانا بأن تلوذ بالحياة السرية ، فالتآمر هو موضع جاذبية ومكمن اخطار بالنسبة اليها ، مثلما يقيم عالمها الحميم ، الذي يزداد حرارة بسبب ما يلاقي من اضطهاد ، علاقات اخوية بين اعضائها . واسهام الجمعيات السرية هو ، اذن كبير في كل التاريخ الحديث للقومية العربية . ولننصت الى الرواية التي يسردها مناضل قديم بلهجة من بردت همته :

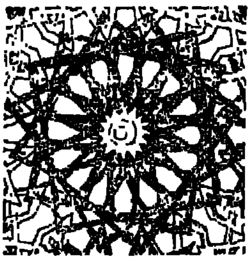
« في تلك الايام ، التي كانت مغلقة ومستعصية على كل حركة وطنية او قومية وكل فكرة حرة ، كنا على مقاعد الدراسة ، ممتلئين حماسة لاعادة مجد العرب ، وعز لغتهم ، وفيما بيننا داخل البيوت ، او في ذرى الجبال ، كنا نعود دائماً الى دراسة اوضاع الوطن العربي وتذكر رجاله العظام وشعرائه الكبار والى ضرورة التجمع حول الايمان الوطني. وكل ذلك كان يعتبر جريمة كبرى ، في ذلك الحين ، ويحدث الرجفة في النفوس » .

هذه الحركات قد بعثت الثورة العربية ، اثناء الحرب العالمية الاولى . وبالاختصار تكذب فعاليتُها التي لا جدال فيها محتواها المشحون بالاهواء والجدل الكلامي . وان فيها ما يدهش كلَّ من يجهل او يقدر بأدنى ما هي عليه القوى الاولى ، القوى الانطلاقية التي تعمل من وقت لآخر ، على « انضاج

الخيرة » اللازمة لظهور « زعيم » *

تشكلات واسعة « فالزعيم » * الذي يرتفع الى نطاق الوطن القومي العربي ، يتمتع بمهابات تنقل لحسابه التقليد القديم القائم على اجماع « الامة » * انه يحتفظ بُبعد لاهوتي ، ديني ، على الرغم من ان دلالته هي زمنية تماماً . ومعلوم ان انزلاقاً متزايداً يفصل بين القاعدة والهيأة العليا ، (او قمة الهرم في المجتمع) ، المتطلعة ، حكماً واضطراراً الى الحياة العصرية والمشدودة حتماً الى جوار مستمر مع الخارج فهذه القاعدة لا تزال تخضع بصورة متفاوتة القوة ، للاشكال المألوفة والضيقة من النزعة للنشاط الاجتماعى التى وصفتها قبل قليل : فهناك حقاً ، حياة الضاحية والحي ، والمحلة والمدينة وحتى حياة القبيلة او الطائفة . ولكن لم تظهر بعد المؤسسات البلدية الراسخة ولا اجهزة الادارات على نطاق المحافظات ، الموضوعة على طراز عصري : فكل شيء يجري كما لو أن عصارة قوية ، لكن باقية على وفائها للمثل العليا التقليدية ، تندفع نحو ذرى تزداد ارتفاعاً وسمواً يوماً بعد يوم ، متجاهلة أو مهملة السفوح المعتدلة للنمو ، فان اكثر ما افتقر اليه الشرق ، حتى الان بصورة بالغة ، هو الاعتدال في المواقف تجاه تيار الحياة العصرية ، والتنظيم الاساسي أو حتى تجاه الاندفاع الاخلاقي ، فالاندماج لا يقوم الا على مستوى اوضاع عتيقة لن تنقذها اصالتها من البلى ، أو على مستوى وطني ، هو نفسه خاضع لتأثيرات معارك العهد الاستعماري ، وهو على كل حال شديد التأثر بنداءات حركات وحدوية اوسع : وحدة عربية أو وحدة اسلامية ، و وحدة افريقية ـ اسيوية الخ ...!

وفي الاساس ، كل شيء يبدو متحدراً من اشعاع حول مركز قــوة[٨] المهابة التقليدية المنبعثة من الجدود ، بطولة المجدد الذي هو أيضاً منشيء ولواء يمشي باسمه الناس .



فـــالواقع يضطرب حوله ، كما لو كان يضطرب في دوائر وحلقات محيطة ببعضها البعض ، الى ان يجد هذا النظام من الامواج ، ان صح القول ، نظاماً منافساً يستطيع ان يعاكسه. والاسلام يقترح، حلاً لهذا التناثر . مقولاتـــه المتعاكسة (انتيتاز) العنيفة ، وتصنيفاته الجذرية وتحريماته التي تـــترك الطبيعة « تمرّ » بصورة حرة (ليبراليــة) ، شرط ان تخضع للقواعد الاساسية[٩] ، فأي فرق مع مـا نتبينه ونحدسه تحت الحياة الاجماعية والاخلاقية في الغرب. أن بناء ما يسعى بتكونه ابتداء من الخارج ، متحولاً الى رقعة أرض خاصة ، أو الى بلاد ، او الى توافر ظروف تاريخيــة ، يسعى الى عكس واقع ملموس مستقى بعيداً من حواليه ، والى ترسيخه ،وهناك الفرق نفسه في مجال المناقبية والاخلاق . ففي الغرب تسعى القاعدة أن تفرض

٨) ليس من قبيل الصدف ، ان يكون اكثر الرسوم تكرراً في النقوش والتوشيات العربية هو السطح المتعدد الاضلاع . انظر الصورة المدرجـــة في النص اعلاه ، رسم على شكل نجمة منقوش على خشب محفور على منبر مدرسة الغوري في القاهرة ، نقلاً عن فييت وهو تكوّر في كتاب « مساجد القاهرة » الجزء الثاني ، صور اللوحة ٢١١ ، ولويس ماسينون : « المناهج الفنية في الاسلام » مجموعة « Syria » ص ١٥٠ كان قد نوه بهذا « الرفض للاشكال المغلقة » المميز للاسلام في نظره .

٩) ومن هنا كان السبب في ان « الفقه » * يستطيع ان يستغني عن الاستناد والرجوع الى مفهوم الحق الطبيعي ، الالهي ، والموحى به ، وقد كانت عملاً جديداً وظريفــاً اشارة القانون المدني السوري الذي صدر مؤخراً الى الحق الطبيعي كمصدر ثانوي من مصادر التشريع ،وهو الجانب الذي تجاهله الفقه ، شكلياً وبصورة تامة ، انظر ادمون رباط في مجلة « الابحاث » ايلول ١٩٥٨ ص ٣٣٩ و ٣٧٣ رقم ١٥ .

نفسها من داخل ، وليس من خارج . انها تجهد لتلاحق الخطيئة حتى اعماق قلب الانسان التي تلوث أقصى زواياها وأكثرهـا تخفياً [١٠] . فالغرب ، في الوقت الذي تغلب عليه النزعة الحميمة في نظامه الاخلاقي ، يريد نفسه ذا اتجاه موضوعي في العمل . اما الشرق فهو شرعي في اخلاقه (أي متمسك بحرفية اوامر الشرع) ولكنه بقي ذاتياً في مسلكه : الذي يشبه دائماً وتقريباً مسلك الخيّـال العصبي والعفوي الحركات .

وفي هذا ما يفسر أن دمج الأشكال السياسية يبدو فيه حيا بقدر ما تبقى هذه الأشكال قريبة من المركز ، وان هذا الدمج هو خلاّق بمقدار مــا تبقى الاشكال وفية لتخصص بالغ القدم . وهو ، على العكس ، محظوظ بمقدار مـا هي تبتعد عن المركز ، بالحجم او بالادراك والتصور . وقد سبق لي ان سجلت النواقص المتعلقة بتركيبه على نطاق العامية (الكومونة) . ويمكننا ان نقول ايضاً بتركيبه على نطاق المحافظة او الاقليم ، مع العلم انه لا يمكننا ان ندرج تحت هذه التسمية فوارق ذاتية حية الجذور في تعلقها بالماضي على قدر عجزها ، حتى الآن ، عن التعبير عن ذاتها والتجسد في صورة كيانات ادارية من خط حديث[١١] مما ينتج عنه ان درجات السلم الوسطى تقع دائماً في الغلو او التقصير . غلو طالما يُحافظ على استقلالها الذاتي او يراعى جانبه . هــذا اذا لم يحظ َ بالتشجيع ، وتقصير حالما يتعلق الامر بعكس خصائصها ، ليس بصورة تميز تعمل على التفرقة ، وانما بصورة تباين شريف وشهم وبهذه الملاحظات نجد التفسير لجانب كبير من

......

١٠) انظر نظرية النزعة للبحث عن الملذات المرتبطة بنمطية قائمة على الحس بالفاجعة كما ابرزها ل . جولدمان L. goldman : « الاله المختفي » ، ص ٥٠ وما يلي . وبمواجهة هذه النظرية يقوم المفهوم الاسلامي حول « الفطرة »*

١١) يظهر ان الاصلاح الزراعي الذي تقرر مؤخراً في سوريا قد ترك خارج نطاق تنفيذه جبل الدروز الذي ليس ابداً « عمالة درزية »

الخطاء الدولة المنتـدبة في المشرق ،وبالمقابل التفسير لتقصيرات التنظـيم الأقليمي او المحلي في الاوطان العربية ، حتى أيامنا هذه .

وفي مرحلة معينة من التقدم في طريقة سير التوسع والتعميم ، يظهر الكيان الوطني مثلما تومض الشرارة . ولكنه لا يُحس به إلاّ كمرحلة : كعملية توقف يفرضها الاجنبي الى حـــد يزيد او ينقص . فالناس يريدون انفسهم عرباً ، لا مصريين او سوريين او عراقيين ، الخ ... وهذا رغم الادراك او حتى المطالبـة بفوارق أكيدة في اللهجة ، والسلوك ، والوجوه ، عدا عن التعارض في المصالح . والواقع ان الجمهوريات او الملكيات ، الواقعـــة فرائس لضغط الواقع الآني وتضييقاته ، والمعرضة لارتجال الزعماء ولثقل الشارع لم تكن ، حتى يومنـــا هذا ، تعطي غير فكرة متشائمة بصورة بالغة ، وعلى كل حال ناقصة عن التنظيم السياسي عند العرب ، رغم نجاحات متفاوتة (في هـذه الكيانات الجمهورية او الملكية) .

وقد يكون من المفيد ان يشار في هذا الموضـع الى الاتجاه الاتحـــادي او الوحدوي الذي يعبر عن نفسه بصورة بليغة والذي يستجيب له انشاء الجامعـة العربية لو لم يكن يتجاوز كثيراً جداً ، بنداءاته الانفعالية ، العاطفية ، حدود الانجازات الملموسة . ولكن في الاساس ، أليس هذا السعي العسير للمطابقـة بين زخم الاندفاع والشكل ، بين المثل الأعلى والنتيجة ،هوالذي يتصل،عن كثب، بحديثنا هنا ؟ وكلنا نعلم ان الجامعة العربية أصبحت مجالاً للمشاحنات والمجادلات القاسية بين البلدان المشتركين فيها . ذلك ان فيها ، وبواسطتها تتواجـه كل الميول والاتجاهات وكل المطامع والمنافسات . ومن هنا كانت بوادر عديدة على نفاد الصبر لدى الرأي العام والملاحظة المليئة بخيبةالامل .ان هذه الهيئة لم تستطع

منذ ولادتها العسيرة عام ١٩٤٦ ، ان تحمي اعضاءهـا من خسارة فلسطين ، ولا ان تقيم من المناورات الدائرة في داخلها ، ولا ان تمنع توقيع حلف بغداد ولا حدوث التوتر بين العراق والجمهورية العربية من جهة ، وبين الجمهورية العربيـة وتونس من جهة اخرى . فالتهم المتبادلة بين « البلدان الشقيقة » أصبحت شيئاً مألوفاً . وانفضاض جانب كبير من الرأي العام عن تأييد الجامعة يبعث على الخوف احياناً من انحلالها او من ضياع هيبتها ضياعاً نهائياً . فبعد احدى دوراتها الاكثر صخباً ، أجاب عبدالله ابراهيم ،ممثل المغرب على سؤال وجهه اليه احد الصحفيين اللبنانيين :

سؤال : « هل تفكرون كعربي او كغربي »

جواب : « أنا لست عاطفياً واحتفظ دائماً برباطة جأشي . ودون ان اقصد جرح أي كان ، انا أجـد ان الرأي العام في الشرق الأدنى ميال الى النزعة التجريدية . فالناس يغرقون في مهاترات خياليـة (طوباوية) ويفقدون رؤية الوقائع الحاضرة . وأنا لا أؤمن بالاستقرار في بلد اذا كان الحكم فيهـا ليس مرتكزاً على معطيات علمية » .

وفي الواقع ، ان مـا ينكره اسلام الجانب الغربي او المغربي هو أسلوب العمل اكثر مما ينكر سياسة معينة ، ولكن ، مع كل ذلك ، فان الجامعـة العربية لم تخلُ من الاسهـام ، بقوة ، في تثبيت وتقوية الشعور العربي . وقد استبعدت طبعاً المساعي الحميدة التي كان الاجنبي يقدمها ، في بداية عمل الجامعة وهي الهيأة التي لم يكن مولدها غريباً عن وحي فردوس عدن ، والتي عرفت ، مع ذلك ان تنعتق ، باكراً ، من اصولها المشتركة . واذا كانت مصائرهـا المضطربة قد أثارت أحياناً في الرأي العام الضيق ، والشكوك ، واحيـاناً كثيرة خيبة الآمال ، فانها بهذه الامور بالضبط قد أرست الأسس لنقدٍ مفيد وقوّت الشعور بوجود كيـان عربي ، أسمى من القوميات التي يتألف منها ، وبصورة

مناقضة للمنطق الظاهر ، كانت الجامعــة ، اذن ، تدفع الى الامام ، الحركة العربية ذات الرسالة الكونية ، بخلفيتها التي يرتسم عليهـــا التيار الاسلامي ، وفي الوقت ذاته المفهوم الحديث للأمة ، او حتى لجمعية الامم !

واخيراً ، فان الجامعة العربية تقوم بعمل لا جدال في قيمته ، بسعيها للتقدم الثقافي العربي ولتنمية البحث العلمي [١٢]. ويبذل معهد الدراسات العربيــة في القاهرة ، بقسمه المختص بالافلام الوثائقية ، وبمؤتمراته العديدة التي تتناول مشاكل التربية ، والتقنية والمفردات ، جهوداً غنية بالوعود . فالجامعة مثــل الكثير من الأشياء والمؤسسات ، في هذه المرحلة من تطور العالم العربي ، تقدم خليطاً هو غاية الاتسام بالطابع الانساني ، من الآمال ومظاهر الفشل والضعف والنجاح . وهي رغم خضوعها للمنافسات الداخلية والمبالغات التي تتضمنها المرحلة الحاضرة من حياة مجموعات السكان ، تشكل مرحلة تاريخية . فهي على كل حال ، تحتل من الصدارة من المسرح مكاناً يتجاوز بكثير فعاليتها الحقيقية . وهذا التغير في طريقة الانارة والقاء الضوء يستطيع لوحده ان يتيح قياس التقدم الذي حققتـه دينامية المدينة العربية انطلاقاً من العهد الذي ليس ببعيد ، الذي لم تكن لتتجلى فيه الا في نطاق السرّية او في المنفى

وهكذا تبدو الجامعة في العصر الحاضر شكلاً من أشكال تلك « الامـــة »* بمفهومها القديم أي مجموعة التركيبات المتعـــددة القوميات ، او الدولية. انها تبدو شكلاً انتقاليا ، يعود ضعفه الى الشيء ذاته الذي يعطيها قيمتها وصلاحهـا : أعني أهليتها لاحداث تسوية بين ما هو خاص بالعرب وما يلزمهم استعارته من الآخرين ، تحت طائلة الانحطاط . ويمكننا ان نقول الشيء ذاته عن الاحزاب والمجالس البرلمانية وحتى الحكومات الى حـــد كبير ، فمن الظلم اذن ان ننفي

١٢) السادة شفيق غربال ، وصلاح الدين المنجد الخ .. والمجموعات الثمينة التي استعان بها هذا البحث على نطاق واسع .

انبثاق منظمات تاسيسية ارحب وأشد وعياً واكثر اتصافاً بالمسلك العصري، انطلاقاً من الاشكال المحسوسة ، ولكنها البدائية ، لسياساتهم الصغيرة ولكن هـذه المنظمات التأسيسية يبدو عليها انها تفقد من عفويتها بمقدار ما تكسبه من الرحابة والاتساع ، اذ كلما نمت ، تعرضت بصورة اكثر إلحاحاً لتأثير الغرب الجذاب والمنفر في آن واحد . ولان يؤدي اتساع الاشكال السياسية ونموها الى مسخ طبيعتها ، ولأن تكون كل حركة تحول الى النهج العصري ملزمة بان تحرص على ابقاء اتصال يزداد صعوبة شيئاً فشيئاً مع الجماهير ، ولأن تكون الفعالية مضطرة لان تدخل في حسابها الامانة (للماضي وتقاليده) ، كل ذلك يطرح امام العرب مشاكل لا يسعهم حلها إلا بفضل نضج مستمر او عمليات توافق ومطابقة تتم بصورة دورية . والطريق الثانية تسمى طريق الثورة . عند ذلك يصبح «الزعيم» هو المُطالب بان يعيد بعث الاصالة في الانظمة المكيفة او المستوردة . وهو ينجز تحقيق هذه المطالب بنجاح يتفاوت في الدرجات، دون ان يبخُل الشعب في منحه حماسته ، ولا السلطان المطلق في تعريضه لكل اخطاره . على كل حال، فان على الزعيم ان يُبليغ اكثر من ان يقوم بمهمة التمثيل ، ودوره ، وعمله وحتى وجهه وكلامه ، كل ذلك يبشر بالانتقال من واقع رديء الى غدٍ افضل .

ونجد التفسير للكثير من الظاهرات المميزة ليس فقط للحياة البرلمانية ولكن ايضاً للحكم ، وللنظم الاساسية السياسية ، على العموم في بلدان الشرق ، في كون الشيء المحتمل الوقوع ، الشيء في حالة القوة هو دائماً اكثر حقيقة من الشيء الحالي ، الواقع فعلاً ، وانه يحس به بعمق اكبر ويُقبل بصورة افضل ، في الشرق .

فالاستبدال السريع للاجيال ، بعضها ببعض ، وأولية الحماسة على الحكمة والتعقل ، واولية الأمل على التجربة والخبرة ، والمرجو على المكتسب : وتأخر

كل ما هو كائن عن كل ما سيكون . كل هذه الملامح يمكن تفسيرها دون شك بنوع من عمل الهدم الذي يقوم به تعاقب الزمن . فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ، قامت شعوب ، كانت في السابق متجهـــة بكليتها ، ولا تزال حتى اليوم متجهة جزئياً نحو ماض هو بالعبارات الحرفية ، نقطة اتصالها مع المطلق (هبوط الوحي بالقرآن الكريم ، غير المخلوق) قامت هذه الشعوب تحـول على المستقبل طاقات شحذها حرمان طويل . ولكن العلة في هـــذا الامر تكمن في أنه بين هذا الماضي الذي يغمس في الجو الالهي ، وهـــذا المستقبل الذي يغرق في ضباب الاحلام ، ينتصب « الزمن التاريخي » ، الذي هو من فعل اوروبا ، هذا الزمن الذي يلزم أياً كان يبغي ان يتكلم كلامه ان يخضع لنواميسه . ومن هنا كان الكثير من حالات سوء التفاهم ، وخطر خطير ومن وقت لآخر هزات عنيفـة . ولكن ايضاً ، كان الصعود لاعتلاء التاريخ بواسطة الآخر وضده ٠

حضور الآخر وفي نظر العرب ، الآخر هو شخص مألوف . ودون ان نعود بعيداً القهقرى حتى نصل الى « الحديث »* عن هرقل ، يمكننـا ان نذكر باسهام « اهل الذمـــة »* في نقل التراث الروماني البيزنطي . وكما يلاحظ رينه حبشي ، كانت أسبقية التفكير الفلسفي واللاهوتي والقانوني في الغرب تطرح ، من وجوه عديدة ، ومنـذ القرنين التاسع والعاشر (ميلادي) مشكلة تكيف وتجاوز . والأسبقية ذاتهـا ٠ في الترتيب الزمني ، تثير اليوم على صعيد ادخال التقنية العصرية ، الصعوبات نفسها والامكانيـــات نفسها . انما بسبب أن نقطة الإنطلاق للحقبة تتفق مع انطلاق التوسع الامبريالي

تلقى جيل الفتنة الثانية (١٣) المدنية الصناعية او خضع لها قبل ان يمارسها . وهو يعاني من عمليات وابعاد وقلة حظوة يتحدر البعض منها على الأقل من حقيقة ان الاسلام المرتكز على مفهوم الحـــلول في الانسان ، او على الاقل على معنى الالتصاق بالكون، يعرف هذا العالم في نظر هـــذا الجيل ، كوجود ، قد قام « الآخرون » باحصاء محتوياته وبامتلاكه وباعادة صنعه . وفي اكثر ايام التبعية حلكة ، اصبح هذا الجيل ، هو ذاته ، شيئاً يخص الآخرين . فكل شيء فيــه وحوله قد استعاد « شيئيته » .

وفي هذا الوقت فقد العربي زمام قبضته الحارة على الكائنـــات والاشياء . فكل شيء تقريباً مسدود بوجهه : المنظر حوله ، الذي تحوله « عمليات تقييم » لا يسهم فيها إلا كعامل منفذ ، او على أفضل تقدير ، كزبون ، وتسلسل نتائج وأسباب ، لا يدرك نواميسها الداخلية لأن آخرين يحركون هـــذه النواميس ، ومعرفة تاريخه ولغته وحتى روحه ، لأن العهد الاستعماري قد نقل قضية فعاليته وأحياناً مسألة تحزبه وعصبيته الى صعيد التحقيقات الخاصـــة بالدراسات حول العروق والسلالات . وعندما يؤخذ بعين الاعتبار كل العناصر ، لا يبقى للعربي الا القليل من القطاعات الذاتية الخاصة به . وحتى هـــذه القطاعات لا تخلو من تحولات في وظائفها وفي محتواها . فالدين ، وقد أصبح رمزاً للرسوخ في الطبيعة النفسية ولعدم القابليـــة للتساهل ، يتأرجح بين قطبي التقوى الشعبية والممارسة الرسمية للعبادة والطقوس ، او يتأجج حمماً مثلما منـــذ آلاف السنين ، الى ان يأتي تيار التجديد فيقترح عليـــه ، مع العالم الحديث ، تسوية متفـاوتة المشاركة مع الحركة القومية . والعائلة ، وقد أصبحت المنطقة الحرام التي يتردد

١٣) أنظر في اعلى ص ٢٨ وما يلي .

الاجنبي نفسه في اقتحامها او انتهاكها ، تنغلق على المرأة التي يمنــع امتلاكها ، المتعسف والشهواني في الوقت نفسه ، الرجـــل آخر مظهر من مظاهر ممارسته لسيادته ، ان صح القول .

انا اعلم جيداً ان الاشياء قد رسمت هنا ، بخطوط فاحمة السواد وان وجود المستعمر في كل الوجود لم يستطع ، في أي مكان من الشرق الأدنى ، ان ينفذ بعيداً بما فيه الكفاية ، لتقتحم الانسانية العربية حتى هذه الاماكن من عزلتها . ولكن حيز التحرك نفسه ، المتروك ، هنا ، على عكس ما يلاحظ في افريقيـــا الشمالية ، للجهاز المحلي يلهب مرارته ومخاوفه . والجهاز الاجنبي المسيطر ،وخاصة فيما يتعلق بالجهاز الفرنسي ، لا يكتفي بتغذية هذه المخاوف والمرارات ، انه يعطي ايضاً الاسباب للثورة ، ويزودهـــا بلغة وبمثل أعلى . فمنذ ١٩٢٤ ، قام مثقف شاب من حلب هو ادمون رباط ، وهو احد الذين زودهم العلم الغربي المتعـدد الجوانب بأغزر الينابيع وأغناهـــا ، يدعو الى اعادة بناء سوريا ، أي لبعث النزاهة ليس فقط النزاهة السياسية وانما النزاهـة الفكرية [١٤] وفي تلك المرة ، فشلت مرافعته ،اذ ان القضية تتعلق هنا بأحد اسياد المحاماة في الشرق . ويحتضر مصير الانتداب في عملية تبذير قاتلة ولا شك وتبديد للفرص المضيعة (وللخدمات اللامجدية) وفي العراق رغم حالات المرونة الخادعة للعين ، والقرارات المتخذة لمواجهة

١٤) ادمون رباط : « الوحدة السورية والصيرورة العربية » ١٩٣٧ . ولكن من قبل صدرت نشرة : الولايات المتحدة السورية » حلب ١٩٢٥ . انظر ايضاً : « التطور السياسي في سوريا تحت الانتداب » ، ١٩٢٨

الظروف او لمشاكسةالخصوم التي تحسنها السياسة البريطانية [١٥] فان عملية نزع الشخصية لا تقل (عما في سوريا) وهي ترهق المثقفين [١٦] فلننظر مثلاً أولئك الذين يضعهم الروائى ذو النون ايوب على المسرح في جهدهم للعودة الى وطنهم وفضح التسويةالحكومية . وبالامكان الاستشهادبعدة امثلة اخرى على جميع هذه البلدان ، فالاكتشاف المشترك الذي يقومون بـه هو المناخ المتسم ليس بالاغتراب النفسي وانما بالكثافة بالقدرة على حجب (كل اشعاع جديد). الذي يغرق فيه كل من يحس او يناضل او يفكر في الشرق الادنى . انه الانغلاق والابتعاد بالنسبة للتاريخ والعالم والذات : وهذا هو الذي يثور النشء الجديد ضده ، منذ الحرب العالمية الثانية بعنف متزايد .

اذ ان المقاومة هي اولا ظاهرة شباب وهي تتناول الاجنبي اكثر مماتتناول القدماء (ابناء الجيل السابق) فان القدماء لم يكونوا حقاً يظهرون حزماً كافياً تجاه التدخل الاوربي في الشؤون الداخلية . ولكنهم كانوا يفصلون وبحق بين بقية اشكال التعسف والاضطهاد ، التدخل الابعادي او التنازلي الذي كان يقوم به القادمون الجدد . فان رفضهم المناقبي للمدنية الاجنبية كان يمنحهم راحة نفسية قابلة اكثر الاحيان للتوافق مع طواعية ذات تضييقات ذهنية ، وان مقاومتهم الباعثة على الاحترام اكثر الاحيان . كانت ترتكز على الحركات البالية في الروح الدينية المحافظة ، وفي معنى الشرف الارستقراطي . ولم يكن

---

١٥) حول التجربتين المتوازيتين ، التجربة الفرنسية والتجربة البريطانية ، انظر المؤلفين اللذين صدرا حديثاً من تأليف لونجريج. Longrigg . ولكن كل شيء لم يبلغ الافهام بعد ..

١٦) والبرت حوراني في « سوريا ولبنان » طبعة ١٩٥٤ يقول اصوب الاشياء حول هذه المحاولة لاستعادة الذات التي تسعى اليها حركة النهوض القومي . انظر ص ٧٠ و ٩٦ وما يلي.

عالم الجوهر الذي كانوا شديدي التعلق به . يبدو لهم ابدا عرضة للانتهاك بعمليات الاغتصاب الزمني الذي كان الاشراف يتظاهرون بالاكتفاء به . وقد كانت عمليات مراعاة جانب مفاهيم واسس من مثل العبادات والحريم والسلطة الابوية تكفي للمصالحة والتوفيق بين هؤلاء المعارضين الغيبيين (الميتافيزيقيين)، على الاقل حول الشؤون الدنيوية فهم قد رأوا دون اي اغتباط منذ سنوات ١٩٣٠ ، انتقال الرئاسة من أيديهم الى أيدي شبان تلقوا ثقافة غربية ولا يظهرون الا احتراماً ضئيلاً نحو الاخلاق القديمة .

أما المحدثون فقد قاموا غريزياً بنقل الثورة الى الصعيد الزمني ، اللادبني . صحيح ان هذه الثورة تنعم بكفالات وضمانات آتية من بعيد . فهذه الثورة تتغذى من هذا النهم الجنوني للوجود الذي يضيق عليه ويعصره بصورة متزايدة تفجر النظام السياسي والاجتماعي . ومع ذلك فهي تجد سلطتها في عالم الجوهر هذا الذي يقوم الشبان بحراسته بدورهم دون ان يعلموا ، أو ان يريدوا دائماً ، وبالفعل فاي شيء يستطيعونه دون المساندة الشعبية التي تجند في نهاية المطاف ، اجماع « الامة » لصالحهم ؟ فقوتها تكمن ، بالضبط في القدرة على التوفيق بين الاشياء التي يبدو عليها انها غير قابلة للتوفيق : الاصالة الاسلامية والفعالية الغربية ، الرجوع الى « الشعب » الذي هو على طريقته ، شعب « مختار » . والاستناد الى المبادىء الديموقراطية . وانه لفن عسير، وتحد او رهان لا سبيل الى القيام به تقريباً ، ويحمل في داخله وعلى التناوب أقدار العنف والتسوية ، والاندفاع والانكفاء بعد الفشل .

والسياسي يحاول ان يوحد هذه القوى المتنافسة او ان يواجهها بعضها ضد بعض ، وكل ذلك لصالحه . ولكن عليه ان يحسب الحساب لرأي عام

تسوده الاهواء وسريع الانقياد ، ولكنه لا يغفر له خطأه . فالاعتدال اصبح موضعاً للشبهات . « والدعوة اليسارية الظاهرية » تجد مستغلين حاذقين . والمغالاة تؤدي من وقت لآخر ، الى الكارثة . وأكثر الاحيان لا يقوم الاختيار على معطيات ايجابية . ولانعدام العقيدة ، ولانعدام التحليل ، يتضمن نشاط الاحزاب قسماً كبيراً من الاندفاع الاهوج : فهو طوراً غير واقعي ، وطوراً انتهازي . ومن هنا كان ضعف هذه الاحزاب ، الذي كان بامكانه أن يجعل غير قابل للتفسير نجاحها لو لم يكن فوق العمل السياسي وعبره ، رجل يناضل لتحويل اتجاهاته .

الحالات الثلاثة للحركة القومية

يثير الانطلاق القومي والوطني الاول ، الذي تعاكسه قوى من الداخل ومن الخارج ، تركيبات واسعة على العموم ، ذات مادة بورجوازية وشعبية في آن واحد . وانها لمدرسة للذكريات والحقد والعنف ، ولكنها أيضاً مدرسة لعمليات ارتجال ممتازة . وفي كل مكان تخرج منها أناس أكفاء : أمثال ابراهيم هنانو وسعدالله الجابري في سوريا ، ورياض الصلح في لبنان ، وكثيرون غيرهم أيضاً ، يمثلون عن جدارة هذه الحقبة من الارتجال والمساومة البطوليين . « والوفد » في مصر ، كان كما رأينا ، « تجمعاً » أكثر مما كان حزباً . واحد اصدقائه الاوائل كان يشبهه « ببحيرة يقتضي ان تصب فيها كل الاقنية ، وكل السواقي وكل الانهر » ولاول مرة رأينا ملاكي الاراضي الكبار والتجار ، والموظفين ، والمثقفين ، يقاتلون جنباً الى جنب . والفلاح نفسه يميد بالرعشات . وكان اقباط في عداد الرجال الذين كانوا موضع ثقة الزعيم . « وكان علماء ازهريون يخطبون في الكنائس ، وكان قسس

أقباط يخطبون في الجامع الازهر » . وحتى بعض الامراء قد انضموا للحركة ، وهـــذا الاجماع الشعبي كان موضع اعتزاز الحزب ، ولكن ايضاً نقطة ضعفه العقائدي . وبصورة موازية ، كانت حيوية هذه التجمعات تعكس توازن قوى مرتبطة بواقع آني مريض اكثر مما كانت مرتبطة بدينامية شعوب في حـــالة الصيرورة وكان التنافس قائماً بين افراد ، مؤججاً احقاداً راسخة تحت قنـاع اسماء مشابهة لبرامج مخيبة للامال وقعقعة الكلمات الطنانـــة . وتعمق الهوة الفاصلة بين شكل الحياة السياسية ومادتها المجبولة من الغضب والوعي المتنامين . وكلاهما في حالة بحث عن فعالية مضيّعة منذ زمن طويل .

وانا اود ان استعير من احد الكتاب العراقيين بعض الملاحظات المشحونـة بخيبة الرجاء ، والتي لا يمكن نعتها مع ذلك، بأنها كثيرة التشاؤم ، فهو يقول : « وانها لصفة من صفات العرب ان يكونوا سريعي الفهم ، وان يدركوا خفايا الاشياء . ولكن هذه الصفة تتحول الى كارثة اذا لم تتعهدها توجيهات حكيمة من قبل الحكام والقادة. فانه لم يكن يخفى على العراقيين ما يعتزمه (الحكام) ، تحت قناع التمثيل (البرلماني) ، فقد كان الشعب يقف موقف المتفرج ، ويصفق لسقوط الحكام على امل ان الذين يلونهم سيقومون بأعمال افضل . لقد فقد كل امل بتحسين مصيره بنفسه . وهو لم يكن يشعر الا بالنفور من هـــذه التشكيلات البرلمانية . وعلى هذا النحو رسخت الفكرة عند السياسيين ان بامكانهم ان يتصرفوا على هواهم بشؤون المملكة. وان العراقيين ليسوا غير قطعان مطروحة للبيـع والشراء ، وليست أهلاً الا للحلب او الذبح ، وان بالامكان بيع جلودها لصالح الاجانب او المنتفعين بالسلطة ، كل ذلك حتى اللحظة التي برهنت فيها الاحداث ان شعب العراق لن يطيق التعسف والظلم ، ولن يسكت بعد الآن

عن المطالبة بحقوقه ولو سكوتاً مؤقتاً ، ما لم يواجه (النظام) هزات تشنجية عنيفة ... »

ومعلوم ان تقدم المطالبة: والنجاحات الاولى التي تحرز بالمفاوضة او بالثورة، تفجر حدود الجسم المبهم للمقاومة ضد الاجنبي . وتبرز للضوء انقسامات قائمة على اعتبارات شخصية او عقائديـــة . وحتى ذلك الوقت كانت الروح الوطنية المناضلة كافية لتحريك كل شيء . ومنذ ذلك الحين تدخل في الحسبان التباينات العائدة للبيئة ، وللتكوّن الفكري والثقافي وللعقيدة . وتاريخ حزب « الوفد » المصري الطويل ، يمثل من عام ١٩١٩ حتى عـام ١٩٥٣ على الخط البيـاني الذي رسمه تجمع ثوري في بـــدايته ، ثم تجمع انهكتـه النزعـات الداخلية اكثر مما انهكه الحكم الذي لم يستلمه ، في الواقـــع ، الا بالاشتراك مع احزاب اخرى ، وانتصاره الخادع في انتخابات ١٩٥٠ يسهم دون شك في اضاعة حسن التبصر وروح النقد عند زعمائه ، فتحول من تجمع كبير بشدة زخم الاندفاع الوطني الى مجرد طرف في اللعبة البرلمانيـة . فكان يرى في صفوفه اناس يحملون وصمة (الفساد اوضعف الشعور الوطني) او سبق لهـم ان حاربوا الحركة في أيام جهادها البطولي . وقد ضاعف الملك هيمنته على السياسة الخارجية ، والجيش والمؤسسات الدينية . ولم يكن هناك شيء اكثر دلالة من روح المسايرة التي كان يبديها فريق الوفديين المتربعين في الحكم ، اذا قـورنت بالمعارك العنيفة التي خاضها سعد زغلول ضد الملك حول اختيار رجال الديوان الملكي او حول منح الاوسمة عند ذلك حدثت هذه الظاهرة المقلقة ، اذ بدأت الطبقات الدنيا في الحزب تنفصل عن طبقاته العليا القائـــدة وشرعت حتى في مهاجمة هذه الاخيرة في الصحف او في المنشورات ، وهناك ظاهرة اخرى : وهي رفض وزير للمالية تقديم استقالته عندما طلب منه النحاس الاستقالة . فلم يعد

للحزب إذن ان يرجو غير انتصارات في المناورات والتسويات . وقد اعتبر مشاركاً بالتكافل والتضامن مع القصر ، في اخطائه وغلوه . وكانت النهاية المعلومة .

وهل كان الامر يختلف فيما يتعلق بالنزاعات التي نشبت بين الاحزاب العراقية بعد الانقلاب الذي قام به عبد الكريم قاسم ؟ وهنا بدأ الامر باعلان سياسة النشء الجديد التبرؤ من قائد وطني متمرس ، هو رشيد عالي الكيلاني ، فالامور قد سارت منذ العهد الاستعماري . ويتعقد الموقف على قدر التنازلات التي تقبل بها السلطة الاجنبية المهيمنة .

والجيل الفتي يرفع الصوت داوياً ، معلناً عدم رضاه المتزايد ، واذا كان عدم النضج عند الجماهير يتطلب دائماً من قبل الزعماء اللجوء الى تقنيات محظوظة فان تربية البلاد قد تقدمت ، وهنا وهناك بدأت تظهر عناصر نخبة من الطراز الحديث . واخذت مساوىء النظام تتبدى بعنف متزايد لمشاعر انتليجنسيا (طبقة مثقفة) لا تتصف بالسذاجة وان كانت احياناً لا تخلو من التساهل والقدرة على غض النظر . وتتشابك هذه العوامل الداخلية مع تأثيرات خارجية لتستحدث تجمعات جديدة . فيدعو بعضها للعودة الى المثل العليا القديمة التي نادى بها الاسلام ، وذلك كرد فعل ضد الغرب ، بينما يهدف البعض الآخر الى التجرد من كل الاشياء العتيقة ويدعو الى تركيز السياسة على التحليل الموضوعي لمشاكل اصبحت من جوانب عديدة ، مشاكل اقتصادية واجتماعية .

ففي مصر وفي سوريا ، يزعم الاخوان المسلمون ضرورة الرجوع الى القيم الاسلامية بعد جعلها مقصورة على حالة من الصفاء لا ترتكز دائماً على التاريخ ولكن لها فضيلة تحريك مخيلة الجماهير وطابع الحركة المرتكز على التظاهر بالتقوى وعلى التوجه للجماهير الشعبية في آن واحد ومقاومتها للون

الباهت الذي يبدو عليه الاسلام الرسمي ، والثأر من الغرب المادي الذي يبدو عليها انها ستحققه ، واخيراً اصالتها التي لايمكن الاستهانة بها . كل ذلك قد امن لها التفاف عواطف حماسية ملتهبة لم تتأخر في الكثير من الحالات عن اللجوء الى ارتكاب القتل . على كل حال ، استطاع عبد الناصر ان يقضي على الحركة في مصر . وقد ظهر اعضاء القيادة لحركة الاخوان في محاكمة سياسية كبيرة عام ١٩٥٤ . وما كانت المحاكمة في صالح الحركة . ان نداء سافونارول * لم يستنفد قدرته على الايحاء رغم ذلك في هذه البلدان ...

ومع ذلك فان التأخر الصناعي وقلة الكثافة في الجماهير العمالية لم يمنعا التقدم في المطاليب الاجتماعية ، ان في مصر او في سوريا ، او لبنان او العراق ، وغداً بلا ريب في مناطق اخرى . ولكن الطابع الذي وسمت به الماركسية بفضل اختيار قائم على « عناصر الاقلية » كطريقة شبه وحيدة ، في الاصل على الاقل والتاريخ الطويل والقاسي من الحياة السرية ، قد ساعدا على احداث الجرأة والخطأ ، والعزيمة والميول اليسارية في آن واحد . ومن هنا كان التعقيد الجنوني ومن بعض الجوانب المخيب للآمال ، في الحركات التي تنتمي الى النزعة لاحداث التغييرات الاجتماعية في هذه البلدان . وانه لتعقيد ملائم لتمركز الفوضى وكل المناورات التي تهب من الداخل او من الخارج ، ولكنه يعكس دون ريب ، ضرورات قاهرة للتكيف مع مميزات البيئة .

---

* سافونارول راهب دومينيكي حاول ان يقيم في فلورنسا ، في اواخر القرن الخامس عشر دستوراً يرتكز من جانب ، على مبدأ تحرر السلطة من الارادة الالهية ، ومن جانب آخر ، على المبدأ الديموقراطي : فكانت النتيجة ان قدم للمحاكمة بتهمة الزندقة فحكم عليه بالموت حرقاً .

وعلى الرغم من أن حركات مماثلةهي مدينة، كما رأينا، بالكثير لارتباطاتها ووشائجها المحلية ، فان تأثيرات خارجية ، متولدة من تعايش عميق مع الفكر الاجنبي ، هي المسؤولة عن قسم من هذه الدينامية ، ومن هـــذا النوع من الزواج ، الفاعل في عناصر كثيرة التبانيات العميقة ، قـــد ولدت الاحزاب الشيوعية الشرقية التي أنكر يوماً عليها شارل مالك ارتباطها الحميم بالتكوّن الفكري الفرنسي ، كما ينكر عليها آخرون تبعيتهـــا للستراتيجية الروسية . وهناك مظهر لا يستهان به : هو ارتباطها على الاقل في منطلقها الاساسي مـع ردود فعل الاقليات : الاقليات الكردية ، والارمنية ، والاسرائيلية ، الخ .. فهل بوسع المنهجية الماركسية أن تعوض عن نقاط الضعف هذه ؟ فان قوتهـــا تكمن في دفاعها عن الواقع . وان الضرورة المزدوجـــة لتحقيق التحرير والبناء ، وواحدهما يضمن ويكفل الآخر ، لا يمكن أن تكون موضع نقاش في البلدان العربية ، ولكن هذه الضرورة لا يحافظ دائمـــاً عليها بصورة مستمرة وثابتة مع كل نتائجها ، وان فضل زعماء مثل خالد بكداش وحظهم يكمنان في أنهم كشفوا عن هذه الضرورة وعالجوها بروح موضوعية صارمة . وهذه الروحية لموضوعية لا تعوزها القدرة على اقناع جميع الذين يتجردون في هـذه البلدان لسبب أو لآخر من المواقف التقليدية : شبيبة فصمت عرى وشائجها مع الخلية العشائرية أو العائليـــة الكبيرة ، وامرأة تتلهف لممارسة حريتها ، وانتليجنسيا قليلة الرضى عن احوال بيئتها واقليات تشعر بالمرارة ، وأخـــيراً عمال وفلاحون يلقون بثقلهم المتنامي الذي يداخلهم فيه وعيهم بذاتهم .

ومعلوم أن هـــذا الانفتاح على الوعي مرهون بالانعتاق الوطني ، الذي لم

يتحقق على العموم ، الا على أيدي عناصر وفي ظروف قليلة الملاءمة مع الاشكال الاخرى للانعتاق : الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي بصورة خاصة ، وأحياناً لم يتم النصر السياسي الا بهذا الثمن . ومن هنا كانت فترة شاهدت انهيار بعض اشكال القومية ، حالما تم بلوغ الاستقلال ، او انفصال هـــذه الاشكال عن أشكال أخرى أكثر تقدمية ، وأكثر ثوريـــة ، وأكثر تعلقاً بالاصلاحات الاساسية الجذرية . وبالطبع فان ظروف هذه الظاهرة وتوقيتها تختلف حسب البلدان ، ولكن في كل هذه البلدان جاءت أو تجيء أو سوف تجيء برهة تتحول فيها دينامية النضال للانعتاق الوطني الى مطالب اكثر الحاحاً ، أو على الاقل ، أقل اتجاهاً نحو الاكتفاء بانتصارات الماضي .

وفي هذا السياق ، الذي رفعته أزمة السويس الى درجة الحدة المخيفة يقتضي تقدير نشاط حزب مثل حزب « البعث » العربي * وهو حزب علماني وثوري ، تحركـه شخصيتان ديناميتـان : عفلق ، والحوراني . وينتصر حزب البعث في انتخابات ١٩٥٤ على الرجعية المتدينة ويصطدم بعنف بالحزب القومي السوري ، الذي أسسه أنطوان سعادة عام ١٩٣٢ ، والذي يبدو عليه أنه قام ببعث تيار « الشعوبية » * القــديم ، وما ان وصل « البعث » الى الحكم منذ الوحدة السورية ـ المصرية ، التي كانت من صنعه حتى بدا عليه انه استنفد فيه كل قـواه (انتخابات ١٩٥٩)

فالتشكيلات التي تلعب على هذا النحو مصائرها على وجـــه العالم العربي بأكمله ، تارة في توافق ، وتارة في تنافر مع قوى التطور الداخلية ، أو مـع المشاحنات والمنافسات الخارجية تتصادم احياناً فيما بينها . هكذا كان الصدام في عمان (تشرين اول ١٩٥٧) وفي لبنان (صيف ١٩٥٨) وفي الموصل وكركوك

مؤخراً ، وفيما يخص لبنان أمكن اعادة التوازن القلق ، انما العميق الذي ترتكز عليه البلاد . وهنا أيضاً يمكن ملاحظة الشخصيات الاكثر طرافة : الطابع اللاتيني الحازم ، والمنفتح مع ذلك الذي يميز الشيخ بيار الجميل مؤسس حركة « الكتائب » . والفكرة العربية ذات الطابع المتصل بتولستوي وغاندي ، أو بالاحرى « التيار الاسيوي » الفكري التي يتسم بها الامير (؟) الدرزي كمال جنبلاط ، كل ذلك يتلاقى في مناخ من البحث لا ينفي فيه العنف النزعة للتسامح. بينما لا تزال الملكية التيوقراطية (أي المرتكزة على فكرة تحدر السلطة من مصدر إلهي ،) أو ارتكازها على الشرع (الديني) تعيش مؤقتاً وانما بصورة لا تخلو من الرخاء والارباح ، على القطب المقابل لهذه المحاولات للبحث اللبنانية ، والسورية ، المصرية ، والعراقية .

وبالطبع لم يتحقق تحرير الشعوب هذا ، ولحسن حظها فقط بتحركات لا تخلو من الانتماء لعالم التعبير ، بله للرمز أكثر مما تنتمي للمنجزات المحسوسة ، حتى لا تفقد فعاليتها — على صعيد المناورة الديبلوماسية بوجه خاص ، فهذا المحسوس انه الشعب الذي يقدمه باخلاص ونزاهة وعزيمة تلفت النظر ، منذ الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، والثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، والثورة العراقية عام ١٩٥٨ .

انما الفضائل الاكثر فعالية لتحقيق التحرير ليست حتماً الفضائل الاكثر جدوى للبناء . ولقد سبق ان قلت ذلك ، فالمشكلة التي تطرح اليوم امام كل البلدان المتحررة حديثاً ، هي مشكلة العدالة الاجتماعية والبناء الاقتصادي ومسؤولياتها الدولية تلقي بها من جانب آخر ، وبصفة جماعية هذه المرة ، في نقاش التسويات والقطيعات ذاته الذي استنفد جهود زعمائها ، بصفتهم الفردية

ايام التبعية والمنافسة العالمية ، والتعقيدات المتزايدة للآلة وضرورة التجديد التي يحس بها الجميع ، والارتقاء المتأخر انما النهائي الى مملكة الكمية ، كل ذلك يجعل اللعبة متزايدة الصعوبة وفضائل التقنية - الاقتصادية ، والحكومية ، والتربوية - تشدد قبضتها الخانقة وتلوح ببريق وعودها ، بينما حدة الهوس الشعبي، بدلا من أن تهدأ ، تزداد ضراوة على قدر المرارات التي يؤججها ضغط الدول الكبرى وتهديد اسرائيل .

وحالما يكتسب الاستقلال السياسي ، تتفجر ضرورات جديدة . وقبل كل شيء ضرورة البناء والتجهيز . وأكثر من ذلك ايضاً ضرورة عتق الانسان ، وتأمين المساواة ، وقد جند النضال لاجل التحرير قوى كان الكثير منها مرتبطاً بالماضي . وقد تغلبت أفكار تظل فكرة القومية العربية أشدّها تضرماً بالحياة على الاقل على صعيد تأكيد الذات القومية - وانتصرت على القوة الغاشمة والضغط الاقتصادي وأحياناً على الملاحظة المجردة . وقد اقتضى تحقيق ذلك شنّ الحرب على الكثير من الاشياء ، التيارات الانعزالية والجدران التي تؤلف في كل مكان تقريباً ، الفوارق الذاتية ، واقتضى العمل لغلبة المثل الاعلى على الكثير من عناصر الحقيقة الواقعة ، ولغلبة الفكرة العامة على الاحداث المعينة .

واذا كان الاكراد والنوبيون ، والبربر وابناء البحر المتوسط ،والسودانيون والاقباط المتحدرون من عرق قديم قد أسهموا في صنع الحقيقة العربية المستقلة ، فقد كانت تحدوهم في هذا الامر غريزة لاتخطىء اذ ان القوى المعادية المتمتعة بالامتلاك الكامل لوسائل العصر الصناعي ، ومنها التحليل الايجابي ، قد تعلقت بأصغر الثغرات في المجموعة الاسلامية . وقد عرفت هذه القوى كيف تضع البدو ضد أهل الحضر ، والريف ضد المدينة ، والطوائف ضد الدين القويم ، والجانب الاقتصادي ضد الجانب السياسي ، وتقريباً « الواقع » ضد « العدالة » . ومعلوم ان تطور الاحداث قد أظهر خطأ هذه القوى المعادية : فالمثاليون قد انتصروا على الواقعيين والطوائف لم تكن أبداً في نهاية المطاف ، غير انحرافات

والفوارق الذاتية غير ضروب من التفرقة .

انما – وهذه هي ربما النتيجة الاشد إبهاظاً والمتخلفة من العهد الاستعماري . تتم هذه العمليات التحريرية في وقت يصبح فيه الاستقلال الكامل الناجز ضربا من اللعب اللفظي . وفي عالم التلاقي هذا ؛ تنزع الدول نحو التلاحم والتجمع . والمصالح تستقطب حول روابط محورية كبيرة ، وبحشود ضخمة . وفي النفوس نفسها تهدم حركات توحيد الثقافة واطارات الحياة ، كلّ مظاهر الطرافـــة . فحركات الانعتـاق كانت مشربة بمثالية حرونة متمردة على نواميس الاشياء . أما الاستقلال فعلـــى العكس يخضع الشعب لضرورة الراهن المحسوس للامشاع ، للواقع المحدد . وليس من احد يستطيع ان يكون أكيداً من ان الفضائل التي تؤدي الى الانعتاق والتحرر لن تصبح انسياقا مع حتمية ديالكتية في أساس اسباب القضاء على الاستقلال بعد ان يتم اكتسابه ، اذن يلزم العرب ان يغيروا فضائلهم ، وان تعارض الالزامات المرهقة ، أعني الحريات الجديدة مع الاسلوب القديم ينفجر ويحتدم فوراً . ويستهل دخول الشعب في ميدان تنافس لم تعد تحميه منه جرائم الاخرين ، يستهل بالتخلي عن الرمز وبنوع من نبذ الروحانية ، وتنطفىء وجوه قديمة من الخلاف مثل الخلاف الكلامي حول قضية الخلافـة ، وحجاب المرأة ، واستيفاء الفائدة على القروض ، وتعدد الزوجات . فالكيانات الجديدة تشيح بوجهها دون تحرج عن كل ما تعتبره موضع القضية المحكمة (اي صدر بشأنه حكم نهائي) وهي تعير التفاتا كلّ يوم أقـلّ ، الى مـا للرموز والآيات من فضل على انعتاقها ، وان كانت تتردد في التنبه لذلك ، بصفتها الامة ، فان افراداً او مجموعات افراد يجرؤون بصفتهم المعارضة ، على الاقدام على هذه الالتفاتة فبازاء قسوة الجحود يتقابل عمق الانبهاث والتجدد وكل ذلك يأتي في موكب من الغضب والكآبة .

فان من المآسي الكبرى الكثير من هـذه البلدان انها لم تحقق الا في منتصف القرن العشرين كيانا يبهره طابع الفترة الرومانسية ، ودون ان تتوافق وتتلاقى فيها مثلما تلاقت في بلدان مناطق أخرى ، القوى المنبعثة من اكتشاف العـالم ، والابداع الصناعي والفوز بالحريات : عمليات توافق محظوظة نعم بها الانسان الغربي !

فكان من نتيجة ذلك ، ان المناضل الشرقي في الفترة الحاضرة لم يبق مـع مرور الزمن وتـولي القرن ، ومع اشتداد الضغط الاقتصادي بصورة لا تطاق ومع تزايد الحدة والمرارة في المعارك لم يبق هذا المناضل من النمط الذي عرفه الماضي . لقد عدّل مسلكه وسيره ووجهه وحتى ذهنيته ، فان انتصارات الجيل السابق أصبحت تبدو له انتصارات مشوهة ممسوخة . فتقطيـع اوصال سورية الكبرى والتبعية المالية التي تربط الهاشميين والسعوديين (بالأجانب) ، وتغشي البؤس في مصر وتركز اسرائيل ، « والترابط » المغربي ، وفي كل مكان الانقسام والتفسخ بين الاجيال ، والنزعات والاخلاق والطبقات ، وأزمة اوضاع التراتب كل ذلك يتكشف حالما ينتزع الانعتاق السياسي ، ويتسمم بتشابكات خارجيـة وداخلية ، ويبث المرارة في النفوس ويثقل سير كل شيء وكل الناس ، ويؤجج ضرام الاهواء في النزاعات . وان تشاؤماً مأساويا يتراوح في الكلمات والاشارات مع اندفاعات التبجح ، انه تقدير سليم لتخلف يعزى الى تنحيـة هـذه البلدان طويلاً عن تراثها والى تجريدها الطويل المدى من خيراتها ! ويعكس الكثير من الكتب العربية هذا التشاؤم ، وهي تعبر عنه بصراحة ونزاهة كفيلتين باثارة دهشة الذين بودهم الا يعرفوا من هذا العالم غير مظاهر الفخفخة الفارغـــة ، وكثرة التطويح بالايدي ، او الاقدام على الجريمة .

هذا الناموس المتمثل بالحالات الثلاث ، هذا السير في المراحل الثلاث لا يلاحظ

بالطبع بوضوح متساوٍ دائماً : اجماع في النضال لتحقيق المطالب القوميـــة ، ثم نغماس في المحاورات والنقاش وتوزع في البحث والتلمس منـــذ الحصول على النجاحات الاولى ، وأخيراً تطور نحو اشكال هي في آن واحد اكثر تمشياً مع مقتضيات البيئة وانفتاحاً على التيارات الكونية ، وفي بعض الحـــالات تنعدم حلقة أو حلقتان من هـــذا السير المتطور . فقدم الاوضاع والذهنيات في شبه الجزيرة العربية ، والتقاليد المرتكزة على شدةسلطان الدولة وعلى هيكل قوامه من المادة الفلاحية في مصر ، والطائفية في لبنان ، والعنف في العراق، والالتفاف حول البيوتات القديمة والعصبيات في سوريا مثلاً ، كل ذلك يغذي وجوهـــاً اكيدة من وجوه التنوع والتباين . ومع ذلك ففي كل مكان تتكشف وجوه تماثل وتناسب ووتيرات مشتركة بين مختلف البلدان العربية من جهة ، وبـــين الجانب السياسي والجوانب الاخرى من تطورها . ان جسداً مقطع الاوصال ومهدوراًينزع في تمزقه ، نحو استعادة الوحدة مع ذاته ، وان صح القول مع الآخرين .

الفصل الثالث عشر

محاولات تجاوز

ان اجراء المصالحة مع الآخرين ليس امرا سهلاً ، وانه لامر اقل سهولة ايضاً السعي للمصالحة مع الذات ، ويعجب السواح الذين يذيبهم الانفعال أمام كل غريب مستطرف ، والمتهكمون الساخرون من بين ابناء عصرنا الحاضر والمحللون المتدلهون « بقوام المادة » و « بالرواسب » ، وكل الذين يربطهم تبحرهم العلمي وحواسهم او عقلهم بالماضي ليس بماضيهم أكيداً ، وانما بماضي الآخرين ، كل هؤلاء يعجبون ان يوحي هذا الماضي لعرب اليوم كل هذا الغضب الممزوج بكل هذه الامانة ، فالماضي بالنسبة العربي من عصرنا ، هو ذلك الذي لا يزال يتكلم في اصوات الآباء الذين أحنتهم السنون ، وفي اصوات ذكريات الطفولة . الماضي هو الاب المغلوب على امره والأنا المهانة .

جيلان فلنتصور شخصاً متديّناً ، في حوالي الاربعين من عمره ومن طبقة بورجوازية ، يعيش في اعوام ما بين ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ في دمشق او القاهرة او بغداد ، ان نبذه العام لاعمال

الغربيين ، ولطرق عيشهم ، ولاخلاقهم ، وحتى لوجوههم يتكيّف مع تدخلهم في شؤون دنياه بصورة اكثر مما يجب ان يعترف به . فالمجتمع المحلي الوطني يستقبلهم ويطوقهم، انه يطيق هؤلاء الغربيين ، لكنه يفرز ضدهم اجساماً مضادة لو صح القول . وان ّ ردّ فعل معقداً يحاصر ويعطل قدر الامكان ، سير الدخيل . وردّ الفعل هذا هو مزيج من كبرياء الشعور بالانتهاء للجماعة او الفئة او الطائفة ، ومن التزمت الديني ، ومن الخوف من الجديد ، ومن الشعور المزدوج بالتفوق الروحي والتخلف المادي . وفي الواقع تترسخ عمليات توازن وتسويات . فالمؤمن يستخدم فيها نعومة ودهاء وراثيين . وعلى الرغم مما يمكن ان تحمله هذه التسويات من اهانات ضمنية للقلب ، واحياناً للعقل ، فانها تكشف عن فعالية هي على قدر التغيرات التي تزلزل في هذه الفترة المشاهد الطبيعية والاقتصاد ، وحتى الاخلاق على كل حال ، فان فضائل الحياة الجديدة تفعل فعلها . وهي تلطف بواسطة المبادلات الانسانية ، التي هي احياناً ذات قيمة بالنسبة للعصر ، لا اخلاقية علاقات العنف . وفوق ذلك فان الجيل القديم يعطي في كل مكان تقريباً من العالم العربي ، وفيما بين الحربين انماطاً سبق ان كانت في عصرها موضع نقاش ولكنها في الواقع حاسمة .

وقد خلفها في الحكم شبان اعوام ١٩٣٠ . وهذا لا يعني ان جيلاً متأخراً ايضاً لم يأت اليوم ليزعزع مواقع هؤلاء الاخيرين . ولكن لو اكتفينا بمواقفهم التي لا تزال مسيطرة حتى الآن ، نحن نقع على تضادٍ حادٍ مع مواقف ابناء الجيل القديم ، أكيد أن الميول الدينية القديمة تبقى قوية او ضعيفة على الرغم من نفيها المتزايد من الكلمات وأحياناً من الضمائر . وبوسعها ان تعود للظهور بفعل جماهير غير مثقفة ، او عناصر متطرفة ، أو بفعل الزلزلة الانفعالية .

ولكن رفض الاجنبي تحوّل من رفض ديني خصب بالتسويات الى رفض وطني لا هوادة فيه ، انــــه يتجه نحو شؤون التاريخ ولكنه يبقى مصبوغـاً بالمطلق .

وعلى الرغم من تطور الاطار واللباس ، واللغة ، وأساليب الحياة هـــذا التطور الذي يضع العربي شيئاً فشيئاً « على الصف » الواحد مع الاخرين ، يظهر ان حياته العاطفية تتبع طريقاً معاكساً ، فهولا يطرح فقط العهد الاستعماري، وانمـــا يتجاهل أو ينكر الاستمرار الذي يصله بالعهد الحاضر ، انه يستشهد بندوبه « ومخلفاته » أي ندوب ومخلفات العهد الاستعماري) ولكنه يستشهد بمنجزاته،وبكل بساطة يبدو على القومية العربية انها تنصب نفسها ليس فقط أداة لمقاومة التسلط الاجنبي ، ولكن أيضاً ذريعة لرفض قيم الاجنبي ، بينما ينتقل التكيف مع هذا الاجنبي ، هذا التكيف الذي يتابع بصورة مكشوفة كشرط من شروط الحيـــاة أو الموت ينتقل في الجيل الحاضر من التقليد الخارجي الى التمثل الداخلي ، ومن الحيلة التكتيكية الى الانضمام اللاارادي. انما الذي يوقظ الاحقاد هو تدخل اسرائيل التي تبدو للكثيرين من العرب « كمرحلة قصوى » جديدة للامبريالية ، ومن امبريالية مطلقة خالية هذه المرة من كل مرمى تثقيفي أو حتى من العلاقات الانسانية ، وهذا الذي يقوم به أيضاً المسيطرون القدماء بعنادهم الصبور والمسعورأحياناً فيعدم التخلي عن امتيازاتهم العتيقة ،أوبالتخلي عن اقل ما يمكن منها .

وهكذا تتغذى على جانبي البحر المتوسط حالات نفسية خبيثة ، فأوربا ، وبالاخص فرنسا ترفض الاعتراف بحق العرب في أن يكون لديهم ما يمكن ان يكون أمانة لدروسها في انتفاضتهم الوطنية والاجتماعية ، وعلى انها المحرك المعجل لتاريخهم هي تظل بصورة مناقضة للمنطق الظاهر ، متعلقة بالماضي

على نحو يتلف ثرواتها ومهابتها ، وفي الجانب الاخر هم (أي العرب) يجمعون في كراهيتهم للعهد الاستعماري ما يمكن ان يكون قد تضمنه من مفيد وغني بالوعود ، أو على الاقل من سببية ، ويتم تبادل أعمـــال العنف فيرُدُّ على تأميم القناة بالاعتداء على السويس ، ويردون على هـــذا الاعتداء بحرق كلية حلب الثانوية . هذا التسلسل المخيف يثير المرارة والغضب ، وينمي سياقاً مطرداً من الدسائس واعمال العنف والديبلوماسية السرية ، ومن الشانتاج الاقتصادي أو من التمرد ضد الجاذب الاقتصادي ، وكل ذلك يؤخر عمليات اعادة نظر لاغنى عنها وينسف حظوظ نجاحها عند جميع الفرقاء .

في الظروف الحزينة التي عرفتها اواخر عام ١٩٥٦ ، اعترف لي احد المثقفين المسلمين ،البيروتيين وهو مشبع بالثقافة الغربية، انـــه لدى سماعه الاخبار ألقى بقرف بكتاب لاحدى تراجيديات راسين ، اذ انه اعتبر هذا الشاعر بصورة لا تخلو من الشتيمة مرتبطاً بالتكافل والتضامن مع «جي موليه » Guy mollet. وان عصرنا يعرف ويا للاسف ! في الجانبين حركات من هذا النوع ، وان من العدل ان نقول ان هذا المثقف قد ندم على اندفاعه . ولكن لا شيء يستطيع ، افضل من هذا المثل الممتاز ان يصور عمق النزاع والاخطار التي يجعلها تهدد انبل وجوه التعاون .

وعلى الطرف الاقصى تندفع بعنف حركاتُ حقد يستطيع اشتداد اوارها ، الذي يكمن خطره دائما ، ان يحولها الى طلاق نهائي ، وفي ذلك مدعاة لضرر الفريقين . فماضي التابع القديم لم يعد يبدو له ، والحالة هذه كمقدمة تاريخية ، وانما كاهانة لحقيقته ككائن . والفوارق الاقتصاديـــة والتقنية والثقافية التي تفسره هي موضع انكار على الرغم من كون الاحساس بهـــا مريراً حتى ان

التوسع الأوربي يبدو أنه كان ثمرة قرار جهنمي ، تأتي هبة التحرر السماوية كملحق له ، وتشارك هذه الاحكام السريعة والمجتزأة في نظرة كلها تركز على اللون الاسود أو على اللون الابيض ، فهي بالتالي تسيء للتحليل ومثلما هي تتسلسل من بعض الوجوه ، من رواسب لاهوتية (اي من اعتبارات علم الكلام) فان الدوافع التي تستقيها من عناد الانانيات الاوربية الذي نعلمه واقعاً أكيداً الى أقصى حد تستطيع ان تحمل على اعتبارها بمجموعها مصطبغة « بالغيرية » .

وفي الواقع ، فان هذه الحماسة في الرفض تطال الذات ايضاً وتشاؤم الشبيبة العربية ، الذي يحمل عليه أحياناً القيّمون على الاخلاق هو عندها أحياناً كثيرة ضريبة الاعتداد بالنفس الذي تضيفه الغيبية (الميتافيزياء) فان حالات السقوط والانهيار (النفسيين) هي عنيفة ومتجاوزة للحدود بمقدار ما كان زخم الانطلاق عنيفاً ومتجاوزاً الحدود . وتثبيط العزائم بتبع عن قرب الاندفاع والغلو في الاشارات والاقوال يتخلل دورة القيل والقال واليأس الباعثة على الخراب والتهجم ضد الطرف الآخر يتحول الى شعور بعقدة الذنب لانه يلاقي حتماً مقاومةً ليس فقط من قبل دهاء الجانب الآخر أو من قبل قوّته ، وانما أيضاً مقاومة تكمن في طبيعة الاشياء وفي صميد الشعوب العربية ، تغذي هذه الحركات المتناوبة المحاورات والمناقشات التي تزيد طبعاً حدتها عن الحد المعقول ، وهي تضفي على حملات الشتائم حرارة شبه دينية لانجدها في أي مكان على الدرجة نفسها . حملات محمومة ضد الصهيونية وضدّ الاستعمار ، ولكن ايضاً حملات من زعيم ضد زعيم ، ومن حزب ضد حزب ، ومن نظام ضد نظام . والوحدات القومية ، والوحدة العربية ، يعسر عليها ان تنمو في مثل هذا الجو ، الذي تبعده جذور أسبابه وطرقه في التعبير اكثر مما تبعده الوقائع عن نزعة انسانية وديموقراطية يدّعي الجميع الانتماء اليها .

ولحسن الحظ ، فان ردود فعل من هذا النوع ليست عامة ولا دائمة . انها تكشف عن خط سير تاريخي لم يتم اجتيازه الا بصورة ناقصة . هذا أكيد ولكنني أود ان اتلقى الوعود بالأمل في هذا السير وبتفسيره ، وقد أخذت الطبقات المثقفة وعلى إثرها الطبقات المتوسطة تتجرد من رد الفعل القديم المتمثل باجماع « الأمة » على الجهاد ضد المشركين (أو على اضمار الكراهية لهم) والغلو والتمادي لم يعودا يخفيان على الحس السليم عند الرجل العامي ، ولا على خبرة رجل الدولة ، وان أدبا سياسياً كاملاً أصبح يدين هذه المبالغات والتطرف . وقد بدأت تتأكد عمليات اختيار اكثر نضجاً والمواقف اللاعقلانية بالنسبة للآخرين وبالنسبة للذات اخذت تفسح المجال للنقد التاريخي الذي يحالل أسباب الخير والشر ، ويفصل عند الآخرين كما عند الذات ؛ العناصر المفيدة والعناصر السلبية ، وقد بدأت هذه الاتجاهات الجديدة تلقى تعبيرها منذ الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى ، وتسهم ابحاث قسطنطين زريق وكتاباته حول «النكبة »* منذ ذلك الحين ، في شق الطريق لهذه النظرة الايجابية التي يدعمها كتابه الذي ظهر حديثاً « التاريخ ونحن » * وهناك ما هو اكثر دلالة من هذه الاثار ، من هذه الناحية ، تلك هي المشاعر بالمسؤولية التي ترافق تحركا فاعلاً لم يعد يقتصر فقط على مقاومة مجالات الابداع عند الاخرين ، وانما يريد لنفسه ان يكون على القدر نفسه من الاقدام على الانشاء ، ومن الابداع . فهذه المسؤوليات تحمل ما يمكن ان يصبح إعادة نظر وعملية انقاذ ، وهي تحملها بصورة تتفاوت في نفاذها وفي وضوحها حسب الانظمة والبلدان المعنيّة .

الى اي حد اصبحت اعادة نظر من هذا النوع متقدمة عند أولئك بالذات الذين كنا نتهمهم بسهولة بالكراهية المتأججة للاجنبي وبالشعور القومي المتطرف؟ ذلك ما سيتضح في الفقرة التالية .

عودة الى طرح القضية

لقد بدأ يتضح للكثير من اذهان الشرقيين ان تحليلاً سليماً "ملزم" بتحاشي الخلط بين الفئات . فمن حقيقة ان ظهور الكيانات العربية الحديثة قد تحقق كشيء مناهض للتبعية ، اي في حركة معاكسة لهذا الاستعمار الامبريالي الذي دمغ بمثل هذه القوة ، التحرك الفاعل والكائن ذاته عند الامم الكبرى منذ قرن [٢] ، لا تستتبع ضرورة نكران كل ما تقدمه هذه العودة من عمليات اتصال واستمرار ، فان شعوراً وطنيا متألما ، وحقداً عادلاً ، وتفجر غيظ الانسان المهان ، كل ذلك يعبر عن البعث القومي ويرسخه في القلوب . وعلى قوة هذه الظواهر ، وعلى التجنيد الذي تحدثه في الجماهير ضد السيطرة الاجنبية ، يتوقف نجاحها قبل كل شيء ، والرموز التي تتجسد فيها في آن واحد مشاعر الحنين لدى الجماعة القديمة وآمالها الفتية ، قد ساهمت في احداث الانعتاق اكثر مما أسهمت الاستعدادات المادية . وفي هذا ما يفسر كون تعميم مشروع ، ولكنه متسرع قد ادان دفعة واحدة من الحقبة السابقة ، روحها المحركة ، « الاستعمار » * المهول واشياء لم تكن جزءاً لا يتجزأ من وظائفه ، او حتى على فرض انها كانت منه ، كانت تخدم بصورة غير مباشرة انطلاق العرب اللاحق ، فهذه هي خاصة حال الثقافات الأوروبية مهما بلغ من التشويه او من الأنانية في طريقة نشرها : فهذه الثقافات

---

٢) هذا ما كان يعبر عنه باندفاع متطرف ، ولكن بنفاذ في النظرة ، المقال الاول من مقالين صدرا في جريدة « المجاهد » الناطقة بلسان جبهة التحرير الجزائرية . وقد اثار هذا المقال لقد جيل مارتينه Gilles Martinet في مجلة فرانس اوبسرفاتور الاسبوعية في العدد الثاني من كانون الثاني ١٩٥٨ .

أثبتت انهـــا عنصر لا يمكن نبذه من عناصر التجديد ، وعمليا لا يسع أيّ استقلال ان يرجع الى الوراء [٣] في هذا المجال ، فهـذا التقدير السليم ، الذي يمتنع عن استخدام عدوى الشيء الخاص بالذات أو الـداخلي ، يمثل في هـذه البلدان ادراك الحكم التاريخي ويساعد على التكوّنات الذاتية الاولى .

وتتكاثف في احداث ذلك عمليات تطور داخلية وفي الواقع يتم الانعتاق رغم اندفاعه الوطني كحدث معاكس لمرحلة مولية من الذات بقدر مـــا هو معاكس للآخرين . فالاستقلال لا يوصد الباب على عمليات الاتهام (والمناهضة وطرح القضايا) . انه يدشن عهداً جديداً من هـــذه العمليات . فلم تعد الكيانات القومية ، والحال هذه تفقه كمقولات معاكسة لعالم الحضارة الآلية، وانما كأشياء مشاركة فيه ، هـــذه الكيانات تريد لنفسها ان تكون تأليفا (سانتيز) بين هذا العالم وحقائقها الأصيلة الذاتية . فلقد بلغت الاستقلال وهي محدودبة الظهر تحت تأثير « الآخر » الذي يستبدّ بها ويثقل عليهـا بجوره ، وعلى قدر ما كانت تعرف كيف تتكيف معه : بالمعدات ، وبالمظاهر الخارجية هـذا اكيد . ولكن ايضا ، وبصورة تزداد عمقا ، بطرق العمل واكاد اقول أساليب الفكر .

وان الآفاق الباعثة على الأضطراب التي تفتحها ملاحظة من هذا النوع تقود ، طبعاً ، الامم الجديدة نحو عملية اعادة صهر لذاتها كثيرة التطلبات . وعلى الاقل، فهي تقود الآداب والسياسة ، واكثر من ذلك هي تقـــود العواطف وطرق

٣) اننا هنا امام معطى واقعي ، يقتضي الذين يشعرون بالهلع او يتظاهرون بالشعور بالهلع من برامج « التعريب » ان يتاملوه جيداً .

السلوك الى التقصي والبحث ، والاحتباس ، انها تقودها الى الراديكاليــــة وعلى صعيد التشكلات السياسية ، رأينا انه يحدث تفجر الكتل القديمة ، . واستبدال الحزب الذي فاز بالاستقلال بصيغ اخرى متجهة نحو التحقيق الفعلي لهذا الاستقلال . وبطريق موازية ، تتغير الدعائم الاجتماعية لهذه الامنية المتكاتفة ، الامر الذي لا يتضمن إلا كل ما هو عادي . وبامكاننا ان نرى في الانقسامات والمنافسات التي تنشب بين البلدان العربية ذاتها ، وفي داخل كل بلد بمفرده ، النتيجة الفعلية لجهود لا غنى عنه لبلوغ الدقة والصواب .

ويكمن جانب من هذه الوعود في التقدم في مفهوم الامـــة ، الذي هو الموضوع المثير للانفعال في المعارك الاولى . وارتقاؤه من الميدان الشكلي الى المجال المحسوس ، وانفتاحه على وجوه التضامن في العالم الفسيح : كل ذلك يشكل مقاييس ودلائل على التنوع ، أعني أدلة على التقدم بين البلدان العربية . وليس من باب الصدف ان يستحث المفرد « القومية »* ، بمثل هذه القوة ، تحليلهـم ، وان يغذي كتباً ومنازعات ، ومؤتمرات . وقد اصبحت القومية المغلقة لا تبدو في عين البعض الا كنسخة مقابلة للاستعمار . فهذه القومية ، في وفائهـا للرموز التي التي أعانتها ، طيلة جيل ، مثل رمز « اليأس الجميل » عنـد الشعراء ، والتي تهدد بان تسيء اليها ، بعد الآن ، وفي اصطباغها بالغيرية والعاطفيـــة ، وفي سعيها المرهق للتقصير من المسافات التي تفصل بين الدول الكبرى المسؤولة عن المرحلة الاستعمارية ، والتي يزيدها تسارع التقنية لصالح الآخرين ، أقول ان هـــذه القومية بوسعها ان تخشى الموت ، في مدى بضع سنوات ، اثر موت شريكهـا الاستعماري . فهل هي لم تقضِ على هذا الاخير الا لتخلي ، بدورهـا ، المكان لمجيء الآخرين ؟

هذا هو الموقف الذي تعتزم استغلاله كل الحركات التي تزعم، في الشرق، انتماءها للاشتراكية والتي تمتد دائرة تنوعها، الخصبة بالترجيمات الغريبة من مذهب اشتراكية الجماعة المتعلقة بالماضي، من نوع الاخوان المسلمين الى الماركسية المتشبهة بالاتحاد السوفياتي، مرراً بأشكال فريدة في بابها، مثل «البعث»* السوري، والحزب القومي السوري(؟) او الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يقوده جنبلاط. صحيح أنه، رغم كل عمليات التحديد التي تناولت الاطار والاخلاق والروح، والتي عملت عملها منذ نصف قرن، يترتب على النظرات الحديثة ان تحسب الحساب للتراث القديم، بقدر ما يزال هذا القديم يسيطر، من وجوه عديدة، على الجماهير: ويحتفظ في أعين الكثيرين بقدرته على منح الضمانات. ومن هنا، كانت اشياء كثيرة على جانب من الغرابة في المفهوم، وكثير من وجوه التنوع في التكتيك الذي تتبعه هذه الحركة او تلك. وفي نهاية المطاف سوف يكون المستقبل ملك الحركة التي تظهر قدرتها على ان تترجم هذه الشعوب لذاتها، بصورة أقرب وان تعدّها للنضال باكثر ما يكون من الفعالية. أعني الحركة التي تقدر على ان تحدد، أفضل من الأخريات، هذه الشعوب، بجعلها تندمج، باكثر ما يكون من العمق، مع العالم. والاحزاب والحركات التي تفشل في تحقيق هذا الهدف المزدوج، المتضمن اعادة ترميم الذات وتمثل الآخرين، في آن واحد، سوف يكون مصيرها الانهيار. واختيار المستقبل، لا بصورة عملية إدانة او عمل ميتافيزيقي (غيبي) وانما كعمل تنافسي وخلاق [٤]، هو الذي يميز، اليوم، في الشرق، في اعتقادنا، عقيدة، او اتجاهاً

---

٤) كان علي، بالطبع ان اذكر، بين هذه الجهود التي تحاول التجاوز، كتاب قسطنطين زريق «نحن والتاريخ»* الذي ظهر حديثاً في بيروت. وقد ظهر في اللحظة المناسبة، كما يقولون، ليحدث تقاطعاً مع بعض الآراء الواردة، هنا، ولكن بصورة متأخرة اكثر مما يجب حتى استطيع ان افرد للكتاب ولمؤلفه المكان الذي يستحقانه في هذا الفصل.

او فكرة تعمل لانتصارات الغد .

طبعاً أي ثمن ، يلزم دفعه لاجتياز كل المراحل ، هذا الذي يشير اليه عنف الانفعالات التي تثيرها هذه المحاولات لاعادة طرح القضايا ، وحرارتها الذاتية في اندفاعها لنسف المواصفات . ولا يهم ان يثير هذه المناظرات والمشادات هـــذا الشخص او ذاك . أجل لا يهمنا ان يكون قبطي اصيب بعدوى المادية ، كسلامة موسى ، او شيعي من الكاظميين ، كالوردي ، او واحد من هيئة علماء الازهر ، كخالد محمد خالد [٥]، هو الذي يثير الفضيحة حول افكار وباساليب تختلف وفقاً لحالة كل منهم ، وتتباين كذلك كتباين حالات الكثيرين من المصلحين الشرقيين الآخرين ، الذين لا يعادل تباينهم إلا ضراوتهم في عرض افكارهم . فالذي يهمني ، هنا ، هو الكدمة (او الصدمة) التي تحدثها المحاورة . لانها تكشف عن حدة النزاع .

المفكرون الثوريون يشير الوردي [٦] ، في مقدمـــة كتابه « وعاظ السلاطين »* الى هـــذه العواطف . وفي نوع من التهذيب السامي ، وهو يخاطب زملاءه : « لقد أفدت كثيراً من اعتراضاتكم ، ولكنكم تضعون أنفسكم في فترة وأنا في فترة اخرى .

٥) الذي لن تستوقفني ، هنا ، افكاره المتأثرة بافكار الكاتب السعودي الشيخ « القاسمي » ، الذي خلع الجبة والعمامة ، والتي ظلت كثيرة الايجاز ، وبعيـــدة عن ان تكون على قدر ضراوتها .

٦) تهمنا من هذا المؤلف ، خاصة ، محاضرة ، القاها ، عام ١٩٥١ ، عن البسيكولوجيا الجماعية للشعب العراقي : « شخصية الفرد العراقي » * ، والكتابان اللذان اثارا الفضيحـــة : « وعاظ السلاطين » * (١٩٥٤ » و « اسطورة الادب الرفيع » * (١٩٥٧) وكلاهما صدرا في بغداد . ولنذكر له ايضاً كتاب « خوارق العقل البشري » المتصف بالطابع الفطري ، وقد صدر عام ١٩٥٩ ، وكتاب « مهزلة العقل البشري » * ١٩٥٥

انتم في واد وانا في واد ، انكم تستشهدون بالماضي ، عندمـــا احاول أن افهم الحاضر » ، فهل هو على حق ؟

انه ، الى حد ما ، يهاجم الافكار المتلقاة ، على طريقة فولتير في كتابه : « القاموس الفلسفي » انه يشارك علماء الاجتماع فكرتهم بان مدنية معينة هي كل لا يتجزأ وانه لا يمكننا ان نستعير منها تقنية او حركات دون ان نطال المجموع المتلقي بكامله . ومعلوم ان « ازدواجية » ، تصيب ، الى حد ما ، علوم الاجتماع العربية . وفي العراق ، ارض الالتحامات منذ عشرات القرون ، اكثر ممـا في أي بلد عربي آخر : ففي جانب ، تقوم قيم حضرية قديمة جـــداً ، وفي الجانب الآخر ، تقابلها قيم بدوية ترتكز على جمالية التنافس ، المتصفة بالتفاخر والجشع ، جمالية قوم « نهابين وهابين » . وهذا التنازع المستمر بين الاندفاعات ، ويكاد يكون بين المذاهب الاخلاقية ؛ يدفع بالعقيدة المنتصرة الى التمجيد الطوباوي ، والنفعي مع ذلك ، للفضيلة . فيستتبع ذلك : ان كل الناس يتربعون في دنيـا التناقض . فهرون الرشيد كان يغرق في النحيب لدى استماعه لأحـــد الواعظين الصالحين ، وهو يغمى عليـــه من شدة البكاء ، ثم يعود الى لهوه بنهم أشد . ويروى ان ذئباً كان يستمع الى أحد الواعظين الذي كان ينصحه باحترام قطعان الغنم ، فيقاطعه الذئب بكل لطف : « اعذرني ، يا صاحبي ، ان تركتك لحظة . فأنا أرى في البعيد خروفاً يمر ، وليس في نيتي ان أدع فرصة افتراسه تفوتني . وسوف نعاود حديثنا بعد ذلك . فعلى كل درجات المجتمع الاسلامي ، وفي كل عهوده ، كما في كل مستويات النفوس ، يتجلى هذا التضاد القاتل بين الموعظة والواقع .

ومن هناك كان توتر شديد في سبيل الخروج بمبادرات ثورية : وهـــذه

المبادرات تعود الى الماضي البعيد جدا : الى عبدالله بن سبا هذا الشخص الغريب الذي يحرض أبا ذر الغفاري على الثورة . والخلاصة ان قريشاً كانت شبيهة بقلعة الباستيل . فحاول عليٌ ان يقتلعها ، علي ، صفي الرسول ، والذي أخذ ، منذ ذلك الوقت في تاريخ الاسلام « موقفاً طبقياً » ، وهذا الموقف جعل منه البطل الذي يدافع عن حقوق طبقة المستضعفين والمستذلين والمهانين. ويكدس الكتاب، على الطريقة القديمة ، حشداً كبيرا من الوقائع المستعارة من التاريخ التقليدي ، ولكنه يتناولها بمعالجة كاوية فالنزاعات بين الشيعة والسنة ، بين التجديد والتقليد ، بين الصراحة والنفاق ليست إلا وجوهاً متعددة من نزاع واحد ، في نظر الوردي « لقد فشل علي في سياسته ، ولكنه نجح في مجال آخر ، هو مجال الثورة الاجتماعية . فبدونه ، كان الاسلام قد بقي دين السطو ، ولكان خان رسالة الرحمة التي حملها النبي الى الناس » . وهذا النقد لا يعف حتى عن القومية العربية ، « التي تحارب الاستعمار بسيفه ، فيما هي تغذي وتربي في باطنها الاستعمار » ، وأعني بذلك تمجيد الفضائل البدوية . ولكن المغلوبين على أمرهم في عهد الامويين قد وجدوا في العلوم الدينية طريقة للتسامي بآلامهم ومصائبهم ووسيلة وأداة ضد الاستبداد . ومن هنا كانت هالة التعظيم الاسطورية التي احيط بها (الإمام) علي . ورغم الانحرافات والمبالغات والاخطاء ، يجد الاستمرار الثوري في علي ينابيعه ومرجعه ، في رأي كاتبنا ، هذا الاستمرار الثوري الذي يضع ، اليوم كما في البارحة ؛ في مقابل الدعوة للاخلاق التي يحتمي خلفها الذين يملكون ، ومقابل المذهب المرتكز على القيم التجارية (المذهب المركنتيلي ،) ومقابل الجشع ، يضع ديمقراطية بطولية بعيدة ، في الواقع ، ولكنها حاضرة في النفوس ، والتي هي وليدة هزائمها اكثر مما هي وليدة انتصاراتها ، والتي يصنعها شهداؤها اكثر مما يصنعها القادة .

وقد حبا هذه الاطروحة ، ما يقارب العشرين كتاباً جدلياً [٧]. وغالبية هذه المؤلفات تصدر عن قوم مؤمنين اتباعيين . وبالنسبة اليهم ، تشكل الاخلاق كتلة متراصة لا يستطيع ان ينال منها هذا الشخص او ذاك ، لانها من جوهر الهي : « وأنت ، هل أنت أكثر حكمة من الله ؟ » وفوق ذلك ، فبأي وجه تحمل سلطة الشريعة مسؤولية فتن الزمن ومفاسده التي كانت تنكرها وتندد بها ؟ والمحاكمة الكبرى الثانية التي احيل اليها الوردي تدور حول الاخلاقية الجنسية .فقد كان يرى فيها مصدر التحريمات الأكثر اغراباً في الخيال، انطلاقاً من عمليات الكبح والاندفاع التي تنهك ، في رأيه ، المجتمع الاسلامي وتهدم حيوية الشبيبة . فكان يوصي بسفور المرأة ، والمخالطة الحرة بين الجنسين، والرقص « والمغازلة »* فيقولون له : « ولكن هذه الدعوة تعني محاولة مداواة الرذيلة برذيلة أشد . »ويناديي احد معارضيه بالظفر ، ولكن بصورة اعتباطية ، مظهراً ان اللواط او السحاق لا علاقة لها مع التحريم الشرعي لاختلاط الجنسين! والموضوع المستمر لهؤلاء الجهابذة الحكماء هو التلويح بشبح التقليد للغرب المرعب ! « لقد كنت في بلاد الظلمات . فأتيت منها بافكار باطلة . وأنت تبغي فرضها على ابناء قومك لتفسد عقائدهم » . وقد استشهد احد المحاورين بالرسول ، الذي تجلى له في المنام ، ليدمغ المارق من الدين . وقد تسامى النقاش في كراس صدر بعنوان « سفسطائية للبيع » [٨]. اذ ان الوردي ، في تحمسه لاعادة الاعتبار

---

٧) انظر خاصة : محمد صالح القزويني : « الموعظة الحسنة » ، وسهيل السيد : « حكم المقسطين » « ومهازل » ، ومرتضى العسكري : « مع الدكتور الوردي » ، وجلال الحنفي : « رسالتان واطروحة » ، ومحمد الجبار : « اضغاث احلام » ، الخ ..

٨) « سفسطائية للبيع » لعبد الرضى صادق (١٩٥٦) الذي شعر جيداً بالمدى الذي يذهب فيه الوردي ، في نقده للتقاليد ، في الاتجاه المعاكس لهذه الافلاطونية ، المتزجة بالافلاطونية الجديدة ، وبصورة مناقضة لمنطق الظاهر ، بافكار ارسطو ، حيث وجدت الثقافة الاسلامية ، في اوائل نموها ، ميداناً للتبادل مع التقاليد الغربية . فاصبح من المنطقي ان نجد محاولة اعادة النظر التي يطمح اليها البعض الاغراءات للعودة الى ما دون ذلك : الى النظرة النسبية التي كان يدعو اليها السفسطائيون ، وربما ايضاً الى ما دون ذلك بأكثر ، ونعني بذلك ، الى فكرة الصيرورة التي كان ينادي بها هرقليطس » ، انظر هذا الكراس خاصة في الصفحات ١٠ و ٢٨ و ٧٤ ، و ٧٨

والمكانة للفكرة النسبية ، يدافع عن مذهب فلاسفة « ايله Elée » (الذين كانوا يضعــــون المطلق في الذات المفردة ، الابدية السرمدية والتي لا تعرف التبديل ولا التغيير ، ضد آراء افلاطون .) اما خصم الوردي ، فيضع مقابل هذا التفكير ، الذي يريد لنفسه ان يكون مرتبطاً بتبدل الاحداث ومرتكزاً على الواقع ، تفكيراً نظرياً يقينياً ، مرتكزاً على النصوص الحرفية وعلى المنطق الشكلي حيث لا يجد صعوبة في الفوز .

ويبدو ان كل هذا القدر من الحجج والبراهين لم يكفِ لاقناع صاحبنــــا الداعي للاصلاح . فهو كذلك ، قد انطلق ، منــــذ ذلك الحين ، في حملة ضد « اسطورة الادب الرفيع »*. فالقيم الجمالية في التقاليد العربية ، تتحدر ، مثــل اخلاقيتها ، من طبيعة الاشياء ومن الوظيفة الاجتماعية ! مدح السلطان ، وتمجيد الخمرة ، وغزل حسي ، شهواني ، وتأنق لفظي ، وكل ذلك لا يظهر فقط عند بلاغيي عصور الانحطاط ، ولكن ايضاً عنـد أكبر الشعراء الكلاسيكيين الذين يدعو الوردي الى استبعادهم دون تفريق . انه يريد ان تاتــح دروب جديدة . ولكن اية دروب ؟

لا شك في انه يريد فناً اجتماعياً ، وجمالية مبنية على المعرفة الاجتماعية . وانها لبدعة مناقضة للمنطق الظاهر ، في جهاز فكري كالاسلام ، مصون الى ابعد ما يكون ، وحيث تقدم المادة والشكل من ذاتها قيماً من هذا النوع . ومهما كان الامر ، وعلى الرغم من ان الادب العراقي الفتي اصبح غنياً بمحاولات جـــد قيمة ومن ان شاعراً كعبد الوهاب البياتي وقصصياً كعبد الملك نوري يستطيعان ان يستجيبا لنداء الوردي ، فانني كنت اكثر ميلاً لان اطلب من مصر امثلة اكثر تنوعاً وأكثر نضجاً في هذا الميدان .

والقاهرة لم تعدم يوماً محلّلين نيّرين . وهذه بعض الاسطر استعيرها من واحد منهم : « ان ثورتنا في المرحلة الحاضرة ليست الا ثورة عسكرية ، وان الطفرة التي احدثتها لا تتناول الا الطبقات الحاكمة . فهي لم تغير بعد شيئاً من الاخلاق، والعلوم والصناعات ، والمبادلات ، وهي لم تجعل بعد الغلبة للعقل على الهوى في نفوسنا . وشهواتنا القريبة والبعيدة تسد الطريق أمام حقائق التقدم ، وانا اتجاوز انقساماتنا الطائفية ، وتشعبات ميولنا ، وانعزالنا في خضم المنافسات القوية التي تحيط بنا ... »[9] . ومعلوم ان هذه الاسطر لم ترد على ريشة احد الخصوم المنتقصين من جمال عبد الناصر . فهي تعود الى زمن بعيد ، الى ما قبل الحرب العالمية الاولى . انها صادرة عن شبلي الشميل[10] ، صاحب (الدراسات القيمة) في مجلة « المقتطف » ، وهذه المجلة قد هاجرت من بيروت الى القاهرة ، وعلى نقيض مجلة « الهلال » ، التي كان يغلب عليها خاصة الاتجاه الادبي ، فهي كانت تعنى بالجوانب التقنية من الحياة العصرية .

وقد جمع الشميل في سنة ١٩١٠ ، مقالاته الرئيسية . وهي ينبعث منها حماس للتفكير العلمي والوضعي . وكان ذلك نوعاً من التحدي بالنسبة لذلك

---

٩) شبلي الشميل : « اراء الدكتور شبلي الشميل » ، القاهرة ١٩١٢ ، « الرجحان » القاهرة ، (قبل الحرب الاولى) .

١٠) الذي يعود الفضل في الكشف عنه للجمهور الغربي الى لوسيرف Lecerf في مجلة الدراسات الشرقية Bullet. d'Etudes Orientales » عام ١٩٣١ ص ١٠٣ وما يلي ويلزمنا ان نضيف الى اسم الشميل اسماء يعقوب صروف والدكتور نمر ، وغيرهم من مؤسسي ومحبي المقتطف »

العهد [١١] ! والمعارضون لافكاره لم يكونوا قليلين ، وبامكاننا ان نفهم ذلك فان قصيدته « الرجحان » كانت تمجد اندماج الانسان في الطبيعة الارضية ، وعبث كل محاولة لفصله عنها . وينهي القصيدة بصرخة تزخر بالتفاؤل والايمان بعظمة العصور الحديثة : « قارنوا بين عصرنا والعصور الدينية ، لقد كانت اسوأ من عصرنا » . لقد كان موقفاً ثوريا ليس فقط بالنسبة لرجال الازهر ولكن حتى بالنسبة لأنصار الليبرالية البورجوازية ، وللداعين لخلق نموذج « للانسان الطيب » (او الأنسان المهذب) الذي يظل مرتبطا بالشرق ولكنه يتفتح للغرب ، والذي يجسده منذ تلك الأيام حتى يومنا هذا ، اناس مثل احمد زكي ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وكثيرون آخرون من اصدقائنا .

وفي ١٩١٢ ، ينشر الشميل كتابه « مستقبل العلم » تحت عنوان « آراء الدكتور الشميل » . وينبثق من هذا الأثر اتجاه عضواني على طريقة هربرت سبنسر . فالاديان ليست غير ظاهرات اجتماعية عرضة للملاحظة والنقد ككل الظاهرات الاجتماعية الاخرى وتندفع البلدان العربية في تيار تطور مذهل . ولا يزال هناك الكثير امامها قبل ان تنهي هذا التطور ، « لقد انتصرت « نهضتنا » * خاصة في مجال التجريد والخطابة ، والخيال وعندما نريد ان نقدر هذا التقدم في الميدان المحسوس ، يلزمنا ان نستعين بالميكروسكوب » . وهذا

---

١١) ويزداد هذا التحدي بمقدار ما يحتفظ مفرد « الرجحان » * ذاته بحلاوة طعم التمسك بلغة الشرع ، وكلمة « الرجحان » تعني في الشرع عنصر الغلبة « او الترجيح » الذي يؤدي الى ميل كفة الميزان في اتجاه فكرة او اخرى ، وانه لتحد من قبل الشميل ، في استعمال هذه الكلمة في اصطلاحها الوضعي الصرف .

التأخير هو ايضا يعزوه للاستعمار الادبي . وهو يشجب نوعا معينا من الثقافة المتنوعة المعرفة ، والقائمة على الاستناد الدائم للماضي بصورة تتضمن التقديس لهذا الماضي ، وعلى التضلع بالتنقيب عن هذا الماضي . وهو ينكر هذا التيار ليفسح المجال امام العلوم المضبوطة . فهل هذا الذي يتكلم هكذا هو ملحد ؟ على كل حال بعد وفاته (١٩١٦) ، يشكو ابنه جبرائيل بولاد من « المسؤولية الهائلة التي كانت تضطلع بها تلك النفس » ويعرض نفسه فـداء عنها ، و كفارة (١٢)

ويدل هذا الامر على عمق الحوار الذي لم يعرف احد في اوربا ، كيف يفقهه في حينه. انه يلج ضمير ابناء الاقليات اولئك الذين اضطلعوا منذ ذلك الحين، وقبل اخوانهم بكثير باعباء الشرق وهو ينبيء عن وجود ارادة تاريخية سوف ينفخ فيها تأييد الاكثريات الاسلامية الدم وحرارة الحماس . ولكن كان بوسع هذه الارادة ان تحمينا من التردي فيما لا سبيل للتكفير عنه، لو قابلها تفهم أكبر من جانبنا. واذا كانت عملية انبعاث « اللغة » تمنح المسلمين والمسيحيين القاسم المشترك ، فان الاندفاع العقلاني الذي تميز بـه أمثال الشميل وصروف (وفرح) أنطون كان يوسع الغرض نفسه امام الحوار بين الشرق والغرب . وكم من فرص اضعناها نحن وهم حينذاك افغي مصر نفسها، انقضى وقت طويل قبل ان يعطي المصير النموذجي الذي عرضه الشميل ثماره؛ وهو لم يعط حتى الآن كل ثماره .

---

١٢) ل . ماسينيون : « قديم : جبرائيـل بولاد الشميل » ، في « حوليات ندوة الشبيبة الكاثوليكية » ، بيروت ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، التي لم تفتها في ذلك الحين هذه التطورات التي كرست لها « مجلة العالم الاسلامي « La Revue du MomdeMusulman ، في حين اتباعها كثير الغنى بالمصادر .

وقد نقل أحد المسهمين الفتيان في تحرير مجلة المقطتف حينذاك — وهو قد مات من مدة وجيزة — لقد نقل هذه الرسالة المبكرة حتى وقتنا هذا ، وقد نقلها مع ابداء أسفه لان البادرة لم تجد الا القلائل من الانصار والاتباع ، وبالاختصار فانه يلزمنا الانتظار حتى ما بعد الحرب الثانية لينمو في الشرق السعي وراء الحقيقة المضبوطة . ولم يتم ذلك دون ان تفوت مصر ثورتها الرومانسية في اعوام ١٩١٠ (١٣) ولسوف اعود الى هذه الملاحظة الهامة .

وفي كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ، يضيف سلامه موسى بمناسبة بلوغه السبعين من عمره ، فصلاً ختامياً لكتابه « تربية » * وهو أحد الكتب الاكثر اثارة للانفعال في الادب العربي الحديث ، وهو يوصي النشء الجديد بمذهب انساني علماني . واكثر من ذلك هو يقترح نموذجاً لهذا النشء حياته ذاتها التي لا شائبة فيها والتي بقيت ايجابية رغم وجوه الفشل المؤلمة ، وعيش شبه مغمور . ولنتصفح كذلك مجموعته «احاديث للشباب » (١٤) ، ويتدفق من الكتاب فيض من الحصافة ومن النزاهة والفكر النير ، وبصورة مناقضة للمنطق الظاهر يرى الشباب أنفسهم موضع النقد من قبل الثائر العجوز بسبب فقدانهم حبل الاتصال مع الماضي . وقد كانت تغيرات الانظمة السياسية والاطارات التي اجتازوها من العمق والجذرية بحيث لم يعودوا يعرفون كيف يتبينون الرابطة والصلة التاريخية او المنطقية في تتابعها ، ومعلوم ان بناء المستقبل يفترض نقداً موضوعياً للماضي . وفي هذا السبيل يلزم تعاون عالم الاجتماع والعالم النفسي ، وكذلك

---

١٣) سلامه موسى في « تربية » الطبعة الثانية ١٩٥٧ ص ٤٤

١٤) « احاديث للشباب » القاهرة ص ٥ و ٧ و ١٤ و ٥٤ و ٥٩

الفيلسوف الذي ينـادي بأن الايمـان الديني هو انتحار العقل . وكم من أشياء تستدعي الاصلاح ! هذه المغالاة في البـذخ أيام الاعراس وفي الجنائز ، وهذا الادعاء الاجوف المعرفة الذي يؤدي الى السعي وراء الشهادة بـدلا من السعي وراء الثقافة والتكون الفكري الحقيقيين ؛ وجاذبية السينما الاميركية ؛ والخرافـة القائمة على الانانية في التشدد حول بكارة البنات ، والشذوذ الجنسي الذي يسببه الحرمان الخ ...

كل هذه الامراض ناتجة عن سوء تحديد في كلمات « قديم » و « جديـد » انه النزاع الدائم بين « القديم » * « والجديد » * الذي يشغل الشرق منذ ثلاثة ارباع القرن . العلاج: يرى سلامه موسى انـه يكمن في التحرر الكامل : السياسي والعاطفي والجنسي ، وفي ثقافة تنعتق من سلطة الكهان الكبار لتذهب بكل حزم وجرأة نحو الجماهير ، وفي حق المرأة بالعمل ، وفي نهاية المطاف ، في كل شيء ؛ وفي سبيل كل شيء ينحصر العلاج في « العودة الى المظهر الطبيعي» (او بالاحرى الى استعادة الجوهر الطبيعي) ، « فـالعالم طيب في جوهره . وبوركت الحياة ! » هكذا يصرخ الرجل العجوز على فراش موته [١٥] وفي ذهنه ، هذا التحرر الكامـل يستتبعه كنتيجة حتمية اضطلاع كامل كذلك بأعباء المسؤوليات .

انسانية الخطا

هذه هي الكلمة الكبرى : المسؤولية ، التي يصلها طريق خفي في الضمائر الشرقيـة بالعذاب الذي تفرضه النزاعات الكثيرة وشتى التغيرات ، ولا يهم ان تتخذ في

---

١٥) انه يستشهد هنا ، بريمبو. انها دائماً هذه النبرات العميقة المتناغمة مع العقلانية الشرقية وعملية اعادة المعنى واحياء مؤثر للحساسية الشعرية .

رسالة سلامه موسى مغزى اشتراكياً ، أو أن يدرجها الوردي في المطالبة بمذهب شيعي اثني عشري ، بينما يركزها خالد محمد خالد في أغرب خليط من الوعظ الازهري ومادية الاحشاء . فالأساس الجوهري في كل هذه المواقف يكمن في اقتراح المعادلة بين عدة عناصر : طفرة عدم رضى ؛ انعتاق ، ألم ، احتباس سعي ، ثورة ، ضمير ، مسؤولية وبالنسبة لنا لن يكون عجباً ان يحس شاعر في حياته أكثر من أي فرد آخر بهذه المحالفات الخفية وان يعلن عنها في أغانيه ، حتى ليصبح عسيراً على المؤرخ ان يأتي بعده ليكشف عنها دون ان يبدو ثقيل الاسلوب مليئاً بالنظرات التي تشوه الوقائع .

« المهاجرة »* هذا ما كانه جبران [١٦] قبل كل شيء في حياته كما في آثاره . انه يغادر على التوالي قريته الجبلية التي بقيت في عينيه الفردوس الضائع ، ثم بوسطن التي تدرج فيها على التعرف الى الغرب ، ثم من جديد لبنان حيث تعلم لغته الام ، اكثر مما استعادها . وبعد ان زود اللغة العربية بمثالية رومانسية على الطريقة الاوربية هو يترك اللغة العربية ليزود اللغة الانجليزية بما سوف يبدو فكراً مستلهماً من الشرق . انه يعبر اذن عن هذا النفاذ من خارج إلى سلطان الاسطورة ، واعني بذلك الاثراء ونزع الطبيعة الذاتية اللذين يحس بهما العرب احساسه بهما ، وهو يعبر عن ذلك السلطان بمقدار ما عاشه في نفسه . وهذا الضباب الذي تشير اليه أحياناً كثيرة جداً اشعاره وكلماته [١٧] ، انه يرمز إلى الامداء المبهمة او الى اللاوضوح في الصيوورة أكثر مما هو اشارة تحسسية إلى « الغطيطة » * التي تجلبب بالغموض وديان بلاده في صباح الخريف . فان نوعاً

---

١٦) الذي أنبأتنا عنه بصورة خاصة اطروحة انطوان غطاس كرم ، غير المنشورة .

١٧) انظر المكشوف ، رقم ١٦٤ ص ٥

من الاستعداد للتعاطي الفني والحافل بالرعشات يتلقى هذه النفوس وهـــذه المجتمعات التي تحن للتحول على نقيض الخطوط الفاصلة الهائلة التي ترسمها الاخلاق والحياة القائمة على التقاليد .

هذا هو اذن المذهب الرومانسي الذي يدعو اليـه الكاتب المـادي الطيب سلامه موسى في الوقت نفسه تقريباً ، الذي كان يدعو اليه جبران ، ولكن دون أن يعرفه ، ومنطلقاً من اتجاه فكري مختلف . ولكن سلامه موسى يتمنى قيام انسان عربي ذي ملامح فاوستية ، بينا يكتفي جبران بـأن يحس في وجوده ؛ وان يعبر في نثره الايقاعي بهذا الايهام الرومانسي القائم بين العتمة والاشراق: وانه لتجديد لم يسمع بمثله في شرق حافل بالظلال القاتمـــة والاضواء العنيفة ، فينتج عن ذلك ان السلام سوف يهرب دائماً تقريباً من أمام رحالة من هـــذا النوع (جبران) وهو سوف ينعم به بمشقة اذ يجده في موسيقى معينة : تلك التي ينتظر المستمع منها أن تفتح له الطريق الى « السكينة » * انه يطلبها كذلك من الطبيعة التي يخترعها لشعبه ، « انك ذاتي ، أيتهـا الارض »[١٨] ، ولكنه اذا كان يناشد الارض ؛ فلأنه قد فقدها ، إنه يشبه في سعيه الجندل المصعوق بصورة مفاجئة ، ذلك الشخص الذي يبدو في أحد لوحاته المحفوظة في متحفه ببشرى : شاب يرقد منهوكاً بالقرب من حيوان خرافي (نصفه بقرة ونصفه امرأة) هو يحبه ، ولكن ربما لم يستطع الاستمتاع به ...

هذا القلق العربي الذي عرفته العصور الحديثة ، لا يلبث كما رأينا ان يلقي التبعة على الآخرين، بل انه هنا في شكله الاكثر فجاجة، ولكن عبر هذا الصعيد الذي يبدو فيه القاء التهم على الاستعمار نوعاً من الصدى لكراهية الذات

---

١٨) جبران : « المجموعة الكاملة » الجزء الاول ص – ٥٥

يحدث تأوجحٌ آخر بين عذاب التمزق النفسي والمرارة ، والشعور بالخطيئة ·
هذا هو في اعتقادنا ، المعنى التاريخي لكتاب مدهش : « القرية الظالمة » *
للدكتور كامل حسين [١٩] . فالجذر ظ . ل . م يوجد في النصوص القرآنية .
ودراسة الامر من جانب علم المشتقات تحمل على التفكير بنوع من «عدم الملاءمة»
أو بشيء يقوم في غير موضعه : على عكس ما توحيه الكلمة الاغريقية
« كوسموس Cosmos » (العالم الكون) ، ولكن أصلاً يتناول المفرد العربي
أيضاً معنى اخلاقياً : الظلم الذي يؤذي صاحبه : اذ أن يكون الانسان ظالماً
يعني في الحقيقة انه ناقص ، وقبيح ، اذن انه يتعذب [٢٠]

والكتاب الذي بني حول هذه الكلمة ، هو عبارة عن مجموعة محاولات
في شكل حوار تذكر رينان في أيام شيخوخته . [٢١] وكامل حسين يجهد في
ابراز قضية موت السيح ، معطياً اياها تفسيراً مرتكزاً على نظرة متعددة
الجوانب ، فينظر اليها من زاويتها الموسوية ومن زاويتها الرومانية ، ومن
زاوية رواية الرسل . « لقد ارتكبت الجريمة من قبل رجال دين ، مشبعين

---

١٩) أنظر مقالا هاماً ل ب أواتي P . Anwati في مجلة M . I . D . I . O في عددها رقم ٢ ص - ٧١ وما يلي . وقد استمرت منه بعض مقاطع مترجمة ، وانظر خطاب الاستقبال الذي القاه ابراهيم مدكور وجواب الدكتور كامل حسين في المجمع العلمي العربي (١٩٥٢) وانظر مقالات حسين هيكل وخاصة مقالات طه حسين حول الكتاب .

٢٠) انظر مجلة M . I .D . E . O . رقم ٤ ص - ٢٥٥

٢١) وفي الواقع فان الدكتور كامل حسين قد تذوق رينان في جملة مفكرين آخرين قبل أن ينفصل عن آثاره .

بمعنى الايمان والشريعة » [٢٢] ، اي درس هذا القائم على مذهب النسبية ! فقد يكون من البساطة البالغة اتهـام الصدوقي المتعجرف ، او المنافقين ، أو « المسيطرين » ، أو حتى بيـلاطس نفسه . فقـد كان لكل من هؤلاء حججه وأسبابه ، ولكن الجريمة قـد ارتكبت مع كل ذلك . وقـد اغرقت عتمات، لم يستطع العلم تفسيرها ، الارض في السواد الحالك . فلماذا يرهق كل هـؤلاء العقلاء ، كل هؤلاء « الملتزمين » ، كل هؤلاء « الشاعرين بالمسؤولية » ، كما نقول اليوم ، أنفسهم ؟ لمـاذا هذا الاحساس بارتكاب جرم موضوعي ينعكس أثره على كل الناس ، عبر أخطائهم الذاتيـة ؟ في الاساس يستطيع المجوسي وحده ان يفهم ذلك ربما لأنه الوحيد من نوعه في الكتاب الذي لا يخضع لأي تصنيف اجتماعي أو وطني. انه قادم من الشرق: هذا كل ما سوف نعرفه عنه، انه يعرف أن قتلة يسوع العاملين باسم الشريعة ، قد اعتدوا، في ذلك اليوم على الضمير ، أي على الوجدان الاخلاقي وعلى الغائية المثالية للعالم . ويكتب المؤلف معلقاً : « هـذا المفهوم للضمير ينفصل بوضوح عن الادراك والعقل انه الشرع الذي يشعر الانسان بما هو شر وبما يلزمه أن يتجنب عمله ، ولكنه كذلك قمة كل الشرائع وذروة ناموس بيولوجي كوني » ...

في قضية الدكتور كامل حسين نحن أنجد أنفسنا مام جراح كبير ، وعالم ضليع في العـلوم المنضبطة . يلقي كتاب آخر من كتبه الضوء على الكتاب السابق ، انه كتاب « وحدة المعرفة » * انـه يستهله بنوع من اعلان عقيدة تفاؤلية . ان ثمة نظاماً يهيمن على الكائن وعلى العقل . فالمعرفة تلقي جسراً بين الواحد والآخر من هذين القطبين ، انها توحد ولكن بواسطة مستويات تقوم فوق بعضها البعض ، وتفصل بينها فراغات ، مستوى المادة ، ثم مستوى الحياة ،

---

٢٢) « قرية ظالمة » ص ٢٢ و ٢٣

ثم مستوى الحياة الحيوانية ، ثم مستوى الانسان . ويبرهن المؤلف علمياً على هذا التسلسل اللامتصل على صعيد علم المعرفة وعلى صعيد علم الكينونة في الوقت نفسه . كل دور أعلى هو بالنسبة للدور الادنى « قدرة مهيمنة وقدر » وهذه « الفجوة » * التي تفصله عنه تنتج في آخر الامر عن شريعة أخرى تسير الكائن. والمؤلف الذي لا يبدو صريحاً جداً حول هذه النقطة ، يسمي هذه الشريعة : شريعة « الكبح » * ، فكل نظام أعلى ينفصل من الادنى بنوع من الوثبة ، وهذا الاسلوب يتأكد خاصة على مستوى الضمير الذي هو قبل كل شيء آخر ، كبح ؛ واحالة للعدم ان صح القول ، ولو جرؤنا على استعمال اصطلاح مريح ، فالصعود الذي يتم هكذا بقفزات دائمة وليس تدريجياً بتتابع حتى يصل الى هذا الشيء الذي يتجاوز الانسان والذي هو بالنسبة للانسان « قدرة مطلقة وقدر » ، وعلى العكس ، فالكائن ينعكس مع نفسه من دور الى دور ، حتى يبلغ دور المادة . وهو اذ ينحدر الى الدرك الاسفل من كل هذه الدرجات ، ربما يضعنا وجهاً لوجه مع عملية الخلق الاولى مع التكوين البدائي الذي تتحدث عنه العقيدة الدينية .. » (٢٣)

وهكذا فان الدكتور كامل حسين يقترح علينا مذهباً انسانياً مبنياً على فكرة الخطأ، ولكنه يميزه بشدّة عن المسيحية ». ففي المسيحية لا تزال تسيطر في رأيه الزلزلة النفسية التي أحس بها الرسل يوم هدوت العدالة . ومن هنا كان ميل المسيحية الى اعطاء أهمية أكبر للامتناع عن الخطيئة مما لعمل الخير ؛ وللخوف

---

٢٣) « وحيدة المعرفة » ص - ٢ و ١٠ (لزوم الكلية) و ٧٢ (الكبح) و ٧٧ وما يلي (تراتب الشرائع والمستويات)

من الظلم أكثر مما حب العدالة ، والخشية من الجحيم اكثر مما لحب السماء ، ولتحريم الشر أكثر مما للحض على الخير . » أما في الاسلام فــان « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يسيران متساويين متعادلين . والاندفاع الايجابي لا يعرقله شيء اللهم الا كونه محاطاً ، ومسيجاً بالتحريمات ، وحتى هـذه التحريمات والتعاليم الخاصة بالنهي فان عليها حسب علماء الدين الاكثر تشدداً ، ان تزول أمام الضرورات ، وربما لان الضرورات – الاخلاقية والمادية – تتحدر من الينبوع نفسه الذي يتحدر منه الاندفاع الايجابي (الامربالمعروف) ويتبين التأمل الاسلامي في أخلاقيته الذاتيــة ، دفقاً من الحياة الطبيعية يبدو مبدأه موضع تضاد وتناف مع الطابع المأساوي المسيحي . »

محاولة تفسير أكيد أن فكرة من هذا النوع تتجاوز كل نقاش ديني ، فهي تعطي الشهادة الرائعة على اعتراف الآخر ، وعلى اقتسام للمسؤوليات مع الآخر ، وحتى للمسؤوليات الغيبية(الميتافيزيقية) . ولكن الاقتسام لا يعني الانضمام. ان السطور الغريبة التي ذكرتها تقلب الكثير من الافكار المتلقاة عن الاسلام والمسيحيـة ، وربما هي تــؤكد التفسير الذي حاولت أنا نفسي رسمه وبناءه عنصراً عنصراً ، على طول هذا الأثر .

فبأي انقلاب مناقض للمنطق الظاهر، استطاع هذا الدين المسيحي الذي يرى الدكتور كامل حسين فيه رفضاً للعالم، أن يحمل أبناءه واتباعـه على النشاط المجد ، والتوسع والانطلاق ، والصناعــة ، بينما تحول الدين الاسلامي وهو

صديق الكائن الى الانغلاق على ذاته الداخلية ؟ (٢٤) ان تاريخ القرن الاخير من حياة البحر المتوسط هذا التاريخ الذي أصاب المسلمين بأشد ما أصيبوا والى أبعد ما يكون ، يسمح دون شك بحل اللغز : وهكذا قـادني التحليل السياسي في الفصل السابق الى اقتراح تعريف أود ان أعيده الآن .

اذا كان التحريض الداخلي يدخل في الحساب ، في الاخلاقية المسيحية أكثر من التحريم والنهي فذلك ربما لان المعنى الذي يُبنى ، وفقـه ، الطرازات للانسان اللذان يصور ـ تناوبهـما تناوب الاسلام والمسيحية او تناوب الشرق والغرب ، لأن المعنى يختلف عند الواحد والآخر . فالغرب يشعر ازاء العالم بهذا الانكماش الاولي الذي يجد الدكتور كامل حسين أسبابـه الرمزية في حادث صلب المسيح ، ولكن الغرب ، « بتميزه » هكذا عن العـالم ، يبني نفسه انطلاقاً من هذا العالم . وضد هذا العالم . ان قاعدته الاخلاقية تريـد لنفسها ان تنبع من داخل لانه يبني الشخص الانساني من الخارج الى الداخل (٢٥) . انه لا يفصل الموضوعية عن النزاهة . لقد اقام بين الداخل والخارج مبادلات شعرت الشعوب الكثيرة ، ايـام تكوين الامبراطوريات بقسوتها الخصبة .

---

٢٤) يقول جولدمان: ان«التنسك داخل العالم، أو داخل المجتمع الدنيوي» الذي كان ينادي به مذهب كالفين LeCalvinisme يتعارض في نظر ماكس ويبير Max Weber مع « رفض كل حياة داخل المجتمع الدنيوي » الذي عرفنـاه لدى الجانسنيين Les Jansénistes) : ولكن هؤلاء الاخيرين يندمجون حسب المؤلف نفسه بصورة نشيطة مع مجتمع نشيط . على كل حال فان كثيراً من الفوارق الدقيقة تمحي عندمـا يتم توضيح المقولة المتعاكسة (الانتيتاز الشرق – الغرب) في صورة حوار تاريخي قابل للتحديد .

٢٥) لا يسعنا هنا تفصيل الآفاق التي تستطيع فكرة مماثلة ان تحملها لدراسة صفات مقارنة عند الشرقيين والغربيين ، وهي دراسة لم تشق دروبها بعد ، على حد علمنا .

والامر يختلف تماماً بالنسبة للاسلام التقليدي . ونكرر هنا مرة اخرى أن الشخصية في هذا الاسلام ، ترتكز في الوقت نفسه على فكرة التسامي بالنسبة لله (العلي القدير) وعلى نوع من الفيض بالنسبة للسلوك . انها تنضم للكون وتلتصق به ، انها هكذا بمنجى عن الكثير من التمزقات والعذابـات ، وعن الكثير من المشاكل ؛ انها سعيدة ، سعادة الملاءمة و « التوفيق » * والازمة لا تبدأ في نظرها الا بعد ارتكاب « الذنب » او « الخطأ » ، ولكنّ الخطـأ ليس الخطيئة الاولى ، وهو ليس كذلك قتل إله . واذا كان « الله قد مات » [٢٦] ، كما يقول نيتشه ، او على الاقل اذا كان قد خاطر بالموت فذلك عنـد العرب ، لاسباب تختلف تماماً عما عندنا . فالخطأ بالنسبة لهـم هو في الفشل الذي ينزله بنظامهم ظهور المدنية التقنية والامبرياليـة . وحينذاك يعقب انسان التسامي والانضمام للكون انسان الحرمـان والانفصال ، أي انسان الاحتباس النفسي والقلق ، ولكن أيضاً انسان النقد والعمل والتحرك ، وفي نهاية المحنة ، انـه يبلغ قلب الطبيعة والتاريـخ ، بالضربة ذاتها ، ولكن من جانب آخر ، تفقد كينونته الكثير من طابعها الكلي .

« فالكبح » * « والكبت » * و « الكظم » * هي مفردات ثلاثة تنتمي الى الصورة نفسها . وأول هذه المفردات يعكس النظرية العلمية التي قدمهـا الدكتور كامل حسين . والمفردان الاخران يعكسان ظاهرات من البسيكولوجيا الاجتماعية عممتها الصحافة من زمن . وقد كان التحليل لمصدر كلمة تغشت في

---

٢٦) انظر فقه هذة الكلمة عند هيدجر Heidegger في مجلة Arguments العدد ١٥ الفصل الثالث ١٩٥٩ .

الوقت الحاضر ، هي كلمة « قلق » [٢٧] (القلق العربي في العصور الحديثـة) يوحي بتحليل جدران ينفصل عنهـا محتواها ، او جسم صلب تحفر داخله فراغات تجويفية ، ولنحتفظ ايضاً بالمفرد « فجوة » [٢٨] الذي يدل على هـذه الفراغات . ولو كان متاحاً لنا ان نتابع الصورة حتى النهاية ، لاشرنا الى هذا الطابع الكلي الشامل للانسان في العالم الاسلامي التقليدي لانسان مـا قبل الغرب ، ما قبل الآلة وما قبل التحليل . « انه الكرة التي ستعاني بعد الآن ؛ كل فلذة منها الحنين ؛ والتي ستتجه نحوها بكل قوتها الحيوية ، مثلما أن الحبة هي صيرورة دائمـة ومحمولة دائماً على اجنحة الحنين نحو اللانهايـة [٢٩] » ونحن نفهم ، والحالة هـذه ان تسعى كل فلذة ـ انساناً كانت أو أمة او طبقة ـ لاتمام دورة تطورها باستعادة الوحدة في هذا العالم العربي الذي لا يزال يحن الى حالة الفيض التي أضاعها ، وان تسعى لذلك عبر التحليل والانقسام ، وبعـد ان تدفع لذلك ثمناً باهظاً من صنوف السير الاكثر تشتيتاً .

التوق للوجود الشامل

هذه العودة للوجـود الشامل تستطيع ان تتخـذ الكثير من الاشكال ، مثلاً شكل اعادة حكم الاسلام الذي يقترحه عباس محمود العقاد [٣٠]

---

٢٧) لسان العرب انظر موضع الكلمة .

٢٨) « وحدة المعرفة » ص ٩٩ ، فالكلمة والصورة تذكر اننا أيضاً « بالكهف » ، كهف افلاطون وكهف « أهل الكهف » (السبعة ليام) الذي أعطى عنه ل . ماسينيون ، كما نعلم ، دراسة فقهية ذات طابع عالمي شامل .

٢٩) « رمال وأشكال » ، بداية (بالانجليزية)

٣٠) عباس محمود العقاد : الاسلام في القرن العشرين ١٩٥٤ ص ٢٢ و ٢٨

فيرى انه يعرض على المؤمنين نظاما لا « انفصام » * فيه ولا تقسيم اعمال ان صح القول ، فالشعب بمجموعه قد احتفظ بعقيدته : وقد يكون هناك اغراء كبير أمام السياسة باللجوء الى هذا الشكل من الاندماج المتصف بالامتياز : والخطر في مثل هذه النظرية — والاحزاب التي تنادي بها قد وقعت فيه ، فعلاً — يكمن في التوهم بأن طريق العودة للماضي هو الطريق المؤدي الى الاصالة الخلقية والصحة الاجتماعية . فادارة الظهر للواقع لا يستطيع ان يقود الا للاشيء . ففي الشرق تتخذ المعاني متجسداً لها ، شيئا فشيئا ، وعلى الرمز ، كي يحتفظ بحيويته أن يشبع جوع الناس ويستجيب لتمنيات الأشياء ، فعليه تصبح الكثير من المواقف القديمة مرفوضة بصفتها وسائل للهرب والتمويه وتبرير الفشل والخطأ . وكما بالنسبة لكل الاديان ، اصبح عسيراً او مؤلما بالنسبة للاسلام ان ينعكس على مستقبل مادي مع احتفاظه بمصدره السماوي وبمعناه المتسامي وهو لن يحقق ذلك الا بفضل « اجتهاد » * جديد ، وبفضل «مجهود » خاص يقوم على الابتكار العقائدي مثلما يقوم على الذهاب نحو الطابع العصري في الحقل الاجتماعي : بهذا المعنى ، عليه ان يستعيد ويتابع رسالة الشيخ محمد عبده .

اما التفاؤل العلمي الذي يبديه آخرون فيذهب في اتجاه معاكس ويعود اليه الفضل في وضع عملية التأليف (السانتيز) كمرحلة ختامية في عمليات تقدم طويلة النفس ، لا تتم في عكس تيار التاريخ المحسوس وانما في مجراه ، وبما ان هذا المجرى يميز ايضا تطور بقية العالم ، فان البلدان العربية بوسعها ان تستعيد على هذا النحو ، وفي آن واحد ، شخصيتها متحررة على التتابع من كل العوائق الخارجية والداخلية وتضامنا مع بقية الشعوب الانسانية . هذا هو الوعد المزدوج الذي تقدمه للعرب حركة اشتراكية يجد العالم البورجوازي صعوبة كبيرة في فهم قوتها وسلطان جاذبيتها . انه يعزو هذه القوة إما للنجاحات السوفياتية في « هذه المنطقة » واما الى مطالب نابعة من الاعماق ، أكيد ان هذه

الظاهرات تسهم كثيراً . ولكن توافقها لم يصبح أمراً راهنا حتى الآن في اي مكان . انها تشكو ، كما نعلم من حالات عدم توافق زمني ليست دائما تعود الى طبيعة الأحداث الجارية ، انها تشكو طبعا من الفوضى والبلبلة والالتباس فكل انسان تقريبا في الشرق يدعي الانتماء الى الاشتراكية ، والحال ان الماركسية التي هي في آن واحد ، الشكل الاكثر اتصالاً بالتجربة والأكثر عقائدية تستمد في هذه البلدان النصيب الاكبر لقوتها من موقف قائم على الشمول الكلي اكثر مما تستمده من (فلسفة البؤس ، او من عمليات تكتيكية بارعة ، انها ، هنا ، رجاء بامتلاك الوجود الكلي اكثر مما هي طريقة للصراع ضد تخلي او ضياع الذات الاجتماعية او الوطنية) انها رجاءٌ في بلوغ وجود كلي يقع في نهاية مطاف التاريخ ، وليس في بدايته ولا فوقه ، وان نجاحها في نهاية المطاف سيكون مرهوناً بقدرتها على اعادة تكوين انسان شامل .

الفصل الرابع عشر

العرب والعالم ونحن

اذا كان الامر كذلك ، فـــان مشكلة الشرق العربي تنصهر في مشكلة الانسانية الحاضرة : الاحتفاظ بهويتها أو بالحري بهوياتها في حالة التحول الهائل وفي عملية التحويل الضخمة الى وحدات متشابهة التي يؤدي اليها التقدم التقني . وانطلاقاً من عالم بطيء ومتعدد الالوان ، ها نحن جميعاً ، ننحرف نحو عـــالم يزداد سنة بعد سنة . تجدداً وتقريباً بين المستويات المختلفة . وان التنوعات الفنيّة في المكان التي كان يحدثها الانسان بين بلد وآخر ، وبـــين منطقة وأخرى ، تتحول الى تنوع في الزمان ، أي الى تحول مفاجىء في الذات . وهذا الامر يعني ، بالنسبة لكل وحدة أصيلة ، فقدانها ما يميزهـــا عن الوحدات الاخرى ، اذن فقدانها ، من وجوه عديدة ، ما هي عليه بالذات ، وذلك مقابل حقهـا في أن تبقى ، فهـل من اللازم أن يدفع هـذا الثمن الغالي في سبيل البقاء على قيد الوجود ؟

أكيد أنه تظل في كل مكان رواسب من « الاخطاء الدقيقة » ، ومن التباين الدقيق بين الناس ، وهذا التباين لا يزال يتجلى في تنوع لا حد له في عمليات الاختيار وفي الحلول . وفي هذا الأثر الحاضر ، قد سعيت لتعميق حالة وفترة معينتين من هذا التنوع . ولكن المشكلة تظل متشابهة ، سواء تعلق الأمر بالعرب أو بالفرنسيين ، وان محاورة حول الشخصية وحول الوجود الكوني ، وبالتالي حول التقدم المادي والقيم ، تحاول ايجاد تعريف لهذه المشكلة بالنسبة للعرب مثلما بالنسبة لنا ، وهنالك مثلما هنا . والمفكرون العرب يطرحونه على هذا النحو بكثير من الوعي ، وهم يفكرون بضرورة مواجهة الضرورات القاتلة (أو القاهرة) ونداءات الحياة الحديثة بتنظيم علاقات فيما بينهم والآخرين من جهة ، وبين الشخص والبيئة من جهة أخرى ، والأكثرية منهم على الرغم من مهابات ماض وعقيدة دينية أكثر تأثيراً عندهم مما عندنا لا يبحثون عن الحلول في العودة الى ما لا علم لي به من عصور ذهبية يُزعم انها سليمة من قوانين التطور التقني . ويقود الايمان بالتقدم المادي ، وبفضائل السير قدماً للأمام ، الجهود المتحفزة ويذكي الحماس في نفحات الشجاعة ؛ هناك كما هنا . ولكن هنا تقف المقارنة ووجوه الشبه ، فاذا كانت المشكلة واحدة ، فان الصيغ والوتائر ، والاشكال والمعاني تختلف (اختلافاً محسوساً)

ماهية الشرق العربي

لندع أنفسنا تنساق مرة أخرى مع صورة هذا المشرق العربي ، الذي تشدّه روابط الوفاء المعقودة من آلاف السنين والذي ينحلّ فجأة مندفعاً نحو المستقبل . ان مسرحية « فاوست » في جزئها الثاني تضع نظرية أهل البحار

Les Neptunienes في مقابـل نظرية أبنـاء النار Les Vulcaniens . ففي نظر أحد الفريقين يعمل الكائن بصورة تراكم . وفي رأي الفريق الآخر ، هو يعمل بصورة تفجر . ولا شك ان تلك المناظرة كانت تتضمن تقابل النقيضين في مقولة معاكسة (Antithése أنتيتيز) هي موحية اكثر مما هي مرتكزة على حقيقة، وهذا لا يمنع كون ان الثورة ذاتها عندنا ، اذا كانت ترتكز الى حتميات صبورة فانها تتفجر عندهم مثلما تتفجر النبوءة . ومن هنا كان كل عدم التفاهم هذا بين العالمين . وعدم تفاهم على جميع المستويات ومن كل الانواع ، اذ أنه لا الحركات المحافظة ولا الحركات الهدامة تتطابق تماماً في هذا المعسكر او الآخر . ومـع ذلك فان لغة تخاطب واحدة ، وعقائد واحدة ، وطريقـــة سلوك واحدة واساليب واحدة في ارتداء الملابس وفي تناول الطعام ، وفي النضال والحب تنتشر اليوم رويداً رويداً على كل وجه الكرة الارضية . وهذا التمثل ، رغم سطحيته ، يفعل ايضا في اتجاه الأعماق . انه ينتهي بخلق الحقائق التي يحاكيها ويقلدها . فصنع النسيج والعمل التعديني وربما بعد قليل صنع المحركات ، كل ذلك يدين به الشرق في الدرجة الأولى ، لعملية تعريف ذاته التي يجهد في سبيل ايجادها ؛ وعلى الطريق نحو هذا الهدف تتعمم مواقف الانتاج وتتسع في داخله، فعلياً . وبحثنا الذي كان ينطلق عن حق ، من جردة للاشياء المختلفة ، يتبين في نهاية السير طابعا مشتركا تحت الاشياء المتفاوتة . وينتهي بحثنا بملاحظة وحدة الانسان . ولكن الم تكن هذه أمنيته عند بداية الشوط ؟

واذا كان التحليل يؤدي بنا الى انكماش وتقلص التضادات التي كانت تفصل بين واقعنا والواقع العربي ، القريب والعدو حتى تستحيل الى فوارق في الشكل والوتيرة ، فذلك لانه قد اتبع الدروس والعبر التي يمليها الواقع المباشر ، اذ ان

الواقع المباشر يقول الحقيقة السليمة عندما يراد الاستماع اليـــه . فالشرق الذي يمكن احتضانه بنظرة بكل ما فيـــه : أناسه ومشاهده واحداثه ، يبهرنا بقوة صورته ورغباته ، وفي الوقت ذاته بجلاله كنمط عتيق ، وبهـذا الجشع اللاديني الذي ينقذه ويلهبه ، على التوالي ، الاستشهاد بالقيم . والشرق يعاني من تعارض وينعم بتحالف ، بين ألق ماض مرتبط بالحق الالهي وكبوات الحاضر . (وهذا التحالف والتعارض هما خاصان به) او ايضـاً ، على العكس ، بين ما يستطيع هذا الماضي ان يحتفظ به من قيود ، وزواجر ، وقوى التجدد الفتية والمستمدة من طبقات اجتماعية وعقلية لم تستنفذ بعد حتى الآن .

الشرق هـــو بلا شك أرض ابراهـــيم ، ولكن ابراهـيم الذي يعاود الاخضرار . فهو يشبه قليلاً مـــا صورته لوحـة لمانتينيا Mantegna حيث نرى أرومة عتيقة من شجرة ، تأكلتها السنون ، فنبتت فيها أغصـــان منضرة الخضرة ، فاذا هي وجوه ترتفـــع بالصراخ . انه لعنوان بؤس الشرق العربي وعظمته : ان يعرض هذه المتضادات متداخلة فيما بينها . وأكثر من ذلك : عدم الاكتفاء بتقديمها متشابكة وانما انتظار علاج لجميع أدواء الحاضر من تشابكها . ومن هنا كان هذا الانفعال الحار والزاخر بالرعشات وهذا السحر المؤثر ، ولكن ايضاً عدم التناسب بين القول والفعل ، بين ارادة الكينونة والحركة ، وبصورة عامة ، كان الخلاف ، الذي عمقه العهد الاستعماري ، بين العدالة والفعالية .

ضعف ، وعدم تناسق ، ان شئنا . ولكن ايضـاً توسط . فالسهروردي ، وفي اثره هنري كوربان [1] ، يعنيان « بالشرق الاوسط » – في معنى يختلف عما تعنيه الوزارات ، كما لا يخفى – ذلك الحيّز من الكائن الذي يطوف بين الإنساني والإلهي . وان تحليلاً اكثر بساطة ،ولكن ليس بعيداً ، الى هذا الحد، في اتجاهه عن تحليلها ، يجد ان كل شيء هو عبارة عن توسط في البلدان العربية

---

١) هـ . كوربان H.Corbin « التخيل الابداعي في صوفية ابن العربي» دار فلاماريون ١٩٥٨

رغم الفجوات التي حفرها ، عندهم ، بلوغ سير التاريخ ، مثلما حفرها عندنا. توسط لأنه، في كل مكان ، وفي كل شيء ، تتصالب فيه القيم والاشياء ولأنه ، في كل لحظة، يجري الالتجاء فيه من هذه الى تلك . الشرق هو المكان الذي لا ينفك فيه الشيء يستنجد بالفكرة ، والفكرة تستنجد بالشيء . انه موطن الشيء والفكرة الممجدين والمهانين فيه ، على التوالي او في الوقت الواحد .

وما يمكن ان يكون صحيحاً تحت هذه الصور ، والى أي حد يسعها ان تميز، تحت سياق من المشاهد الطبيعية ومن التصرفات ، بادرة تاريخية : هذا هو أحد المبادىء الاساسية التي كانت دراستنا تفترضها من اول الطريق . وهو سيكون احد الأفكار التي نختتمها به . فان احدى الخصائص الطريفة عند العرب تكمن ، دون شك ، في هذه القدرة على منح القيمة للواقع المباشر . وهناك ، في هذه الحالة ، دون شك ، أسباب اخرى غير الاسباب الخاصة بالظاهرات المادية الخارجية . وحنينهم إلى الوجود الشامل هو المسؤول عن هذا الانتقال الدائم من الاشارة الى الجوهر ومن المثل الاعلى الى المحسوس . فالعرب يريدون الابقاء على الوحدة او اعادة تكوينها ، رغم كل التصنيفات وكل عمليات تقطيع الاوصال. ومن هنا كان ميلهم نحو الرمز ، وكان ان دراسة لسيرهم الاقتصادي ، من النوع الذي رسمت خطوطه الكبرى في الفصول الوسطى من هذا الكتاب ، قد لزمها ان تسجل العديد من التطابقات بين الوقائع الأكثر مادية والنفس التي تشهد عليها ولنحذر من ان نرى في هذه البادرة ، فقط ، ملامح من « مشاركة » تُعزى الى طابع عتيق معين ، وانما ايضاً وخاصة تعلق العبقرية العربية ، او ما يلزم ان يدعى كذلك ، بامثال هذه المطابقات .انها هي نفسها هذه المطابقات ، اكثر مما هي تربيها . فقرب التبادل بين المادي والروحاني ، وحرارته ، والتعانق بين الحواس والمطلق ، كل ذلك يشكل ، دون شك ، ورغم تغيرات العصر ، أحد القسمات الثابتة الاكثر رسوخاً للشرق ويؤلف ، على كل حال ، الخاصة التي هي ، عن حق ، أعز ما يكون على قلب الشرق .

هذه الطاقة الوحدوية(٢) ذات المحتوى الذي هو اكثر ازدحاماً بالحياة من المحتوى الذي تفرضه عليها السياسة والعلوم الدينية، تكمل، مع الثورة ضد الآخرين وضد الذات، ومع الحماسة للعودة الى الطبيعة، ملامح العرب في ايامنا هـذه. وان كان صحيحاً انه ليس عندهم من فئة او حدث، ولا من شخصية جماعية او فردية، ولا من مستوى اجتماعي او ذهني، لم يبهره هـذا الطابع المثلث، او لا يجد ضوءه تحت هذه الزاوية البصرية المثلثة، فلربما أجد لنفسي، ايضاً، الحق في تتبع هـــذه الدعوة للتأليف (السانتيز)، ولاعادة تجميع الجوانب المتفرقة، وللارتكاز على تحليلات جزئية في سبيل استنتاج نظرة على المستقبل. ولكن، رغم كون الرغبـة في التجميع وفي التنبؤ امراً مشروعـاً، لا يسعني ان اقوم بهذا العمل دون الخضوع لضرورة الاختيار المسبق بين نظريتين افتراضيتـــين، احداهما تفاؤلية والثانية تشاؤمية. اذ ان للقلب ان يستعيد، هنـــا، حقوقه، وان يحيل، وهو يروز النقيضين القصويين، الى ان يصفهما بالخير او بالشر.

الفرضيتان
(النظريتان الافتراضيتان)

حسب الفرضية التشاؤمية، يميـل العربي، الذي هو ضحية المواضعات والحقد، في آن واحد، الى التخلي عن شخصيته الأصيلة، في محاولته للتكيف مع

---

٢) انها قدرة الجذر اللغوي (المادة اللغوية) الذي يعطي كلمات بمثل هذا الغنى بشحنة المعنى والانفعال مثل «الوحدة» * و «التوحيد» * و «الاتحاد» * ... ففي مؤتمر العلوم السياسية الذي انعقد في بيروت (من ٥ الى ٧ تشرين الثاني ١٩٥٩) يضع الدكتور سويلم العمري بصورة مريحة كلمة «وحدة» * في مقابل كلمة «اتحاد». ويمكنني، هنـــا، ان اتحدث، على غرار لويس جارديه Louis Gardet، عن مذهب «السالي اسلامي» (انظر «الحاضرة الاسلامية»، ١٩٥٤، ص ٢٧٣ – ٣٢٢)، لو لم اكن أفضـــل ان ألح، كما رأينا، على صنف معين من السلوك العربي الذي أحس به وعبر عنه – بصورة متباينة ومتفاوتة – كتاب مثل لورنس، ول. ماسينيون وبشر فارس. انظر، ممـــا كتب مؤخراً «الفروسية الاسلامية» لأد. فور Ad. Faure، مجلة البحر المتوسط، ١٩٥٩، ص – ٤٥ وما يلي.

العالم الذي يندد به ويخضع له في آن واحد . وبفقدانه طبيعته الذاتية ، هو لن يكتسب ، بالمقابل ، مكاناً كبيراً تحت شمس الآخرين . وان ثمة خطراً في ان تؤدي رواسب تاريخه الوطني والاستعماري ، والعجز الماثل الذي خلفه لههذا التاريخ على الصعيد المادي والمعنوي ، الى نسف حظه بالنجاح ، حتى على صعيد الحياة العملية التي يعتزم الانخراط فيها اكثر فأكثر . وقد أخذ التمييز بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة النمو يتعدى قضية التفاوت في امتلاك الاشياء المنجزة . ولكن أصبح يتحدد بنسبة تزايد السكان . فبلد متخلف النمو ، هو بلد ينمو بسرعة أقل من البلدان الاخرى . وفي نهاية التطور ، سوف تزداد المسافة بين البلدان المتحررة حديثاً ، والبلدان التي كانت سابقاً مسيطرة [٣]. والتباعد بين مستويات الامم والمناطق ، الذي سيكون اكثر فظاعة من التباعد الذي افاد منه الاستعمار ، الذي سعى اكثر الاحيان لتعميقه ، سوف يتسع بحيث لن يعود امامنا غير مستقبل قائم على تضادات مذهلة ، وتنافس لا كابح له بين الاقوياء المسيطرة على الفقراء .

مثل هذه المشاهد البصرية تبث المرارة والحدة يوماً بعد يوم في موقف البلدان التي كانت تابعة في القديم ، نحو المسيطرين القدماء . وقد بدأ الاتجاه يتجلى ، لدى الشعوب العربية ، كما لدى جميع شعوب « القوة الثالثة » ، لنبذ كل ما عند « الامم الكبيرة البيضاء ، ولطرح ليس سلطانها فحسب ، وانما ايضاً القيم (التي تباهي بها) . وهناك ميل (عند هذه الشعوب) للاكتفاء ، من علم هذه الامم ذاته ، بتلقي نواميسه فحسب ، وحتى بوصفات هذا العلم ومعداته

---

٣) هذا الذي يخشاه السير بانيكار K. M. Panikar في « مشاكل الدول الجديدة » ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٩ وما يلي .

المادية اكثر من نواميسه . وهكذا ، فان الغرب الذي يقتصر دوره على تقـديم المعدات والوصفات ، والذي يتحول ، بنوع من سخرية القدر وانقلاب الادوار، الى مصدر «للمواد الاولى »بالنسبة لتابعيه القدماء،هذا الغرب الذي ينتهي باليأس، لا أقول من ان يصبح محبوباً ، وانما من ان يصبح يوماً موضع تفهم ، هـــذا الغرب قد يحمل على ان يطوي في عتمات انانية مهددة قدرته على الاشعاع . انه قد يقصر نشاطه على تربية مواهبه التربية القاتلة ، او على المساومة في سبيل الكسب المادي . من هو الذي لم يعد يرى ان نوعاً معيناً من « المعونة الفنية »[٤] الخصب بالكلمات الكبيرة ، وبالمرتبات العالية ، ولكن الفقير بالفعالية ، يولد نوعاً من الاستغلال ؟ أكيد ان التفاوت الحديث بين المستويات يتنزه عما كان ، في المرحلة السابقة ، يعبر عن الشعور اللاخلقي عند الاسياد . ولكن هذا التفاوت ينتصر بصورة رخيصة في مبادلات يزعم انها تعاقدية . فالمركنتيلية (غلبـــة الروح التجارية) بين الامم [٥] ، حتى ولو كانت مصححة « بالمعونة » هي معرضة لخطر ان لا تحمل من الرضى للقلب ، او حتى من النتائج الايجابيـــة ، اكثر مما حمل النظام الاقطاعي في العهد الاستعماري . فهي ، اذ تضع الفريقين في موقف الهادر والمهدور (المتخلي والمتخلى عنه) ، وموقف الخادع والمخدوع ، تؤدي في آن واحد الى سحق الواحد بواسطة الآخر والى كراهيـــة بعضهما البعض ، والانحلال المنتصر الكريه .

---

٤) لن نلحظ هنا ، غير نقد نوع من الاتجاه الفريسي في زمننا الحاضر .ولكن اية اشارة لن يبدر منا الى الكثير من الجهود القيمة التي تبذلها المؤسسات الدولية،جهود ، انا آخر من يفكر في التقليل من اهميتها .

٥) بنوع غريب من نقل تجربة لما كان نمواً للمركنتيلية بين الافراد ، والتي تسمى«الاقتصاد الحر» ، او الديموقراطية البورجوازية ، تيار ازدهر بعد اعلان حقوق الانسان (في الثورة الفرنسية) . لقد تم نقل هذه التجربة ، بعد انقضاء ما يقارب القرن عليها .

ولكن هل من اللازم رؤية الاشياء بمثل هذا السواد ؟ فان هـذا الاحتمال ، المبالغ فيه والمحمـول الى أقصى نهاياته ، لا يخشى وقوعه الا اذا كانت حظوظ الانسان (في الفعل) قد امحت واندحرت امام ما لا أدري أي نوع من آليـة التفاعلات المادية المتسلسلة . او ، بعبارة اخرى ، الا اذا كان التحليل يتخلى عن النزاهة ، واذا كان الفعل يتخلى عن الحصافة . وان كنت انادي بالخطر ، فلأنني ارجو ان أرى مواطنيّ ينجون منه ، بانتصار العقل على الرعونة، وسلامة الرأي على الخطل ، وليس فقط بانتصـار السماحة والسخاء على البخل[٦] . وعلى العكس ، انا اعتقد ان تاريخ العرب محمول ، بفضل منطقه الذاتي ، الى نهايات اكثر بهاء بالنسبة للآخرين وبالنسبة لهم على السواء . وان قلت بالنسبة للآخرين ، فأنا اعني بالنسبة لهم .

أما في الفرضية التفاؤلية ، فان تلمس العرب وسعيهم وبحثهم ، وحركة تنافس سوف تتناقص يومـاً عن يوم بصفتهم موضوعها وميدانهـا وانما سيزداد يوماً عن يوم دورهم كلاعبين فيهـا ، كل ذلك سيوحي لهم بحلول تستجيب لطبيعتهم العميقة ولا تتحدر من معطيات جاهزة . انهم سيرون ، كل يوم بصورة افضل ، ان أي تاريخ لا يستطيـع ان يمشي منقلباً على رأسه وان التقدم ، المعد لأن يثير الانفعال عند طبقات من الواقع كل يوم أقل أرستقراطية ، يساوي اكثر ، في نهاية المطاف ، من النجاحات القائمة على الهرب والتمويه . انهم يعلمون، علم اليقين ، ان الحرية لا تُنتزع فحسب ، وانما ايضاً تُستحق . واستحقاق الحرية، هو بناؤها . وهم يعلمون ان أية وصفـة لا تساوي شيئاً ، ولكن القيمة تكمن فقط في النواميس (التي تنبثق عنها الوصفات) وان ما هو ارفـع من النواميس

٦) ان لهجة هذا الكتاب تتنافى مع صياغة اكثر وضوحاً ، ولكن يمكن رؤية ما أرمي اليه (كانون الثاني ١٩٦٠)

هو القيم العلمية والخلقية التي تمنحها الضمانة . انهم بدأوا يحسون ، ويضطلعون بصورة كل يوم افضل ، انه سوف يلزمهم البحث عن حلولهم : وفي الدرجة الاولى بواسطة التحليل الاجتماعي ، ونقد الذات . اذ ان التخلي عن الذات (هدر الذات) الأكثر خطراً هو فساد الجوهر والطبيعة ، وبالموازاة ، يتحتم عليهم ، بما لا يقل عن القوة عندنا ، تجاوز الذي مضى وانقضى .

وبعض البوادر والدلائل تشير ، تحت انواء السطح واضطراباته ، الى ان العملية قد بدأت . ولقد سبق لي ان قلتها : ان البحث عن الحرية ، وخاصة ممارستها ، يؤدي ، رغم كل الظواهر الخارجية ، الى الانضمام ـ وربما هو انضمام بالغ السهولة ـ الى نظام الفريق الآخر . وان تمرساً تدريجياً بالمسؤوليات، اذ ينقل ميدان المعركة ويعمقه ، ربما يرسل الفريقين المتنازعين في العهد الاستعماري الى متحف الاشياء القديمة حيث يرسيها ظهراً لظهر لينهض مكانهما بشيء جديد يشاد ويبنى ضدهما كليهما ، ويجمع في ذاته افضل ما كان يملكه كل منهما .

بالطبع ، سوف يكون المستقبل اكثر ابتذالاً وتفاهة . ان خطوطه سترتسم وفقاً للازمنة ، والامكنة ، ووفقاً للشعوب والافراد ، ويقف على هذه المسافة او تلك من احد الطرفين المتناقضين او من الآخر ، دون ان ينطبق على واحد منهما . ومع ذلك ، فان من حقي ان احرك هذا الحل المتناوب : بالضبط لانه لا واقعي ، الى حد كبير ، ولكنه يعطي التلاوين لتقديراتنا حول مستقبل العواطف العنيفة التي لا يملك المؤرخ لشؤون العرب لا الواجب ولا الحق في تحاشيها . وفوق ذلك ، فهل بوقوفي موقف البرودة العاطفية استطيع ان اصل الى تقديرات مختلفة بصورة محسوسة ؟

عندما قام مسيو دي ليسبس بحفر قناته ، في عهد الخديوي سعيد والخديوي

اسماعيل ، لم يخالجه أي قلق حول قضية الالوف من الفلاحين الذين صودروا (للعمل بالسخرة في حفر الارض) والذين ماتوا بسبب مشروعه. وان لم أقع في مغالطة نفسي ، استطيع القول ان الشركة الدولية لم تحتفظ من ذكراهم إلا بأقل القليل والفضائل التي لا ترحم والتي كانت تسود في ذلك العهد : جرأة المهندس ، واستخدام العلاقات القائمة على القوة في اتجاه واحد ، والقيادات المرتكزة على المال ، تقذف في هاوية العدم ، مدة تقارب القرن ، عذابات هؤلاء البشر ، الذين كانوا ، هم ايضاً ، مواطنين بالقوة (أي كان بامكانهم ان يكونوا مواطنين بالفعل لو تهيأت لهم اسباب الحياة) . لقد ألغت قضية ١٩٥٦ الشركة المحترمة ، واستبدلت المؤسسة الرأسمالية الانجليزية - الفرنسية بمؤسسة وطنية ملحقة بالدولة (المصرية) وأدت الى نسف تمثال دي ليسبس . انها ترتكب ، اذن ، نفس المحاولة الاغتصابية التي ارتكبها القنصل الشهير ، انما بصورة اقل اراقة للدماء ، ولكن على نحو مماثل من الدلالة . انها تطرحه (دي ليسبس) هو ايضاً في بانثيون النسيان (اي في هيكل النسيان) ، مثلما طرح ، هو ذاته ، العمال . وهذا هو الحال في المرحلة التحررية التي تنسف وتهين بطولات المرحلة الاستعمارية مثلما عملت هذه الاخيرة بالنسبة لبطولات المرحلة التي سبقتها . ولكن التاريخ لا يقتصر فقط على العبادة التي تربط الناس به . ومثلما لم يستطع قدرُ الجماهير ، التي حفرت القنال ، ان ينطمس ، ايام كان مشروع قناة السويس ينتصر في أبهاء البورصات ، كذلك لن تزول تماماً آثار التوسع في المدنية الآلية والصناعية التي عملت على ازالة الفوارق بين اجزاء العالم ودشنت سيطرة الانسان على الطبيعة ، سيطرة نصف إلهية .

صحيح ان هذه المرحلة كانت بالنسبة للعرب مرحلة اذلال وامتهان ، الا

يفسر نبذهم لها ، اليوم ، بكل قواهم . فالانسان يبدل أبطاله لانه بحاجة لتجديد آياته ودلالاته . وهو ايضاً يجدد اخلاقيته . فهذه الاخلاقيات شديدة العدوى. وكراهية الفترة الاستعمارية تؤدي حتى الى الانتقاص من قيمة ظواهرها الخلاّقة. وبعد اطراح فكرتها الاساسية ، التي كانت تنحصر في الاستغلال ونزع شخصية الشعوب ، اطراحاً مشروعاً ، تتبع ايضاً ، بصورة اقل مشروعية ، ادانة الكثير من عناصرها التي لم تكن فقط مرهونة بالفكرة الرئيسية وانما ، احياناً ، عاكستها، او « انقذتها » . وهذه الجريمة التي اقترفها توسع قوة على قوات اخرى ، هل هي من الاتساع بحيث تلوث كل الواقع الانساني الذي طالته ؟ ان هذا الامر قليل الاحتمال ، اذ ان حكماً من هذا النوع معناه المزج ، بصورة تعسفية ، بين ما يعود للتاريخ وما يعود للميتافيزياء ؛ اي المزج بين النسبي والمطلق . وعلى كل حال، هنا تكمن احدى مشاكل عصرنا . وهي ، والحق يقال ، تخص العرب الذين لم يكونوا ابداً مستعمرين ، بالمعنى الحقيقي ، اقل مما تخص شعوباً اخرى . ولكن على حلها يتوقف تطور علاقاتهم معنا ، من وجوه عديدة .

هل يستطيع الفريقان المتحاوران ، وهل يعرفان كيف يتجاوزان نفسيهما ؟ على كل واحد منهما ان يكبح في داخله الشهيات القديمة وسورات الغضب القديمة . ان علينا ان نقوم بانفسنا وبأسرع ما يمكن ، بتصفية مخلفات السيطرة القديمة ، على الاقل حتى يتاح للفريق الآخر ان يختار وان يقر بما كانت تتضمنه السيطرة القديمة من اشياء خلاّقة . ومن جهة اخرى ، فان على العرب ان ينزعوا « الصفة الاخلاقية » عن حكمهم ، فينظرون الى الاحداث والناس ، كل بمفرده ، ويعيدون الى المرحلة السابقة كرامتها كمرحلة تدخل في تاريخهم ذاته : مرحلة مـــا قبل التاريخ ، ان شئنا ، ولكن ليست كابوساً غيبيـاً

ميتافيزيقيا .

أية جهود يلزم في هـذا السبيل ، وأية عملية لا ترحم من اعادة النظر ، عندهم مثلما عندنا ! ومع ذلك ، فان هذه الجهود ، يتحتم بذلها ، اذا كنا ، نحن وهم ، نريد ان نتفادى خطأين مميتين . بالنسبة لنا : ان نتابع النظر اليهم فلا نجد فيهم غير الفريسة المعروضة ابداً للقنص ، او الضحية الجاحدة للجميل . وبالنسبة لهم : ان ينبذوا الغرب بمجموعه ، اي ، بعبارة اخرى ، ان يدينوا الفعالية ، انسياقاً مع الحقد على الظلم ، لاننا ارتكبنا الظلم باسم الفعالية .

تحويل سوء الحظ الى امتياز

حاولت هـــذه الدراسة ان تقلص الكثير من التضادات التي تلفت ابصارنا في المقارنة بين الضفة الجنوبية والضفة الشمالية للبحر المتوسط ، وبصـــورة اوسع ، بين وحدتين مبهمتين ولكنهما مثيرتان للاحاديث مثـــل « الشرق » والغرب » [٨] . وقد حاولت ان ترى في هذه التضادات تغيرات في الشكل وفي الوتيرة . ومع ذلك فهي قد اتبعت تعاليم هذه المنطقة الاجمالية من العالم بمزجها بعض الشيء بين العصور ، وباستبعادها التسلسل الزمني . وقد كانت هنـــاك اسباب لذلك . اذ ان الكثير من الأمكنة ومن اللحظات في الشرق العربي تهرب من كل انتظـام . واذا كان بحثي قـــد آمن بقدرته على التمييز بين عمليات السير نحو الأمـــام ، وعمليات توازي في هذا الشرق ، فذلك على سبيل التبسط وبالقدر الذي كنت أقوم فيه بتغليب منطق الانماط على تسلسلها الزمني [٩] .

---

٨) انني اذكر بان « الغرب » الذي نتحدث عنه ، هنا . في اتصاله المباشر والحدد مع التاريخ الشرقي في القرن الاخير ، هو الغرب الذي يقوم على التقدم التقني ، والتوسع الصناعي ، صيغة يقوم فيها الاتحاد السوفياتي بدور احد الابطال الاكثر دينامية .

٩) ولكن أليست هذه هي المشكلة التي تخص كل مؤرخ ؟

انما لو وسعت أيضاً نظرتي ، لوجدت على قياس كل المدى العربي ، وعلى قدر هذا القرن ، أو أكاد ، هذا القرن الذي استهلّ « بالنهضة » ، عمليات توافق ومطابقة بين دراسة الانماط والتاريخ . وربما وجدت ما هو أفضل : ان لم تكن امكانية الاختيار بين الفرضية التفاؤلية والفرضية التشاؤمية حول المستقبل فعلى الاقل عناصر اقتراب ، وبذلك بالذات ، عناصر الاختيار بين الفرضية والأخرى .

عندما ينظر الى الشرق العربي من زاوية الرقعة الكبرى ، والمدى الزمني الرحب ، يبدو كما لو انه اجتاز شوطاً طويلاً على الطريق الذي يقود من الحرمان الكامل تقريباً الى عملية امتلاك تزداد ايجابية يوماً بعد يوم . لقد كانت صدمة الحضارة الآلية قاسية بالنسبة له لأنها أتته من الآخرين ولأنها لا تتسلسل من أي تحضير داخلي . وان حياة عصرية فرضت تقريباً عليه أكثر مما تلقاها بالاكتساب قد احدثت عنده مع ذلك ، الاضطرابات البناءة ذاتها التي احدثتها في كل مكان آخر ، ولكن مع آثار نفسية واجتماعية مختلفة جداً ، بل ومعاكسة . فبالنسبة اليه لم تكن الثورة الصناعية تنطبق مع السيطرة على الكرة الأرضية ولا مع التعميق الملازم للحساسية المتأججة الأهواء، وللحس الجمالي وللبحث عن الحريات .

بل على العكس ، ظل العرب طويلاً موضوع التوسع وليس صانعيه ، وضحاياه بدلاً من أن يكونوا المنتفعين به . هذا التوسع قد أحدث قطع علاقاتهم مع التاريخ والطبيعة . وفي الوقت الذي يخضعون فيه على هذا النحو ، وبصورة قاهرة ، لنمو الآخرين ، هم يتردّون الى حالة أشد واسوأ من حالة التخلي والهدر : انهم مبتورون ، ومحجوبون ، ومنطوون على أنفسهم ، يضعفون

المرارة واليأس ؛ إنهم ممن يستعصي عليه العزاء ، ومفصومون عن أرواحهم على السواء . لقد أرسلت الثورة الفرنسية بونابرت الى مصر . وقد رافق غزو الجزائر الحركة الرومانسية . وقد وجدت موجة الاستعمار الفيكتوري ، وبهجة توظيفات الاموال الكبرى والالات الضخمة جماليتها في أدب كيلنغ . وتجتاح كل هذه الحيوية الشرق ، ويتجلى العهد الاستعماري فيه، ان جرؤت على القول: بحركة رومانسية وبثورة واستعمار معكوسين . فالشرق يقبع في قرارة الموجة التي ترفع وتنمي الآخرين .

لقد انتظر الشرق فعاليته الثورية الذاتية ، مدة تتفاوت في طولها حسب البلدان ، والناس، دون ان نستطيع القول انه أدرك النهايات في أية بقعة من بقاعه . ولكنه ككل انخرط في المسيرة الطويلة التي تقود عبر مراحل مريرة ، من الوجود الشامل المفقود ، الى استعادة ملازمة للتاريخ والطبيعة . اكيد ان الملامح العتيقة البالية لا تزال باقية في كثير من ارجاء هـذه البلدان ، وفي الكثير من مؤسساتها وبسيكولوجياتها الجماعية والفردية . ولكن لا يمكن نكران ان الطريق الذي تم اجتيازه هو كبير ، رغم انه اجتيز بصورة متفاوتة من قبل البعض والآخرين . والذي يبهر الانتباه هو التحول الطفري(المفاجىء) الذي بدأ على نطاق واسع في العلاقات المثلثة بين العرب والعالم والآخرين وانفسهم. انه يبهر اكثر مما يبهر الانتقال العام تقريبا ، من حالة التبعية الى حالة الاستقلال .

هذا الانسان الشرقي يعود لامتلاك الجوهر الأساسي في هذا العالم بواسطة التفتيت السياسي ، ولكن أيضاً بواسطة السيطرة على الطبيعة عن طريق

الانفعال والفعل على السواء ، والتي ينميها بعد الآن ، على غرار الرومانسية الاوروبية . وهو المهدور والمحجوب ، يجهد لان يصبح ، بدوره ، أو لان يعود من جديد صانع، أشياء ومبلع، وبعد قليل صانع آلات فالبناء الاقتصادي يبدو له ، ، والحال هذه، كقاعدة كانت ثورته الوطنية تهملها بصورة انتهازية ولكن خطرة . وبكلمة أخرى ، يلزمه أن يضع الثورة على قدميها .

وفي الوفاء بهذا الالتزام يقف حظه الكبير في العصر الحديث ، وها هو في وضع ممتاز بالنسبة لغالبيه القدماء ، بسبب أن الآلة هي بالنسبة اليه ، عودة للطبيعة، وثأره من مهانات الزمن الماضي التي سببت له التبعية بسبب تأخره التقني . وبينما تطرح بالنسبة لنا المشاكل الانسانية للآلية الصناعية (١٠) ونخشى من قدرتنا ان تؤدي الى مسخ طبيعتنا ، فان ولوج العالم الصناعي يقدم لهذا القادم المتأخر ، لهذا الابن العائد من غيبته الطويلة ، والهارب من الفعالية ، الوعود ليس فقط بارتفاع مستوى المعيشة وأولية الانسان على الاشياء ، وانما أيضاً بينابيع من الطراوة : الاكتشاف الادبي للطبيعة ، والاكتشاف العلمي للعالم والاكتشاف الاخلاقي للمرأة ، والاكتشاف الانساني النزعة للغرباء .

فبمقابل السلطات الجديدة تقوم مباهج سحرية جديدة . والعبقرية العربية

---

١٠) ينتقل الفكر هنا الى آثار ج فريدمان G Fridman: التي يقف مقابلها وعلى نقيضها، مذهب « الانسانية التقنية » الذي يدعو اليه فيرالدي Véraldi وسيموندون Simondon الخ ... هذا بالاضافة الى النزعة التفاؤلية العلمية في الماركسية .

القديمة ، بعد ان يتم ترميمها وتشييدها من جديد بعد كسوفها الطويل لن تعود لاقامة تحريماتها وشعاراتها ، انها ستكون اذ ذاك قد نسفت اسوارها الذاتية وفي الوقت ذاته اسوار الآخرين ؛ اذ ان سرعة حركة اطلقها آخرون من خارج قد تركت لهذه العبقرية شبابها النافد الصبر ، وامتياز حنينها نحو المطلق الشامل ، مقابل حرمانها من حكمة السعي والتحصيل ، ومن نعمة النضج البطيء

وبينما نرى في الكثير من البلدان « الاكثر تقدماً » و « الاكثر نضجاً » ، أن الآلة تقطع الاواصر بين الانسان والطبيعة ، وتسجنه في المشاهد القائمة المتصفة بالسهولة ، بعيداً عن خضرة شجرة الحياة ، يستطيع الانسان العربي أن يستعيد الطبيعة بواسطة الآلة ، وان يعود طبيعياً . وليس من شيء حتى الطابع المتسرع في تاريخه المعاصر ، الا ويعينه ويخدمه بعد ان سبب له العجز والارهاق: فهذا التاريخ لم يترك له الوقت ليضيع رسالته الوحدوية ، لقد قفز من فوق عصورنا البورجوازية (١١) . وهو سوف يحمل للعالم الحديث المنقسم ، والمنهوك ، والذي هو ضحية التحليل والمستمتع به ، رسالة الطراوة والنداوة ، بفضل سلوكه النازع الى الشمول الكلي .

فاذا تحققت هذه النظرات (التنبؤية) ، واذا لم تنتصر عنده ، مثلما عندنا ، قوى الحقد والضغينة ، عندئذ يكون العربي قد عقد معنا أواصر الرفقة الصالحة

---

١١) فيكون اذن قد وفر على نفسه مشاحناتها المأساوية.

وذلك بفضل التقدم المادي وبالرغم منه ، وبفضل الثورات الاخوية التي تندلع في عصر الحديد وبالرغم منها ، ويكون قد ختم مع الآخرين ، والعالم ونفسه ، صك التحالف الذي لم ينس طعمه . ليس تحالف ابراهيم « الخليل » * « خليل الله وصديقه » وانما تحالف هرقليطس ، صديق الأشياء ، وأبينا المشترك .

ختام

فهرس المواد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة